المؤلفة الأكثر مبيعاً في العالم حسب نيويورك تايمز

شارين ككروم

مكتبة الرمحي أحمد 140

قصيدة فرانكي سيلفر

"رواية ذات جمال وقوة أخّاذين"
ريتشموند تايمز - أخبار

ترجمة: لميس اليحيى
مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي

الأهلية

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شارين مككروم

قصيدة
فرانكي سيلفر

ترجمة: لميس اليحيى
مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

The Ballad of Frankie Silver

Copyright © Sharyn McCrumb, 1998
All rights reserved
Arabic Language edition published by Al- Ahlia - Jordan. Copyright © 2009

◆

قصيدة فرانكي سيلفر

تأليف: شارين مككروم

ترجمة: لميس اليحيى/الأردن مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي/الأردن
الطبعة العربية الأولى ، 2009

الأهلية

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مزيد من الثناء على *قصيدة فرانكي سيلفر*

"متقنة ومثيرة... أفضل قصص مككروم حتى الآن.

ـ كليفلاند بلين ديلر

"تثير مككروم بلباقة المجتمع، وسياسة، وثقافة، ولغة، وقانون ذلك الزمن ... مؤثرة."

ـ ببلشيرز ويكلي

"تصدرت مككروم دائماً، في سلسلتها القصصية، مجموعة كتَّاب الرواية البوليسية المتنافسين للإحاطة بنكهة منطقتنا. وفي قصيدة فرانكي، بلغت قمماً جديدة."

ـ تشارلوت أوبزيرفر

"ترفع مككروم قيمة الرهان لأي كاتب يحاول أن يروي قصة. ومقارنة واحدة ينبغي أن تكون كافية: إنها تجعل محاولة جون غريشام معالجة عقوبة الإعدام في *الغرفة* تبدو كعمل هاوٍ."

ـ سان خوزيه ميركوري نيوز

"مرة أخرى، تظهر قصيدة فرانكي سيلفر قدرة السيدة مككروم على حبك

روايـة تـشبك القـارئ وتـشدّه.... إن دراما روحين في خطـر في قـرنين مختلفين تجعل تقليب الصفحات مستمر." ـ *سينسيناتي بوست*

"كئيبـة، وتـثير مـشاعر حزينـة، ولكنهـا تحفـة مـثيرة للمـشاعر بـشكل جميـل.... هـذه الروايـة سـتجتاز امتحـان الـزمن وتُعتـبر كلاسـيكية في السنوات المقبلة. ـ *هاريت كلاوسنر*

"المؤلفة شارين مككروم الحائزة على جوائز، تفوقت على نفسها بالتأكيد في هذه الرواية التي تم بحثها بدقة، والمستحوذة على الاهتمام بعمق عمل بارع. ـ *صوت المرأة* (بيتسبيرغ، بنسلفانيا)

"مقنعة ومثيرة." ـ *مجلة سبكتيتور* (راليه، نورث كارولينا)

"قراءة رواية بقلم شارين مككروم تشبه الاستماع إلى مقاطع موسيقية من سيمفونية. ـ *بوكبيدج*

"نوع من الكتب أخاذ وفعال، لا يترك جانباً، ويُقرأ حتى وقت متأخر من الليل. ـ *نيوز هيرالد* (مورغانتون، نورث كارولينا)

ثناء لرواية *تابوت خشب الورد* الأكثر مبيعاً حسب *نيويورك تايمز*

"رثائية ... تنتزع مككروم الأسرار من حياة الناس، وتحول هذه الخيوط الروائية السوداء إلى أساطير أبالاتشية أقدم من الهضاب. وتكتب مككروم بسحر النار الساكنة، وربما بسحر الجبل قليلاً. ومثل كل راوي قصة حقيقي، فإنها تمتلك البصيرة."

ـ نيويورك تايمز لعرض الكتب

"إنها راوية مبدعة، تستخدم المفاجآت والالتفافات في كل مكان."

ـ دينفر بوست

"بهذه الرواية البليغة، والتعبيرية، والمنسوجة بأناقة، تقدّم مككروم دليلاً جديداً على أنه ليس هناك شخص مثلها من بين كتّاب الوقت الحاضر. ولا أحد أفضل، كذلك. *ـ سان دييغو تريبيون*

"شيّقة ... تخلب الألباب." *ـ واشنطن بوست*

"ياله من مزيج أبالاتشي غني وعارم ذلك الذي ابتكرته مككروم هذه المرة ـ وكم هو مُشبع للجسد وللروح، لا سيما بالنسبة لأولئك منّا الذين يحبون هذه التلال المقدَّسة التي تكتب عنها."

ـ جيري بليدسو، مؤلف قبل أن تصحو Before She Wakes

"قصة مصنوعة ببراعة، ورواية كُتِبَت كفن شعبي. بكتابة سلسة وسرد حساس، تقدِّم مككروم سلسلتها الأبالاتشية بفخامة مثل شجرة القرانيا في الربيع. ـ *هوستن كرونيكل*

"لقد أصبحت مككروم واحدة من أعظم الكاتبات الجنوبيات. و*تابوت خشب الورد* مرعبة بقدر ما هو مرعب زعيق نعيب البومة، ووحيدة كأنين نمر الكوغر على قمة الجبل، ومؤلمة كما هو مؤلم فقدان جميع من تحب، ومع ذلك جازمة مثل ترنيمة 'النعمة المدهشة.'"

ـ ديوي لامدين، مؤلف *سفينة حربية اسمها كوكريل*

"تعبيرية، وحاذقة، ومصوغة بعناية ... حبكة لا تشوبها شائبة تتكشف بأناقة، وتنتهي ببوح لافت. ـ *روانوك تايمز*

"قصة رائعة ومروّعة، بشخصيات حية وإحساس رائع بالمكان. ... في تابوت خشب الورد، تظهر شارين في قمة الأداء الأدبي."

ـ سكوت وايدنساول، مؤلف *جبال القلب*

"تستحوذ على الانتباه ... مثيرة." ـ *ألباني تايمز يونيون*

ثناء لرواية *تسير قاطعة هذه التلال* الأكثر مبيعاً حسب *نيويورك تايمز*

"نثر بليغ ... رواية غنية بالتفاصيل.... ببناء ناجح للحبكة، تلتقي عدة خطوط في مواجهة نهائية مثيرة بشكل ملحوظ.... لا يستطيع القارئ الانتظار ليفهم كيف تم كشف كل ذلك، ولكن متردد في الوقت ذاته أن ينهي الكتاب.

ـ لوس أنجلوس تايمز

"شارين ماكروم هي واحدة من كتّاب نادرين، والتي عملها يقود أسلوبها بدلاً من العكس. ونثرها في تسير قاطعة هذه التلال صريح ومتجانس، وشخصياتها من أوغاد وبطلات مليئة على حد سواء بالضعف.... ومسرحياتها عن الحياة اليومية في جبال تينيسي هي بحد ذاتها الكلام الذي ربما غنّاه المنشدون ذات مرة.

ـ هي Elle

"تنشر السحر الأبالاتشي الذي تفتن شارين ماكروم به القراء في روايتها ابنة الجلاد الجميلة الحائزة على جوائز... وتسحر بجمال أخاذ، ومدهشة في قدرتها على إغواء القراء لقبول إشارات إلى ظواهر خارقة للطبيعة.

ـ شيكاغو سن ـ تايمز

"استحضار مكتوب بشكل غنائي، ومشحون عاطفياً، لأبالاتشيا الوقت الحاضر وسكانها ... سيتركك متخماً وتواقاً للمزيد ... ولشارين ماكروم أنداد قليلون، ولا يوجد متفوقون عليها بين روائيي اليوم."

ـ سان دييغو يونيون ـ تريبيون

"تحوّل شارين ماكروم الغموض إلى أدب مذهل ... وروايتها الجديدة مسليّة، وشيّقة، ومنوِّرة."

ـ كليفلاند بلين ديلر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شارين مكروم

تابوت خشب الورد

تسير قاطعة هذه التلال

ابنة الجلاد الجميلة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شارين مكورم

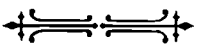

قصيدة

فرانكي سيلفر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هناك ثلاثة جوانب لقصة فرانكي سيلفر
وأهدي هذا الكتاب مع الشكر إلى...
من أرشدوني إلى تلك الطرق الثلاثة:

- كارولين ساكووسكي لمورغانتون
- وين سيلفر لكونا
- جيه براندون للقانون الجنائي لثلاثينيات القرن التاسع عشر

الغني لا يشنق؛

فقط الفقير ومن لا أصدقاء له.

- بيري سميث

أعدم في كانساس، 1965 ،

لقتله عائلة كتلر

قصيدة فرانكي سيلفر

هذا النهار المروع، والمظلم، والكئيب
جرف أمجادي بعيداً؛
شمسي تأفل، وأيامي ماضٍ،
وعلي أن أغادر هذا العالم أخيراً.

آه! يا رب، ماذا سيحل بي؟
إنني مُدانة، جميعكم الآن ترون؛
إلى الجنة أو إلى الجحيم روحي لا بد أن تطير،
كل ذلك في لحظة عندما أموت.

القاضي دونيل أصدر الحكم علي،
جدران السجن هذه أغادرها أخيراً؛
لا شيء يهتف لرأسي الخائر
حتى أحسب في عداد الموتى.

ولكن آه! ذلك القاضي المرعب أخشاه،
هل علي سماع ذلك الحكم المرعب:
"إرحلي، أيتها الملعونة، إلى الجحيم
وللأبد هناك اسكنيه.

أعرف أنني سأرى أشباحاً مخيفة،
تقضم أجسادها بتعاسة؛
ومن ثم هناك تكون حاضرة
لارتكاب جريمة من الدرجة الأولى.

بعدئذ هل سأقابل ذلك الوجه الحزين،
الذي أرقت دمه على ذلك المكان؛
وبعيون متوهجة سيقول لي،
"لماذا قتلتني؟"

يداه الواهنتان سقطتا برفق،
ولسانه المثرثر سرعان ما فقد صوته،
ورؤية روحه وجسده ينفصلان
أصاب قلبي برعب.

سلبته أيامه المتفتحة،
لم أترك له وقتاً ليصلي للإله؛
وإذا وقعت الخطايا على رأسه،
ألا يتوجب علي حملها بدلاً عنه؟

التفكير الغيور أول ما أثار النزاع

ليجعلني آخذ حياة زوجي،
ولأشهر وأيام قضيت وقتي
أفكر كيف أرتكب هذه الجريمة.

وفي ليلة ظلماء كئيبة
أخفيت الجثة عن الأنظار،
وبلهيب النار حاولت جعله يفنى،
ولكن الزمن لم يتركها تمر.

جميعكم تروني وتحدقون بي،
كونوا حذرين كيف تقضوا أيامكم؛
ولا ترتكبوا أبداً هذه الجريمة الشنيعة،
بل حاولوا أن تطيعوا الإله قبل فوات الأوان.

عقلي يطوف على ذوات كئيبة،
طفلتي الصغيرة، بارك الإله روحها؛
جميعكم يا من أنتم من جنس آدم،
لا تجعلوا ذنوبي تُلحق بهذه الطفلة العار.

وداعاً، أيها الناس الطيبون، جميعكم الآن ترون
ماذا جلب علي سلوكي السيء؛

أن أموت بخزي وعار
أمام عالم الجنس البشري.

مرعب حقاً التفكير بالموت،
وبكامل صحتي أفقد نفَسي؛
وداعاً يا أصدقائي، أستودعكم،
والثأر مني عليكم الآن السعي إليه.

أيها الإله العظيم! كيف سيُغفَر لي؟
لست صالحة للأرض، ولست صالحة للسماء؛
ولكن وقتاً قليلاً للصلاة للإله،
فإنني الآن أجرِّب هذا الطريق المرعب.

كانت هناك إشاعة منتشرة في مقاطعة بيرك بأن سيلفر كتبت بعض الأشعار التي كانت بمثابة اعتراف بذنبها، وقرأتها للحشد عندما كانت على المشنقة قبل إعدامها بلحظات.

وكان عقل القاضي ويتس أ. كوك، وهو قاض صلح يحظى باحترام في منطقة إينولا، مخزناً حقيقياً للأساطير والأحداث التي وقعت في أيام ماضية. وقد أخبرني أن هذه الأشعار التي زُعِم أن فرانكي كتبتها قد تم تأليفها من قِبل كاهن بروتستنتي منهجي كان لقبه ستيسي.

— السيناتور سام جيه. إيرفن، الإبن
محاكم مقاطعة بيرك والمسائل ذات الصلة

تمهيد

أريد أن أريك قبراً،" قال العمدة.

ثلاث صخور وقفت وحدها في مقبرة الجبل الصغيرة: أعقاب ملساء من الغرانيت، ومتباعدة بشكل متساو بحوالي أربعة أقدام. وكانت الركائز الحجرية غير منحوتة، وقد تغيّر لونها وشكلها بفعل التعرض للعوامل الجوية منذ أكثر من قرن من الزمن، وأبعد ما يكون عن الكنيسة ذات البرج في أرض مقطوعة الأشجار على قمة الجبل.

تساءل مساعد عمدة تينيسي، سبنسر آروود، لماذا سلك نيلسي ميلر طريقاً جانبية أعلى طريق جبلية ملتوية ليتوقف في فناء كنيسة هذه البلدة. لم يتمكن من رؤية أي شيء خارج عن المألوف في الكنيسة ذات الإطار الأبيض، أو في مجموعة شواهد القبور المحيطة، والممتدة من لبنات محفورة حديثاً إلى علامات أقدم، مائلة بانحراف على الأرض المعتمة، وبالكاد أصبح من الممكن قراءتها. وفي كل مقبرة، تقريباً، توجد حجارة مثل هذه.

لقد كان هنا في الأعلى كافياً، إلى حد ما، أقرَّ سبنسر. شكّل منظر جبل سيلو عبر الوادي، والضباب الأزرق للقمم الأكثر بعداً وراءها، مشهداً رائعاً في صباح صيفي، ولكن العمدة ميلر لم يكن متأثراً جداً بالمنظر، مهما كانت

المشاهد أمامهما رائعة. بالكاد نظر إلى المشهد. وفي يوم صيفي حار كهذا، كان نيلسي على الأرجح يبحث عن شراب بارد، وشجرة ظليلة، وفي الحقيقة أن سبنسر آروود كان ليفضّل توقفاً لأخذ قسط من الراحة لهذه الرحلة الغريبة إلى مقبرة قمة الجبل الصغيرة. لقد كان في الرابعة والعشرين، ونفاد الصبر كان نسبياً حالة مزاج دائمة بالنسبة له. كان بإمكانهما التوقف في المتجر في ريد هيل، بدلاً من التقدُّم نحو الطريق 80، بعد باندانا، بولاية نورث كارولينا، وحتى ميلين آخرين من طريق إهليلجية تلتوي حلزونياً نحو لامكان. أو ربما كان بإمكانهما التوجُّه إلى الوراء عبر حدود تينيسي إلى هملين ويواصلان عمل اليوم. كان سبنسر لا يزال جديداً في منصب مساعد العمدة بما يكفي لأن يستمتع بكل ساعة من الواجب، وكل دقيقة من الدورية في سيارته الدودج 74 اللامعة الجديدة'. وبقدر ما كان يحترم العمدة القديم، كان يجد نفسه غالباً نافد الصبر مع هدوء نيلسي ميلر المتأني. وكان العمدة بدوره يبدو، أحياناً، مستمتعاً بمساعده الشاب المتلهف، وكأنه كان جروراً جديداً ينبح على أشعة الشمس.

نظر سبنسر إلى ساعته. إنه وقت الظهيرة تقريباً. هذه المقبرة القديمة لا يمكن أن يكون لها علاقة بالعمل. كانا لا يزالان في الجبال الواقعة من جهة ولاية نورث كارولينا، عند منعطف ديتون في نهر تو، بحسب الخريطة. وبالضبط فوق حدود الولاية، سيغير نهر تو اسمه إلى نوليتشكي، وستيحول المتفرجان إلى شرطيي أمن في الخدمة، بدلاً من متكاسلين ينظران إلى التلال الذهبية في يوم صيفي لطيف.

لقد كانت مهمتهما الصباحية تسليم هارب إلى السجن في بيكرزفيل، في تبادل مجاملة بسيط بين شرطة الأمن في جهتين مختلفتين من حدود الولاية. لم

يكن السجين يبدو كشخص مجرم إلى حد كبير ـ سارق سيارات، وبالكاد يبلغ من العمر ما يكفي لتسجيله للجندية. وحيث أنه أفاق بعد ليلة في زنزانة سجن بولاية تينيسي، فقد بدا الصبي مذهولاً من عواقب تنزهه بسيارة مسروقة. لقد حطّم السيارة في مطاردة بسرعة عالية، وخرج مصاباً بكدمات، وفيما عدا ذلك لم يُصب بجروح. "الإله يحمي المغفلين والمخمورين،" أكد نيلسي ميلر بشيء من الاشمئزاز.

لقد كان السجين مكبل اليدين، ومقيّداً في الجزء الخلفي من سيارة دورية، وكان قذراً، وغير حليق، ويقاوم دموع الذعر. ولم يكن الشرطيان اللذان ينقلانه فظين، ولكن عدم اهتمامهما بمحنته كان واضحاً.

"ماذا سيحدث لي الآن؟" بقي الفتى يسأل.

"إنك ذاهب إلى السجن في بيكرزفيل،" أخبره نيلسي ميلر. "وبعد ذلك، تنتهي مهمتنا معك؟"

قاما بتسليم السجين إلى عمدة مقاطعة ميتشل في الساعة العاشرة، وتابع العمدة ميلر قضاء الساعة التالية في احتساء القهوة وتبادل القصص مع نظيره من ولاية نورث كارولينا، في حين كبح سبنسر عطشه ونفاد صبره، وابتسم للروايات وكأنه لم يسمعها عشرات المرات من قبل. أخيراً، أقرّ العمدة ميلر أن مبادلة السجين قد استغرقت ما يكفي من وقت حكومة تينيسي. وأشار إلى سبنسر ليحضر سيارة الدورية إلى مكان قريب. كان نيلسي نادراً ما يتولى القيادة بنفسه، وهذه صفة حيّرت المساعد الشاب، الذي اعتقد بأن قيادة سيارة شرطة كان حلم الطفولة الوحيد الذي لبى توقعاته.

عندما اندس سبنسر خلف مقود سيارة الدودج الجديدة، شعر أن نفاد صبره

قد انقضى. لقد غادر ساحة محكمة بيكرزفيل، متبعاً تعليمات العمدة ميلر بطاعة، وسالكاً لفّات ومنعطفات طرق ولاية نورث كارولينا الخلفية، في حين تساءل على ماذا ينوي الثعلب العجوز بالضبط هذه المرة. ومع ذلك، لم يرغب بالسؤال. لقد كان لنيلسي ميلر طريقته الخاصة في عمل الأشياء، ووجد سبنسر أن من الأفضل عادة الترقب. والتفسيرات ستأتي في الوقت والمكان المناسبين.

وقف المساعد الآن في أشعة شمس الجبل المشرقة، محدقاً باحترام في ألواح الحجر الثلاثة، أثناء انتظاره لمزيد من التنوير.

أخيراً، قال نيلسي ميلر: "أصعد إلى هنا عندما أريد أن أتذكر لماذا انخرطت في عمل الشرطة. تلك القطعة من المتاعب التي نقلناها للتو إلى بيكرزفيل جعلتني أشعر أنني جليس أطفال أكثر من كوني رجل قانون."

نظر سبنسر حوله إلى المنظر الهادئ، متسائلاً لماذا اختار نيلسي هذا المكان للإلهام. مع أنه عرف أن عائلة ميلر كانت من هذه المقاطعة في الأصل. "مقبرة العائلة؟" سأل بالرغم من أنه لم يرَ أي شاهد قبر كُتِب عليه اسم "ميلر."

هزّ العمدة رأسه. "هؤلاء ليسوا عائلتي." وأشار إلى شواهد القبور التي بلا أسماء منحوتة عليها. "تشارلي سيلفر دُفِن هنا. لقد كان ضحية جريمة قتل، قبل مائة وخمسين عاماً. زوجته قتلته. على الأقل قالوا إنها قتلته. هل سبق لك أن سمعت قصة فرانكي سيلفر؟"

"ليس بالتفصيل،" قال سبنسر. "يذكرها الناس بين الحين والآخر. إنها تشبه قصة توم دولي، أليس كذلك؟ أسطورة أكثر منها حقيقة. مع لحن."

ابتسم العمدة. "'توم دولي، قصة شعبية مثيرة، أحسب ذلك، ولكن المُلهِم لها ـ توم دولا ـ كان حقيقياً، حسناً. لقد شنقوه هناك في ستيتسفيل في أيار/مايو من

عام 1868، وبئس المصير. لقد سمع الجميع عنه، ولكنهم لم يعرفوا كم كان حثالة ماجناً، ومصاباً بالسفلس. من المؤسف أنه نجا من الحرب. إن قصة توم دولي تبدو باهتة بجانب قصة فرانكي سيلفر. لقد اعتقدت دائماً أنه من الغريب أن عدداً ليس كبيراً من الناس خارج هذه الجبال قد سمعوا عن فرانكي سيلفر، في حين أن توم دولي اسم مألوف لدى الجميع."

"إنها الأغنية،" قال سبنسر.

"ولكن فرانكي سيلفر ـ هناك قصة!" أشار نيلسي ميلر نحو حافة فناء الكنيسة حيث انحنت أجمة من الشجيرات داخل غابة كثيفة من أشجار الزان والبلوط. "ثمانية عشرة عاماً ـ هذا كل ما كانت. لقد كان كوخ عائلة سيلفر هناك في تلك الغابة على بعد بضعة مئات من الياردات. لقد أحرِق الكوخ منذ سنوات طوال، وقد نما على الموقع الآن الكثير من الورد الجبلي والشجيرات الصغيرة الكثيفة، ولكن يمكننا الذهاب وإلقاء نظرة عليه، إن شئت."

"إنني لست مطلعاً على القضية،" قال سبنسر. "لقد سمعت الاسم فقط، وهذا كل شيء؟"

"لقد كانت عائلتي في الجوار من هنا، لذا فقد أصبحت خبيراً في هذه القصة القديمة. أعتقد بأنها السبب الحقيقي في أنني أصبحت رجل قانون. وأذكر عندما كنت طفلاً أنني سمعت جدي يروي تلك القصة، وتمنيت لو أنني كنت هناك لأحقق في الجريمة. لقد أردت دائماً أن أعرف من ولماذا. ولا أزال. لقد اعتقدت بأنه كان يمكنني حل قضية سيلفر عندما أكبر. اعتقدت بأنه لو كان بإمكاني فقط تعلُّم ما يكفي عن التحقيق الجنائي، كنت سأتمكن من اكتشاف الحقيقة."

"وهل فعلت؟" سأل سبنسر. "قمت بحلها؟"

"لم أفعل أبداً . إنني أفهم بعض ما حدث، ولماذا . ولكن ليس الأمر كله . ليس ذلك السر الأخير الذي أخذته معها إلى قبرها ."

"ربما سأحقق فيها يوماً ما ،" قال سبنسر . "هل يوجد كتاب عن قضية سيلفر؟"

"ليس على حد علمي . لقد داعبتني فكرة كتابة واحد بنفسي، إلا أنني لست جيداً في العمل الكتابي . مع أنه لدي اهتمام خاص بفرانكي سيلفر . إنها قصة استثنائية، سبنسر، تبدأ هنا بالضبط . تبدأ بقبر تشارلي سيلفر ."

نظر سبنسر إلى الأعمدة الحجرية الثلاثة، الداكنة في أشعة شمس الجبل . وسأل : "حسناً ، أيها قبر تشارلي سيلفر؟"

ابتسم نيلسي ميلر . "جميعها .

الفصل الأول

تفادى العمدة سبنسر آروود رصاصة. تفادى، على الأقل، بالمعنى المجازي، بمعنى أنه لم يمت. وحرفياً، لم يكن محظوظاً بما يكفي لتفاديها. فقد أصابته الرصاصة بقوة في الصدر، وقد كلفه هذا طحاله، وعدة باينتات دم، ونوبة صدمة قاتلة تقريباً، قبل أن ينجح فريق الإنقاذ بإخراجه من التلال، وإدخاله إلى المستشفى في مدينة جونسون. لقد كان يقوم بتنفيذ عملية إخلاء ـ على مضض، وبتعاطف كامل مع السكان الذين يتم إخلاؤهم. إن حقيقة أنه تم إطلاق النار عليه من قِبل شخص يعرفه وأراد أن يساعده، جعل الهجوم عليه أكثر مرارة بالنسبة لعائلته ولزملائه من أفراد الشرطة، ولكنه لم يهتم كثيراً بشأن المفارقة في الأمر. لقد بدت الإصابة منفصلة إلى حد ما عن أحداث ذلك اليوم، وكأنما تم سحبه إلى مكان آخر، ولم يكن يهم كثيراً كيف وصل إلى هناك. لم يشعر بمرارة تجاه مهاجمه، سوى أنه تساءل عما حدث له. واقترابه جداً من الموت كان صدمة لعقله بقدر ما كان صدمة لجسده، وكانت آثارها شديدة لدرجة أنه بدا من العبث التفكير بسبب الإصابة؛ وألقى أثرها بظلاله على كل ما حدث من قبل. ومع ذلك، لم يتحدث في المستشفى عن هذه المشاعر لأي أحد. ربما تُفهم خطأ على أنها خوف، أو قلق قد يتطلب كذلك مساعدة طبيب آخر. التزم سبنسر الصمت. كان يريد الخروج من هناك.

وقعت تلك المواجهة في مزرعة جبلية قبل ثلاثة أسابيع، والآن، بالسماح له مؤخراً بالخروج من مركز مدينة جونسون الطبي، كان يتعافى من جروحه في المنزل.

كان قادراً الآن على ارتداء ملابسه بنفسه، وأن يمشي بعرَج في أنحاء المنزل معتنياً بحاجاته الخاصة، فيقوم بإعداد ما يريد أكله في الميكروويف، وبالمشي قليلاً ليتجنب التيبّس، وبمشاهدة الأفلام على الكيبل، إلى أن سئم من الشاشة المومضة. قبل ثلاثة أيام أصر أن تعود والدته إلى منزلها وأن تتركه يعتني بنفسه. لقد فهم أنها كانت قلقة عليه، ولكن وجودها وهي تحوم حوله في كل مكان أعاده إلى الطفولة، وانزعج من مشاعر الاتكالية والعجز القديمة. وادعى أنه يتمتع بقوة وطاقة أكثر مما كان يشعر حقاً، وذلك ليقنعها بأنه كان بحالة جيدة بما يكفي لأن يُترك لوحده. أوصلها إلى الباب ولوّح مودعاً إياها وداعاً مرحاً، ومن ثم أغلق الباب واستند إلى الباب لمدة عشر دقائق إلى أن أصبح قوياً بما يكفي لكي ينجح في الوصول إلى الكرسي.

لقد أصبح أفضل الآن. ولا تزال والدته تهاتفه أربع مرات في اليوم لتتأكد أنه لا يزال على قيد الحياة، إلا أنه تحمَّل ذلك بدون شكوى. كان يعلم كم كانت خائفة عندما تعرّض لإطلاق النار عليه، وكم سنة روّعتها هذه اللحظة. ولم يكن يبخل بطمأنتها أن كل شيء كان على مايرام. في الواقع أنه كان مُصراً على وضع حد لنقاهته حالما يتمكن من ذلك، وأن ينهي قلقها، وضجره في حبسه.

كان مستلقياً على كرسي الاستلقاء في شرفة منزله ينظر إلى الوادي والجبال وراءه، ويستمتع بأشعة شمس الربيع، وشرائط براعم شجرة القرانيا عبر التلال، ولكنه كان لا يزال يفكر بالموت. جسدياً، كان يتعافى بشكل جيد، ولكن صدمة

اقترابه الشديد من مفارقة الحياة تركت آثارها عليه. وبالرغم من أنه كان قد تجاوز الأربعين من العمر، فإنه لم يفكر بالموت بجدية من قبل مُطلقاً. وكشاب، كان لديه وهم الشباب بالخلود ليحقق أعمال المراهقة الجريئة الطائشة، وللنجاة من قسوة فترة الخدمة العسكرية. وعندما أصبح سبنسر في الثامنة عشرة من عمره، قُتِل أخوه كال في فيتنام، ولكن كانت هناك صفة وهمية في ذلك، أيضاً: موت حدث في مكان بعيد جداً، وجنازة بتابوت مغلق في هيملين. وقد أخبرته تلك الومضة الصغيرة في عقله، التي كانت سيطرتها في تصاعد فقط، في الساعات الأولى من الصباح، أن كال ربما لا يكون في ذلك التابوت في أوكديل. وحتى اليوم ربما يكون جوالاً في غابات جنوب شرقي آسيا، أو يقضي وقته في حانات في سايغون. كان سبنسر ليقول إنه لم يصدِّق أي شيء من هذا، بالطبع، ولكن ذرة احتمال كانت موجودة، وقد رحَّب بذلك الشك لأنه أبعده عن الموت.

وبمرور السنين، بقي سبنسر منشغلاً إلى حد يمنعه من التفكير بالأمور الفلسفية. والتأمل في الموت لم يكن تسلية صحية لشخص يعمل في تنفيذ القانون. لقد كان من الأفضل قبول كل يوم كما يأتي بدون توقّع متاعب. ومع ذلك، فقد وجد نفسه الآن يمتلك وقتاً غير مُعتاد عليه، وكان تحت أوامر بتحديد نشاطه البدني إلى أن يُشفى جسده شفاء تاماً. لقد فكّر أكثر من اللازم.

وعكّر صفو تأمله صوت آلة التنبيه لسيارة في الطريق الممتدة إلى المبنى. مشى مترنحاً إلى درابزين الشرفة وانتبه في الوقت المناسب ليرى سيارة دورية بيضاء تتوقف أمام أبواب المرآب. وخرجت منها مساعدة العمدة مارثا إيرس، فلوّح لها لتعرف أنها يجب أن تصعد إلى الشرفة بدلاً من الذهاب إلى الباب الأمامي.

"هنا في الأعلى، مارثا!"

"توقعت أنك لن تكون في السرير!" ردَّت مارثا بصوت مرتفع، ولكنها كانت تبدو مسلّمة بمرح لتخليه عن البقاء في السرير.

عاد مترنحاً إلى الأريكة، ونزل بحذر على غطاء الأريكة، سامحاً لنفسه بنقزات من الألم لأن مارثا لم تكن بعد قريبة بما يكفي لتراه مكشراً من الألم. أسرعت في الصعود إلى الشرفة، متوقفة للحظة كما كانت تفعل دائماً للنظر بإعجاب إلى المشهد الطبيعي. "لا ريب أن الجو هادئ هنا."

قال: "إنني أحبه."

عندما اشترى الإثني عشر فداناً من الأرض الجبلية قبل سنتين، كان لديه مقاول محلي بنى له منزلاً بإطار خشبي، وثلاثة طوابق: غرفتا نوم في الطابق العلوي، ومطبخ وغرفة معيشة في الطابق الأوسط، وغرفة صغيرة وثيرة، ومكتب، وغرفة غسيل في الطابق الأرضي، مع مرآب مُلحق. وكان لكل من غرفتي النوم والغرفة الصغيرة أبواب زجاجية منزلقة تواجه الشرق، حيث ينشق المنحدر ليُظهر مشهداً طبيعياً لمروج يتخللها طريق قروي، وخلفها الجدار المكون من الجبال الخضراء الذي كان يحدد بداية مقاطعة ميتشل، في ولاية نورث كارولينا ـ خارج نطاق سلطته. لقد قام بطلاء المنزل بلون أحمر مثير، وقام ببناء الشرفات بنفسه شيئاً فشيئاً في أوقات فراغه. والآن هاهي تطوّق المنزل في الطابق الأرضي، والطابق الذي يعلوه، لتعرض مشاهد طبيعية من كل نقطة مشاهدة ممكن تصورها. أحب سبنسر آروود أن يرى طريقاً طويلاً. لقد قلل المشهد من متاعب عمدة البلد، لأن النظر إلى التلال الخضراء جعله يشعر أنه من الممكن أن يكون أي قرن من الزمان، مما جعل مشاكله تبدو سريعة الزوال إلى درجة لا تبرر القلق بشأنها. ومنذ عهد قريب فقط، كانت تلك السمة الأبدية تُبدي له كم كانت حياته سريعة الزوال ومفككة مقابل مشهد الجبال السرمدية. إن الشعور بقلة الأهمية أزعجه. وهذه المرة كان سعيداً بوجود صحبة معه.

اتكأت مارثا إيرس إلى ظهر كرسي الشرفة الآخر. "إنني في فترة استراحة

مؤقتة،" قالت له. "لا يمكنني البقاء طويلاً، ولكنني فكرت أن أرى إذا ما كان هناك أي شيء تحتاجه. كوب من الماء؟ حبوب؟"

هز رأسه. "إنني بخير."

"أحضرت لك بريدك،" قالت. "ولكن فقط لأنك ألححت."

"أقدِّر هذا، مارثا."

وكانت تفكر أنه كان لا يزال واهناً جداً، وكانت عظام وجنتيه لا تزال بارزة جداً، جاعلة إياه يبدو مهزولاً، ولكن كان بعض اللون يعود إلى وجنتيه. وقد أخفت الكنزة الفضفاضة الرمادية التي كان يرتديها الضمادات. قال: "اسحبي كرسياً. ستعذريني إن لم أقف." أطلقت مارثا صوتاً يعبر عن الدهشة. "كنت أحب أن أراك تحاول. سأحضر أمك إلى هنا أسرع مما ينضج الأرز. ولا تظن أنني لم أرك هناك عند الدرابزين تلوح لي عندما دخلت بسيارتي. ينبغي علي أن أبلغ عنك الآنسة جين."

كشَّر. "إن أكاديمية التدريب لم تفعل شيئاً لطباعك اللطيفة، أليس كذلك يا مارثا؟ كيف تجري الأمور في المكتب؟"

"لقد كان أمراً جيداً أنني عدت عندما فعلت ذلك،" قالت مارثا. تأملت في كرسي الشرفة للحظة، ومن ثم جلست على أحد كراسي الحديقة الحديدية. "قد يعتقد لودون أنه رجل خارق، ولكن حتى هو لا يمكنه العمل فترتين في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع. إنه ليس ديبلوماسياً في رأي أي شخص. ولكننا نتدبر أمرنا."

"هل هناك اعتقالات؟"

"لا شيء يُذكر." وشعر من لهجتها أنه لن يحصل على أي تفاصيل منها. "لو كان لديك القليل من الحكمة، سبنسر، لاستلقيت فقط في كرسي الحديقة ذاك، وشربت شايك المثلّج بدون التفكير ثانية بالدائرة. الرب يعلم أنه كان بإمكانك

استغلال الراحة، وأنا أقول لك ذلك منذ سنوات. كنت واثقة من أنك كنت ستتعرض لإطلاق نار قبل أن تأخذ بنصيحتي.

ابتسم العمدة آروود. "حسناً، مارثا، كل ما يمكنني قوله هو: أتمنى لو أطلِق علي الرصاص على الشاطئ، أو ربما في هاواي، لأن قضية البقاء في المنزل بدون عمل شيء سوى مشاهدة برامج المقابلات هو أمر ممل. إن المشهد جميل، ولكنه لا يتغير بما يكفي ليشغلني. لقد اعتدت أن أراقب الغزلان في أوقات المساء. أحاول أن لا أحشر نفسي في عمل الدائرة، ولكن الملل يستبد بي أحياناً."

"يبدو كأنك تشعر بأنك بحالة أفضل، إذن." قالت مارثا. "في مثل هذا الوقت من الأسبوع الماضي لم تكن متحمساً هكذا. أعتقد بأنه ينبغي علينا أخذ مفاتيح سيارتك فوراً."

"أنا بخير. حتى أنني أقوم بطهي وجبات طعامي. أترغبين بشيء للغداء؟ لدي مجمِّدة مليئة بطعام عشاء مجمَّد."

"لا يمكنني البقاء طويلاً إلى هذا الحد،" قالت له. هذه استراحة غدائي، ولكنني أكلت تفاحة في طريقي إلى أعلى الجبل للاطمئنان عليك."

ابتسم وهو يمحِّص خلال كومة الرسائل ــ معظمها بريد غير مطلوب، ونشرات لإنفاذ قوانين متنوعة ــ منتجات ذات صلة، ولكن من بين المغلفات القلائل من الدرجة الأولى رأى رسالة تبدو رسمية من ناشفيل، وعليها خاتم ولاية تينيسي الرسمي مدمج في تصميم عنوان الإرجاع.

"ما هذا؟"

تنهدت مارثا. "كنت أعرف أنه كان يتوجب علي ترك هذه على مكتبك. يبدو أن الحكومة تريد منّا شيئاً، وهذا يعني أنك إما ستملأ مزيداً من النماذج بثلاث نسخ، أو القيادة حول جميع أنحاء العالم للذهاب إلى اجتماعات اللجان."

مزق الرسالة فاتحاً إياها، وبدأ بتفحُّص محتوياتها. "يمكنني التذرّع دائماً باعتلال صحي إذا كانوا ـ

"ماذا هناك؟ ما الخطب؟"

لقد أصبح وجه سبنسر الشاحب رمادياً، وكان يحدِّق في الرسالة وكأنه نسي أنها كانت هناك. وأحكمت مارثا أصابعها حول الحافة الحديدية لمقعد الحديقة، متسائلة عما إذا كان عليها أن تنطلق إلى داخل المنزل وتتصل بفريق الإنقاذ. كان من المفترض أن العمدة يتعافى بشكل جيد من العملية التي تمت فيها إزالة الرصاصة، وطحاله المُصاب، ولكنها افترضت أنه حتى بعد مرور أسبوع واحد، فإن شيئاً ما قد يسوء. جلطة دموية، ربما؟ وتساءلت ما إذا كانت معرفتها الأولية بالإسعافات الأولية يمكن أن تكون ذات أي نفع.

"إنني بخير، مارثا." لم يرفع نظره، وكان لصوته تلك النبرة اللامبالية والتي كانت تعني أنه لم يكن يصغي. كان يحدق في الأزهار البيضاء لشجرة القرانيا، وكأنه كان يتوقع أن تبتعد.

"لا تخدعني،" قالت مارثا. "ماذا يوجد في تلك الرسالة؟ لقد كنت تبدو أفضل مباشرة بعد إطلاق النار عليك. أخبرني ما الخطب؟"

سلّمها الرسالة. "لقد وجِهَت إلي دعوة لحضور تنفيذ حكم للإعدام."

لقد كان الانتظار هو الجزء الأصعب. لقد أدلى سبنسر بشهادته قبل ساعات، ولكنه كان لا يزال مرتدياً بذلته الغامقة، وقميصه الأبيض المُنشّى، شاعراً وكأنه هو، وليس المتهم، الذي يُحاكَم.

انتهت المرافعات الختامية بعد الرابعة بقليل، وغادرت هيئة المحلفين قاعة المحكمة للبدء بمداولاتهم في قضية ولاية تينيسي ضد فيت هاركرايدر. والآن لم يعد هناك شيء سوى الانتظار على المقعد في غرفة استقبال مكتب العمدة، شاعراً

بالحر وعدم الارتياح ببذلة العمل غير المعتاد عليها. وبالطريقة ذاتها تماماً لم يكن جاهزاً للخروج في دورية تلك الليلة. لقد كان عصبياً إلى درجة لا تجعل من الممكن أن يكون أفضل بكثير في ذلك.

لقد أدلى سبنسر بشهادته في قضايا معروضة على المحكمة من قبل، بالطبع، ولكن تلك المحاكمات كانت تافهة مقارنة بهذه القضية. وفي قضايا سابقة كان المُدعى عليهم يواجهون عقوبات بدفع غرامات، أو الحبس لعدة أسابيع في سجن المقاطعة، على أكثر تقدير، إذا ساعدت شهادته في إدانتهم. هذه المرة كانت مسألة حياة أو موت. لقد شعر باكتئاب، وبعبء ثقيل بسبب مصير السجين. لقد شعر كذلك بالغضب منه لارتكابه جريمة شنيعة لا معنى لها دافعاً سلسلة الأحداث هذه، وملوثاً سمعة كثير من الأشخاص باستهتاره.

"لماذا لا تذهب إلى المنزل؟" سأل نيلسي ميلر، جالساً على المقعد بجانبه.

هز سبنسر كتفيه. "لا أستطيع. قد يعود المحلفون في وقت مبكر، وعندئذ سيتعين علينا إعادة السجين قاعة المحكمة. أحسب ـ ماذا عن عائلته والجميع ـ أنه ينبغي علينا جميعنا أن نكون حاضرين لمرافقته."

"لا أعتقد أن عائلة هاركرايدر ستفتح النار على قاعة محكمة مكتظة، مثل أولئك الجماعة الذين قاموا بتسوية الخلاف بالأسلحة في هيلزفيل في فيرجينيا. لا، إن عائلة هاركرايدر ستفضّل عمل كمين لرجل غير مسلح في الظلام في ليلة ما، ومن الأفضل أن يكون شجاراً بين أربعة مقابل واحد. إنه أسلوبهم."

"لست قلقاً بشأنهم،" قال سبنسر.

"والآن، لا أقول إنني لا أقدِّر عرضك في مزيد من الحرس عندما نضطر إلى إعادة السجين إلى قاعة المحكمة، لأن عائلة هاركرايدر قد تكون في الحالة المزاجية الانفعالية ذاتها، والتي يبدو أنها استحوذت عليك ـ ولكن أولئك المحلفين لن يعودوا هذه الليلة.

"ألا تعتقد ذلك؟ إن القضية بسيطة. لدينا دليل يكفي لإدانته مرتين زيادة."

"نعم، ولكنه دليل مفصَّل. ومعقد بالنسبة لعامة الشعب. دليل الدم، وشهادة الطب الشرعي أن المتهم كان مفرزاً*. هذا كثير على هيئة المحلفين لاستيعابه. ربما أن المجوهرات هي النقطة الحاسمة، ولكنها دليل استنتاجي متوقف على الظروف. وحتى في قضية صعبة، تحتاج الحكومة إلى التأكد من أنها تزيل أي ظلال من الشك، كون المحلفين ما هم عليه. من الصعب إقناع مواطنين عاديين شرفاء بأن هناك وحوشاً في هذا العالم. إنهم ينظرون إلى طاولة الدفاع، ويرون فتى غضاً ببذلة يوم الأحد، وشعر محلوق حديثاً، سيعانون من وقت عصيب لتصديق أن هذا الفتى المعسول اللسان يمكن أن يضع سكيناً على عنق صبي في الواحدة والعشرين من عمره، ويقطع القصبة الهوائية والوريد الوداجي، في حين كانت صديقة الضحية تشاهد ذلك وهي مربوطة إلى شجرة، تبكي وتصرخ ليتوقف، وهي تعلم أنها كانت التالية. إن ذلك لا يبدو ممكناً."

"لقد شعرت شخصياً بتلك الطريقة."

"إذن، امنح نفسك بضع سنوات كشرطي أمن. إنك لا تزال يافعاً. سيأتي الوقت الذي تعدّ فيه أصابعك بعد مصافحة واعظ. ستفقد إيمانك في البشرية إذا بقيت في العمل الشرطي لفترة طويلة بما يكفي. ولكن المحلفين لا يتأقلمون أبداً مع الشر. فكل قضية تتم المحاكمة فيها أمام مجموعة جديدة من الأبرياء، وعليك غمرهم بالأدلة لتجعل الأمر يخترق عقولهم بأن شباباً يافعين يتمتعون بأشكال حسنة يمكن أن يكونوا مذنبين بجرائم رهيبة قمنا بتوجيه تهم لهم بها.

---

* شخص نوع دمه A أو AB أو B والذي يفرز أجساماً مضادة مميزة لتلك المجموعات في سوائل جسده، مثل اللعاب.

"إذن فأنت تعتقِد بأنهم سيستغرقون وقتاً طويلاً للتداول؟"

"هل نظرت إلى أولئك المحلفين؟ بعضهم كان يأخذ ملاحظات، وكأنما سيكون هناك امتحان يتبع. إنهم لا يريدون أن يَدَعوا هذا الجهد يذهب سدى. ربما أنهم يعيدون المحاكمة في هذه القضية الآن، فقط ليثبتوا لبعضهم البعض أنهم كانوا يولون الأمر اهتمامهم. وشك معقول! شك معقول، انتبه لذلك. بعض المحلفين قد يجعلون قطة تضحك. لماذا، ربما أنهم في بحثهم عن منافذ وكأن هذا كان بيري ميسون في التلفاز. ماذا لو كان لهذا الشخص توأم ولا أحد يعرف عنه، وتصادف أنه كان يمتلك مسدساً مثل مسدسه بالضبط ـ كل هذا الهراء لا يصلح لأن يكون قصة من قصص الجنيات، فما بالك بمحكمة قضاء. إن ذلك يجعلهم يشعرون بالأهمية. هذا حدث هام بالنسبة لمقاطعة ويك. لقد مرّت سنوات علينا دون أن نقوم بمحاكمة شخص لارتكابه جريمة قتل.

"كان بإمكاني القيام بذلك بدون استغراق هذا الوقت،" قال سبنسر.

"لقد انتهى. دورك انتهى، على أي حال. لقد قلت ما عندك في المحكمة، وقال المحامون ما عندهم، والأمر الآن يستقر في أيدي اثني عشر شخصاً آخرين. وأعرف بشكل مؤكد أن لدى القاضي خططاً للعشاء. لقد انتهى الأمر بالنسبة لليلة. لذا، اذهب إلى المنزل."

هز سبنسر رأسه. "لن أكون قادراً على صرف تفكيري عن الأمر. وسأكون هنا على أي حال.

تنهد العمدة العجوز. "بالتأكيد أنك تفوقت على كل التوقعات، أيها الفتى. والآن، لو كنت أنا الذي عليه أن يدلي بشهادته ضد تلك القطعة الصغيرة من روث الثور، فإنني سأترُك قاعة المحكمة تلك مع نوابض قفز في خطواتي، ولن أفكر في ذلك مرة ثانية مطلقاً. إن ذلك الفتى حثالة ومصيبة، شأنه شأن أقرانه هناك في

الوادي، ولو أنه لم يرتكب هذه الجريمة، فقد فعل أشياء أكثر بكثير لم نقبض عليه بها، ويستحق ما يحصل عليه."

"ماذا تقصد بـ*لو أنه لم يرتكب هذه الجريمة*؟ ألا تعتقد أنه مذنب؟" قال سبنسر.

"آه، لا شيء. ليست مهمتنا أن نجزم بالذنب على أي حال. هذا عمل القضاة، والمحامين، والمحلفين. نحن نقبض على المشتبه بهم فقط، ونجمع الأدلة التي يمكننا العثور عليها. وبعد ذلك يكون الحكم لهم."

"أعرف ذلك، ولكن ماذا تقصد *لو أنه لم يرتكب هذه الجريمة*؟ ألا تعتقد أنه مذنب؟"

"حسناً، أنا شخصياً لا أهتم،" قال نيلسي ميلر. "كان بإمكانك النظر في نشأة فيت هاركرايدر، وتدرك أنه كان سينتهي به الأمر في السجن. إن لم يكن لأمر ما، فسيكون لآخر. لقد كنت أعرف أقاربه منذ أكثر من خمسين عاماً، وليس هناك مواطن مخلص في الجماعة. قد تجد فرصة في الحصول على حصان أصيل من حمار بظهر مقوس أفضل من الحصول على رجل صالح من نسل هاركرايدر."

كان سبنسر فقط ينظر إليه، منتظراً.

أخيراً، أخرج نيلسي ميلر تنهيدة، ونظر بعيداً. "آه، يا للجحيم. لدي إحساس ما، هذا كل شيء."

"ولكن القضية صعبة. فصيلة الدم. دليل الطب الشرعي. ممتلكات الضحايا التي عُثِر عليها في حوزته. لدينا أدلة كافية لإدانته. كل شيء ما عدا الاعتراف."

هز العمدة كتفيه. "لا يعود الأمر لي. أو لك. نحن نجمع الأدلة، *وهم يقررون*."

"لماذا لم تقل شيئاً عن شعورك هذا قبل الآن؟"

"لأن المشاعر ليست أدلة. سيسخرون مني. ربما تصدقني إليسا راونتري. امرأة عاقلة. إنها المحلفة الوحيدة التي قد تصدقني! ولكن لا أحد يهتم بما هو رأيك في قضية قتل. حقائق. دليل. بصمات أصابع. بعدئذ يتخذون قرارهم. إننا خارج هذا الأمر تماماً.

أومأ سبنسر برأسه، وقال: "أعتقد بأنه مذنب. لقد كنت هناك تلك الليلة. إنني الشخص الذي اعتقله. لم أكن لأدلي بشهادتي لمقاضاته لو أنني كنت أعتقد أنه لم يكن مذنباً.

"آه، لقد أدليت بشهادتك. لقد مثّلت القانون في تلك الليلة، وما رأيته وما فعلته هو عمل الحكومة. ولكن ساهم في الأمر كونك تتمتع بيقين أخلاقي. والآن توقّف عن التذمر بشأن هذا الموضوع."

أراد سبنسر أن يحتج أنه لم يكن يتذمر إطلاقاً بشأن مسألة الجُرم إلى أن أثارها العمدة، ولكنه قال بدلاً من ذلك: "لقد أدليت بشهادتك في قضايا إعدام من قِبل. هل كنت غير متأكد في أي وقت من جُرم الرجل؟"

حسناً يابني، أقول لك: لقد كنت محظوظاً هكذا. إن الشكوك التي كانت لدي كانت في قضايا تافهة، معظمها. وكان العقاب في أقصى حالاته يصل إلى شهرين في السجن، وكما قلت، معظم الأشخاص الذين نقبض عليهم يتلقون ذلك بناء على أحكام عامة. ولكن قضية إعدام؟ هناك قضيتا قتل فقط في هذه الجبال أنا لست راضٍ عنهما. وربما أنني مخطئ في كلتيهما، لتضع ذلك في اعتبارك."

"أي قضيتين؟"

"واحدة هي ذلك الشخص الذي على وشك أن تضعه في عداد المحكوم عليهم بالموت. والثانية هي قضية فرانكي سيلفر."

"ماذا تعني، إعدام؟ في تينيسي؟" هزّت مارثا رأسها. "إنه فقط لا يحدث."

"إنه يحدث الآن. سلّمها سبنسر الرسالة. "لقد تقاعد ذلك القاضي الذي كان يمنح وقفاً تلقائياً لتنفيذ أحكام طوال هذه السنين، والآن يبدو أن الحكومة ستعود إلى مسألة عقوبة الإعدام."

"بعد كل هذه السنوات؟ متى كانت آخر مرة قمنا فيها بإعدام أي شخص في تينيسي؟"

"في أوائل الستينيات. ولكننا لم نقم بإلغاء عقوبة الإعدام. ما زال المحلفون يصدرون أحكاماً بالإعدام طوال الوقت. إلا أننا لم نقم بتنفيذ أي منها منذ وقت طويل. منذ عقود. على ما يبدو أن ذلك سيتغير في غضون"- ألقى نظرة على الرسالة ـ "ستة أسابيع."

"لماذا يخبرونك عن الأمر؟"

"التقليد. يُطلَب عادة من عمدة المقاطعة التي هي موطن السجين أن يكون أحد الشهود الرسميين عندما يتم تنفيذ حكم الإعدام."

"هل يمكنك الرفض؟ كما قلت: تذرَّع باعتلال في الصحة. أو ارفض شرف ـ إذا كان هذا هو ما تسميه ـ أن تكون شاهداً."

لم يجب لبرهة. "لا أعتقد بأنه يمكنني فعل ذلك، مارثا.

"بالتأكيد يمكنك. سيقوم الطبيب بانر بكتابة رسالة ليخرجك من هذا الأمر. ولن تكون حتى كذبة، سبنسر. لقد أجريت لك عملية كبرى للتو. أصبت بعيار ناري أثناء تأدية الواجب. لا ينبغي عليهم أن يطلبوا منك تقديم حلوى الدونت في اجتماع جوقة مرتلين، فما بالك بشيء يسبب توتراً مثل ـ مثل مشاهدة رجل يموت.

tele @ktabpdf

لم يُجب سبنسر. لقد كان ينظر إلى سلسلة الجبال في الخارج، حيث استقرت كومة من الغيوم السوداء على ارتفاع منخفض في الأفق، مضيفة سلسلة جبال جديدة عند حافة السديم.

حاولت مارثا مرة أخرى. "كيف ننفذ هذا في تينيسي في الوقت الحالي؟ حقنة قاتلة؟"

"لا." قال لها. راقب سلسلة الغيوم باهتمام أكبر. "لا يزال أولد سباركي. لا خيارات.

"آه. الكرسي الكهربائي. أفهم ذلك." ارتعدت مارثا. بعد فترة صمت أخرى أضافت: "بالطبع، لا يملك الضحايا أي خيار، كذلك. عليك أن تتذكر ذلك."

"سأحاول أن أتذكر هذا. طوى سبنسر الرسالة ودسها تحت كومة الرسائل الباقية.

"أنت لست ضد عقوبة الإعدام، أليس كذلك؟ ليس بعد ما رأيناه في عملنا هذا. وليس بعد ما يحدث لأطفال على أيدي بعض هؤلاء الناس...."

" لا يمكنني أن أقول إنني ضد عقوبة الإعدام، لا،" قال سبنسر. "إنني أرى الضحايا، وهو سوء حظ لا يعاني منه معظم الأشخاص. إنها فقط هذه المرة. فقط ـ هذه ـ المرة."

"لماذا تشعر وكأنه يتوجب عليك الذهاب إلى هذا الشيء، سبنسر؟ إنك منزعج أصلاً منه، ولا يزال هناك ستة أسابيع لحينه. إذا كانت حكومة ولاية تينيسي تصرّ على حضور شخص من مقاطعة ويك من أجل هذه المناسبة، فلماذا لا تُرسِل لودون؟ لن يزعجه أن يشاهد عملية إعدام. سيقوم بنفسه بسحب المفتاح، ولن يرمش له جفن أبداً."

"لا أستطيع.

نظرت مارثا إليه. لقد كانت تعرف سبنسر آروود طوال حياتها. كانا طالبين معاً في مدرسة ثانوية محلية. وكانت تعرف والدته من الكنيسة. لقد كانت مراسلة في مكتب العمدة، والآن تم تعيينها حديثاً كمساعدة لعمدة ويك، ويُضاف كل ذلك إلى عدد لا بأس به من سنوات من الملاحظة الدقيقة للرجل. وقررت أن ردة فعله تجاه الاستدعاءات القادمة من إدارة السجون في تينيسي بلغت مرحلة أكثر من مجرد حساسية مفرط. لقد كان العمدة يكره القسوة على أي مستوى، ولكنه لم يكن جباناً، ولم يتهرب أبداً من أي التزام. "هل تريد أن تخبرني عن ماهية الأمر، سبنسر؟" قالت بهدوء.

"لقد كان ذلك تقريباً قبل عشرين عاماً الآن. أعتقد بأنك لا تتذكرين.

قطبَّت مارثا حاجبيها. "قبل عشرين عاماً. كنت قد ذهبت في ذلك الحين. كنت قد غادرت، كَوني زوجة لعسكري في بلدة صغيرة موحشة بالقرب من فورت براغ، في نورث كارولينا. زوجي الأول."

"لقد نسيت. لم تكوني لتعرفي عن القضية عندئذ.

"من هو الذي سيعدمونه؟"

"فيت هاركرايدر. لقد قبضت عليه. وشهدت ضده. كان أحد الموجودين في زنزانات المحكومين بالإعدام في سجن ناشفيل منذ ذلك الحين. يا إلهي، لم أفكر به منذ عصور. والآن هذا الأمر."

"ماذا فعل؟"

"جريمة قتل.

لقد كان يخطط أن يترك الأمر عند ذلك الحد، ولكن ملامح مارثا أخبرته أن المناقشة لن تنتهي حتى يخبرها البقية. تنهّد. "لقد قتل اثنين من المتجولين في ممر

الأبالاتشي الجبلي. فتى وفتاة ـ طالبان جامعيان من جامعة نورث كارولينا. لقد كان هو من فيلق تدريب أفراد شرطة الاحتياط؛ وكانت هي ابنة كولونيل. كانا طالبين في قائمة الشرف لتفوقهما الدراسي. كانا فتى وفتاة حسني المظهر وجذابين. كانا يساويان عشرة منه.

وكان يمكنه أن يسمع في عقله صوت نيلسي ميلر. *ربما أنه قتل كذلك دوني وماري*. عائلة أوزموند. كان سبنسر قد نسيهما تقريباً كذلك.

"يبدو أنه هاجمهما من مكمن عند مخيمهما أثناء نومهما. لقد عذّب الفتى. نحن " لم يشأ أن يتذكر علامات الحرق. "واغتصب الفتاة قبل أن يقتلها. وقطّع الجثة. أعتقد أن هذا هو ما جعله في الواقع يتلقى عقوبة الإعدام. لقد نظرت هيئة المحلفين إلى صور تلك الفتاة المبتسمة ذات العينين الغزلانيتين الواسعتين، ومن ثم إلى ما تبقى منها في صور مسرح الجريمة. " هز كتفيه استهجاناً.

أخذ نفساً عميقاً، وتمنى لو لم يبدأ التحدث عن القضية، لأنه حاول جاهداً نسيان ما رأى في ذلك اليوم. لم يرغب في تخيُّل بقايا الجثتين اللتين وجدهما في المخيم. لم يعانِ من ذلك الكابوس منذ وقت طويل. والآن قد يعاني منه.

"لا أتذكر هذا،" قالت مارثا. "ماذا كان اسماهما؟"

"كان اسمها إيميلي ستانتون. ولا أستطيع تذكر اسمه."

هزّت مارثا رأسها. "الاسم لا يعني لي أي شيء. بالرغم من أنني بالتأكيد أتذكر عائلة هاركرايدر. كانوا لا ينسون، كل فرد منهم. كم كان منهم هناك؟ لم أعد أذكر عددهم.

ابتسم سبنسر. "يبدو أنهم كانوا بالعشرات، بالرغم من أن بعضهم كانوا

أبناء عمومة الآخرين. ولم يتحدث أحد مع عائلة هاركرايدر عن الأسرة. فلو كنت قريبة لهم، لما أعلنتِ ذلك. لقد كان توم هو زميلنا في الفصل، أليس كذلك؟ ومع ذلك، لا أعتقد أنه بدأ معنا. لقد لحقنا به.

"خبيث كالثعبان المخطط. وهذا لا يصف الكثير لتمييزه عن باقي الحثالة. أي منهم كان فيت؟"

"لافاييت هاركرايدر. أصغر الأبناء. ليس هناك الكثير ليقال عنه. كان يبلغ السابعة عشرة عندما حدث ذلك. أعتقد أنه مكث في السجن الآن أكثر مما مكث خارجه في هذه الدنيا. أمر مضحك، إنني لا أزال أراه في ذاكرتي كصبي مراهق نحيل. لا بد أنه في منتصف العمر الآن، على الأقل في سنوات السجن. تكبرين بسرعة هناك. ربما لن أتعرف عليه إذا رأيته.

"عدتَ وألقيت القبض عليه حينئذ؟"

أومأ سبنسر برأسه. "أول قضية قتل لي. لقد كنت مساعداً لنيلسي ميلر، وتم العثور على الجثتين في وقت متأخر في إحدى ليالي مراقبتي. ... فيت هاركرايدر ... لقد نسيت أمره تقريباً. لقد قلقت بشأن الأمر في ذلك الحين بما يكفي، على أي حال. أعتقد بأنني لم أفكر أبداً أن الأمر سيصل إلى هذا الحد.

"حسناً، ما كنت لأقلق بشأنه لو كنت مكانك،" قالت مارثا. "في المقام الأول، أنا متأكدة أنه يستحق ما يحدث له، وفي المقام الثاني، بالطريقة التي يدللون بها المجرمين هذه الأيام، فإنني أشك جداً في أنه سيُبقي ذلك الموعد مع الجلاد. ربما أنه لديه من المحامين ما يملأ غرفة بكاملها يكتبون استئنافات على كل شيء يمكن أن يفكروا به. ثق بي. لم يجر تنفيذ حكم إعدام في تينيسي منذ ما يزيد على ثلاثين سنة، ولن يحدث الآن."

"ربما أنت على حق، مارثا.

"بالطبع أنا على حق. والآن، لا بد لي من العودة إلى الدورية، لذا فإنني سأغادر. هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟"

أومأ برأسه. "مجرد صدمة من النظام، هذا كل شيء."

"ولكنني أقلق عليك لكونك عالقاً هنا أعلى سلسلة الجبال هذه لوحدك. أشكر الإله أنه ليس فصل الشتاء. هل هناك شيء يمكنني إحضاره لك؟"

"نعم،" قال سبنسر. "أود منك أن تحضري لي ملف قضية فيت هاركرايدر."

تنهدت مارثا. "سوف ترهق نفسك بالقلق بشأن هذا الشيء. أليس كذلك؟"

"لا. أعد أنني سأتصرف باعتدال. أريد فقط أن أنعش ذاكرتي. و، مارثا ـ شيء واحد آخر. هل سبق لك أن سمعت عن فرانكي سيلفر؟"

وقفت المرأة العجوز على جانب الطريق وهي تقبض على الرسالة. لقد انتظرت هناك إلى أن قامت شاحنة صغيرة بالدوران مثيرة الغبار بشكل دوّامة تحت حافة التلة قبل أن تخطو خطوة باتجاه البوابة الحديدية الصغيرة التي تحيط بها أزهار الزنبق البري. جلس المنزل ذو الإطار الأبيض في نهاية الطريق مثل لؤلؤة في صدفة، ثابتاً وكأنه كان على سلسلة الجبال فوق خليط من الحقول والنهر بعيداً في الأسفل. ومع ذلك، فإن جمال المنظر لم يُفرح قلبها. نظرت بحذر إلى المنزل الصغير الأنيق، وهي تعلم أنه مع كل الضرورة الملحة لزيارتها، فإنها لم تكن في عجلة لفتح البوابة.

كانت نورا بونستيل تعيش هنا.

لا أحد أبداً ذكر كلمة ضد السيدة بونستيل العجوز. لقد كانت لا تزال امرأة جميلة، كانت لا تزال في صحة جيدة في السبعين من عمرها، ولم تطلب خدمات من أحد أبداً. كانت تقف بإخلاص في مقصورتها في الكنيسة كل

أسبوع، كانت غير اجتماعية، سوى للقيام بما يتوجب القيام به؛ أخذ طعام للمرضى، وأشياء محبوكة ومخيطة بشكل جميل للعرائس، وأطفال الأبرشية، ولكن لا تزال ... لا تزال.

لا أحد يريد أن يكون له علاقة مع نورا بونستيل. كانت تعرف أشياء. قال الناس بأنه عندما تأتي لتخبرها بأخبار موت في الوادي، ستكون كعكة العائلة موجودة في الفرن. لقد كانت الغرابة في عائلة بونستيل؛ فكانت جدتها بنفس الحال. لم تكن نساء بونستيل يتحدثن عما يعرفن أبداً، ولم يتدخلن أبداً في حياة الناس، ولكن مع ذلك، فقد جعل هذا الناس يشعرون بعدم ارتياح بوجودهم حولهن، نظراً لمعرفتك أنه مهما يحدث لك، فسيكون لديهن علم بأنه آت.

نظرت المرأة إلى الرسالة القادمة من ناشفيل. هل كانت ستعرف عن ذلك، ماذا عن الرسالة القادمة من مكان بعيد جداً؟ وانحنت بتنهيدة لتفتح البوابة.

عندما رفعت نظرها من جديد، كان هناك شكل طويل منتصب لامرأة مرتدية ملابس رمادية تقف في الرواق، تراقبها بصمت. أمسكت بمرطبان من الدراق المسكّر بشكل محكم إلى بطنها. لقد أحضرت هدية. لن تكون ممنونة لهذه المرأة الغريبة. وعندما اقتربت في الرواق، صاحت: "مساء الخير، سيدة بونستيل! لقد حضرت لجلسة سحر."

أومأت نورا بونستيل برأسها. "أنت بولين هاركرايدر."

"أنا هي." وقدمت مرطبان الدراق المسكّر، ولكن عبء الرسالة القادمة من ناشفيل كان أكبر بكثير من التظاهر بزيارة اجتماعية. قالت: "لدي رسالة هنا." إنها عن ابن أخي لافاييت، هناك في سجن الولاية في ناشفيل.

"من الأفضل أن تدخلي."

جلستا في قاعة استقبال نورا بونستيل ذات النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة

على وادي النهر والتلال الخضراء في الخلف، ولكن لم يكن لدى بولين هاركرايدر متسع من الوقت لبهاء صيف الجبل. لقد رأت أكثر من خمسين منه، ولم يمنحها الكثير. فكل صيف كان يذكرها بأن العالم بقي فتياً، في حين أنها أنهكت نفسها وهي تقوم بالشيء القديم ذاته سنة بعد سنة، دون شيء واضح مقابله. سلّمت الرسالة إلى نورا بونستيل.

انتظرت وهي تشبك يديها في حجرها في حين قرأت المرأة العجوز الأسطر القليلة المطبوعة التي تعلن الإعدام المُزمع للافاييت هاركرايدر في غضون بضعة أسابيع.

عندما انتهت نورا بونستيل من قراءة الرسالة، وضعتها على الطاولة. وقالت: "من الأفضل أن تأخذي بعض الشاي.

هزت بولين هاركرايدر كتفيها استهجاناً. كان الأمر كله سيان بالنسبة لها. لم يكن بإمكانها أن تتذكر ما إذا كانت قد تناولت أي شيء اليوم أم لا "يقولون إنهم سيقتلون لافاييت،" قالت ذلك بصوت مرتفع. كانت نورا بونستيل الآن في المطبخ، تضع الغلاية النحاسية على النار لتغلي. إن ذلك يجعلها مريحة أكثر للتحدث إليها، فكرت بولين، إذا لم تنظر إلى هاتين العينين الزرقاوين تحملقان من خلالك.

مرّت بضع لحظات، ولم يكن هناك جواب من المطبخ. حاولت بولين مرة ثانية. "هل تعتقدين بأنهم سيفعلون؟ يقتلونه، أقصد."

ظهرت نورا بونستيل عند المدخل. قالت: "لا أعلم، سأصلي بشأن ذلك.

"ولكن ـ ما أتيت لأسأل عنه ... إذا كان يمكنني فقط أن أعرف بشكل مؤكد ... سيدة بونستيل ـ *هل هو مذنب؟*"

حملقتا ببعضهما البعض بصمت. أخيراً قالت نورا بونستيل: "هل تريدينني أن أخبرك بذلك؟"

غطّت بولين هاركرايدر فمها بيدها. "لم أقل أي شيء أبداً،" قالت بهمس. "طوال هذه السنين لم أفعل أبداً. هل فات الأوان؟"

تنهدت نورا بونستيل. "هل لديك أي نوع من الأدلة يمكن أن تقنع قاضياً؟"

"لا "

"إذن دعي الأمر." صفّر إبريق الشاي خلفها، وأصدر صوت قعقعة كاسراً حاجز الصمت.

"من الصعب معرفة أفضل ما يتوجب عمله،" قالت بولين. "لقد كان شاباً لطيفاً، ولكنه أصبح متهوراً، كما الآخرين. لقد فعلت ما بوسعي من أجل أولئك الصبية بعد أن رحلت والدتهم.

"يمكنك الكتابة إليه،" قالت نورا بونستيل. "اسأليه ماذا يريد منك أن تفعلي. فضلاً عن ذلك، كل ما يمكنك عمله هو الصلاة والانتظار، لأن شخصاً واحداً يمكنه أن ينقذه، وذلك الشخص ليس أنت.

كان هناك كرسي خشبي بسيط يستقر على أرضية مكسوة ببلاط لغرفة لولاه لكانت فارغة. كان الكرسي مصنوعاً من البلوط الداكن، وله أيد عريضة مسطحة. كان ظهره لوحاً خشبياً مصمتاً، فيما عدا الفتحات المستطيلة الثلاث على كل من جانبيه، وهو موضوع ليلائم زوجين من الأحزمة النايلون الزرقاء الكابحة، والتي تنتهي بإبزيمي حزام مقعد حديديين. وخلف الكرسي كانت هناك ساعة حائط مستديرة، مألوفة في غرف الصف المدرسية، معلقة عالياً على الحائط من الحجر الإسمنتي الباهت. ويواجه الكرسي نافذة زجاجية كبيرة مغطاة بستائر، مُخفية غرفة المشاهدة، بمساحة تتسع ربما لعشرين كرسياً. وكانت الزخرفة الوحيدة في غرفة المشاهدة هي لوحة جدارية، بقطر يساوي قدماً واحداً تقريباً:

دائرة تحمل عبارة "الختم العظيم لولاية تينيسي 1796" تحيط برسم لمحراث مع كلمة "زراعة" مكتوبة تحته، وأسفل منه يوجد مركب شراعي محدد عليه كلمة "تجارة. وكانت الجدران إلى يسار ويمين الكرسي مزوَّدة ببابين عاديين. أحدهما يؤدي إلى دهليز زنزانات الاحتجاز، ومطبخ مثل ذلك الذي يمكن أن يجده المرء مجاوراً لقاعة الاستقبال لكنيسة البلدة الحديثة. والباب الآخر يفتح إلى غرفة فارغة مضيئة أخرى، تحتوي على خزانة معدنية صغيرة بأضواء وأقراص هاتف موضوعة بشكل ملائم على السطح الرمادي. وبجانبها صندوق مزوِّد الكهرباء يحتوي على محوِّل لتغيير التيار الكهربائي 220 ـ فولت المُعتمَد الذي يصل إلى الغرفة بشحنة 2.640 فولت في الوقت المناسب. وهناك هاتف حائط على بعد بضعة أقدام.

كان الكرسي مصنوعاً لحكومة ولاية تينيسي من قِبل شركة فريد إيه. لوتشر شركاء في بوسطن في 1989، ولكن في الطراز والتركيب يبدو أقدم بكثير. أجزاء منه تبدو كذلك. أرسلت الحكومة إلى شركة لوتشر خشباً من أولد سباركي القديم، الذي تم تركيبه في 1916، ليُستخدَم في تركيب الكرسي الجديد، وهذا طقس لا سابق له. بعض خشب كرسي 1916 الكهربائي تم إنقاذه من مشانق قديمة في تينيسي، واستُخدم لبناء بديل لها بعدما أصبح الإعدام شنقاً موضة قديمة. والآن يحتوي خلَفَها على خشبهما معاً، لذا، فإن أكثر من قرن من التقليد تم دمجه في الجهاز الجديد. وكلّف الكرسي الجديد الحكومة 50.000 دولار أمريكي، وأطلِق عليه كذلك "أولد سباركي.

لم يتم استخدامه أبداً.

مرة في الشهر، ليُختبَر.

مرة في الشهر يتم وضع مرطبان من الماء المالح ـ تمثيل أدق للإنسان من

الصورة الإنجيلية للتراب ـ فوق مقعد خشبي ؛ ويتم إدخال القطبين الكهربائيين في الماء ؛ ويضغط أحدهم على الزر على الآلة الرمادية، فيتدفق التيار خلال الماء ، مثبتاً أن كل شيء على أهبة الاستعداد .

على الأقل هذه هي الطريقة التي يصدِّق بها السجناء أن الكرسي يُختبَر . ويروون القصة لبعضهم البعض في جلسات اللغو ، وينشغلون في تأملات خاصة بشأن مَن مِن بينهم سيكون الأول الذي سيذهب . من الذي سيصبغ الكرسي الجديد بسوائل جسده؟ ولكن السجناء يقولون كذلك إن هناك آثار مخالب على اليدين العريضتين للكرسي الخشبي ، كرسي تم تركيبه في 1989 ، ولم يُستخدَم أبداً .

وحتى إذا لم يتم تشغيل الكهرباء ، فإن الكرسي يولِّد تياره الخاص من الأسطورة .

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

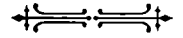

اعتقال

أتذكر المرة الأولى التي سمعت فيها عن فرانكي سيلفر في حياتي.

كان الشرطي تشارلي بيكر يضرب على باب دار القضاء بقوة وهو ينتعل جزمة اكتست بطبقة من الثلج، ويزعق مثل عجل موسوم بالحديد المحمى، "أيها العمدة! أين العمدة بتلر؟ هناك جريمة قتل وقعت!"

كان ذلك في 10 كانون الثاني/يناير، 1832، من صباح الثلاثاء بعد الليلة الثانية عشرة. كنت أرتجف في مكتبي، ولا أزال مرهقاً من المرح الصاخب في سبت عيد الميلاد في بيلفيدير، ولكني مصمم على أن الصداع ولسعة من الحمى ينبغي أن لا ينالا أكثر من هذه السنة الجديدة الرائعة، السنة الخامسة والعشرين من عمري، والثالثة من مهنتي في القانون.

كنت أحاول أن أكتب بشكل واضح في سجل مقاطعة بيرك دون خلع قفازاتي. كانت النار تتأجج بجرأة في الموقد خلفي، ولكنها لم تكن نداً للرياح التي كانت تندفع كسكين خلال شقوق في الجدران الخشبية، وكان بإمكاني رؤية أنفاسي معلقة في الهواء فوق لهب الشمعة. هذا المشهد أثار داخلي أمواجاً من الإشفاق على الذات عندما تخيلت المكاتب الأنيقة ذات الستائر المخملية في مبنى راليه الحجري

الضخم: النيران الهادرة المتأججة أسفل رفوف المواقد الرخامية، وزجاجات النبيذ الكريستالية المزخرفة على بوفيهات من خشب الماهوغاني. وفي مثل هذه المراكز الفخمة، يقوم المحامون الشباب الأكثر ثراء، أولئك الذين درسوا القانون مع رجال دولة وقضاة، ولم يكونوا الأبناء رقم ثمانية في عائلات تقلد الأثرياء ولكنها متواضعة، بالتدرب على مهنتهم مع زبائن موقرين، في حين أنني، أنا من درست القانون مع شقيقي الأكبر الفقير، لترقد روحه بسلام، جلست في دار قضاء على الحدود، بعيداً عن أروقة السلطة، ومن المرجح أنني سأظل هكذا.

"أين السيد بتلر؟ هناك جريمة قتل وقعت!"

أفزعني الصياح من سباتي الصباحي، وفتحت باب مكتبي بسرعة ومشيت بغضب خلال قاعة المحكمة لأرى من كان يزعج هدوئي. وعندما دفعت الباب الخارجي فاتحاً إياه، كنت على وشك الاصطدام بشكل بشري ضخم بدا مكوَّناً بكامله من الثلج والفراء وجلد الغزال.

"ما كل هذه الضجة؟" تساءلت. في الحقيقة أنني اعتقدت بأن الرجل كان سكيراً مولعاً بصخب رأس السنة الجديدة الماضي. قبضت على كم معطفه المشبع بالماء، فالتف وهو يزيح اللفاح عن وجهه المحمر من الرياح. ورأيت أنه كان واعياً بما يكفي، ولكن عينيه كانتا مفتوحتين بخوف. قلت: "ما الأمر؟"

هدأ الرجل الآن، وهو مرتاح أن هناك أحداً سيستمع إليه. قال: "أنا شرطي، أحضرت السجناء. هناك رجل قُتِل، هناك في الأعلى بالقرب من جبل سيلو، وأعتقد بأن لدينا القتلة." كنت مذهولاً جداً لأجيب، لذا تابع هو. "لقد أحضرتهم معي، ولكن كانت رحلة في عربات جياد استغرقت يوماً خلال ثلوج عميقة، ولن أقحم نفسي أو حصاني خلال تلك الرحلة مرة ثانية، ولو لفترة قصيرة. سأمكث الليلة على نفقة المقاطعة قبل أن أتوجه عائداً إلى أعلى الجبل.

ابتسمت له ابتسامة متعاطفة، وسحبته إلى الداخل، مغلقاً الباب في وجه

الريح . "لن تستمع مني إلى مجادلة عن نيتك في الاستراحة في حانة قبل التوجه إلى بلدك ،" قلت له . "إنني أفهم المعنى في روايتك . ليس هناك شيء يمكن أن يدفعني إلى القيام برحلة شاقة كهذه مرتين بدون فترة راحة ."

"والمقاطعة ستدفع مقابل إقامتي؟"

"لست الرجل الذي يبت في هذه الأمور المالية ، أو حتى الذي يقبل سجناءك . إنك تريد العمدة أو السجّان ، في حال عدم وجود العمدة . إنني الكاتب في المحكمة العليا ، وأنت لن تكون بحاجة لخدماتي إلى أن تصل القضية إلى المحاكمة في فترة الربيع ، بعد ثلاثة أشهر من الآن ."

"لا أحد هنا سواك ،" قال لي . "قال لي صبي في الشارع إنني سأجدك هنا . لقد أحضرت رجلاً معي . إنه يحرس لي السجناء الآن . اعتقدت بأنك ستستدعي أحداً ما ليتولى أمرهم ، بحيث يمكنني أن أنصرف إلى احتساء شراب ، وإلى غرفة دافئة ." واستخدم أسنانه ليسحب القفازات المصنوعة من جلد الغزال عن أصابعه . "معي مذكرة الاعتقال ،" قال وهو يسحب قطعة صغيرة من الورق من ثنيات ردائه الغائرة .

لقد تعرفت على زائري الآن . الفتى الشاب ، شرطي من أراضي المقاطعة البعيدة ، كان ابن ديفيد بيكر العجوز ، وهو من وطنيي الثورة ، وأحد مالكي الأراضي البارزين في الغرب . لقد رأيت هذا الشرطي الشاب في بعض الأحيان أثناء انعقاد المحكمة . أمعنت النظر في الوثيقة ، إنها مذكرة اعتقال مكتوبة بقلم شقيقه ، وهو قاضي صلح في واحدة من تلك المستوطنات على بعد أميال من هنا ، بالقرب من الجدار الجبلي .

تبعد مقاطعة بيرك أكثر من خمسين ميلاً ، والجزء الغربي البري منها يقع في جبال شديدة الانحدار ، مع أنهار متحدرة مليئة بالصخور وضحلة بالنسبة للتجارة بقوارب نهرية ، وأحراش من الشجر تحوط الأراضي الأبعد . ومن سفوح كارولينا

ليس هناك سوى ثلاثة مداخل إلى تلك البرية؛ فجوة جيليسبي، وفجوة بوك كريك، والأدراج اللولبية؛ ومن داخلها فإن فجوة الجبل الحديدي هي المخرج الذي يقود إلى تينيسي. هذا الحصن من التلال بين السفوح ومستوطنة تينيسي، كان ذات يوم أرضاً للصيد لقبائل الشيروكي والشوني. والآن هو مملكة الدببة والإلكة؛ أرض الجبال الجرداء الغريبة، وغابات بلوط وكستناء خصبة، وينتشر عبرها هنا وهناك سكان الحدود في مساكن مؤقتة.

ويمكن لرجل حازم، أو لرجل يائس، أن يعيش بصعوبة على هذه الأرض القاسية. ولكنها ستكون حياة موحشة، بعيدة عن المجتمع الراقي كما أعرفه. ولا يمكن أن يقوم رجل نبيل بإقامة مزرعته غرب مورغانتون، حيث تنتهي هنا أرض السفوح الخصبة للهضاب المتموجة والحقول المستوية الواسعة. يعيش بعض الناس في الأراضي الغربية من مقاطعة بيرك، ولكنهم غير اجتماعيين. وهناك قطع كبيرة من تلك الأراضي القاسية قد تم منحها لجنود قاتلوا في حرب 1812، الأمر الذي أدى إلى جعل عشرات من المزارعين الذين لا يملكون أراضي ينزلون من ميريلاند وبنسلفانيا متطلعين إلى مسكن ومزرعة على الحدود، بعيداً عن جيرانهم الشرقيين الأثرياء الذين حجزوا الساحل بمزارعهم. وظننت أن عائلة الشرطي كانت واحدة من أهل هذه الغابات البعيدة عن العمران، ولكن نظراً لأن ممتلكاتهم كانت على بعد أميال غرب مورغانتون، فإنهم لن يكونوا معروفين بالنسبة لي. إن أغراباً كهؤلاء ظهروا في مناسبات اجتماعية في حفلات راقصة وفي حفلات عشاء في مورغانتون، وكان مُرحَباً بهم دائماً من الشرقيين منّا، لأن هذا الأسلوب أرسى الحكومة، والمجتمع، والحضارة؛ وغرباً تقع فقط البرية غير المطروقة، والمناطق الهندية، وتينيسي.

لقد ارتُكِبت جريمة قتل، هذا ما قاله تشارلي بيكر. وبالكاد أدهشني هذا في مثل هذا المكان الوحشي. تفحصّت الوثيقة بدقة.

ولاية نورث كارولينا

مقاطعة بيرك

في هذا اليوم وقف إيليجا غرين أمامي أنا دي. دي. بيكر قاضي المقاطعة بالنيابة، وأدى القَسَم بالشكل المناسب للقانون بأن فرانكي سيلفر و [شيء ما تم شطبه هنا] باربرا ستيوارت، وبلاكستون ستيوارت يُعتقَد أنهم قتلوا تشارلز سيلفر خلافاً للقانون، وضد هيبة سيادة هذه الولاية. تم القَسَم والموافقة على ذلك من قِبلي هذا اليوم التاسع من كانون الثاني/يناير، 1832.

دي. دي. بيكر *إيليجا غرين*

ملحق لهذه الوثيقة كان هناك بضعة أسطر أخرى من القاضي بيكر يفوِّض فيها موظفي قانون بوضع الأشخاص المتهمين رهن الاعتقال، وإحضارهم بأمان أمام قاضي المقاطعة للرد على التهم الموجهة ضدهم.

"كل شيء يبدو حسب الأصول،" قلت وأنا أعيد الورقة إلى شقيق القاضي. "وتقول إنك أحضرت السجناء؟ رجلان وامرأة؟

"امرأتان، يا سيدي،" قال الشرطي.

نظرت مرة ثانية على مذكرة الاعتقال. "باربرا ستيوارت و ... فرانكي؟"

"أم وابنتها. الابنة، فرانكي، هي زوجة المتوفى. جميعهم في الخارج مع الشخص الذي أحضرته معي. لم يسببوا لنا أي متاعب في الرحلة، ومع ذلك أفضِّل العودة مباشرة."

"إذن، ستعود،" قلت له. "أحضر سجناءك هنا في المحكمة، حيث تنعمون جميعكم بالدفء، وسأجد لك السيد بتلر، أو، في حال عدم وجوده، السيد برسنل. وبالمقابل عليك أن تعِد بأن تخبرني بما حدث في تلك الجبال وأدى إلى هذه التهمة الخطيرة."

كنت متشوقاً لسماع المزيد من هذه الأخبار، ولكن، بأمانة، لم أكن لأتمكن من ترك نساء ينتظرن في الخارج في يوم قاسٍ كهذا، حتى لو كن قاتلات شريرات. باربرا ستيوارت وابنتاها الناضجتان. لم تعنِ لي الأسماء أي شيء. تخيلت أن عجوزاً شمطاء هرِمة وابنتيها المعتوهتين قُبض عليهن يسممن مسافراً مسكيناً، أو ربما زوج من المخبولات، خرجتا عن رشدهما بسبب البرد والعزلة في ذلك الحصن الجبلي. ارتعدت من التفكير أن بلدنا البهي يحتوي على مثل هذا الشر.

من ناحية أخرى، فإن الأخبار هي عملة متداولة في مورغانتون، كما هو الحال في أية مدينة أخرى مفعمة بالنشاط، وأردت أن يتم إثرائي بمعلومات قبل أن تنشر الإشاعات والثرثرة هذا الأمر في كل أنحاء المعمورة. استعدت معطفي ورافقت بيكر إلى الخارج. كان هناك خمسة جياد مربوطة إلى شجرة البلوط بجانب الدرجات. ووقف مرافق الشرطي بيكر على ممر دار القضاء، وكان مسدسه مجرداً من غمده وموجهاً نحو الأشخاص الذين في عهدته.

كان اثنان من السجناء يجلسان القرفصاء على الأرض تحت الشجرة، متدثرين كثيراً بمعاطفهما الشتوية بحيث كان يمكنني قول القليل عنهما فيما عدا أنهما كانا يبدوان غير مباليين بالمسدس المسدَّد عليهما، إذ إنهما لم ينظرا حتى ناحيتنا.

على أحد الجياد جلست فتاة صغيرة، كانت ضئيلة جداً وشاحبة، حتى أنني في البداية ظننتها طفلة. كانت مغطاة بمعطف فضفاض ذي قلنسوة، ولكن كان بإمكاني رؤية شعر أشقر على جانبي وجهها، وقد احمرت وجنتاها من البرد. لقد كانت فرانكي سيلفر ضئيلة ونحيلة، ولكن كان لها جسد كالسلك لإنسانة شهدت نصيبها من العمل الشاق مقابل أجر ضئيل في مزرعة على تلة. كانت تبدو أنها في حوالي الثامنة عشرة من عمرها الآن، أصغر مني بسبع سنوات فقط، ولكن كم كانت المسافة شاسعة بيننا في الخبرة والفرص! في سن الثلاثين، عندما لا أزال في ريعان شبابي، ستكون هي امرأة عجوزاً، إن لم تقضِ عليها الولادة أو

المرض، أولاً. ومع ذلك، الآن فقط، كانت جميلة. كان شعرها بلون القش، ولكن ملامحها كانت بسيطة، وكانت هناك طلعة بهية لوجهها، فيما عدا سيماه التي تنم عن كآبة. على الأقل، لم تكن تبكي، كما خشيت أن تفعل، ولكن ربما إذا فعلتَ ما هي متهمة به، فليس عندك دموع في داخلك.

كانت تبدو مهمومة، ولكن من فينة لأخرى، عندما كانت تختلس نظرة إلى المكان من حولها، كان الفضول يضيء وجهها، مبدداً عبوس القلق. كانت قسمات وجهها رقيقة، ليست بأناقة ملامح زوجتي إليزابث، بالطبع؛ ليست سيدة؛ ولكنها جميلة إلى حد ما.

باعتقادي أنه *لم يسبق لها أن حضرت إلى المدينة من قبل*. هناك كثير من هؤلاء الفتيات في الغابة، يولدن وينشأن في أكواخ خشبية، وغريبات عن أساليب حياة طبقة الأشراف. كم هو مؤسف أن هذه المخلوقة البائسة يجب أن ترى المشاهد الطبيعية بستار كئيب كهذا.

"هل هذه سجينتك؟" سألتُ تشارلي بيكر، وأنا لا أزال أشك فيما أراه بأم عيني.

أومأ برأسه. "فرانكي سيلفر." لقد شكر الرجل الذي كان يراقب الجياد والسجناء، وطلب منه أن يأخذ الجياد إلى الاسطبل لإيوائها وعلفها مقابل أجر. أدخل الشاب مسدسه في قِرابه، وابتعد، على مضض إلى حد ما، على ما أعتقد. لقد كانت هناك حكاية في هذا القادم الغريب، وأعتقد بأن من حقه أن يكون متواجداً عند سردها، مقابل خدماته على الطريق. لقد خاب أمله. تشارلي بيكر سيستأثر بالمجد كله لنفسه.

"ولكن، أيها الشرطي، من المؤكد أن هذه ... هذه الطفلة لا يمكن أن تُتهَم بالقتل.

التفت تشارلي بيكر مبتعداً، ربما ليخفي ابتسامة عريضة على سذاجتي. "إنها امرأة ناضجة، بما يكفي. متزوجة منذ سنتين أو ما يقرب من ذلك، وقد تركت طفلة وراءها في منزل عائلة سيلفر. طفلة يتيمة الأب الآن." والتفت إلى المرأة الشابة التي كانت ترتجف، وحلّ الحبل الذي كان منعقداً تحت بطن حصانها، رابطاً أحد كاحليها إلى الآخر. "إنزلي عن حصانك الآن، سيدة سيلفر. إنهضي، سيدة ستيورات. بلاكستون. سننتظر في دار القضاء."

مشت باربرا ستيوارت وابنها بتثاقل باتجاه درجات دار القضاء بدون ذلك القدر من النظرات في اتجاهي. اتكأت الأم على كتف الشاب القوي، إما من التعب أو من اليأس، لا يمكنني أن أعرف.

رفعت فرانكي سيلفر يديها من تحت ثنيات معطفها، ولأول مرة كان بإمكاني رؤية أن معصميها كانا مربوطين بحبل من القنب. أمسك بيكر الحصان، وقمت أنا بمساعدتها في الترجُّل، وذلك لأن يدي شقيقها كانتا مربوطتين كذلك، بحيث لم يكن بإمكانه أن يساعدها. ويبدو أنها كانت تضيف القليل إلى وزن المعطف بحد ذاته؛ في الواقع، كان بإمكاني حملها طوال الطريق إلى دار القضاء دون الشعور بأي جهد، ولكن لن يكون ذلك لائقاً، ولم أفعل. أنزلتها على الأرض بشكل ملائم، وبعدئذ، وأنا أشعر وكأنه ينبغي علي أن أُحدث بعض المزاح مع هذه المخلوقة الصغيرة التي كانت في مثل هذا الضيق، فقلت: "حسناً، سيدتي، أتمنى أن إقامتك في سجننا لن تكون مرعبة جداً بالنسبة لك. يمكنني أن أتمنى لك إقامة أفضل من هذه في صباح شتاء بارد. إنهم لن يوافقوا على إخلاء سبيلك بكفالة، بالطبع، ولكن مع ذلك، إنه أمر مؤسف جداً إبقاء امرأة في مثل هذه الغرفة الصغيرة الباردة، بدون نوافذ ولا كرسي، وبالكاد غرفة يمكن الاستدارة فيها."

رفعت نظرها نحوي للحظة، ومن ثم هزت كتفيها استهجاناً. "أين تحسب أنني كنت أعيش قبل أن أحضر إلى هنا؟"

لم أرَ العمدة بتلر ذلك الصباح، بالرغم من أنني اعتقدت أن ليس لديه شيء يفعله في صباح يوم ثلاثاء احتجزته فيه الثلوج. إن لم يكن في منزله، إذن أعتقد بأن الحانة هي المكان المعقول للبحث عنه فيه. لقد كان هناك العديد من الأماكن في مورغانتون للاختيار منها. وكانوا يوفرون سكناً لأولئك القادمين إلى البلدة من أجل المحاكم، أو لمسافرين متجهين قُدُماً فوق الجبال؛ وبالنسبة لبقيتنا كانوا يوفرون مكاناً للتلاقي والحديث، وإرواء عطشنا. كما نشروا الأخبار بكلمات تنتشر مثل النار في الهشيم. إن حكايات هذا الاعتقال، والسيدة سيلفر الشابة الجميلة، ستُثير الكثير من الكلام الذي سيحتاج إلى برميل من الويسكي ليروي الحناجر الجافة لمروجي الأخبار.

وجدت العمدة ويليام بتلر في الحانة الثانية التي حاولت العثور عليه فيها. إنه سيترك المنصب في غضون بضعة أشهر، وذلك لأنه لا يُسمَح لعمدات نورث كارولينا بالخدمة أكثر من فترة واحدة في المنصب على التوالي. وقبل نهاية العام ستكون هناك انتخابات لشغل المنصب، بالرغم من أن الانتخابات الرئاسية كانت موضوع تحاور أكبر بين قاطني المدن.

هذا التطور الجديد سيشغل اهتمام العمدة، على ما أعتقد، وربما يحوِّل الثرثرة في البلدة عن المناقشة الأبدية عن آندرو جاكسون وفرصه في إعادة انتخابه. كان بتلر يكبرني ببضعة سنوات فقط، وتربطني به علاقة اجتماعية، كما تعاملت معه في إطار مهامنا المشتركة تجاه القانون، ولأن ويل كان الأخ الأصغر للسيد جون إدوارد بتلر صاحب بستان شجر الخروب (لوكست غروف)، وهو مالك أراضٍ مشهور، ومشارك ناشط في شؤون مقاطعة بيرك. وكان الأخوان بتلر يتواجدان غالباً في اللقاءات الاجتماعية لعائلة إيروين، ونحن بدورنا تناولنا معهما الطعام في بستان شجر الخروب. وكانت زوجة ويل الراحلة صديقة عمر إليزابث، والتي لا تزال

مفجوعة بموت صديقة طفولتها المفاجئ. هكذا تكون روابط الصداقة بين رجال الأعمال في بلدة صغيرة. تساءلت ماذا يمكن أن يفعل ويل بهذا الخبر.

قمت بإلقاء التحية على الأشخاص الذين أعرفهم في الحانة، وأشرت إلى العمدة بتلر ليرافقني إلى الخارج. "واجبك يناديك، ياسيدي." قلت وأنا أحاول أن لا أجعل الأمر يبدو هاماً. ومع ذلك، فقد عرف أن هناك أمر سيئاً، حيث أنه التقط قبعته ومعطفه وتبعني إلى الشارع بدون لحظة تأخير.

"شرطي من المقاطعة الغربية قد أحضر ثلاثة سجناء،" أخبرته ذلك وأنا أقوده خلال الأخاديد المتجمدة التي حفرتها العربة، باتجاه ساحة دار القضاء.

استمع إلي حتى النهاية في صمت وأنا أخبره عن مذكرة الاعتقال ووصول الشرطي. وقلت: "في الواقع أنني أعرف القليل عما حدث، ولكن طالما أنه لا يمكن العثور على السجان في هذه اللحظة، فقد وضعت السيد بيكر وسجنائه الثلاثة في دار القضاء في انتظار أوامرك. عندما رأينا السيدتين والصبي قد تم إيواؤهم بأمان تحت وصايتك، فربما يمكننا أن نقنع الشرطي بأن يحدثنا عن الظروف التي أتت بها إلى هنا."

أجاز ويل بتلر لنفسه ابتسامة. فاستخدامي لكلمة "بها" ("نحن") لم تفلت منه، ولكنه أومأ برأسه موافقاً على اقتراحي. "نعم، يتعين علينا الاستماع إلى حكايته، بيرجس."

"سيكون مضطراً للتحدث بلغة الملائكة لإقناعي بذنب الإبنة. لا يمكنني إعطاء رأيي في الاثنين الآخرين حيث أنني بالكاد لمحتهما، ولكن في الواقع أنا مقتنع بأن خطأ ما قد تم ارتكابه في القبض عليها. انتظر حتى تراها، بتلر! إنها بالكاد تبدو أكثر من طفلة."

إذا كانت السجينة، كما تقول، امرأة شابة جميلة، فيتوجب عليهم أن يكونوا متأكدين تماماً من ذنبها في المقاطعة الغربية للنطق بحكم بأي حال من

الأحوال. ستكون المحاكمة في آذار/مارس، على أي حال، في دورة المحكمة الربيعية ـ ولكن إذا أصبح السيء أسوأ، فإن نتائج تلك المحاكمة لن تحدث إلا بعد زمني. إنني لا أحسد خليفتي على عمله."

فهمت قصده الرهيب على الفور، ولكنني ارتبت في تنبؤه. "لن يصل الأمر إلى ذلك الحد." قلت له. "لن يقوموا بشنق امرأة."

تركت ويل بتلر ليقوم بواجبه، وعدت أدراجي إلى مكتبي ودفاتر سجلاتي. لقد انتزعت وعداً منه بإحضاري عندما تم حبس السجناء بأمان في رعاية غابي بريسنل. كان سجن مورغانتون على مسيرة مسافة قصيرة فقط من دار القضاء، وهو بناء خشبي من طابقين، غرفتان في الطابق الأرضي لسكن السجّان، وأربع غرف في الطابق العلوي لحبس السجناء. إنه بالكاد مكان ملائم لحجز نساء فيه، حسب اعتقادي، ولكنني أظن أنه أفضل من الزريبة ذات الأرضية المفروشة بالأوساخ، والتي كانت بمثابة سجن قبل عشر سنوات. لقد سمعت والد زوجتي، مالك الأراضي إيروين، يتحدث عنه، حيث أنه كان كاتب المحكمة العليا قبلي، وخلال جزء كبير من ولايته، كانت هذه الحظيرة البدائية مُستخدَمة كسجن المقاطعة. ووصف لي ذات مرة الرائحة الكريهة، والقش، والأرض المفروشة بالأوساخ.

"مثل الإسطبل،" قلت معقباً.

"ولا بأي حال،" قال المالك. "ما كان أحد ليقوم بالاحتفاظ بخيول جيدة في الظلام الرطب ونتن الرائحة لهذه الزريبة الخشبية، ولكن مقاطعة بيرك بحكمتها أدركت أن أماكن إقامة من هذا القبيل كانت جيدة بما يكفي لسجنائها. حتى أننا حبسنا فيها مدينين في تلك الأيام، البائسين الفقراء. ومع ذلك، أعتقد بأنه كان مناسباً بما يكفي لمعظم الأوغاد الذين قبضنا عليهم."

إن السجن الخشبي الجديد أفضل إلى حد كبير من الزريبة الخشبية القديمة، وقد استهنت بمتاعبها بالنسبة للمرأة الشابة السجينة، ولكن، في الحقيقة، سأنام على القماش القطني في دار القضاء أسرع مما أنام هناك في تلك الغرفة الصغيرة، القريبة جداً إلى الرائحة الكريهة وقمل أجساد السجناء الآخرين. ولن يكون الوضع في الخارج أكثر برودة، وعلى الأقل سيكون الهواء أكثر نقاءً.

عدتُ إلى دفتري، وكان نفَسي لا يزال يغشي الهواء فوق مكتبي بالضباب. ومع ذلك، فإن سنة جديدة قد بدأت، ولدي الكثير لأكون ممتن له، ومعظمه يعود إلى شقيقي الراحل، الذي لا يزال يحزنني موته المفاجئ قبل سنتين. لقد حضرت إلى حفلات الكوكتيل عند ألفرد، متوددا لشقيقة زوجته، وقد حظيت بها، بالرغم من أن ألفرد لم يعش ليرانا متزوجين. كانت زوجتي إليزابث تكبرني بثلاث سنوات، ذكية، وعذبة الحديث، وسيدة بكل معنى الكلمة، ومع كل ذلك لم تكن ذات جمال باهر. لقد كانت من عائلة إيروين، وهذا فسَّر كل شيء. لقد كان إيروين اسماً مشهوراً وهاماً في مقاطعة بيرك، لأن عائلة إيروين *كانت* هي مورغانتون. لقد كان الأخوان إيروين اللذان استقرا هناك في أواخر القرن الثامن عشر مزارعين من النبلاء، وقد امتلك الخلَف الكثير المتحدِّر منهما مساحات شاسعة من الأراضي، مسيطرين على مراكز الاحترام والسلطة في كل المجتمع. وبعد أكثر من أربعين عاماً من الإقامة، اعتنت عائلة إيروين بالناس في مقاطعة بيرك بإحسان كان شبه إقطاعي. وبالنسبة لي كمحام شاب متخرِّج حديثاً، كانوا يبدون نموذجاً لكرم الضيافة والود النبيل، بتوفيرهم السكن للقادمين الجدد، وإقامة مأدبات عشاء وحفلات في بيلفيو وبيلفيدير لأولئك الذين يحضرون إلى البلدة لحضور جلسات المحكمة المتنقلة في الربيع والخريف. وتجاه صهر جديد، كانوا كرماء بسخاء. لقد كانوا الكرم بذاته. عندما وافقت الآنسة إليزابث

إيروين بلباقة أن تكون زوجة لي، كان قد تم استدعائي للدراسة في بيلفيدير لمواجهة والدها، الذي كان في حينه قد تحرّى عن إمكانياتي. وكنت مضطراً لأن أبلغه أنه في الواقع، فيما عدا تعليمي، ومهنتي في القانون، واسم عائلتي الطيب ـ لم أكن أملك أي شيء.

كان ويليام ويلوبي إيروين هو نفسه محامياً، وكان والد زوجة أخي الأكبر ألفرد، الذي تزوج الآنسة كاثرين إيروين في آذار/مارس من عام 1828، لذا تشجعت للحديث بصراحة معه، حيث أننا كنا محاميين أخوين، وكل شيء سوى قرابة النسب. وأخبرته أنني تمنيت أن نقوم ألفرد وأنا بإنشاء عمل لممارسة المحاماة معاً، ولكن لم يتحقق ذلك، فقد توفي قبل حتى أن أنهي تدريبي في القانون، واضطررت لإنهاء دراستي تحت وصاية القاضي كالدويل. وكان أفراد عائلة غيذر متعلمين ومن طبقة رفيعة في المجتمع، ولكننا لم نكن ميسوري الحال. توفي والدي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، وتولى ألفرد، الطفل الأكبر في العائلة، مهام والدي تجاه أفراد عائلة غيذر الأصغر سناً. لقد كام مرشدي، وصديقي، وزميلي في القانون، وقد افتقدته بألم شديد. وبموت ألفرد تلاشت آمالي بالشراكة والرخاء، واعترفت بعوزي بسهولة إلى حد كافٍ، حيث كنت واثقاً من أن مالك الأراضي إيروين كان يعرف عن ذلك أصلاً.

"ولكن،" قلت له، "أنا رجل أمين، وأخاف الله، ولا أخشى العمل الشاق، وغير معتاد على الترف، أو بحاجة له." لقد كان كلاماً جميلاً ليُقال، وأنا أقف على سجادة مالك الأراضي تركية الصنع (المصنوعة من ريش الحبش)، ومحاط بمكتبته التي تحوي ألفاً من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية. ولوحت بكأس الخمر تأكيداً على كلامي، وكنت على وشك الاصطدام بالثريا الزجاجية التي كانت تومض فوقي.

بقي ويليام إيروين رزيناً عند تصريحي، ولكنني تخيلت أنه كان هناك بريق في عينه. قال: "سنفعل، سنرى ما الذي يمكن عمله بشأن طموحاتك، يا سيدي."

ربما أنه كان يفكر بحقيقة أن ابنته إليزابث لها سبع أخوات، وأن المحامين الشبان المؤهلين على الحدود لم يكونوا كثر إلى درجة لا تترك مجالاً للمرء بأن يكون دقيقاً جداً بشأن أزواج بناته المحتملين. وهكذا، تزوجت أنا وإليزابث، وفي غضون بضعة أشهر استقال مالك الأراضي إيروين من منصبه ككاتب لمقاطعة بيرك، وهو منصب تولاه لمدة أربعة وأربعين عاماً. وتم منح الوظيفة لي.

لقد كان دخلاً ثابتاً، ومنصباً مدنياً محترماً أبقاني في علاقات جيدة مع المجتمع القانوني، ووفر لي فرصة لتعلُّم المزيد عن مهنتي من خلال مراقبة محامين أكثر حنكة وخبرة أثناء عملهم. وفي غضون بضع سنوات، أصبحت خبرتي ومركزي في المجتمع ذلك الذي يمكّنني من إنشاء مكتب محاماة خاص بي. وحتى ذلك الحين، كنت راضياً بالعمل بكدّ ككاتب في قاعات العدالة. لقد كنت كاتباً في محكمة أعلى لمدة ثمانية عشر شهراً، محبوباً، وسعيداً بمهنتي وعائلتي، لأنني وإليزابث رُزقنا بإبن، أسميناه ويليام، على اسم مالك الأراضي العجوز. وسنسمي الآخر ألفرد.

كان قد مضى على قدومي إلى عملي أقل من ساعة عندما ظهر العمدة والساعي عند باب مكتبي. "تعال معنا يا بيرجيس،" قال ويل بتلر. "الشرطي بيكر وعدنا بقصة تناسب الحانة، ولكننا نفضّل الحصول على الأخبار بخصوصية. تعالوا إلى منزلي، وانعموا بالدفء أثناء معرفتنا ماهية هذا الأمر."

مسيرة قصيرة على الأقدام أخذتنا إلى منزل بتلر. وأجلسنا في قاعة الاستقبال، وهي غرفة بسيطة إلى حد ما، ولكنها دافئة ومريحة كما يمكن أن يتمناه المرء. قدَّم لنا بعض ويسكي الذرة الذي كان يحتفظ به في وعاء فخاري ـ وليس في زجاجة البراندي الكريستالية التي ربما قدمها محامو راليه النبلاء، ولكنها كانت مقبولة بالرغم من ذلك، وأبعدت البرد عن عظامنا. وفي الحال كان الشرطي بيكر يجلس بجانب النار، يذيب الثلج عن حذائه الموحل على السجادة

التي بجانب الموقد، ويداعب رأس أحد كلاب بتلر. انتظرنا حتى قرأ العمدة مذكرة الاعتقال من قاضي الصلح، بيكر.

بعد بضعة دقائق من الصمت، وضع ويل بتلر الوثائق جانباً ونظر إلى ضيفه. وقال: "الآن، أخبرني ماذا حدث.

أدفأ تشارلي بيكر حنجرته بجرعة من الويسكي وبدأ: "تعرف جاكوب سيلفر من الطرف الآخر من المقاطعة ـ على طول نهر تو، كانت أرضه ـ"

قلت: "لا أعرفه.

"هل قتل أحدهم جاكوب سيلفر هذا؟" سأل بتلر. ومد يده إلى الوثائق مرة ثانية، ولكن هز رأسه عندئذ، متذكراً أنه كان هناك اسم آخر على مذكرة الاعتقال بوصفه ضحية. استراح في كرسيه، وهو يرى أن بيكر كان عازماً ومصمماً على صنع حكاية من ذلك. يمكننا كذلك الاصغاء إليه حتى النهاية.

"لا، يا سيدي. لم يقم أحد بقتل الرجل العجوز، بالرغم من أني أعتقد أن الأسى الذي سببه هذا قد وجّه ضربة إلى صحته. إن جاكوب سيلفر هو رجل يحظى باحترام في المجتمع. إنه يمتلك قطعة أرض رائعة فوق الجبال حصل عليها كمنحة لخدمته في الجندية. وقد انتقل من ميريلاند قبل حوالي عشرين عاماً، بعد الحرب الإنجليزية، هو وبعض أشقائه. وأحضر معه ولده تشارلي، الذي توفيت أمه أثناء ولادته. لم يكن تشارلي حينئذ أكثر من طفل صغير يوضع في الحضن.

جاكوب العجوز لديه الآن الكثير من الأولاد. وقد تزوج نانسي ريد في دبل أيلاند، قبل أكثر من سبعة عشر عاماً، ولديهما حوالي ثمانية أولاد شباب. وكان تشارلي، الذي قُتِل، هو الإبن من ميريلاند، من زوجته الأولى. لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره. وقبل عامين تزوج من فرانكي ـ"

"ربما أن الاسم هو فرانسيس،" تمتمت لبتلر، الذي أومأ برأسه موافقاً.

"هذا صحيح،" قال بيكر. "كانت الآنسة فرانسيس ستيوارت، قبل أن تتزوج من عائلة سيلفر. والسجينان الآخران، باربرا ستيوارت والصبي الأصغر بلاكستون، كانا يعيشان على الضفة الأخرى من نهر تو التي تبعد حوالي ميلين باتجاه مجرى النهر عن منزل أسرة جاكوب سيلفر. إنه منزل أشعيا ستيوارت. وهو من مقاطعة آنسون، وهو وزوجته باربرا ـ

"أخبرنا عن الجريمة،" قال ويل، فاقداً صبره أخيراً. "يمكننا تصنيف نسلهم فيما بعد."

"أول إشارة للمشكلة كانت في 23 كانون الأول/ديسمبر. في ذلك الصباح ذهبت فرانكي سيلفر إلى كوخ أهل زوجها، مع طفلة تحملها على جنبها، وأخبرتهم أن تشارلي غادر المنزل قبل يومين، ولم يعد. وكانت تريد أن يأتي أحد ليعلف البقرات."

"لماذا لم تطلب من أقاربها القيام بذلك؟"

"كان رجال العائلة قد خرجوا. على الأقل والدها كان بعيداً عن المنزل. وكان لها أخ أكبر، جاكسون، متزوجاً من فتاة من عائلة هاويل، ولكنه كان مغادراً مع والده. وسمعت أنهما كانا في رحلة صيد طويلة في كنتاكي. ولم يكونا قد عادا عندما غادرتُ هناك بالأمس. أحسب أن الصبي الأصغر، بلاكستون، ربما يكون قد ساعدها. كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره. ولكن، كما قلت، كانت عائلة ستيوارت تعيش على بعد ربع ميل من فرانكي، وعلى الجانب الآخر من النهر، في حين أن بيت عائلة سيلفر كان فقط على بعد ميل واحد أسفل التلة من بيت فرانكي وتشارلي. وكان الثلج بعمق يصل حتى الركبة، وكان النهر متجمداً. وأحسب أنها لم تكن تريد أن تجازف بعبوره، مع الطفلة وكل شيء. على أي حال، أتت إلى منزل والدي تشارلي، باردة كذوبان الثلوج، قائلة إنه كان قد ذهب ليحضر خمره لعيد الميلاد. وقالت بأنه ذهب إلى منزل جورج يونغ ومعه وعاؤه

tele @ktabpdf

الفخاري وكمانه. متفاخرة بأنها كانت مشغولة من بزوغ الشمس في الغسيل وتوضيب البيت. ولم تكن تبدو أنها مهتمة بأن زوجها اختفى، كانت فقط تريد أحداً ليعلف الماشية. لذا، فقد أرسلت عائلة سيلفر ألفرد، ولدهم الأكبر الثاني، للاعتناء بالمواشي، وعادت فرانكي إلى البيت.

"كل يوم بعد ذلك، كانت فرانكي تأتي للزيارة، وهي متذمرة أكثر منها خائفة، وتقول إن تشارلي لم يعد بعد، وكانت عائلة سيلفر تزداد قلقاً في ذلك الحين. كان تشارلي شخصاً متفائلاً؛ دائماً بابتسامة وأغنية؛ الجميع كانوا يحبونه. أخيراً قالت فرانكي بأنها لم تكن تهتم إذا عاد زوجها الذي لا قيمة له، أم لا، وإنها كانت ذاهبة لتقيم في منزل والدتها، وإنها آخذة الطفلة معها.

"في ذلك الحين، كانت عائلة سيلفر قلقة بشكل بالغ على تشارلي سيلفر، كون الجو كان عز الشتاء، وكل شيء. وحيث أن تشارلي كان شخصاً مشهوراً بشرب الخمر والعزف على الكمان، فقد اعتقدوا بأنه من الممكن أنه وجد حفلة رائعة إلى درجة لا يمكن مغادرتها، واختبأ ثملاً في مكان ما، ولكن كان قد مر أكثر من عشرة أيام في ذلك الحين، ولكن لم يكن من عادته أن يغيب لفترة طويلة هكذا. أرسلوا إلى منزل جورج يونغ آملين أن يعثروا عليه، وقال جورج إن تشارلي قد حضر من أجل ذلك الخمر الخاص بعيد الميلاد، وقد حصل عليه، ولكنه قال إن تشارلي قد حضر وذهب قبل عدة أيام. ولم تره عائلة يونغ منذ ذلك الحين.

"وفي ذلك الحين كانت عائلة سيلفر تجوب الغابة بحثاً عنه، وجميع الآثار التي أدت إلى بيت جورج، في حال أن تشارلي سقط أو أصيب بأذى في طريقه إلى المنزل من منزل عائلة يونغ، وربما الأسوأ بسبب شرب الخمر. وحتى عائلة سيلفر وجيرانهم وأقاربهم نزلوا ليتفحصوا النهر، ولكنه كان متجمداً وصلباً، ومغطى بثلوج غير مكسورة. ولم تكن هناك إشارة إلى أن أي شخص قد سقط فيه. بعد ذلك، تابع بعض الجيران ــ وعائلتي، وإيليجيا غرين، وعائلة هاول، وعائلة

هتشينز، وتابع العجوز جاك كولينز البحث، وجاكوب ـ كان غاضباً في ذلك الوقت ـ وكان ... حسناً، رحل إلى تينيسي."

مهما كان ما توقعناه، فلم يكن هذا. "رحل إلى تينيسي؟" قال بتلر. "من أجل ماذا فعل ذلك؟"

رفع بيكر كتفيه مستهجناً. "النصيحة، أحسب أنك ستسميها. لقد سمع كلاماً عن زنجي غينيا هناك على طريق جونزبورو، حيث يقول الناس إن لديه قوى سحرية."

ابتسمت على هذا الجزء المؤثر من التخريف، ولكنني تذكرت عندئذ الطبيعة المأساوية لهذه الحكاية، ونبهني هذا الأمر على الفور. إن والدين فقدا ولدهما سيحاولان الوصول إلى أي راحة يمكنهما العثور عليها. لقد كنت مهتماً بهذا التطور. ويُقال إن زنوج غينيا يتمتعون بقوى سحرية أحضروها معهم كأثر باقٍ من الوثنية من بلادهم، ولكنني نادراً ما سمعت عن أي شخص يطلب منهم أكثر من مجرد تنبؤ بالحظ؛ وعود محببة في مستقبل وردي. وهذه المهمة العاجلة للعثور على شاب مفقود ستثبت تحدياً لمثل هذا الرجل المشعوذ. "وماذا أخبر الإفريقي السيد سيلفر؟"

"لقد طلب من سيلفر أن يرسم له خريطة للوادي حيث فُقِد تشارلي، وأن يحدد الأكواخ، والنهر، وسلسلة الجبال، والحقول ـ كل شيء. عندئذ تناول ذلك الساحر العجوز حلية متدلية مربوطة بسير جلدي، ثم أخذ يؤرجحها بحركات دائرية فوق الخريطة. وبالاستماع إلى جاكوب سيلفر يروي القصة، تأرجحت تلك الكرة بحركات دائرية فوق الخريطة، وأخذت تتباطأ أكثر فأكثر إلى أن توقفت تماماً، وأخذت تحوم هناك فقط ـ بالضبط فوق كوخ تشارلي. ورفع المشعوذ نظره، وقال: 'ذلك الصبي لم يغادر منزله أبداً.'"

tele @ktabpdf

نظرنا بتلر وأنا إلى بعضنا البعض. من المؤكد أن السجين كان هنا بناء على دليل أكثر من حيلة كرة وخيط فوق خريطة؟ "قاموا بتفتيش الكوخ بعدئذ؟"

"كانوا قد فعلوا ذلك سابقاً!" قال تشارلي بيكر، وهو يبتسم بانتصار. في الوقت الذي كان فيه جاكوب سيلفر مغادراً إلى الجبال إلى تينيسي، وتركت فرانكي المكان لتعود إلى منزلها عند عائلة ستيوارت، قرر صياد الدببة العجوز ذاك، جاك كوليس، أن ينظر عن كثب أكثر إلى المنزل. ولم يعر كثيراً من الاهتمام أبداً لما أخبرته به فرانكي، 'لأنه لم يتمكن من العثور على أي آثار في الغابة، بالرغم من الثلج العميق، ولم يتمكن من التفكير إلى أين يمكن أن يكون تشارلي قد ذهب بدون أن يترك أي نوع من الأثر. بينما كان كل شخص آخر خارجاً يمشط الغابة الغامضة، والأرض بالقرب من منزل عائلة يونغ، تسلل جاك كوليس عائداً إلى كوخ فرانكي وتشارلي، وأخذ يبحث بفضول. كانت هناك كومة كبيرة من الرماد في الموقد، فقال: كأنما قام أحدهم بحرق كومة من الحطب بدون تنظيف الموقد. فكر جاك بهذا لبرهة، ثم وضع بعضاً من هذا الرماد في ماء نظيف داخل غلاّية على النار، وماذا تعتقد أنه وجد؟" ابتسم بيكر في وجوهنا ابتسامة عريضة منتظراً إجابة ما.

انتظرنا بأدب، لأن من الواضح أنه كان يتحرّق ليخبرنا.

"فقاعات دهن!"

عندما لم تتغير تعابير وجهي فلا بد أن الشرطي أدرك أن مثل هذه الاستنتاجات الخرقاء كانت تُهدَر على الرجال النبلاء، حيث أننا كنا نفتقر إلى المهارات المتقدمة المطلوبة لمعرفة أهمية ذلك الاكتشاف. وبعد لحظة من خيبة الأمل، شرح لنا بيكر. "لا ينبغي أن يكون هناك دهن في رماد الموقد. إن اللحم يُطهى داخل القِدر، ألا ترون؟ لذا، عندما وجد جاك الدهن في الموقد نفسه، عرف أن كمية من ـ من اللحم ـ قد تم حرقها مباشرة في تلك النار.

هذه المرة كانت تعابيرنا كل ما يمكن أن يتمناه.

"بعدئذ أخذ جاك كوليس شمعة وذهب يتفحص ذلك الكوخ ككلب يتبع أثراً. لقد وجد قطع عظم، وإبزيم حذاء في الموقد، ونقاط دم في شقوق الأرض الخشبية. قام بإطلاق الإنذار لباقي الرجال، وبدأنا بتوجيه بحثنا إلى مكان محصور، بالقرب من النبع، بالضبط هناك حول الكوخ."

سألته: "هل وجدتموه؟ هل وجدتم تشارلي سيلفر؟"

ابتلع الشرطي بيكر ريقه بصعوبة. "معظمه."

لقد أنزلوني من جبلي الجميل بصمت شتاء أبيض، وكان معصماي مربوطين بحبل من القنب، ورجلاي مربوطتين تحت بطن الفرس وكأنني كنت ظبياً عمره سنة تم اصطياده في رحلة صيد طويلة. وربما أنا كذلك، لأنني كنت عاجزة وصامتة كغزال. يقولون إن هذه الغزالات التي تعيش حياتها بصمت، تصيح عندما تُقتَل. حسناً، ربما سيُسمَح لي بذلك.

لقد التهمت أكوام الثلوج الجياد في الطريق تقريباً. إنها تندفع إلى الأمام عكس التيار الأبيض، وهي تغوص وتدفع بصدورها، وكأنها تعبر نهراً ربيعياً متضخماً، بدلاً من شق طريقها أسفل الجبل البارد.

لا أحد يغني أو يصفر ونحن نشق طريقنا أسفل الطريق باتجاه البلدة، وكان لدي الريح فقط لأستمع إليه. أعتقد بأنه كان بإمكاني أحياناً سماع أصوات في النهر، كلمات غامضة تغني لحن النهاية، وأجهد نفسي لأميّز الكلمات، ولكن معناها يفلت مني. اعتاد تشارلي أن يغني عندما كان يأتي إلى المنزل من بيت جورج يونغ، ولكن ذلك لم يكن أبداً صوتاً جميلاً بالنسبة لي، بالرغم من أنني اعتقدت ذات مرة بأن له صوتاً جميلاً من أجمل ما سمعت في حياتي. وعندما

كنا نتغازل، كان معتاداً أن يغني لي "باربارا إلين" و"الفارس المزيف على الطريق." والآن لا أحد يغني لي.

إن رجلي القانون خائفان مما فعلت، وما يمكن أن أفعله ـ امرأة مجنونة، قاتلة. ماذا لو تحررت من الحبال التي تربطني، وماذا لو كان معي سكين مخبأة تحت ثوبي؟ شقيقي مقطب الجبين كالعادة، وأعتقد بأن أمي خائفة مني، كذلك، ولكن لسبب مختلف. إنها تتمنى لو لم يكن أبي مغادراً المنزل، لأنه سيكون قادراً أن يخبرنا ماذا نفعل الآن. إنه يعرف دائماً ماذا يجب أن يفعل، ولكنه لم يكن هناك لنسأله. نظرت إليها: كانت يداها مثبتتين بإحكام إلى قربوس السرج لدرجة أن مفاصل أصابعها بدت بيضاء، وكانت تأخذ نفساً عميقاً من فينة لأخرى، وكأنما هناك صرخة تظل ترتفع إلى أعلى حنجرتها وتظل هي تبتلعها لترجعها داخلها. ولن تنظر إلي.

أتمنى لو كان والدي هنا. أتمنى لو أنه لم يذهب إلى كنتاكي بحثاً عن قطعان الإلكة. لو أنه كان في المنزل في تلك الأيام قبل عيد الميلاد، لما كنا هنا الآن، أنفاس ضبابية، ونرتجف، وجيادنا تدفع كتل الثلوج بصدورها ونحن نشق طريقنا خلال الممر، متجهين إلى سجن في مورغانتون.

يتقلص حبل القنب عندما يبتل، وقبضته تخدّر معصمي حتى أكثر مما فعل البرد أصلاً، ولكنني لا أشتكي، لأنني إذا بدأت بالكلام فربما أنني لن أتوقف أبداً.

إنني أراك تنظر إليّ، أيها الشرطي تشارلي بيكر. إنني أعرفك منذ زمن. لقد حارب والدك في الثورة، وأخوك هو قاضي الصلح، لذا فأنت لديك الأرض والمنصب، ولكن من أجل ذلك كله أنت رجل قزم بدون ابتسامة أبداً لأي شخص.

يُسمح لرجال الشرطة أن يعتقدوا بأنهم أفضل من الناس الآخرين. لقد اعتدت أن تأتي إلى حفلات الرقص في حانة جورج يونغ، ولكنك لم تكن ترقص أبداً. وقد أتيت لتعيش في كوخ في هالو بوبلار وغراسي كريك، وعملت بجهد كأي رجل هناك، ولكن عندما كان العمل الشاق ينتهي، ويبدأ الأكل والرقص، كنت تتخلف عن الآخرين، فقد كنت تشعر بالخجل من التحدث إلى البنات. لم تكن وسيماً بقدر ما كان زوجي تشارلي، وبالرغم من أنني رأيتك تنظر إلي مرة أو اثنتين، فإنك لم تطلب مني أن أجلس لتناول العشاء معك. لم تطلب مني أبداً أن أرقص. ربما أنك قررت أنه لن يناسبك أبداً أن تكون شاباً متأنقاً مثل تشارلي سيلفر، وربما أنك كنت على حق. والآن أنت تتساءل ماذا كان سيحصل لو أنك فعلت ذلك. لو أنني اخترت تشارلي بيكر بدلاً من تشارلي سيلفر؟ هل كنت ستنقذني، أم هل ستكون ممدداً في ثلاثة قبور في ساحة كنيسة الجبل، متمنياً لو أنك لم ترَ وجهي أبداً؟

tele @ktabpdf

الفصل الثاني

العمدة "أعتقد بأنه في حالة جيدة." كانت مارثا إيرس في فترة استراحة أثناء العمل، تتناول غداءً سريعاً في المطعم مع المساعد جو لودون، الذي كان مُقرَراً له أن يعمل حتى الحادية عشرة. "لا يبدو نحيلاً كما كان، ولونه جيد. سيبدأ حماسه للعودة إلى العمل في أي يوم الآن."

"فليفعل،" قال لودون. "ربما سيساعده ذلك في إبعاد ذهنه عن التفكير في نفسه. إضافة إلى ذلك، يمكننا الاستفادة من المساعدة."

"تفكيره ليس منصباً على نفسه، جو. سبنسر يفكر ملياً في حكم الإعدام القادم هذا. لقد طلبوا منه أن يكون أحد الشهود ـ عمدة المقاطعة الوطن للسجين ـ ويقول إنه عليه أن يذهب، ولكن يمكنك القول إنه يزعج نفسه للغاية بشأن ذلك." نظرت باستياء إلى كتلة البطاطا المهروسة وصلصة اللحم البنية الآخذه بالتجمُّد والتي تسيل نحو الفاصولياء الخضراء واللحم المفروم الممزوج بالبيض. دفعت الصحن بعيداً وهي تتنهد. وفكّرت *أنني أشعر بتعب كما يبدو جو كذلك*.

"فيت هاركرايدر،" كان لودون يقول. "لقد قرأت عن الإعدام المُقرَر في *كرونيكل*. وقد ذكرت الصحيفة أنه كان محلياً. لم أكن أعلم أن سبنسر يعرفه، على أي حال. لقد كان في سجن المحكومين بالإعدام منذ وقت طويل."

"كان سبنسر مساعد نيلسي ميلر، هل تذكر؟ إنه هو الذي اعتقل هذا

الشخص. أعتقد بأنه فعل كل شيء سوى أنه نسيه ـ والآن هذا الأمر. لم يكن ليأتي في وقت أسوأ من هذا. إن سبنسر خارج للتو من المستشفى، ويحاول أن يتعافى من جرح كاد يقتله، والآن تأتي الحكومة بهذا العمل. سيكون قلقاً للغاية بشأن ذلك. أنت تعرف كيف هو." أمسكت فنجانها القهوة، فرأت أنه كان فارغاً، فأنزلته ثانية. وبدون أية كلمة، أعطاها لودون فنجانه. ابتسمت مارثا معبرة عن شكرها. "إنه مجرد حظ، هذا كل شيء،" قالت وهي تتنهد. "من بين جميع رجال تينيسي المحكومين بالإعدام، كان عليهم أن يختاروا هذا الشخص ليكون الأول."

"لا يدهشني كثيراً أن يكون هو، على أي حال،" قال لودون.

"لماذا لا يدهشك؟ هناك حوالي مائة رجل في زنزانات المحكومين بالإعدام. كان يمكن أن يكون أي واحد منهم."

"أي منهم؟" لم يكن هناك مرح في ابتسامة جو لودون. "بالكاد ذلك. هذا سيكون أول إعدام لتينيسي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وسيقومون باختيار هذا السجين الأول بعناية بالغة ـ بشكل *سياسي* أكثر. ولن يكون امرأة، حتى لو كانت هناك واحدة مناسبة لأن تُعدَم. *فالنساء أولاً* لا تنطبق على الكرسي الكهربائي. ولا يمكن أن يكون أحد الأشخاص الجدد، لأن الجمهور سيقول إنه من غير العدل إعدام أحدهم قبل أشخاص موجودين هناك منذ عقود من الزمن. ولن يكون رجلاً أسود، لأن عقوبة الإعدام هي قضية معقدة أصلاً، بدون ترك نفسك عرضة لتُتهَمي بالعنصرية. فأنت لا تريدين أن تثيري حنق أي من جماعات المصالح الخاصة إذا كان بإمكانك تجنب ذلك. لذا، فإنك تتفحصين قائمة المتهمين المُدانين، وتجدين فتى أبيض بائساً من الجبال بلا نقود، وبلا تأثير سياسي، وها هوذا هدفك. لن يقوم أحد بإثارة مشاجرات عند تنفيذ حكم الإعدام، فلا أحد يهتم بما يحدث للبيض الجنوبيين المساكين. لن تُطلَق النار على أحد، ولن يُضرب أحد في الصحافة لاستخدام كلمات مثل

الأمريكي الأحمر والقادم من المناطق الجبلية. عندما تفكرين بالأمر، فإن فيت هاركرايدر كان الخيار الأفضل للكرسي الكهربائي. شخص عديم الشأن وبدون قضية."

"لن تجعلني أشعر بالأسف من أجله،" قالت مارثا. "بصرف النظر عن لماذا قاموا باختياره ليُعدَم أولاً، لقد قتل أحداً ما، وقد بتت هيئة المحلفين في إعدامه. قد يقول بعض الناس إن فيت هاركرايدر قد حصل على عشرين عاماً إضافياً أكثر مما كان يستحق."

أومأ لودون برأسه. "لن تحصلي على مرافعة مني. لقد كنت فقط أبيّن لك المنطق في الأمر."

"حسناً، إذن." وامتد الصمت أكثر مما تحتمل مارثا، لذا، فقد قالت: "سبنسر طلب مني أن أحضر له بعض الكتب عن فرانكي سيلفر."

"من؟"

هزت مارثا كتفيها استهجاناً. "إنها قضية قتل قديمة. في ولاية نورث كارولينا. لا بد أنها لم تُحلّ. على أي حال، إنه ينظر فيها."

"آه. لا بد أنه مصاب بالملل إذا كان يبحث عن جرائم ليحقق فيها." توقف لبرهة قبل أن يقول: "هل أخبرته عن التحقيق الجاري حالياً؟"

"لا،" قالت مارثا. "إنه على ما يرام حيث هو، وقد كنت أخفي عنه الصحيفة، كذلك. دعه ينكب على كتب التاريخ لأسبوع آخر على الأقل. لا أريده أن يعود قبل أن يكون بخير بما يكفي لمعالجة القضية."

"ولكن أوجه الشبه بين الحادثتين..."

هزت مارثا كتفيها استهجاناً. "صدفة. على أي حال، إنه مريض بشكل لا يسمح له أن يُقلِق نفسه بتحقيق جنائي. يمكننا معالجة الأمر. سآخذ له كتبه عن

فرانكي سيلفر. سيشغلونه، وإذا كان هذا سيبعد تفكيره عن تنفيذ حكم الإعدام، ويبقيه خارج المكتب، فهذا أفضل بكثير."

فيت هاركرايدر. لم يشأ سبنسر أن يفكر فيه الآن. إنه لا يريد أن يعيش تلك الساعة من جديد في المعسكر المضاء بشكل غامر، ولا يريد أن يفكر في النتيجة الحتمية لسلسلة الأحداث هذه التي دارت منذ زمن بعيد.

وقف عند الأبواب الزجاجية المنزلقة لمنزله الريفي، ينظر على طيّات التلال في الخارج والممتدة بعيداً إلى نورث كارولينا. إن مشهد الجبال في إشراق شمس الصباح، يجلب إلى الذهن دائماً الترتيلة 121: *سأرفع نظري نحو التلال التي منها تأتي مساعدتي*. وكان عادة يجد أن التحديق في الجبال في الخارج كان يهدئه، ويبدد هموم اليوم في سديم الزمن الجيولوجي. لقد كانت تجربة روحية لم يستطع أن يفسرها، إلا ليقول إن المشهد منحه منظوراً، وجعل مشاكله تبدو تافهة قياساً بسرمدية الأرض ذاتها.

لقد وجد نفسه بدلاً من ذلك يفكر بفرانكي سيلفر.

لقد مر عشرون عاماً، ولكن سبنسر لا يزال يذكر وقوفه بجانب نيلسي ميلر عند القبر في مدفن كنيسة الجبل، في ذلك اليوم الصيفي المشرق، وشعوره بقشعريرة عندما تحدث الرجل العجوز عن موت تشارلي سيلفر. وفي طريق العودة إلى هيملين، تكلم بشكل مطوّل ومملّ لحوالي ساعة عن قضية جريمة القتل التي حدثت في القرن التاسع عشر، والأحداث التي تلت ذلك، جاعلاً منها حكاية، كما يفعل رواة القصص الجبليون بشكل غريزي. لقد نسي سبنسر معظم تفاصيل القصة ـ لقد زالت أسماء الشهود والمحامين من عقله حالما نطقها نيلسي. لقد تحدَّث بطلاقة، بسبب الألفة الطويلة مع القضية، وبدون لحظة تردد في سرده لها. ما تذكره سبنسر بشكل أساسي كان عاطفة اهتمام العمدة في تلك الحادثة

tele @ktabpdf

الوحيدة، وقوة السحر الذي نسجته القصة على طريق العودة الطويل فوق الجبال. كان نيلسي ميلر نادراً ما يتحدث عن خبراته الخاصة في تنفيذ القانون، وكان يظهر فقط اهتماماً فاتراً في جرائم شائعة جماهيرياً وتم نشرها في الأخبار القومية. لقد كانت هذه القضية الغامضة، وغير الهامة ظاهرياً هي فقط التي استحوذت عليه.

في ذلك الوقت، اعتقد سبنسر آروود أن قصة فرانكي سيلفر كانت مجرد قصة شعبية جذابة، ومسلية بما يكفي لتمضية الوقت في الطريق إلى المنزل، ولكن لم تكن شيئاً احتاج لأن يفكر فيه مرة ثانية أبداً. لم تحمل القصة دروساً عن التحقيق الجنائي يمكن أن يفهمها، طالما أن استخدام الطب الشرعي في التحري لم يكن موجوداً تقريباً في تلك الأيام، وبالرغم من استغراق نيلسي ميلر في القضية، لم يجد فرصة لحل أسرارها بعد مرور كل تلك السنوات. لقد نسي سبنسر الأمر عن فرانكي سيلفر. في ذلك الوقت، تقاعد العمدة نيلسي ميلر، وأقعده التهاب المفاصل، وتوفي في 1984، وكتابه عن فرانكي سيلفر لم يُكتب، وأسئلته بدون إجابة.

كان يمكن أن ينسى كل شيء عن قضية القتل المعروفة بالكاد لولا جملة صغيرة قالها نيلسي ميلر. "هناك قضيتان لعدالة الجبل لست راضياً عنهما. واحدة هي قضية ذلك الشخص الذي وضعته في عداد المحكوم عليهم بالإعدام، والثانية هي قضية فرانكي سيلفر."

والآن تنتابه الأفكار عنها باستمرار. لم يكن شيئاً يريد أن يتحدث عنه مع أي شخص ـ ما عدا نيلسي ميلر، الذي كان ميتاً منذ فترة طويلة. كان سيفهم سحر القصة.

ثلاثة قبور في فناء الكنيسة الجبلية.

تساءل سبنسر ما إذا كان اهتمامه المفاجئ في القضية ما هو إلا نتاج سأم من رجل نشيط أجبر على البقاء ساكناً لأول مرة في حياته كراشد، أم إذا كان إزاحة

لقلقه إزاء الموت الوشيك لفيت هاركرايدر. كانت عمة والده تيل قد تقول: "لقد استُدعيت لتحل اللغز،" وابتسم لذكرى امرأة جبلية عجوز، وعلى ثقتها الساذجة. قد أنظر في القضية، قال لنفسه، ومن بين جميع أسئلة لماذا التي كان يتعين عليه أخذها بالاعتبار في مسألة فرانكي سيلفر، كان السؤال الذي قرر أن لا ينظر فيه هو ما سبب اهتمامه في قصتها.

كان الطبيب آلتون بانر يفحص مريضه في زيارة بعد ساعات الدوام لكوخ العمدة الجبلي. "إنني لا أقوم عموماً بزيارات منزلية هذه الأيام،" قال معلقاً وهو يفحص الغرز التي على الجرح. "إن ذلك يخيف الأعضاء الأصغر سناً في مهنتي. ومع ذلك، فقد اعتبرت حالتك هذه استثناء، لأن أي رجل أحمق بما يكفي ليعرِّض نفسه لإطلاق نار بسبب تجاوز، ربما يكون أحمقاً بما يكفي ليحاول أن يقود السيارة بنفسه إلى البلدة من أجل موعده مع الطبيب."

لم يُجب سبنسر. من غير المجدي مناقشة أنه في "التجاوز" كان يؤدي الواجب، تنفيذاً لأمر من المحكمة، أو الاعتراض على أنه كان يشعر أنه بخير بما يكفي لإنهاء فترة نقاهته. كان للرجل العجوز آراؤه بشأن كل شيء، وكان من المستبعد ردعه بالحقائق كما كان مريضه يراها.

"لا أعرف لماذا تعيش هنا في الأعلى، على أي حال،" تابع بانر وهو يواصل وكز ونخس مريضه. "إن الطريق إلى أعلى هذا الجبل هو صفيحة من الزجاج في فصل الشتاء. لم أكن لأحاول القيادة فيه حتى بسيارة رباعية الدفع. إنها طريق ملعونة شديدة الانحدار، ذلك ما هي عليه. إنك مثل جميع بقية ساكني الجبل هؤلاء. مهووس بهذه التلال، ومستعد للتضحية بكل شيء تقريباً لتبقى فيها. وهذا أمر لا شفاء منه، على أي حال. أربعون سنة من الممارسة الطبية في شرقي تينيسي علمني ذلك إلى حد كافٍ. لا شفاء منه."

"حسناً، بصرف النظر عن ذلك، كيف أنا؟" سأل العمدة.

نظر آلتون بانر إلى سبنسر من فوق نظارته، وقال: "هذا يعتمد. إذا كنت تخطط للحصول على أسبوعين إجازة وتذهب إلى شاطئ رايتسفيل، عندئذ سأقول إنك تحقق تقدماً مُرضياً، بالنظر إلى سنك وموقفك اللامبالي تجاه صحتك، ولكن إذا كنت تتحين الفرصة للعودة في سيارة الدورية تلك، فإنني سأكون مضطراً إلى تخفيض درجة حالتك الصحية إلى خطيرة. والآن، أيهما؟"

"ولا واحدة في الوقت الحالي. إنهم فقط يريدونني في ناشفيل بعد ستة أسابيع من الآن.

"ستة أسابيع! حسناً، إذن. إذا حافظت على التقدم كما كنت، فإنني لا أرى أية مشكلة في ذلك. لن تقفز هنا وهناك مثل غارث بروكس، لتضع ذلك في اعتبارك، ولكن سأقول إنه إذا كنت تريد فقط القيادة إلى عاصمة الولاية من أجل اجتماع مع البيروقراطيين في وقت ما من الشهر القادم، فإنني سأسمح بذلك بكل تأكيد."

"أفهم ذلك.

الرد الفاتر جعل بانر يرفع نظره. "ما الأمر؟" قال وهو يحدق في مريضه. "هل أعطيتك الجواب الخطأ؟ إذا كنت تريد تجاوز جلسة ميزانية، فقط أطلب ذلك."

"الأمر أكثر من ذلك." وسلّمه سبنسر الرسالة القادمة من إدارة السجون.

ألقى آلتون بانر نظرة سريعة على الرسالة. "يُستدعى ... إعدام ... ستة أسابيع - يا إلهي! فيت هاركرايدر! سماعي لذلك الاسم يشبه إوزة تمشي فوق قبري. لم أفكر به منذ سنوات."

أومأ العمدة برأسه. "فأنت تتذكر، إذن، أليس كذلك؟ لقد كنت هناك."

"نعم كنت هناك. ولن أنسى ذلك أبداً."

جلسا في صمت لبضع لحظات، يفكران بليلة كان كلاهما يُفضل نسيانها.

"كانت تلك ليلة مقتل إيميلي ستانتون. ماتت قبل أن أصل إلى هناك، المسكينة. كان عليك نقل الخبر السيء إلى والديها، ولكنني رأيتهما في المحاكمة. أتذكر والدها وهو يسألني، *هل عانت؟* - وليساعدني الرب، أخذت نفساً عميقاً، وكذبت على ذلك الرجل، لأنني لم أكن قادراً على تحمُّل النطق بالحقيقة بأكثر مما كان هو قادراً على تحمُّل سماعها."

أومأ سبنسر برأسه. "لقد حضرا بالسيارة من ويلمينغتون في اليوم التالي. وكذلك حضرت والدة الفتى ويلسون، ولكنني لا أستطيع أن أتذكرها جيداً. فقط عائلة ستانتون.

كان وميض المصابيح على النافذة الأمامية وصوت الحصى يشيران إلى أن زائراً آخر وصل إلى منزل العمدة في قمة التلة.

أزاح الطبيب بانر الستارة جانباً ونظر إلى الخارج، وقال بصوت فيه نخير: "لديك زوار. يبدو أنها سيارة مارثا ... هل أنصرف؟"

"لا،" قال سبنسر. "ربما أنها قامت فقط بإحضار المزيد من البريد من المكتب."

"معها امرأة،" أعلن الطبيب.

"والدتي؟"

"لا. إنها من سنها تقريباً." حاول سبنسر بجهد الوقوف على قدميه، ولكن آلتون بانر أشار له أن يجلس. "إنك مريض. إبق مكانك. سأفتح الباب. مصلحون ساذجون! أحسب أنه قد فات الأوان لإطفاء الأضواء والتظاهر بأننا لسنا هنا.

ضحك سبنسر. "من هو ساكن الجبل الآن؟"

بعد دقيقة رسم آلتون بانر ابتسامة ترحيب على وجهه، وفتح الباب فجأة. أرشدت مارثا إيرس امرأة أكبر سناً تبدو خجولة لم يفعل شعرها المصبوغ باللون الأشقر أي شيء لإخفاء عمرها.

"أحضرت لك زائرة،" قالت مارثا. "هذه السيدة هيلين هنيكوت."

كان ترحيب سبنسر ودياً بما يكفي تقريباً لإخفاء دهشته. إنه لم يرَ المرأة من قبل في حياته.

"كان بإمكاني أن أعدّ لكما بعض القهوة،" قال الطبيب بانر، وهو يرشدهما إلى الكراسي بعد أن انتهت تقديمات التعارف. "ونظراً لأنني طبيب، على أي حال، فمن العرف أن يذهب شخص ما آخر ويغلي الماء."

"لا شيء لي، شكراً." ابتسمت مارثا للعمدة. "إنني هنا للقيام بمهامي."

"مهامك؟"

ابتسمت مارثا، وسلمته ملفاً مصنوعاً من القنب ملوثاً ببقع قهوة. "إليك ملف القضية الذي سألتني عنه. لقد استغرقت وقتاً طويلاً جداً للعثور عليه."

قاوم سبنسر الرغبة الملحة في الجلوس وفتحه على الفور. وانتظر من مارثا أن تشرح له الباقي.

"فرانكي سيلفر،" حثته على التفكير. "أنت طلبته مني، هل تذكر؟ قالوا في المكتبة إنه لا يوجد أي كتب عنها. من الواضح أنه ليس هنالك أي شخص قد كتب عنها مطلقاً. لقد راجعت محل الكتب في جونسون سيتي مرتين، وقالت أمينة المكتبة إنها سترى إن كان بإمكانها العثور على بعض المقالات في كتب التاريخ المحلي، ولكن أثناء حديثنا عن القضية، جاءت السيدة هنيكوت هنا إلى طاولة الخدمة وقالت إنها سمعت تلك القصة من أقارب هناك في نورث كارولينا."

"لم أكن أقصد التنصّت،" أكدت المرأة الأكبر سناً للعمدة، وكأنها كانت تتوقع منه أن يوبخها لذلك. "ولكنني سمعت الاسم فرانكي سيلفر، وبطبيعة الحال، كوني من عائلة من مقاطعة ميتشل، فإنني أعرف كل شيء عنها، لذا، فقد فكرت أن أعرض تقديم مساعدة."

"هذا لطف كبير منك،" قال سبنسر، مع المجاملة المهذبة بعناية لموظف منتخَب. لم يكن يرغب في التعامل مع إشاعات، على أي حال. كان يتوق إلى جدولة موجزة لحقائق مؤكدة، ومطبوعة، وموّثقة. *سأذهب إلى المكتبة بنفسي*، فكر في نفسه، ولكنه لم يكن على ما يرام بما يكفي لأن يذهب هناك بعد، ولم يتمكن من إحباط مارثا أو إيذاء مشاعر هذه المرأة. كانت هذه بداية على الأقل. وقال بصوت عالٍ: "سأكون ممتناً لأي شيء يمكنك أن تخبريني به."

"إنها قصة حقيقية حدثت في مقاطعة ميتشل، في نورث كارولينا. عند منعطف ديتون في نهر تو هناك مكان يسمى كونا. لم يكن يسمى كذلك في الزمن الذي كانت تعيش فيه فرانكي سيلفر هناك في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ولكنه هو اسمه الآن. ولم يكن في مقاطعة ميتشل في ذلك الزمن، كذلك. في تلك الأيام لم تكن مقاطعة بيرك مقسّمة، وكانت مناطقها تمتد على طول الطريق إلى تينيسي. هذا ليس جزءاً من القصة، أيها العمدة. إنني أعرف ذلك بمفردي، من البحث في سجلات إحصاء السكان. إنني أتتبع تاريخ عائلتي حتى الثورة الأمريكية. رجال أعلى الجبل."

أومأ سبنسر برأسه. "لا بد أن ذلك استلزم كثيراً من البحث،" قال بأدب، وانتظر. تأمل أنه لن يستمع إلى خطاب عن أجداد السيدة هنيكوت أصحاب الأمجاد.

احمرَّ وجهها خجلاً. وقالت: "حسناً، سأخبرك بالأمر بصراحة إذن. لقد

tele @ktabpdf

صنعت جدتي حكاية من ذلك، وسأرويها كما روتها، أفضل ما يمكنني تذكره. لم نعد معتادين على سرد القصص، ماذا عن التلفاز، وكل شيء، ولكنني سأحاول."

جلس الطبيب بانر على الأريكة بجانب مريضه وابتسم بشكل مشجع. "لقد سمعت شيئاً ما عن هذه القصة. أود أن أسمع، أيضاً، إذا جاز لي."

أمسك سبنسر دفتر الملاحظات الذي بجانب الهاتف. "هل تمانعين إذا قمت بطرح أسئلة أثناء استمرارك في الحديث؟"

بدت السيدة هنيكوت مذعورة. "يا إلهي! يفضَّل أن تنتظر إلى أن أنتهي، أو ربما أنسى أين كنت. إن استجوابي من قِبل عمدة كفيل بأن يجعلني عصبية. وعندما تطرح علي أسئلة، فإنني لا أعرف إذا كنت سأعرف الإجابات، ولكنني سأحاول أن أساعدك بأقصى ما يمكنني."

ابتسم سبنسر بشكل يعيد الطمأنينة لضيفته. وقال: "استمري، إذن، سأبقي فمي مغلقاً."

جلست هيلين هنيكوت بعصبية على حافة الكنبة، وهي تعبث بالشريط الجلدي لحقيبة يدها. "إنني لست راوية قصص أو أي شيء من هذا القبيل،" حذّرت مستمعيها. "إنني فقط سأقولها كما تم إخبارها لي."

"سأكون في غاية الامتنان لو تفضلت بذلك،" قال سبنسر. وكتب على دفتر الرسائل المسطّر: "فرانكي سيلفر، شهادة هيلين هنيكوت، من سكان مقاطعة ميتشل." لقد بدأ فعلاً ملفاً عن القضية وكأنها كانت أحد تحقيقاته الحالية.

"حسناً، بالطريقة التي سمعتها بها ... عند منعطف ديتون لنهر تو ـ الذي ندعوه في تينيسي نوليتشكي ـ حسناً، إنك تعرف ذلك. ... على أي حال، في كوخ خشبي صغير في كونا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان يعيش زوجان شابان اسمهما تشارلي وفرانكي سيلفر. والآن، تشارلي كان فتى وسيماً،

ومغرماً بالرقص، ومغرماً بعد بالنساء، ولكنه وفرانكي تزوجا في سن صغيرة، والآن كان يبلغ التاسعة عشرة من عمره، وكان عندهما طفلة صغيرة، تجاوزت للتو عيد ميلادها الأول."

كتب سبنسر ملاحظات بشكل سريع على دفتره القانوني. كل تلك المعلومات كانت تبدو إما يمكن إثبات صحتها، أو غير ذات علاقة. لا شيء أراد أن يعترض عليه. أومأ برأسه لها لتستمر.

"يقولون إن فرانكي كانت شقراء صغيرة جميلة، ولكنها كانت من النوع الغيور، ويقولون إنه كان لتشارلي حبيبة. ولم يهتم بأن يمكث في منزل مع زوجة تتذمر وطفلة تبكي. ربما كان يخطط أن يتركهما كلتيهما للأبد. على أي حال، في أحد أيام الشتاء، كانت بين فرانكي وتشارلي مشادة كلامية عن المرأة الأخرى، وعندما أنهكا نفسيهما بالجدال، استلقى تشارلي على فرشة من القش بجانب النار لينام. واحتضن الطفلة الصغيرة نانسي بين ذراعيه."

فتح سبنسر آرووود فمه ليتكلم، وتذكّر أنه وعد أن لا يقاطع، وأغلقه من جديد.

"رأته فرانكي نائماً هناك بجانب الموقد، والتقطت فأساً. البعض يقول إنه والدها كان هناك كزائر في الكوخ معهما، وإنه أخبرها أن تفعل ذلك. وربما أنه هدد بقتلها إن هي لم تقتل تشارلي. شرف العائلة، على ما أعتقد. كما يُقال في الأغنية، *كان زوجها، وكان يعاملها بشكل سيء*.

بهزة من رأسه غير مُدرَكة تقريباً، منع العمدة آلتون بانر من المقاطعة.

"على أي حال، انسلت فرانكي فوق تشارلي، ملوحة بذلك الفأس، ولكنه كان يحتضن الطفلة، وتقلّب وابتسم في نومه. نظرت نحو الأسفل إلى زوجها الشاب الوسيم وهو نائم بشكل هادئ تماماً مع ابنتهما الصغيرة ملتصقة به باستكانة، ولم تستطع فعلها. وتراجعت إلى الوراء. ثلاث مرات زحفت فرانكي قريباً منه وثلاث

tele @ktabpdf

مرات ابتسم مثل ملاك وجعلها تضع الفأس وتتراجع من جديد ، ولكن في المرة الرابعة ، كان ينام نوماً عميقاً ، وزحفت الطفلة بعيداً عن ذراعي والدها ـ ضربة عنيفة! ـ وهي قريبة منه قطعت رأسه . فتح تشارلي عينيه ، وقال : 'ليبارك الرب الطفلة!' وبعدئذ مات .

كانت الصفحة الأولى من دفتر ملاحظات سبنسر قد امتلأت . قلب الورقة إلى صفحة جديدة ، وكتب بسرعة عليها .

نظرت مارثا إيرس إلى تعبير وجهه وتمنت لو أنها انتظرت إلى أن ينتهي الكتاب .

ابتسمت هيلين هنيكوت لاجتهاد العمدة ، مسرورة من إيلائها هذا الاهتمام الجذل . وتابعت الحكاية من جديد بمزيد من الحماس . "إذن ، كان تشارلي ميتاً ، ممدداً هناك بجانب الموقد في كوخهما الصغير . بعدئذ كان على فرانكي أن تقرر ماذا ستفعل بتلك الجثة . لذا قامت بتقطيعه مثل غزال ، ووضعت جثته في النار ، ولكن لم يكن لديها حطب وقود كافٍ لتنهي العمل ، لذا فقد أخذت القطع التي بقيت وأخفتها في الغابة . أخذ والدها الفأس وألقاها في النهر في طريقه إلى المنزل ، بحيث لا يجدونها أبداً .

"حسناً ، في صباح اليوم التالي ذهبت فرانكي إلى منزل عائلة زوجها ، وأخبرتهم أنها كانت قلقة على تشارلي . قالت إنه خرج للصيد ، ولم يعد إلى المنزل الليلة الماضية . وكانت تذهب كل يوم ، لمدة ثلاثة أيام ، إلى منزل والدي تشارلي وتقول : 'لا ، لم يعد بعد .' وأصيب أهله بالجنون قلقاً عليه ، وذلك لأن الفصل كان شتاء ، وكل هذه الأمور . وقاموا بجمع معظم الجيران وبدأوا بالتفتيش في الغابة بحثاً عن آثار ، أو علامة ما لتشارلي . ولم يجدوه .

"بعدئذ ، ارتاب أحد أصدقاء الصيد القدماء لتشارلي ، ودخل إلى الكوخ بعدما غادرته فرانكي ، ووجد علامات فأس على الجدران الخشبية ، ودماً في كل

مكان على الأرض. عندئذ، بدأوا بالبحث في الغابة في أماكن أقرب حول الكوخ، ووجدوا أجزاء جثة تشارلي مبعثرة هنا وهناك، بعضها في جذور الأشجار، وهناك بجانب جدول الماء، لذا، فقد قاموا بالقبض على فرانكي، وأخذوها على ظهر حصان إلى السجن في مورغانتون." توقفت لبرهة لتأخذ نفساً، مبتسمة بترقب لمستمعيها.

ذكّر سبنسر نفسه بأنه لم يكن يستجوب مشتبهاً به. ونجح في توجيه ابتسامة مؤدبة. "هل يمكنني أن أطرح أسئلة الآن."

"نعم، إن شئت."

نظر سبنسر نحو الأسفل إلى الملاحظات المدونة بشكل فوضوي. "إنني أقدِّر مجيئك وسردك هذا القصة لي،" قال بلطف. "إنني أعرف أن الحكايات الشعبية يُفترَض أن تُسمَع ولا تُحلَل، ولكن هذه قصة حقيقية، ولهذا السبب أنا مهتم بها. أترين، إنني أتمتع بعقلية رجل شرطة، حتى عندما لا أكون أثناء أداء الخدمة، لذا سأقوم بطرح بعض الأسئلة عليك بشأن ما أخبرتني به، بالضبط كما لو كنت شرطي التحقيق."

بدت السيدة هنيكوت حذرة. "حسناً، لا يمكنني أن أعد بأنني سأعرف الإجابات، ولكن يمكنك أن تحاول.

"حسناً. أولاً وقبل كل شيء، أين سمعت جدتك هذه القصة؟ هل كانت تربطها صلة قرابة مع أي من الشخصيات الرئيسية في القضية؟"

"حسناً، كل شخص تربطه صلة قرابة بكل شخص في مقاطعة ميتشل إذا عدت إلى الوراء إلى حد كافٍ، ولكنني لا أعتقد بأننا كنا أكثر من أبناء عم من

بعيد بالزواج من أي أحد . ولا أعرف من أين حصلت نانا على القصة، على أي حال . إن كثيراً من الناس يروونها ."

دوَّن سبنسر ملاحظة . "هل كان هناك أي شهود على الجريمة؟"

"البعض يقول إن والد فرانكي كان هناك . لقد ذكرت هذا الجزء ، أليس كذلك؟"

"نعم، ولكن كيف يعرفون؟"

بدت هيلين هنيكوت مشدوهة . "إنه ما يقوله الناس،" قالت له، وكأن هذا قد حسم الأمر .

"نعم يا سيدتي، ولكن كيف لنا أن نعرف أن والد فرانكي سيلفر كان موجوداً في وقت الجريمة؟ لقد قلت إنه لم يكن هناك شهود . هل اتُهِم بأنه شريك في الجريمة؟"

"لا . أعتقد أن الأم هي التي اتُهِمت بذلك، على أي حال ."

"/الأم اتُهِمت؟"

"أعتقد ذلك ."

"وليس الأب؟"

"لا "

بتنهيدة غريبة، جلس سبنسر مسترخياً وبدأ الكتابة بخربشة في هوامش ملاحظاته . "لماذا؟"

"لماذا لم يُتهَم؟ لا أعرف، أيها العمدة، ولكن هذا لا يهم على أي حال . لم تتم محاكمة أي شخص آخر في جريمة القتل سوى فرانكي سيلفر ذاتها ."

تنحنح الطبيب بانر . "بشأن ذلك الاسم، سيدتي . إنني على معرفة ببعض

أفراد عائلة سيلفر هناك في ميتشل. لا أعتقد أن هناك حرف إس أخير في اسمهم. أعتقد أنه سيلفر. مفرد."

"كنت أسمعه دائماً *سيلفرز*." وبدا على وجهها تعبير عبوس، ومما لا شك فيه أنها كانت تندم على اندفاعها للقيام بأعمال خير لمن لا يستحقون.

"يمكن التحقق من ذلك بسهولة إلى حد ما،" قال سبنسر وهو غير راغب في المماحكة في أمور ثانوية. "لنعد إلى قصة جريمة القتل بحد ذاتها. هل تركت فرانكي سيلفر اعترافاً خطياً؟"

"لم أسمع أحد يقول ذلك أبداً، والكتب لا تذكره."

"سأكون مندهشاً لسماع أنها كانت تستطيع أن تكتب،" دمدم الطبيب بانر. "خذ بالاعتبار الزمان والمكان."

أومأ سبنسر برأسه. "كنت فقط أتساءل كيف عرفنا ظروف موت تشارلي بدقة شديدة. أين كان مستلقياً عندما وقع الهجوم. كم مرة حاولت أن تقتله. بالذات كلماته الأخيرة. *ليبارك الرب الطفلة*. تبدو خارجة عن الموضوع."

ضحك آلتون بانر بينه وبين نفسه. "بورجي وبيس، على وجه الدقة."

ضاقت عيون السيدة هنيكوت. "هكذا سمعت القصة أيها العمدة."

"بمناسبة الحديث عن الأغاني، سيدتي،" تابع الطبيب. "لقد لاحظت أنك اقتبست من أغنية أخرى في إعادة سردك للقصة. لقد قلت: 'كان زوجها، وكان يعاملها بشكل سيء،' والتي هي من 'فرانكي وجوني.'"

"آه، نعم. من هنا جاءت تلك الأغنية القديمة. لقد استُلهمَت من وحي قضية القتل هذه."

رمق سبنسر آلتون بانر بنظرة سريعة. *فيما بعد*، كانت نظرته تقول. "هذا

مفيد للغاية،" قال للسيدة هنيكوت. "والآن أخبريني، هل تم العثور على سلاح الجريمة في أي وقت؟"

فكرت للحظة. "لا أعتقد ذلك.

"إذن كيف يعرفون أنه ألقي في النهر؟" رجع سبنسر إلى ملاحظاته. "لقد قلتِ، *ربما أن الأب* ـ الذي كان هناك بشكل غير مؤكد ـ *ألقاه في النهر في طريقه إلى المنزل*. أي شهود؟"

"لا. إنه ما قاله الناس." نظرت إلى ساعتها، ومن ثم إلى مارثا.

"حسناً،" قال سبنسر. "بعدئذ تم اعتقالها...."

"يجب علي حقاً أن أذهب،" قالت السيدة هنيكوت بابتسامة مخفية. "حظاً سعيداً في تحقيقك، أيها العمدة."

ووقفت مارثا كذلك، ونظرت إليه، وقالت: "سأطمئن عليك غداً."

رافق سبنسر ضيفتيه إلى الباب مع شكر جزيل، وعروض بفنجان قهوة، ولكن عروضه السلمية استُقبلت ببرود. وعندما رأى الأضواء الخلفية لسيارة مارثا تختفي حول منعطف الطريق الخاصة، غاص في الأريكة مطلقاً تنهيدة إعياء.

"لا ألومك،" قال آلتون بانر. "إن هذا القدر الكبير من النفاق المسلي يمكن أن يرهق حتى الرجل السليم."

"لا، لقد كان لطفاً منها أن تأتي وتخبرني القصة،" قال سبنسر. "لقد قدَّرت ذلك حقاً. ربما أنها روتها كما سمعتها تماماً. لم يكن خطأها أن ـ أن ـ

"لقد كان كلاماً فارغاً."

"أعتقد ذلك. معظمه."

نظر الطبيب إليه شزراً. "لماذا تريد أن تعرف عن هذا الأمر، على أي حال؟ لقد مضى وقت طويل، وليس ضمن سلطتك القضائية. هل تؤلف كتاباً؟"

"لا . إنني لا أخطط لذلك. أعتقد أنه مجرد أمر ليبقي عقلي مشغولاً أثناء مكوثي في المنزل." حاول سبنسر أن يجعل اهتمامه يبدو عابراً . "إنها قصة قديمة، وكنت أتساءل دوماً بشأنها . لقد سمعتها من نيلسي ميلر."

"أتمنى أنه كان على وعي أكثر من أن يخبرك أن هذه القصة أوحت بأغنية 'فرانكي وجوني.'"

"لم يقل هذا . لا ."مكتبة الرمحي أحمد

"وأنت أيضاً لا تصدق هذا ، أليس كذلك؟"

هز سبنسر رأسه. "حدثت أمور أغرب، على ما أظن، ولكنها لا تبدو قابلة للتصديق. إن 'فرانكي وجوني' هي أغنية مدنية. تذهب المرأة إلى حانة، وتكتشف أن حبيبها غير مخلص لها ، وتقتله بمسدس، الذي تطلقه من خلال باب شقة، أو غرفة في فندق. وفيما عدا الاسم 'فرانكي،' لا أرى أي أوجه شبه بين الحادثتين.

"الأمر يشبه الخلط بين باربرا بوش وباربرا ماندريل،" قال بانر بصوت أجش. "مجرد صدفة أسماء . لم أسمع شيئاً عن جبالنا سواء في لحن أو في قصة 'فرانكي وجوني.'"

"لا . أتساءل إذا كان يوجد أغنية عن فرانكي سيلفر.

"يتحتم أن تكون هناك أغنية، إذا كان هناك أحد يتذكرها . إذن أخبرني، كرجل قانون، كيف ترى بقيتها؟" ابتسم الطبيب. "في رأيك الاحترافي؟"

"ليس لدي معلومات كافية بعد ، مجرد ارتجال، على أي حال، كل ذلك الأمر عن تسللها من فوقه ثلاث مرات وتراجعها مرة ثانية هو تنميق من راوية القصة."

دندن آلتون بانر مقطعاً صغيراً من لحن قديم. *"ثلاث مرات قبَّل يديها ناصعتي البياض... ثلاث مرات قبَّل وجنتيها."*

tele @ktabpdf

"نعم، بالضبط،" قال سبنسر. "تبدو كقصيدة في طور التأليف. ولا أعتقد أن والدها كان هناك، أيضاً."

"لم لا؟"

هز العمدة كتفيه استهجاناً. "مجرد حدس ـ وكثير من الخبرة في القضاء الريفي. إذا كان هناك رجل في الجوار، فمن المؤكد أنهم سيخضعونه للمحاكمة بشأن جريمة القتل. إن اتهام فتاة في الثامنة عشرة من عمرها بجريمة قتل بفأس ينبغي أن يكون الملاذ الأخير للعمدة في مقاطعة بيرك."

حسناً، سأتركك لشأنك، يا بني،" قال الطبيب العجوز. "سأعود للاطمئنان عليك قريباً من نهاية الأسبوع لأرى كيف تسير أمورك مع فرانكي سيلفر."

ابتسم العمدة. "إفعل ذلك. هناك شيء آخر، على أي حال. هل يمكنني أن أقود السيارة الآن؟"

"إلى ناشفيل في غضون ستة أسابيع؟ ألا تزال تفكر بذلك الأمر؟"

"لا، قصدت حول المقاطعة هنا ـ قريباً."

هز آلتون بانر رأسه. "إسألني المرة القادمة."

* * *

في مكتب العمدة جلس جيف مككولو، رئيس تحرير صحيفة المقاطعة الأسبوعية، *هيملين ريكورد*، في الكرسي المستقيم بجوار مكتب جو لودون، وهو يلقي نظرة سريعة على البيان المعدّ الذي تم إعطاؤه له.

"إذن يمكنني أن أستخدم كل شيء موجود هنا دون المساس بالتحقيق؟"

"بالطبع،" قال المساعد. "لم نحصل على دليل الطب الشرعي من المختبر على أي حال. أتمنى أن نكون قد قمنا بالاعتقال بحلول ذلك الحين."

"لقد كنتَ شرطي التحقيق؟"

"تلقيت المكالمة عندما كان قد تم العثور على الجثتين. وقد ظهرت مارثا بعد ذلك بوقت قصير للمساعدة في مسرح الجريمة."

قام مككولو بزلق نظارته حتى طرف أنفه، ونظر مرة ثانية على التقرير الصحفي. وقال: "إنه مخيف، أليس كذلك؟ لقد انتهيت للتو من كتابة قصة عن إعدام فيت هاركرايدر الوشيك، لذا أريد أن أعود وأقرأ القصص القديمة عن جرائم القتل المتسلسلة. كان بإمكاني تقريباً نشرها مرة ثانية عن هذه القضية الجديدة بدون إعادة كتابة."

"هناك بعض أوجه الشبه،" أقر لودون بذلك.

حسنا، إننا نعرف أنه ليس فيت هاركرايدر هذه المرة،" قال مككولو. "هل لديك أي مشتبه بهم؟"

"لا شيء يُذكر."

ابتسم جيف مككولو. "لن تتحدث عن ذلك بأي حال، أليس كذلك؟ ولكن لا بأس في ذلك. لا أريد أن أعيق التحقيق. أعتقد أن زاويتي لهذا الأسبوع هي عن السخرية في حدوث جرائم القتل هذه في وقت قريب جداً لموعد إعدام فيت هاركرايدر، وتشابهها بهذا الشكل مع جريمته. ما رأي العمدة بها؟"

"لا يزال يتعافى من جروحه. إنه ليس جزءاً من هذا التحقيق.

"ولكنني قرأت للتو تلك المقالات القديمة عن هاركرايدر. لقد كان سبنسر آروود هو الشرطي الذي ألقى القبض عليه في تلك القضية. ما رأيه في هذه القضية؟"

"لم نبلغه عن هذه القضية. إنه لا يزال ضعيفاً بسبب العملية الجراحية، وغير قادر على تحمّل أي ضغط في الوقت الحالي. وتعتقد مارثا أنه سيكون أحسن حالاً بعدم إخباره.

"إذن، لا يمكنني إجراء مقابلة معه بشأن القضية الجديدة، وما إذا كان يعتقد بأن هناك صلة بينهما؟"

"لا. إنه لا يعلم شيئاً عنها. سنبقيك مارثا وأنا على اطلاع بما يجري في هذه القضية. والقضية القديمة أغلِقَت ـ أو سيتم إغلاقها في غضون بضعة أسابيع، عندما يذهب فيت هاركرايدر إلى الكرسي."

عبس جيف مككولو. "متى سيعود العمدة إلى العمل؟"

"اسبوعين. سنكون قد قمنا بالاعتقال بحلول ذلك الحين."

كان فيت هاركرايدر في السابعة والثلاثين من عمره، ويبدو في الخمسين. كان شعره موشحاً باللون الرمادي الحديدي. عُمْر من التدخين والأوقات العصيبة حفر تجاعيد عميقة بين أنفه وذقنه، وخاط سلسلة من الخطوط الرفيعة حول تجويفي عينيه. لم يجازف بأن يصبح سميناً، كما فعل كثير من السجناء، وذلك جزئياً لأن بنية أجسام رجال هاركرايدر قصيرة ونحيلة، وجزئياً لأن فيت هاركرايدر توقف عن الطعام عندما شعر أن جسده بدأ يثخن. لقد كانت السُمنة ضعفاً، وفي السجن لا ينفع أن تعطي مظهر الضعف. كان فيت هاركرايدر يحب أن يُترَك لوحده. كان لطيفاً، ومهذباً مع أولئك الذين يقابلهم، ولكن الناس الذين أساؤوا فهم بُعده على أنه ضعف، فعلوا ذلك لمرة واحدة فقط. لقد تعلم منذ زمن بعيد أنه إذا كنت مؤدباً وبعيداً، فإن الناس سيتركونك وحدك. كان بإمكانه القتال لو اضطر لذلك، إلا أنه كان يتجنب ذلك إن استطاع بدون تراجع. إن الصراخ وضرب الناس هو شكل من أشكال العلاقة الحميمية، ولهذا السبب وحده تجنب فيت هاركرايدر المواجهات.

لقد غادر محاميه للتو. لقد كان هذا المحامي فتى جدياً من ناشفيل، وكان

يعمل بالمجان، لأنه كان يزعم أنه يكره عقوبة الإعدام. لقد عرض خدماته عندما أعلنت الحكومة نيتها في إعدام فيت هاركرايدر في غضون ستة أسابيع. ربما كان مصلحاً ساذجاً، أو ربما أراد أن يظهر اسمه في الصحيفة بتمثيله لرجل سيء السمعة. كلاهما سيان، على أي حال. لن يعتقد فيت أن لدى الفتى الكثير مما يمكن أن يفعله، ولكن بدون رسوم قانونية مقابل ذلك، كان مرحباً به ليحاول. لم لا

لقد نسي فيت عدد المحامين الذين مروا عليه خلال عشرين عاماً. لقد كان بعضهم مجرد أصوات على الهاتف، يبقون في القضية لفترة طويلة بما يكفي ليجدوا مغفلاً آخر يتولى المشكلة عنهم، إلا أن أحداً منهم لم يبق لفترة طويلة. لم يكن فيت مشهوراً بما يكفي ليصنع اسماً لمُقاضٍ طموح، وكانت عائلته فقيرة جداً لجعل أي شخص ذو شأن يتولى الدفاع عنه. تلك كانت المشكلة التي ينبغي البدء بها. لقد قام المحامي المعيّن من قِبل المحكمة بالدفاع عنه في محاكمته الأصلية بشكل روتيني، إلا أن جهوده كانت بلا جدوى.

جلس على مقعد إسمنتي خارج الغرفة رقم خمسة، ونظر نحو الأعلى إلى التلة وراء النهر. كانت الشمس دافئة على جلده، وتثاءب وتمطى، وهو يستمتع بالرائحة، ويشعر بالصيف المبكر. لو أنه أبقى عينيه مغلقتين، فإنه سيتمكن من تخيل منزل الأسرة في شرقي تينيسي. وتساءل ما إذا كان قد تغيّر كثيراً خلال العقود التي غادر فيها. ربما لا. لقد زُرعَت الأرض جيلين قبل أن يولد هو. من سيريدها الآن؟ إنه لم ير حتى أي صور لموقع المنزل منذ أن غادر، والأخبار القليلة التي كانت تصله من الأقارب في الوطن لم تتطرق إلى المزرعة أبداً، أو للفصول المتغيرة، الأمر الذي اعتبره الجميع أمراً مسلّماً به، في حين أنه هو، المحروم منها للأبد، كان يمكن أن يقايض بهم جميعهم مقابل تلة ومرج.

كانت عمته مراسلة الأسرة. وكانت مهاراتها في التهجئة اعتباطية مثلما كانت مهاراتها في السرد، ولكنها كانت تقوم بالجهد على الأقل مرتين أو ثلاث

في السنة، وهذا أكثر مما فعله الباقون. كانت تخربش ملاحظات بقلم رصاص على ورق مسطّر تعلمه بولادة طفل لأبناء عم كان يتذكرهم بشكل مبهم هم أنفسهم كأطفال، أو كانت الصفحات الملطخة تتمنى له عيد ميلاد سعيداً، مع تذييل لإحصاء عنكبوتي لمتاعب سيارة عائلة هاركرايدر، وحالات فقدان لوظائف، وأمراض الأقارب كبار السن. وكأنه كان يهتم. كانوا جميعهم كشخصيات في فيلم سينمائي شاهده ذات مرة، ويتذكره بشكل مبهم، بدون أي يقين حقيقي عن الأسماء أو وظيفتهم في القصة. في ذاكرته توقف الزمن في شرقي تينيسي. وكانت هيملين مجتمع سبعينيات صغيراً ناعساً، لا يزال مأهولاً بأناس كانوا كباراً في السن عندما كان هو في السابعة عشرة من عمره، وكان إخوته لا يزالون شباناً في العشرينيات من أعمارهم، بوجوه غير مجعّدة، وشعر أسود كثيف. كان يعرف أنهم كبروا، كما كبر هو في السنوات التي انقضت منذ رآهم. لقد كانوا كباراً في السن الآن كما كان والده آنذاك، ولكن عقله لن يُعدِّل ذكرياته بطريقة أو بأخرى لتستوعب عملية الشيخوخة. لم يكن بإمكانه أن يتخيل عيني توم الحادتين تنظران من وجه والدهما المجعّد، أو إيول بالذقن البدينة الطاعنة في السن لماما، وبشعرها الأشيب. ولا يزال إخوته يبتسمون له من أحلام يقظة مليئة بالألوان الزاهية، كشبان مختالين على حافة الرجولة.

توم وإيول.

توم كان الأكبر، وذا شعر أسود، ضئيل الجسم، وبنظرة لامبالاة ناعسة أخفت شدته. تلك النظرة المحدقة الفارغة ساعدته بشكل جيد في لعبة البوكر وفي مشاجرات الحانة. كان خصومه يظنون أنه سيكون لقمة سائغة، وكان الوقت الذي كانوا يدركون فيه خطأهم، عادة، بعد فوات الأوان.

إيول ... الأقرب إلى ماما من العائلة. أكبر، ولين الجسد، وله عيون ذات جفون ثقيلة، وشفاه مكتنزة، كانت تبدو دائماً أنها تريد شيئاً ما. كان ينظر إلى

البنات في الكنيسة، وفي السيارات على الطريق العام، وإلى أفخاذ الدجاج المقلية في صحون الناس الآخرين بتلك النظرة المحدقة الصريحة والجائعة ذاتها.

توم وإيول. كم من الوقت مضى منذ أن سمع منهما؟ لقد كان هناك بعض الرسائل في بداية الأمر. ومباشرة بعد إرسال فيت إلى السجن، أرسل إيول له بطاقتين بريديتين قال فيهما أشياء مثل *ابتهج أيها الصبي! لن يستسلم المحامون. إنهم مصممون على إخراجك*. في نهاية المطاف. إيول لم يكن يبدو مهتماً بـ "في نهاية المطاف،" طالما أنها ليست حياته هي التي ترشح من وراء جدران إسمنتية. كان فيت يتساءل أحياناً، من اتضح أن إيول كان، إلا أنه لم يهتم كثيراً بشأن ذلك بطريقة أو بأخرى. ليس كافياً أن يحاول أن يكتشف. لقد ابتعد إيول عن المنزل، وفقدت العائلة الاتصال به ـ لم يتم القيام بأي محاولة معينة من قِبل عائلة هاركرايدر أو إيول للحفاظ على الروابط. ربما أنه أحسن صنعاً، ولم يكن يريد من يذكره بأقاربه الجبليين. ربما كان لديه أخيراً ما يكفي من المال ليشتري كل الأشياء التي كان يتلهف عليها في الكتالوجات، وفي واجهات العرض في مراكز التسوق. وربما أنه كان ميتاً أصلاً. لقد كان كله سيان بالنسبة لفيت. إيول لم يعد حقيقياً بعد الآن.

بعد المحاكمة، قضى توم فترة من الوقت في الجيش، وانتهى به المطاف مع سرية جنود مشاة في كوريا. *أحسب أنه لا بد أننا في القارب نفسه تقريباً*، كتب توم إليه. *كلانا سجين عند الحكومة، إلا أنهم يريدونني أن أقتل الناس. إنها تمطر هنا طوال الوقت. تمطر إلى أن تتعفن قدماك في جواربك. ربما أنك تأكل أفضل مما أكل*.... لم يستطع فيت أن يتذكر إذا كان قد اهتم بأن يجيبه.

في البداية كان يفكر كثيراً بأخويه. وخلال الأشهر الأولى من سجنه، كان الغضب دفأه، ومواسيه، وصديقه. كان ينظر إلى الحائط ويحاول أن يمنع الضجة المتواصلة الصادرة من خشب الزنزانة، وكان يتخيل أخويه يأكلان الهامبرغر عند

ديكسي غريل، أو يمشيان في غابة أكتوبر ومعهما بنادق بحثاً عن غزلان. وفي تخيلاته كانا دائماً يضحكان، دائماً حُرَّان. أراد فيت أن يدمرهما. قد يهرب من السجن، فكر بذلك، وقد يضع ماسورة البندقية داخل فم توم ذي الابتسامة العريضة، وقد يجعل الضحكة تتوقف. أو قد يتخلى عن ذلك. إكسر الصمت. قل ما حدث تلك الليلة، ولكن قُله بطريقة مختلفة، بحيث قد يتم سجنهما هما، وليس هو، إلى أن يتلاشيا في العدم. سوى أنه لن يصدقه أحد هذه المرة. لم يعد أحد يهتم بالحقيقة بعد الآن ـ إذا كانوا، في الواقع، قد اهتموا في أي وقت، بأي حال. كانت المحاكمة قد انتهت، والحكم صدَر، والآن كل شيء انتهى سوى الانتظار.

كان أخواه بعيداً عن متناوله الآن. وتدريجياً، اعتاد على تقبُّل ذلك. في نهاية المطاف، خمد الغضب، ليحل محله لفترة ذكريات أعذب عن المنزل والعائلة. لقد عاش فيت لفترة على مشاهد من فترة صباه. لم يكن هناك كثير من الذكريات السعيدة عن المنزل، ولكن الذكريات القليلة، التي كان يمكن إنارتها بضوء ألطف من التأمل الذي أعاد عرضه مراراً وتكراراً في ذهنه، إلى أن أصبحت نسيجاً مزداناً من الدفء والضحك، والحقائق الأخرى الأكثر قتامة سكنت مهملة ومنسية في قرار عقله. لقد عاش لأشهر على ذكريات لقطات خاطفة: لقد كان في السادسة من عمره، يتمايل على طريق معبد فوق دراجة منزلية الصنع، ركُبها توم من قطع خردة استجداها (ربما سرقها) .... وكان في الثامنة من عمره، يرتدي أوفرهول، وحافي القدمين على صخرة باردة ورطبة، يصطاد في الجدول الصغير مع توم وإيول، في غابة الربيع المتوهجة بأشجار ذات براعم زهرية اللون .... في العاشرة، يقرقر أول كأس بيرة له في الظلام البارد لمبنى حفظ وتدخين اللحم، وإيول يضحك عندما غصّ وتفتف بسبب طعمها المرّ. وقف توم بابتسامه عينيه الناعستين، ينظر وكأنه كان في مكان آخر.

بعد سنة، أو نحوها، أصبحت تلك الذكريات بالية. لقد اهترأت بإعادة استعراضها بحيث استُنزِف الخيال منها، ولم يعد لها قدرة على نقله من الجدران. أحياناً، كانت تزحف ذكريات أخرى أشد قسوة لتسخر منه مع لمحات لتوم وإيول، وكان يفضّل عدم تذكرها. شيئاً فشيئاً تخلى عن الحياة الأخرى، حيث خفتت الأصوات وكمدت الوجوه.

هنا فقط الحقيقة.

كان يعرف كل قنطرة من الأرض، وكل شجرة الآن. كانت التلة مزروعة بأشجار الدردار والصنوبر ـ ليس شجر الوطن من البلوط، والدردار، والجوزيات. في فصل الربيع حوّل غبار طلع شجر الدردار السجن إلى عش أزيز لمن يعانون من حساسية العيون الدامعة، ولكن فيت لم يكن يهتم. لم يكن لديه رد فعل عكسي للدردار، مجرد استياء خفيف من أنها لم تكن أشجار الوطن المألوفة. كان يحدِّق في سلسلة تلال وسط تينيسي السقيمة لسنوات الآن، ومنذ ذلك الحين تم نقله من سجن الجدران إلى سجن تينيسي الجديد ذي الإجراءات الأمنية القصوى. في البداية رحَّب بتغيير المشهد، وحدّق بالتلة على منحنى النهر كرجل يتضور جوعاً، محاولاً أن يجعل سلسلة التلال تحوِّل نفسها إلى سلسلة من الجبال هناك في الوطن المسجاة بالسديم.

إن السجن قرية، والآن كان موطنه. لقد عاش هنا لمدة عشرين عاماً، وفي وقت قريب الآن قد يموت هنا.

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

أمر قضائي بالمثول أمام المحكمة

كانت فرانكي سيلفر ووالدتها وشقيقها مسجونين في منزل خشبي كان يُستخدَم كسجن مورغانتون، وكانت البلدة كلها تتحدث عن الجرائم المروعة التي وقعت في البرية وراء الجبال. واستذكر الناس من الكبار في السن زمن الهجمات الهندية قبل أربعين سنة مضت، واستشهد أولئك ذوو الميل الديني بنصوص من الكتاب المقدس عن الشياطين بشكل بشري. وسيكون قد مر شهران قبل أن تدفع تلك الفتاة ذات الشعر الأشقر وأهلها من نتائج الجريمة، وأتساءل أين يمكن إيجاد هيئة محلفين نزيهة في كل مقاطعة بيرك، ومَن مِن بين زملائي سيكون غبياً بما يكفي ليدافع عنهم. من المؤكد أنه لن يُقدم على أي عمل أو نية من أجل عميل شريف مرة ثانية بعد ربط اسمه مع سمعة فرانكي سيلفر السيئة. واعتقدت أنني كنت خارج هذا الأمر تماماً، وذلك لاتخاذي وظيفة في الأعمال المكتبية بدلاً من إنشاء مكتب محاماة خاص بي.

في الصباح الذي أتى بعدما قام الشرطي تشارلي بيكر بإحضار سجنائه من الجبل إلى مورغانتون، اتجه إلى منزله من جديد، عائداً مروراً بجبل سيلو، وإلى وادي نهر تو، على اسم العذراء الشيروكية الأسطورية إيستا ـ تو، وهي جولييت

الشعب الهندي سيئة الطالع. لقد كان يوم رحلة جيداً أعلى طريق الجبل الأصفر، حتى في ذروة فصل الصيف. والآن، مع ثلوج بارتفاع قدم على الطريق، ورياح كنصل السكين تهب خلال الطرقات، كان من المؤكد أن تكون رحلة مريرة، ولكن كان الشرطي، على الأقل، قارداً على السفر أسرع وبشكل أسهل في رأيه بدون ثلاثة سجناء خطيرين في عهدته.

مع ذلك، وقبل مغادرته مورغانتون، لا بد أن تشارلي بيكر قد أمضى بعض الوقت في حانة السيد ماكإنتاير ـ يقوّي نفسه للرحلة الطويلة للعودة فوق الجبال. ومن غير ريب أن فاتورة صاحب الحانة مقابل الإقامة، والطعام، والشراب (وعلى الأغلب الأخير) سيتم تسليمها إلى خزينة المقاطعة، مع سجل بنفقات الشرطي لإحضار السجناء. لا بد أن تشارلي قد روى قصته عدة مرات قبل أن تشتعل نار صاحب الخان، وأراهن أنه اشترى القليل جداً من زجاجاته الويسكي. وبحلول الوقت الذي انطلق فيه بيكر ورفاقه بجيادهم نحو الغرب على طريق الجبل الأصفر، كانت البلدة تهمهم بأخبار جريمة القتل الشنيعة في المقاطعة الغربية.

ومع كل الإدانة من شهود عيان، روت ثرثرات الحانة الحكاية المقيتة من جديد عن العثور على تشارلي سيلفر الشاب؛ أجزاء من عظامه وجلده في رماد الموقد، وأطراف وأجزاء جسدية شتى متناثرة في كل مكان في الغابة بالقرب من الكوخ. إنهم لم يعثروا عليه كله. كان الثلج لا يزال عميقاً، والرأي العام كان أن أجزاء من الجثة ستستمر في الظهور حتى ذوبان الثلج تماماً في نيسان/إبريل، عندما يكون آخر ذوبان للثلج في الربيع قد كشف عن الأجزاء المغطاة على أقصى عمق.

"لقد دفنوا ما عثروا عليه،" علّق أحد المسافرين. "ولكن سيكون هناك المزيد في الربيع القادم."

"أحسب أنهم ينبغي أن يبدأوا من جديد،" قال آخر.

لقد كان اهتمام مورغانتون بأرملة الرجل المقتول ـ والقاتلة المتهمة ـ أكبر

من الاهتمام غير العادي بالتفاصيل الدموية للمأساة. لقد قامت زوجة السجّان بدورها في نشر الإشاعات كذلك، جاعلة الجميع بلا استثناء يعرفون أنه تم حبس المرأة الشابة الجميلة في زنزانة سجن في الطابق العلوي. وقد غطت أخبار فرانكي سيلفر على الحديث عن الآخرين التعيسين، أهلها، حيث أن امرأة ناضجة وشاباً كانا مواضيع أقل تشويقاً للتأمل. وحتى زوجتي إليزابث كانت تضغط علي للحصول على تفاصيل عن القضية، ولكنني كنت أستطيع أن أقول لها فقط ما سمعته من الشرطي، وحتى ذلك كنت أخففه من أجل أذني امرأة لطيفة.

"يقولون إنها قتلت زوجها الشاب بقسوة، وقطعت جثته إلى أجزاء،" قالت إليزابث. لقد قابلت زوجة الشرطي برسنيل، سارة، في الشارع وتوقفتا "لتمضية الوقت،" وهذا تعبير يُستخدَم من قِبل جماعة النساء لدينا عن الإعطاء والتلقي من النميمة المحلية. "هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً، بيرجيس؟"

"هذا يعود إلى هيئة المحلفين لتقرره،" قلت آملاً أن أصرف انتباهها عن هذا الأمر. "هناك شخصان آخران في الحجز بشأن الجريمة."

"ولكن تم العثور على الجثة مقطّعة إرباً؟"

"الشرطي بيكر قال إنها كانت كذلك،" قلت على مضض. لقد أثبتت جهودي المبذولة لحماية زوجتي من الأخبار المزعجة عدم جدواها، والفضل يعود إلى الفضول المتواصل للناس في المدينة.

انحنت إليزابث إلى الأمام، وكانت عيناها تشعان، وهي تتوق للحصول على أخبار. "وقد قابلت هذه المخلوقة، بيرجيس؟ كيف كانت تبدو؟"

"إنها ضئيلة الحجم وشقراء. لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. ولم أرَ أية إشارة تدل على أنها تعاني من الجنون. هززت كتفي مستهجناً. "كانت تبدو كأي فتاة من فتيات المناطق النائية.

"إذن فهي ليست مجنونة." تأملت إليزابث في هذا. "هذا يجعل القصة كلها غريبة أكثر. لماذا كان بإمكانها أن تفعلها، إذن؟ أم هل تعتقد أن أخاها قد فعلها ليحمي شرفها؟"

"لم أسمع شيئاً يورط الصبي،" قلت معترفاً. "إنه فقط في الخامسة عشرة من عمره، على ما أعتقد."

"والأم؟"

"قيل القليل عنها. إنها الأرملة الشابة سيلفر التي تم القبض عليها بسبب كذبة، حيث قالت إن زوجها خرج من المنزل في حين أنه في الحقيقة كان مسجى قطعاً داخل الكوخ."

كان من الواضح أن إليزابث قد سمعت هذه التفاصيل من قبل، لأنها لم تبد أي فزع عند سماعها التفاصيل مني. "ربما أن زوجها كان يتودد لامرأة أخرى؟ ذلك هو السبب الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه لضربه بفأس."

"سآخذ تحذيرك هذا بكل جدية، يا سيدتي،" قلت مبتسماً.

"تأكد من أنك تفعل ذلك، بيرجيس غيذر،" قالت إليزابث وهي تضحك على تعبير الخوف المصطنع الذي أبديته. ولكن انصرف الهزل عنها في الحال تقريباً. "إنها جريمة رهيبة. هل تعرف ماذا كان دافعها؟"

قلت: "إن المحاكمة بعد شهرين، يا إليزابث. دعينا لا ندينها أو ندين عائلتها بعد. إنك ابنة محام. هل لا بد لي أن أذكرك بأنه عمل النيابة العامة ـ ليس ثرثرة المدينة أو كاتب المحكمة ـ أن تحدد الدافع؟"

"أعتقد بأنه لا بد أن يكون الغيرة،" قالت زوجتي، وكأنني لم أتكلم. "الرجال قساة جداً. ربما كان غير مخلص لها. وقد سمعت أن الزوجين التعيسين لديهما طفلة. هل ذُكِر أي شيء عن ذلك؟"

"لدى السجينة طفلة، حسب ما ذكر الشرطي بيكر."

"الطفلة المسكينة! هل هي مسجونة مع والدتها، إذن؟ هل رأيتها؟"

"لا. فرانكي سيلفر لم يكن معها طفلة. أعتقد بأنها مع عائلة والدها."

"كم هو الأمر قاس على كل من الأم والطفلة!" صاحت إليزابث. أعرف أنها كانت تفكر بولدنا ويليام، الذي لم يكن أكبر كثيراً من الطفلة سيلفر، وارتعدت من التفكير أنه يمكن أن يكون هناك تعاطف بين زوجتي ابنة العائلة الكريمة وتلك الفتاة الجاهلة في سجن ويل بتلر. لم أتمكن من تخيل ويليام محروماً من والديه ومتروكاً مع إرث من العار، وتساءلت ما الذي يمكن أن يحل بطفلة القاتلة.

قلت: "لا تنسي مصير المسكين والد الطفلة الشاب. لقد كان تشارلي سيلفر في التاسعة عشرة من عمره، وعائلته تنوح عليه، يمكنك أن تكوني متأكدة من ذلك."

"امرأة شابة جميلة مع ابنة طفلة،" قالت إليزابث. "كيف تمكنت من ارتكاب هكذا جريمة؟"

إنهم يعيشون في برية قاسية. إنهم ليسوا كالنبلاء في مجتمعك، يا عزيزتي. كيف نأمل في فهم أساليبهم؟"

بعد يومين عدت إلى مكتبي، أعمل مرة أخرى في شؤون المقاطعة القانونية. وككاتب محكمة، كان لدي وثائق قانونية ووصايا لتسجيلها، وآلاف الأمور القانونية التي يتعين عليّ أن أحفظها عن ظهر قلب، حيث أنني من المتوقّع أن أقدّم المشورة للقاضي وأعضاء الجلسة في دورة الانعقاد المقبلة للمحكمة المتنقلة. لقد استغرق والد زوجتي أربعة وأربعين عاماً ليجعل من نفسه مرجعاً في القانون وشؤون المقاطعة، في حين أن لدي فترة بضعة أشهر لأستعد لأخلفه بكفاءة حيث سينعكس جيداً على اختياره لخلف له.

مرة أخرى، تم قطع أعمالي بعمل أكثر إلحاحاً.

سمعت صوت الباب الخارجي لمبنى المحكمة يُفتَح ويُغلَق بعنف من جديد، وبعدئذ صوت وقع أحذية بمسامير في نعالها تُحدث صلصلة عبر أرض قاعة المحكمة المصنوعة من خشب البلوط. تنهدت ووضعت قلمي جانباً. "أدخل!" قلت بصوت مرتفع. كان باب مكتبي مفتوحاً جزئياً، وسرعان ما رأيته يُدفَع ليُفتَح، وظهر رجل أحمر الوجه يرتدي فراء وجلد غزال يحملق فيّ.

"بماذا يمكنني أن أخدمك؟" سألت بأدب، متجاهلاً التعبير العدواني للدخيل.

اقترب الرجل العابس من مكتبي. "إنهم يحتجزون عائلتي في سجن هنا، ويمكنك أن تخبرني ماذا ينبغي علي أن أفعل حيال ذلك."

قلت: "آه،" حيث أنني كنت حينها قد أدركت من لا بد أن يكون زائري.

لقد كان هذا والد فرانكي سيلفر، لقد عاد من رحلته الطويلة للصيد في كنتاكي ليجد زوجته وولديه مسجونين. كان لا بد أن أراعي صدمة وألم الرجل المسكين، ولكن في الحقيقة كان أول ما طرأ على تفكيري هو التساؤل باضطراب: هل كان مسلحاً، وماذا ينوي أن يفعل إزاء حجز عائلته؟

نظرت بتمعن أكثر إلى الرجل، وقررت أن غضبه كان وليد خوف على عائلته. لقد كان أشعثاً، كما هم معظم الصيادين، بلحية وشعر أشيبين لم يعرفا مشطاً ولا صابونة منذ فترة ليست بالقليلة، ولكنه كان رصيناً، ووسيم الملامح، ومهذباً إلى حد كافٍ. اعتقدت من مظهره أنه ربما بدأ حياته في ظروف أكثر ملاءمة من كوخ خشبي في البرية. شعرت بتعاطف مفاجئ مع الرجل المُسن المسكين. إن حياة مزارع وصياد من مناطق ريفية مأهولة بعدد ضئيل من السكان، هي حياة قاسية، ومتقلبة في أحسن الأوقات، وكان الرجل الذي أمامي يبدو أكثر تقدماً في السن من عمره الحقيقي. يالها من صدمة ـ أن تعود من الحدود الباردة والقاسية لتجد أن زوجتك وأولادك في أصعب المخاطر، ومتهمون بأسوأ أنواع الجرائم. أي رجل

لن يصيح في طريقه إلى داخل مبنى المحكمة بذلك الغضب؟ لقد كان غريباً هنا، وكان غير متأكد على الإطلاق من الترحيب به.

"إنني كاتب المحكمة العليا لمقاطعة بيرك،" قلت له، وأنا أمد يدي بابتسامة ترحيب. "اسمي بيرجيس غيذر، يا سيدي. أعرف من لا بد أن تكون أنت."

أومأ برأسه. كان بإمكاني رؤية الخطوط على وجهه. لا بد أنه أمضى الليل بطوله على صهوة حصانه للوصول إلى هنا. "أشعيا ستيورات،" قال. "لقد عدت الليلة الماضية. أنا وولدي الكبير. لقد كنا في رحلة صيد في الطريق إلى كنتاكي. وقد أخبرتنا عائلة هاول أنه تم القبض على عائلتي. هل رأيتهم؟

"لبضع لحظات أول ما وصلوا البلدة." قلت له. "لقد انتظروا هنا في قاعة المحكمة هذه إلى أن تم التمكن من العثور على السجّان. إنهم جميعاً بخير، على أي حال. وإلا كنت قد سمعت خلاف ذلك."

جلس أشعيا ستيوارت على الكرسي المصنوع من الخيزران بجانب مكتبي. كان حذاؤه قد ترك لطخاً من الطين على أرضية مكتبي الملمَّعة، ولكنه كان قلق البال جداً ليلاحظ أمراً كهذا. "ماذا ينبغي على أن أفعل؟" سألني. كانت نظرته بريئة كنظرة طفل، ومرة ثانية شعرت بوخزة شفقة من أجل هذا الشخص المسكين المرتبك. لم يكن لدي شك أن ستيوارت سيكون شجاعاً أمام دب يهاجمه، أو في الدفاع عن جلود حيواناته ضد عصابة من قبيلة الشوني، ولكن هنا في بلدة المقاطعة، مع جميع تعقيدات القانون في متاهة أمامه، كان عاجزاً، ومقيداً بجهله وبساطته.

"أنت تعرف ظروف اعتقالهم؟" سألته، آملاً إلى حد بعيد أن لا يقع الأمر علي في إعلامه بالأخبار.

"لقد سمعت. لقد قُتِل تشارلي سيلفر."

"ستجري المحاكمة في آذار/مارس،" أخبرته بلطف. "ينبغي أن توكّل محامياً ليدافع عن عائلتك، فهم متهمون بالجريمة."

"آذار/مارس! إن ذلك على بعد شهرين من الآن. هل ينبغي أن يبقوا في السجن حتى ذلك الحين؟"

ترددتُ، ففي عِقب جريمة شنيعة كهذه، لن تتم الموافقة على كفالة. لقد كنت متيقناً من ذلك، ولكنني كرهت أن أنقل خبراً تعيساً كهذا إلى هذا الرجل المُثقَل بالهموم.

قال: "إنني قلق على سلامتهم، يا سيدي.

كنت على وشك التأكيد أن الطبيب تيت كان طبيباً ممتازاً عاش في كنف هذه المحكمة ذاتها. كان يقوم على رعاية السجناء على نفقة المقاطعة، إن لزم الأمر. وقبل أن أتفوّه بهذه المعلومة، فهمت قصده فجأة. لم يكن قلقاً من أن عائلته يمكن أن تصاب بمرض خلال احتجازهم، ولكن أن حياتهم ربما تكون مُعرضة للتهديد من قِبل أعضاء لجان الأمن المحلية في البلدة* لقد تناهى إلى سمعي كلام فظيع في الحانات عن التخلص من متوحشي جرائم القتل في سجن بتلر؛ ربما أن أشعيا ستيوارت قد علم عن مشاعر كهذه من جيرانه في المقاطعة، أو ربما قوبل بترحيب قاس لدى وصوله إلى مورغانتون.

"إنهم أشخاص مخمورون مغفلون، أولئك الذين يطلقون مثل هذه التهديدات،" قلت له. "لا أحد هنا يمكن أن يؤذي امرأتين ضعيفتين، وصبياً فتياً في الحجز، بصرف النظر عما يُعتقَد أنهم قد ارتكبوه."

---

* لجنة من المواطنين تأخذ على عاتقها مهمة توطيد النظام ومعاقبة المجرمين على الأخص حين يعجز القانون عن ذلك.

بدا غير مقتنع بكلامي، وفي الواقع أنني قلت ذلك بهدف إعطاء أمل أكثر من الإقناع. "يتعين علي أن أعتني بعائلتي،" قال أخيراً.

"هل أخبروك ماذا حدث لتشارلي سيلفر؟"

"سمعت منهم، أولئك الذين عثروا عليه.

كان لدي شعور أن لدى أشعيا ستيوارت المزيد ليقوله عن موضوع زوج ابنته، ولكن لم يكن هناك استعداد لتقديم المزيد من المعلومات. لقد كان جامد الحس بالنسبة لشخص واجه قريب له مصيراً قاسياً كهذا. "لقد كانت جريمة مروِّعة،" قلت له، حيث لم أكن متأكداً أن ساكن الغابات سيفهم درجة الرعب التي تولّدت هنا في مورغانتون بسبب أخبار جريمة القتل.

أومأ برأسه. "يبدو الأمر كذلك.

"لقد تم تقطيع الشاب المسكين بفأس إلى أجزاء، يا سيد ستيوارت! ولم يعثروا عليه كله بعد من أجل مراسم دفن مسيحي. إن الناس غاضبون.

"إنهم يتسرعون في الحكم بدون معرفة حقائق القضية،" قال ستيوارت.

"إن حقيقة الجثة المذبوحة تتحدث عن نفسها،" قلت. "ينبغي أن أخبرك أن هناك القليل من التعاطف مع أولئك الذين ارتكبوا هذه الجريمة. لقد كان القتل وحشياً، ومحاولة الإخفاء كانت قاسية، هذا ما يقوله البعض بخوف."

جفل لسماع ذلك، ولكنه لم يجادلني فيه. وسألني: "أليست هناك طريقة ما لإطلاق سراحهم؟" فكرت بالأمر. "هل سيكون ذلك تصرفاً حكيماً، سيد ستيوارت؟ فكر فيما تقترحه، بصرف النظر عن كون المساجين مذنبين أم أبرياء. إن المشاعر تتصاعد فيما يتعلق بهذه القضية. إذا نجحت في ضمان إطلاق سراحهم بكفالة، فقد يقوم الرعاع باللحاق بك عند محاولتك مغادرة البلدة، أو

ربما أن أولئك الأقرب إلى موطنك ـ عائلة الضحية ـ سيسعون إلى ثأر شخصي لما لحق بهم من ضرر.

"يمكننا أن نعتني بأنفسنا،" قال ستيوارت. "ابني جاك هو في الرابعة والعشرين من عمره، ومتزوج من ابنة عائلة هاول. أحسب أن عائلة هاول سيقفون معنا.

"يمكن أن تتسبب في موت الأشخاص ذاتهم الذين تحاول إنقاذهم.

نفد صبر ستيوارت. "لقد تم حبس زوجتي وولديَّ بناء على كلمة من عائلة سيلفر. أريد أحداً ما هنا ـ أحد ما ليس مديناً لعائلة سيلفر الملعونة ـ ليرى ما إذا كان هناك أي سبب لاتهام عائلتي بهذه الجريمة. أنا لم أقل إنه لم يكن أمراً مرعباً. لقد كنت أحب تشارلي الشاب كثيراً. ولكن إلى جانب بت عائلة سيلفر في هذا، أريد أن أعرف على أي دليل يقوم اتهام عائلة ستيوارت.

هذا عدل تماماً، على ما أعتقد. ربما اعتمدت عائلة الرجل المقتول على كبش فداء سهل لتهدئة أحزانها، ولتسوية حسابات قديمة في الصفقة. ومما أخبرنا به الشرطي بيكر، لم أكن أظن أن هذا مرجح، إلا أن أشعيا ستيوارت كان على صواب: كان يتعين على عائلته مواجهة متهميهم.

"إذا كنت مصمماً على ضمان إطلاق سراحهم،" قلت له، "وإذا كنت على صواب بشأن أنه تم اعتقالهم ظلماً، فهناك طريقة واحدة ممكنة لتحريرهم. يمكنك البحث عن القضاة وطلب عقد جلسة للنظر في قانونية سجن المعتقلين.

طرَف أشعيا بعينيه بعدم فهم. "هل يمكن أن يتم ذلك بسرعة؟" فكرة أخرى قلقة جعلت وجهه يكفهر. سأل "هل سيكلّف ذلك كثيراً؟ أعتقد بأنه يمكنني أن أجمع بعض النقود، ولكن."

قمت بهز رأسي. "ينبغي أن تتطلع إلى المحكمة في آذار/مارس، حيث أنك

عندئذ ستضطر إلى دفع أتعاب أعلى للمحامين، ولكن جلسة الاستماع هذه هي أمر بسيط أمام القضاة. إن الغرض منها هو رؤية ما إذا كان هناك دليل كافٍ لاتهام السجناء بجريمة القتل. عليك أن تطلب عقد جلسة الاستماع هذه، على أي حال.

"كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟"

"عليك أن تجد القضاة ـ السيد هيوز، أو السيد بيرغنر، قاضيا الصلح عندنا ـ وعليك أن تطلب أولاً عقد جلسة الاستماع لسبب قانوني. سأخبرك بالضبط ما يتوجب عليك قوله. ستكون العبارات غريبة بالنسبة لك، ولكن ينبغي عليك حفظها عن ظهر قلب. هل يمكنك تدبُّر ذلك؟"

"نعم، يا سيدي.

حسناً. يمكنني أن أكتبها لك.

"الذاكرة ستفي بالغرض.

"إعثر على توماس هيوز، أو جون سي. بيرغنر ـ أي منهما سيفي بالغرض ـ وقل إنك ترغب في أداء القَسم بأن باربرا ستيوارت، وبلاكستون ستيوارت، وفرانكي سيلفر *قد سُجنوا بدون صيغ المحاكمة القانونية، وبدون أن يكون بوسع الأطراف مواجهة الاتهامات الموجهة إليهم أمام أية محكمة قانونية*.

لقد جعلني أقولها مرتين إضافيتن، ثم قال: "سيطلقون سراح عائلتي عندئذ؟"

"لا. سيقوم القضاة عندئذ بإصدار أمر بعقد جلسة استماع مع شهود ليدلوا بشهادتهم، تماماً مثل المحاكمة. بعدئذ سيقرر القضاة ما إذا كان هناك دليل كافٍ لإبقاء السجناء في السجن. أو ربما سيفرجون عنهم بكفالة. هل تفهم؟"

"بشكل جيد إلى حد ما،" قال ستيوارت. "قل تلك الكلمات القانونية مرة ثانية.

قمت بتدريبه على صيغة الطلب إلى أن كنت واثقاً من أنه حفظ العبارات عن ظهر قلب. بعدئذ قمت بإعطائه عنوان منزل جون بيرغنر، وتمنيت له التوفيق.

شكرني أشعيا ستيوارت شكراً جزيلاً، وقبل أن يلتفت ليغادر، قال: "هل أنت محامٍ، يا سيدي؟"

"إنني محامٍ،" قلت، "ولكن قد لا أمثلك في هذا الأمر. وككاتب في المحكمة العليا، فإن دوري في القضية قد تم تحديده أصلاً. سأكون حاضراً في المحاكمة كحافظ محضر، ولتقديم المشورة لأعضاء الجلسة حول نقاط في القانون. تشجع، على أي حال! هناك نصف دزينة من المحامين المؤهلين في هذه البلدة، ولديهم خبرة في المحاكمات أكثر مما لدي. إنني واثق أنك ستجد محامياً جيداً ليتولى القضية. إن مسألة المثول أمام المحكمة يمكن معالجتها من قِبل أي محامٍ جدير بهذا اللقب.

أومأ برأسه. "سأفكر الآن في أمر جلسة الاستماع تلك."

نورث كارولينا ـ مقاطعة بيرك

حيث أن أشعيا ستيوارت قد تقدم إلينا بشكوى، نحن جون سي. بيرغنر وتوما هيوز، اثنان من قضاة الصلح بالنيابة في مقاطعة بيرك المذكورة آنفاً، وعنها، أنه تم الاشتباه في باربرا ستيوارت، وفرانكي سيلفر، وبلاكستون ستيوارت بأنهم ارتكبوا جريمة قتل بحق الجسد لواحد تشارلز سيلفر، وحيث أنه اتضح عند أداء القَسَم أن المُدَّعى عليهم، المُشار إليهم سابقاً، قد أودعوا سجن المقاطعة العام بدون أن يكون في وسع الأطراف مواجهة متهميهم أمام أية محكمة قانونية؛

لذا، فإن تلك الأمور تأمرك، عمدة مقاطعة بيرك أو أي موظف قانوني آخر لمقاطعة بيرك المذكورة، أن تلقي القبض على الأشخاص باربرا ستيوارت،

وفرانكي سيلفر ، وبلاكستون ستيوارت ، وحراستهم بشكل آمن بحيث تحضرهم أمامنا في مورغان خلال الموعد المحدد من قِبل القانون ، وللرد في ذلك المكان والزمان على التهمة . ولإجراء المزيد من المعالجة حسب ما يفرضه القانون . إن الفشل في هذا ليس على مسؤوليتك . صادر من تحت أيدينا وختمنا ، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني/يناير ، 1832 ميلادي .

توماس هيوز ، ق .ص . جون سي . بيرغنر ، ق .ص .

أعدتُ الوثيقة إلى ويل بتلر . "المسكين توم هيوز . إن تمكُّنه من اللغة يحتاج إلى تحسين ، ولكنه رجل طيب على الرغم من ذلك ."

نقر بتلر على الوثيقة . يمكنني أن استشعر لمساتك في هذا ، يا صديقي الضليع ."

"من المؤكد أنني أهجئ أفضل من ذلك ، يا ويل ،" قلت مبتسماً .

"أقسم أشعيا ستيوارت بأن عائلته قد حُرِمت من حق مواجهة متهميها! تلك كلمات رائعة تستحق عشرة شلنات لتخرج من فم ساكن مناطق نائية! هه ، قد تستطيع نقش كل ما يعرفه هذا الشخص عن القانون في رأس دبوس . إنني أعتقد أن أحداً ما قد حرض هذا الشخص على ذلك ."

"سامري طيب ، ربما ،" قلت . " يتصرف ستيوارت ضمن حقوقه في هذا . من المؤكد أنك لا تعترض على جلسة استماع ."

شاهدت نفَسي يشكِّل ضباباً في الهواء بيننا . كان بتلر ينتظرني في الشارع بالقرب من الكنيسة المشيخية . لقد كنت أنظر بإعجاب إلى منظر ثلوج فناء الكنيسة لأشجار توت العليق المُحاطة بأغصان محمَّلة بالثلج ، وأفكر أنه حتى الموتى لهم ملابسهم الموسمية المبهرجة ، عندما ناداني لمناقشة شهرته الحديثة كحارس لأشهر قاتلة منذ السيدة ماكبث .

كان ويل يفكر بسؤالي. "تعترض على جلسة استماع؟ ليس أنا. إن الألسنة تثرثر الآن عن هذه القضية. ربما جرعة من الوقائع ستوقف الأمر عند حدّه. إضافة إلى ذلك، فإن القضاة قد يوافقون على كفالة لبعض السجناء على أي حال. إن الصبي صغير جداً. أعتقد بأنني لن أمانع أن يكون لدي عدد أقل من السجناء لأقوم بحراستهم حتى يحين موعد انعقاد جلسة المحكمة في آذار/مارس."

"هل أنت قلق من أن أحدهم قد يحاول إيذاء عائلة ستيوارت قبل ذلك الحين؟ لقد سمعت كلاماً عن ذلك."

"إننا متيقظون،" قال بتلر.

"لقد تحدثت مع أحد الأشخاص الذين في عهدتك، ولكنني فقط لمحت الآخرين. كيف يبدو السجناء؟"

"عاديون تماماً." هز بتلر كتفيه مستهجناً. "أناس من سكان الغابات، بالطبع. إنهم ليسوا همجيين خبيثين كما يجعلهم رواد الحانات يبدون. السيدة ستيوارت امرأة صغيرة الحجم، ونسخة ذابلة عن ابنتها. والابن هو شخص عبوس ـ ليس حالة غير مألوفة بالنسبة لصبيان في السادسة عشرة من عمرهم، على أي حال، وبالكاد مؤشر على ذنب. إنهم مسالمون بما يكفي في مسكنهم. والسيدة سيلفر الشابة تبكي بين الفينة والأخرى، وكثيراً ما تسأل عن طفلتها. والآخران ينامان أو يصليان أو يتحدثان بصوت منخفض عندما يكونان في مزاج جيد. لقد سمعت أن زوجة السجّان منشغلة بهم كثيراً. سيكون لديها ضيوف أسوأ لتتجادل معهم، سأضمن ذلك."

"هل قالوا شيئاً عن موت تشارلي سيلفر؟"

"لا شيء تناهى إلى أذني. ربما ستنوّرنا جلسة الاستماع. هل ستكون هناك يا بيرجيس؟"

"بصفتي الرسمية، لا . ولكنني فضولي بقدر ما هو الرجل المجاور . كمواطن عادي، لا يمكن لأي شيء أن يبعدني.

إن نظام المحكمة لبلدة حدودية هو أمر رائع . لدى مورغانتون، التي على حافة الحضارة فعلاً، القليل من التوجّه نحو الترفيه العام . لدينا معرض في وقت الحصاد، ولكن في الواقع أن الحدث الأكثر أهمية في السنة هو احتفال الرابع من تموز/يوليو السنوي الذي تقيمه جمعية مورغانتون الزراعية، بخطاباته الوطنية الحماسية، والقراءة المفعمة بالحيوية لإعلان الاستقلال، والاستعراض الموسيقي لمحاربي الثورة القدامى الناجين، عبر شوارع البلدة ـ موكب أصغر كل سنة، حيث يقلل الزمن من أعدادهم. وبين النبلاء هناك حفلات عشاء وحفلات رقص، ولكن كل أسبوع هناك عمل قليل ولكنه شاق لشغل تفكير الرجل العادي.

المحكمة هي مسرحنا.

هناك يمكن لأكثر المواطنين تواضعاً أن يشاهدوا مسرحيات جيرانهم، سواء كانت المسرحيات الهزلية الصغيرة عن شجار على عجل شارد، أو على حدود سياج، أو مأساة الحياة والموت التي ستنتهي على المشانق. ولا يتم تقاضي بنسٍ واحدٍ مقابل الدخول لرؤية هذا المشهد؛ وفي الواقع أنه من حقنا كمواطنين أن نشاهد العملية القضائية أثناء إجرائها. يكون المحامون هم الممثلين الرئيسين، ويمنحون احتراماً، وزيادة في العمل بالنسبة لدرجة أدائهم. وحيث أن الشهر كان كانون الثاني/يناير ـ منتصف الطريق بين مهرجان الحصاد واحتفالات الرابع من تموز/يوليو، ووقت عطلة للمزارعين ـ فقد كنت أعرف أن قاعة المحكمة الصغيرة ستعج بالمشاهدين بكاملها. بالكاد كان هناك شخص في مورغانتون لم يسمع عن المصير المروع لتشارلي سيلفر، وأولئك الذين كان بإمكانهم المشي، لم يكونوا ليفوتوا مشهداً واحداً من الإجراء القانوني الذي سيوقع العقوبة بقاتليه. كان من المُفترَض أن تكون مسرحية من ثلاثة فصول ممتدة على مدى العدة شهور

القادمة: جلسة استماع، ومحاكمة، وإعدام شنقاً. وسيكون عدد الحضور في كل منها ضخماً.

لقد كانت تلك فرصتي الوحيدة لأكون مشاهداً في المسرحية. ومن الآن فصاعداً سأقوم بدور مساند على خشبة المسرح، أذكّر المحامين، وأتابع التقدُّم الذي تحرزه المحاكمة. سأكون منشغلاً جداً بواجباتي حينئذ إلى درجة لا تمكنني من الاستمتاع بالعمل لأجل العمل بحد ذاته. الآن فقط يمكنني أن أجلس بين الجمهور وأراقب وجوه الشخصيات الرئيسية في المسرحية. الآن فقط يمكنني الاستماع إلى قصصهم كمراقب فقط. لم يكن هذا ليفوّت.

وصلت مبكراً، إلا أنه كان هناك حشد كبير من الناس يحومون في الخارج في ذلك الحين. كانوا يبدون سعداء تماماً ـ ليس الجمهور الغاضب الذي كنا بتلر وأنا نخشاه قبل ثلاثة أيام فقط. كل ما رأيته في وجوه الرجال كان توقعاً لترفيه مسائي. ربما كان عدم إحساس منهم أن يفكروا باستخفاف شديد بحدث يمكن أن يعني حياة أو موتاً لنظير من الجنس البشري، ولكن عائلة ستيوارت كانوا غريبين بيننا. وكذلك، قد لا يكون هناك حزن حقيقي على موت تشارلي سيلفر، حيث أنه لم يكن معروفاً لأي شخص في البلدة. وظروف موته هي فقط التي جعلتنا نتعرَّف عليه، والمشاعر الوحيدة التي تحرَّكت بوفاته كانت أسفاً عاماً أن شاباً مات موتة مرعبة، ورغبة في أن تأخذ العدالة مجراها على مرتكبي ذلك الفعل الشنيع. كانت الحياة قاسية بما يكفي بالنسبة لكل شخص. ولم يكن الموت شيئاً غريباً. في الواقع أنه كان زائراً منتظماً في كل عائلة عرفتها. لم يكن هناك شيء استثنائي بشأن شاب يُقتَل في أوج شبابه، كما علمني موت أخي ألفرد المُحزن قبل أقل من سنتين.

قمت بشق طريقي إلى قاعة المحكمة مع الحشد من عامة الناس، وتدبرت أخذ مكان لي بجانب قريب زوجتي الكولونيل جيمس إيروين، وهو رجل في

السادسة والخمسين من عمره، طويل القامة وقوي، ومشهور بفروسيته. والكولونيل إيروين، الذي كان هو نفسه كاتب محكمة المناشدات والجلسات الفصلية في المقاطعة، لم يكن محامياً، ولكنه كان مالكاً لأراضٍ تصل مساحتها إلى عشرين ألف فدان، تمتد على طول الطريق من نهر كاتاوبا. ولم يكن حاضراً في جلسة الاستماع بصفته الرسمية، مثلي، وإنما كأحد أعمدة المجتمع المهتمين في جميع الأحداث التي تمس رفاه مواطنيه. والشيء الآخر الذي كنا نشترك فيه كان الطريقة التي حافظنا بها على مناصبنا في حكومة المقاطعة: كان والد الكولونيل إيروين كاتب المناشدات والجلسات الفصلية لأكثر من عقد من الزمن، واستقال ليتيح لابنه تولي العمل. لقد كان هناك كلام في العائلة أنه ستتم إعادة الإجراء في غضون السنوات القليلة القادمة، حيث أن ابن الكولونيل إيروين قد تخّرج السنة الماضية فقط من جامعة واشنطن في ليكسينغتون، في فيرجينيا، والآن يستعد ليصبح محامياً.

"مساء الخير يا كولونيل،" تمتمت وأنا أحشر نفسي بجانبه. "قضية مقيتة، هذه.

"فعلاً. مورغانتون كلها ترغب في إلقاء نظرة على الأشخاص الشريرين الذين قاموا بتشويه جثة رجل بعد تجريده من حياته.

تفرَّق الحشد قليلاً للسماح لقاضي صلح بأخذ مكانيهما على كراسٍ تم رفعها في الواجهة الأمامية لقاعة المحكمة. ورأيت أن السيدين المترأسين كانا جون سي. بيرغنر وآرون بريتين. قام بيرغنر بتوقيع مذكرة جلسة الاستماع للنظر في قانونية سجن المعتقلين، ولكن بريتين حل محل توماس هيوز، قاضي الصلح الآخر الموقّع على المذكرة. لقد تمت مرافقة الشهود الخمسة إلى الداخل، وقمت بدراستهم عن كثب، محاولاً تخمين من كانوا، حيث أنهم جميعاً كانوا غرباء عن هذا الجزء من المقاطعة الخاص بنا. لقد كان هناك ثلاثة رجال، وسيدة

جليلة تبدو مكتئبة، وفتاة صغيرة ذات عينين واسعتين كان يبدو أن عمرها لا يزيد عن خمسة عشر عاماً كانت يداها ممسكتين باستمرار بطيات تنورتها، فاضحة عصبيتها، وكانت رابضة بجانب المرأة الأخرى، التي كان من الواضح أنها أحدى الأقارب، وتومئ برأسها بهيبة لهمسات الآخرين اللجوجة ـ إيعازات بالشجاعة، على ما أعتقد، حيث أن الفتاة كانت تبدو وكأنها بحاجة إلى تشجيع لتحتمل الإجراءات. كانت عيناها حمراوين ومنتفختين. كانت تسترق نظرات عابرة على حشد المشاهدين، الذي بدا أنه أخافها إلى درجة خشيت معها أن تفقد وعيها حتى قبل أن تبدأ الجلسة. كنت أفكرفي نفسي، فتاة بكر أخرى غير معتادة على أساليب البلدة. لقد كان هذا الهرج والمرج محنة بالفعل بالنسبة لفتاة صغيرة، على الأخص فتاة عانت من فقدان مفجع لشخص عزيز ليس أكثر من بضعة أيام مضت.

"تلك الفتاة الصغيرة هي أخت الرجل المقتول!" تمتمت للكولونيل إيروين.

"والأخرى ـ والدتها؟"

"لا. هناك شبه قليل بينهما. إضافة إلى أنه لا تبدو عليها نظرة حزن كافية لتكون ذات صلة وثيقة بالمأساة. ربما إحدى الجارات، أو قريبة أخرى. سنعرف حالاً، فها هو غابي بريسنل قد حضر مع السجناء.

خيم صمت مفاجئ على الحضور، والتفت لأشاهد دخول الشخصيات الرئيسية في المسرحية. رافق شرطينا المحلي غابرييل بريسنل السجناء لمسافة قصيرة من السجن، حيث أنهم لم يعودوا ضمن اختصاص الشرطي بيكر. كان يقود أمامه امرأة مهزولة وشاحبة، وشاباً عابساً أشقر الشعر، مقيدين معاً، وكان ذلك للاستعراض أكثر منه لأسباب أمنية، على ما أعتقد. شقوا طريقهم على طول ممر تم فتحه بسببهم، حيث أن الحشد انكمش متراجعاً إلى الوراء عنهم، وباعتقادي، ليس بسبب الرائحة الكريهة لعدم الاغتسال بسبب الحجز، بقدر ما هو فكرة الفعل الذي

tele @ktabpdf

يقفون متهمين به. تجاهل السجناء الحشد الصامت. وبرؤوسهم المرفوعة عالياً وظهورهم المستقيمة، شقوا طريقهم إلى أماكنهم المحددة أمام القضاة. لم يكن هناك ما يشير إلى جنون أو ذنب مروّع في سلوكهم، وكان يمكنني أن أميّز من الصمت أن الحشد كان مذهولاً بنظرتهم المباشرة. وخفَّ الحقد بدرجات.

بدأت دمدمة أخرى عندما تقدَّم السيد توماس ويلسون بخطى واسعة خلال الحشد، وأخذ مكانه عند الحاجز بجانب السجناء. إن ويلسون هو أحد أبرز المحامين في البلدة، بالرغم من أنه لم يمضِ على وجوده في مورغانتون أكثر من سنة. إنه عضو هيئة تشريعية حكومية سابق، وهو شخص آخر تربطني به قرابة زواج، وقد حضر متأخراً حيث أن هذا يناسب رجلاً حذراً، على ما أظن. توماس ويلسون في الأربعين من عمره، في حين أن زوجته كاثرين لا تتجاوز الثانية والعشرين. إنها ابنة خالة زوجتي إليزابث، حيث أن والدتيهما أختان، وابنتا الراحل ويليام شارب، وهو وطني من مقاطعة أيردل، ورجل دولة خدم في الكونغرس القارّي.

قدَّم ويلسون، ببذلته السوداء وربطة عنقه المصنوعة من الحرير، تبايناً أنيقاً وحاداً بالنسبة للسجينين اللذين يمثلهما والمرتديين ملابس رثّة. هنا كانت عظمة القانون بوصوله إلى مواطنيه الأدنى درجة والأقل شأناً. وأخذ مكانه بجانبهم، بعيداً بشكل مؤدب، وكأنه يريد أن يجعل الأمر واضحاً أن الواجب وحده هو الذي وضعه في صحبتهم. لقد كنت سعيداً أن أشعيا ستيوارت قد وجد محامياً مميزاً كهذا للدفاع عن زوجته وولديه، ولكنني تساءلت ماذا ستكون المشاعر في البلدة تجاه عائلة ويلسون في المحاكمة القادمة، وقد أشار تصرف ويلسون إلى أنه، هو أيضاً، كان قلقاً بشأن الصلة المزعجة. هذه الأفكار ذكرتني أن أبحث عن أشعيا ستيوارت في الحشد، ولكنني لم أتمكن من العثور عليه وسط جمهور يتجاوز المائة مشاهد متلهف.

عندما بدأ الحشد برص صفوفه خلف الشخصيات الرئيسية، أدركت فجأة أن ثمة شيئاً ما ناقص.

"هناك اثنان منهم فقط!" قلت بصوت أعلى مما قصدت. ولحسن الحظ أن دمدمة متزايدة غطّت على محادثتنا. "أرملة الضحية ليست معهما،" قلت للكولونيل. "فرانكي سيلفر نفسها ليست حاضرة. هل يمكنك الرؤية وراء الحشد، يا سيدي؟ هل هناك شرطي آخر يقترب؟"

"ليس هناك حسب ما أرى. ربما أن الأرملة ستنتظر لتأخذ فرصها في المحكمة.

فكرت في الأمر. "هذا بالتأكيد ممكن. إن هذه جلسة استماع لتقرير ما إذا كان هناك من الأدلة ما يكفي لإبقاء السجناء في السجن. ومما سمعت من الشرطي بيكر، فإن هناك شهوداً كثراً يريدون التأكد من أن السيدة سيلفر ستبقى محجوزة حتى موعد المحاكمة، وذلك لأنها كذبت على كل واحد منهم بقولها إن زوجها لم يعد إلى المنزل عندما ـ

"نعم، لقد سمعت الروايات،" قال الكولونيل بسرعة. "لا شك أنك على صواب. لماذا يتوجب عليها المطالبة بدليل على تواطئها في حين أن نصف الحي يقفون متأهبين لإدانتها؟ إن محاكمتها أمر لا مفر منه. ماذا عن الآخرَين؟"

عدتُ بتفكيري إلى سرد تشارلي بيكر لوقائع القضية. "بالكاد تم ذكر الآخرَين،" قلت له. "ربما أنه حذف بعض تفاصيل الأحداث.

دعا جون بيرغنر إلى افتتاح الجلسة، مضيفاً تحذيراً شديد اللهجة للحشد أنه إما أن يسود الصمت والنظام في محكمته أو سيقوم بإخلائها. ولم يكن بحاجة لأن يقلق. فعندما بدأ الشهود بالإدلاء بشهاداتهم، قام أولئك الحريصون على الاستماع بفرض الصمت.

كان الشاهد الأول الذي تم استدعاؤه إلى المنصة هو توماس هاول، وهو قريب الابن الأكبر من عائلة ستيوارت، جاكسون، بصلة زواج. تساءلت ما إذا كانت الرابطة العائلية وثيقة بما يكفي لتسبب حرجاً للزوجين الشابين. كان هاول يبدو مضطرباً على المنصة، إلا أنه أدى قسَمَه بصوت واضح وبدأ الإدلاء بشهادته بدون جفل. لقد كررت قصته تلك القصة التي سمعتها من تشارلي بيكر: إبلاغات فرانكي سيلفر بأن زوجها قد فُقِد، متبوعة بأيام من البحث في أكوام الثلوج في الغابة، فقط ليتم استدعاؤه إلى كوخ الرجل المفقود من قِبل جاك كوليس.

في نهاية سرد هاول، نهض محامي الدفاع واقترب من الشاهد. "هل كان لدى عائلة ستيوارت أي شيء ليقولوه بشأن اختفاء تشارلي سيلفر؟"

"لم أرهم أبداً،" قال هاول. "لم يأتوا ليساعدونا في البحث، هذا أمر مؤكد."

"ولكنهم لم يكذبوا على أي شخص بشأن مكان وجود تشارلي سيلفر؟"

"ليس على حد علمي."

"وهل رأيتهم قريباً من كوخ تشارلي وفرانكي سيلفر؟"

أجاب توم هاول: "لم أرهم."

ويليان هتشينز، وإليندور سيلفر، والآنسة نانسي ويلسون قالوا الشيء ذاته إلى حد كبير. لقد فاتني بعضاً من شهادتهم، لأنني بعد دور هاول على المنصة لاحظت وميضاً أحمر بين المشاهدين، والتفت لأرى سيدة مألوفة ولكن هائلة برداء أسود. كانت تشق طريقها إلى الأمام للحصول على نظرة أفضل على الإجراءات، وأوحت تعابيرها بأنه إذا لم تتم معالجة الأمور بشكل ملائم، فإن المحكمة ستسمع عن ذلك. وكزت الكولونيل إيروين.

نظر بالاتجاه الذي أشرت إليه، وهمهم باستنكار. "اللعنة! ابنة العم ماري تتدخل فيما لا يعنيها، أليس كذلك؟ ولا لحظة هدوء أبداً، أليس كذلك؟"

"إنها تهتم بالأمور المدنية،" قلت بلباقة. لقد كنت، برغم كل شيء، مرتبطاً بصلة جديدة مع عائلة إيروين.

أصدر الكولونيل جيمس إيروين صوتاً معبراً عن السخط. "كان يتعين على والد زوجتك أن يزوِّجها، بيرجيس. من الأفضل لأي شخص يتجه غرباً."

سمحت لنفسي بابتسامة مخفية. "هذا سيلائم الهنود تماماً، أليس كذلك؟"

"ربما أن وجود منزل تتدبر أموره، سيجعل ماري تبتعد عن التدخُّل في شؤون الآخرين. لو أنها لم تولد أنثى لكانت جعلت من نفسها محامياً بالتأكيد. لتشعر بالسعادة لأنك لم تتزوج تلك المرأة، يا بيرجيس!"

إن ماري إيروين هي الأخت الأكبر لزوجتي إليزابث، ولكن لا يمكنني أن أرى شبهاً بينهما. ففي حين أن إليزابث لطيفة وقليلة الكلام، فإن ماري امرأة مستقلة الرأي ذات طموحات فكرية، وآراء أكثر مما منح الله للكونغرس. لو أنها كانت تهتم بهذه القضية المشهورة، عندئذ سيتم استجواب جميع أقاربها العاملين في مهنة المحاماة باستفاضة وتفصيل، ربما في حفل العشاء القادم. فلتنقذنا السماء ـ إن قائمة الضحايا الخاصة بها تشمل الكولونيل، السيد ويلسون، وأنا نفسي. إنني أتساءل ما الذي صنعته (فهمته) الآنسة ماري من هذه القضية، ومن أية جهة خططت القيام بإثارة المشكلة.

كانت الفتاة الصغيرة الشاهدة الأخيرة التي سيتم استدعاؤها. لقد كانت هناك همهمة تعاطف من الحشد عندما وقفت الفتاة الهزيلة ذات الشعر الأشقر لأداء القَسم. التفت توماس ويلسون إلى القاضيين بيرغنر وبريتين. "إنني أعتبر الآنسة مارغريت سيلفر أهم شهودي، أيها السادة. وأود أن تقوم برواية قصتها بكلماتها الخاصة، بدون مقاطعتها بأسئلة مني. إن الشاهدة عصبية بشكل واضح لأن تتحدث أمام هكذا حشد، وأنا أعتقد بأنها ستكون في وضع أفضل إذا تمكنت من نسيان نفسها في الإدلاء بشهادتها."

أجرى القاضيان تداولاً موجزاً بالتهامس. عندئذ قال جون بيرغنر "سنسمح بذلك. إن هذه هي مجرد جلسة استماع، ويجوز لنا التراخي قليلاً بالقوانين، على وجه الخصوص لمساعدة سيدة شابة في محنة (حزينة)."

التفت السيد ويلسون إلى الشاهدة وأبدى لها ابتسامة مطمئنة. "والآن يا آنسة سيلفر، كلمة أو اثنتين فقط للبدء بها، بحيث نعرف أين نحن. هل تعلنين سِنّك، لو سمحتِ؟"

"ستة عشر.

"وعلاقتك بالفقيد؟"

"أخت، حسناً نصف أخت. أخت من أب واحد، هذا ما أعنيه، ولكننا لم نلحظ ذلك. لقد كنا جميعنا عائلة. كان والدنا أرملاً عندما تزوج والدتي، نانسي ريد، كان ذلك في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1814، عندما حضر لأول مرة إلى ريف كارولينا ليستقر هناك. كان تشارلي في الثانية من عمره. تلك الزوجة الأولى في ميريلاند، توفيت في 1812، وقد أنجبت تشارلي. وولدتُ أنا في 2 كانون الأول/ديسمبر، 1815."

كانت مارغريت الصغيرة تبدو وكأنها تسرد هذه الحقائق لنفسها، حيث أنها لم تنظر كثيراً إلى الجمهور. ولا بد أن ويلسون قد قرر أنه تركها تتكلم بشكل مطوّل بما فيه الكفاية ليجعلها تطمئن، حيث أنه أوقف تدفق الذكريات العائلية. "والآن، آنسة مارغريت، أريد منك أن تتذكري الأحداث التي وقعت قبل بضعة أسابيع قصيرة، عندما فُقِد أخوك الكبير تشارلي. هل يمكنك التحدث بصوت مرتفع وواضح الآن، وأن تخبرينا ماذا حدث بالضبط؟"

أخذت الفتاة نفساً عميقاً وأومأت برأسها، مغلقة عينيها للحظة لتهيء نفسها قبل أن تروي الحكاية القاسية. قام توماس ويلسون بإعطائها منديله الكتاني، فقامت بلفه حول أصابعها، تشدّه وتسحبه إلى أن حسبت أنه سينسل إلى خيوط.

tele @ktabpdf

"أخبرينا عن فقدان أخيك تشارلي،" حثها ويلسون على الكلام.

"أحسب أنه كان قبل يومين من عيد الميلاد عندما ظهرت فرانكي عند منزلنا الخشبي مع الطفلة على وركها، ولم يكن تشارلي يُرى في أي مكان.

"اليوم الذي سبق عشية عيد الميلاد."

"نعم يا سيدي. لم أكن أفكر بأنه كان قريباً من عشية عيد الميلاد، لعلمك. إننا لا نعطي أهمية أكثر من اللازم لعيد الميلاد في منزلنا، لذا لم يكن هناك تزيين أو هدايا، ولا عشاء فاخر يتم إعداده. تستغل جماعة الرجال المناسبة كذريعة ليتناولوا المشروبات الروحية. ويطلقون رصاص مسدساتهم في الهواء ليصنعوا ضجة مبهجة للرب، أحسب ذلك."

كانت هناك موجة من التسلية بين الجمهور، إلا أن الشاهدة تجاهلتها، ومضت قُدُماً بقوة في قصتها. "نحن النساء لا نعير عيد الميلاد كثيراً من الاهتمام، إلا إذا كان هناك طقس ديني في كنيسة قريبة بما يكفي للذهاب إليها، لذا، فقد كان مجرد يوم عادي في عز الشتاء، ولكنه بارد حقاً. كانت الأرض صلبة كلوح تحت أكوام الثلوج، ونهر تو الذي يجري بجانب جبلنا، كان متجمداً بصلابة بحيث لم يكن ممكناً لأي شخص المشي على الماء. لقد كان يوماً للجري من أجل الاحتماء، إذا حصلت على أية دعوة للخروج في هكذا ظروف جوية بأي حال، ولكنني شاهدتها آتية، وكانت فرانكي سيلفر تمشي ببطء على الطريق في منحدر التلة المتجمدة، ليست على عجلة للوصول إلى منزلنا. وربما أنها كانت ترتجف، ولكننا كان لا بد لنا أن نضع اللوم على البرد في ذلك."

هنا، تلعثمت الشاهدة، وكأن كان هناك ثمة شيء قادم.

"أخبرينا عن فرانكي سيلفر،" شجعها ويلسون. "زوجة أخيك."

"إنها أكبر مني بعامين فقط، ولكنها أجمل ـ أعترف لها بذلك. لقد أصبحت

في السادسة عشرة الشهر الماضي. ولم يتم إعطاء أهمية لذلك، كذلك، سوى أن أخواي ألفرد وميلتون كانا يغيظاني بأنني أصبحت أختهما الكبيرة العانس، وهما يران كيف أن زوجة أخي فرانكي كانت تنتظر مولوداً عندما كانت في مثل سني، وأنا حتى الآن لم أقبِّل رجلاً بعد. وأخبرتهما أنني كنت أدرس لأكون مثل الآنسة فرانسيس ستيوارت.

احمرت مارغريت سيلفر خجلاً. "الحقيقة هي أنني تمنيت، أحياناً، أن أكون مثلها إلى حد أبعد. كانت صغيرة الحجم وشقراء، وكانت تعمل بجد، كذلك. بالطبع، كانت مضطرة لذلك. كونها متزوجة من تشارلي وما شابه.

تجاهلت مارغريت سيلفر زوبعة الضحك الصادرة من الجزء الخلفي من المحكمة، ولكن الضجة جعلت القاضيين يعبسان.

"تابعي." قال بيرغنر. "وأطلب ضجة أقل من الجمهور، أيها السادة."

"بالنسبة لفرانكي. حسناً، كانت تحافظ على ذلك الكوخ نظيفاً، وتعتني بالطفلة، وترعى الأبقار والدجاج، وتقوم بالطهي والغسيل، وتعمل على إبقاء النار مشتعلة. هناك ثلاث بنات منّا لمساعدة ماما في القيام بكل ما تقوم به فرانكي لوحدها. هذا جعلني أعارض الزواج المبكر، أيضاً.

جلس السجينان منتصبين عندما سمعا هذه الكلمات، وبدا كأنهما كانا على وشك المقاطعة للتعبير عن موافقتهما، إلا أن المحامي أسكتهما بهزة من رأسه، وأسرعت مارغريت سيلفر بالمتابعة.

"لم يكن تشارلي ليجهد نفسه في الكوخ، لا، ولكنه كان مفعماً بالحيوية. كان الناس يلجأون إليه. كان هو وفرانكي يشكلان زوجاً جذاباً. ليس مستغرباً أنهما تزوجا صغيرين جداً في السن، وبالطبع، كان لدى تشارلي إحساس بالجمال دائماً.

"رجل ذو ذوق راقٍ،" تمتم ويلسون، ولم أسمع تلميح سخرية في صوته.

أومأت مارغريت سيلفر برأسها. "أعتقد بأن تشارلي يشبه أهل والدته. لقد أحببناه جداً، ولكننا لم نكن مثله. لقد كان وسيماً، وكان يمكنه أن يجذب سناجب من شجرة صمغ بابتسامته تلك، ولم يقل لا أبداً لدورق خمر أو للحن كمان، ولكن رمق القاضيان توماس ويلسون بنظرة، وانحنى قريباً إلى الشاهدة وقال برقة: "حان الوقت لتخبرينا ماذا حدث لتشارلي، آنسة مارغريت."

أخذت نفساً عميقاً وطرفت بعينها لتكبح دموعها. "كنا نعمل عندما حضرت فرانكي. بالطبع، نحن نعمل دائماً، بوجود عشرة أشخاص ينبغي إطعامهم في أوقات الوجبات، ونار ينبغي أن تبقى مُشتعلة، وصغار ينبغي رعايتهم - شقيقي ويليام، الأصغر، لا يتجاوز السنتين.

"لقد كان في الصباح الباكر عندما أتت فرانكي. لقد وقفت هناك على عتبة الباب، وأخذت تضرب قدميها بقوة في الأرض لتزيل الثلوج عن حذائها، وتهز شعرها لتخلصه من رقائق الجليد. وأعطتني الطفلة، وبدأت بفك معطفها، وفرك يديها ببعضهما البعض لتدفئتهما. أخذت نانسي الصغيرة هناك بجانب النار، وأخذت أزيل أغطيتها وأفحص ما إذا كانت لسعة الصقيع قد أصابت أصابع يديها وأصابع قدميها. المسافة لا تتجاوز ربع ميل فوق التلة إلى منزلهم، ولكن الرياح كانت عاتية. رقّ صوتها وهي تتكلم عن الطفلة. واضطررت للانحناء إلى الأمام لأسمعها.

"تبلغ ابنة تشارلي من العمر ما يزيد قليلاً عن عام واحد."

"وما هو اسم الطفلة؟"

ابتسمت مارغريت سيلفر. "آه، إنه نانسي. ربما أن تشارلي قام بتسميتها على اسم أمّنا التي ربّته، أو ربما أن الاسم جاء من اسم لإحدى قريبات فرانكي، أو ربما أنهما أحبا لفظه. لا أعرف ماذا كان رأي فرانكي بشأن ذلك، ولكن ربما أنها

لم تكن تحب اسم والدتها ـ باربرا ـ أو ربما أن تشارلي لم يأخذ رأيها في الأمر. إن تشارلي يفعل ما يشاء ؛ إذا كان بإمكانه إغراءك بفعل ما يريد ، فإنه سيفعل، ولكن إن لم يستطع، فإنه يمكن أن يكون فظيعاً إزاء ذلك. إنه اسم جميل، على أي حال... نانسي سيلفر. يقول الناس إنها إذا أخذت شكل أمها وجاذبية أبيها، فإنها ستكون قوة يحسب حسابها لعشر سنين من الآن.

بدا أن الحديث عن ابنة أخيها الصغيرة قد أراح الفتاة المسكينة، إلا أن ويلسون لم يكن في وسعه السماح لثرثرتها بإضاعة وقت المحكمة.

"إنك فتاة لديها إحساس بالواجب لتخبرينا هذا القدر، آنسة مارغريت،" قال ويلسون، وهذه المرة كان يبتسم بلطافة. "ولكننا لا نحتاج إلى تفاصيل من هذا القبيل، فقط الجزء الأساسي من القصة. إذن، حضرت فرانكي إلى منزل والديك في ذلك الصباح، ومعها الطفلة، ألم تفعل ذلك؟"

"بلى، فعلت."

"وماذا قالت؟"

"كانت تتفاخر. قالت إنها كانت تعمل منذ طلوع الشمس، تقطع الحطب، وتدعك أرضية الكوخ " ترددت للحظة عندما غطى لهاث الحضور تقريباً على صوتها. ربما أنها كانت المرة الأولى التي *أدركت* فيها الفتاة المسكينة أهمية تلك الكلمات.

"ماذا قالت كذلك؟"

"كانت تريد من أحد الأولاد أن يقوم بعلف الماشية. قالت إن تشارلي خرج من المنزل. لذا، قمنا بإرسال ألفرد معها."

"هل قالت إلى أين من المحتمل أن يكون تشارلي قد ذهب؟"

"إلى حانة جورج يونغ. معظم الرجال يحصلون على مشروبات عيد الميلاد المُسكِرة من حانة جورج."

"إذن لم يكن لديك سبب للشك في قصتها؟"

"لا. هكذا هو تشارلي، تماماً."

سمح توماس ويلسون لنفسه بابتسامة خاطفة. "أخبرينا ماذا حدث بعدئذ، آنسة مارغريت.

"حسناً، بعد ذلك خرجت فرانكي، ولكن في صباح اليوم التالي عادت وهي تقول إن تشارلي لم يعد بعد. وبعد يومين بدأنا البحث في الغابة، إلا أننا لم نعثر أبداً على أثر له، إلى أن ذهب السيد كوليس إلى الكوخ، بعدما عادت فرانكي إلى منزل ذويها."

"هل رأيت عائلة ستيوارت في أي وقت خلال كل هذا؟"

فكرت مارغريت سيلفر بالأمر. "لم أرهم أبداً،" اعترفت أخيراً. "لم يحضروا لزيارتنا لجلسة سِحر معنا، أو للاستعلام عن تشارلي، إطلاقاً."

"لكنهم لم يقولوا شيئاً بشأن اختفائه؟ ألم يشاهَدوا عند كوخ تشارلي وفرانكي سيلفر؟"

"لا أحسب أنهم شوهِدوا هناك؟"

تحرك الكولونيل إيروين في مقعده بجانبي. "هوذا، سيد غيذر،" تمتم. "أثبت ويلسون أنه ليست هناك ذرة دليل تربط المرأة ستيوارت أو ولدها بهذه القضية. لم يقولا شيئاً ولم يرهما أحد. ينبغي الإفراج عنهما. لقد عمل ويلسون ما بوسعه من أجل تلك العائلة المسكينة، بلا ريب، ولكن ياله من ثمن مقابل هذا!"

"ماذا تعني؟" همست له.

"لقد وضع الحبل حول رقبة فرانكي سيلفر.

tele @ktabpdf

إنني وحيدة الآن، ولكنني لا ألقي بالاً للعزلة. لقد عشت طوال حياتي في أكواخ من غرفة واحدة، أولاً مع والدي ووالدتي وإخوتي، ومن ثم مع تشارلي والطفلة. كان الأمر يبدو غريباً في البداية أن يكون لدي هذا القدر الكبير من المساحة لوحدي، وهذا القدر من الهدوء. كان لدي ماما وبلاكستون لأتحدث معهما خلال الأسبوع الأول أو مايقارب، ولكنهما كانا خائفين أن يكون أحد ما يتنصت، وقد وجدنا أنه بعيداً عن هذا الأمر الكبير، لم يكن لدينا الكثير لنقوله لبعضنا البعض. إن الخوف يشبه حجراً في فمك. عندما يكون في فمك، لا يمكنك أن تتكلم عن أي شيء آخر. لذا فقد أمضينا الأيام في صمت شبه تام، مع رعب يهتز في بطوننا. بعدئذ كانت هناك جلسة الاستماع، وحصلت ماما وبلاكستون على كفالة، وتم إطلاق سراحهما. بعد ذلك بقيت أنا فقط، لأجلس هنا وأنتظر حتى الربيع.

أعتقد أنني ما كنت سألقي بالاً لزنزانة السجن سوى بسبب التكاسل. لا أعرف ماذا أفعل بيدي. إنهما تتحركان على حِجري، ولن تبقيا ساكنتين. سألت زوجة السجّان إن كان بإمكاني مساعدتها في أعمالها المنزلية لقضاء الوقت، ولكنها قالت إنه قد لا يتم السماح لي بالخروج، وإنه كان لا يمكنها السماح لي بالحصول على مكواة أو إبرة، وذلك خشية قيامي باستخدامهما للإيذاء. كان اسمها سارة، كان لديها طفلة، وأنا أتوق لحملها حيث أنها تذكرني بابنتي نانسي، ولكن، بالطبع، لن تحضرها بالقرب مني. أراقبها في بعض الأحيان عندما تلعب معها في الحديقة. كانت خصلات شعرها الذهبية تلمع في أشعة الشمس، ولكنها عندما تنظر إلى الأعلى وتراني أراقبهما، تعبس وتأخذ الطفلة بعيداً. لقد أخبرها زوجها أنني مجنونة، وبالرغم من أنها تراني هادئة كالحليب، ولا أغضب أبداً، فهي لا تزال خائفة، وتتراجع بعيداً تماماً عن باب زنزانتي، كلما كان لديها سبب لتتحدث إلي، فأنا قاتلة.

قالت: "يمكنك الحصول على إنجيل."

هززت رأسي، وذهبت بعيداً، معتقدة بأن هذا كان دليلاً على خبثي، ربما حتى دلالة على أنني ساحرة. لم أخبرها أنني رفضت كتاب الله لأنني لا أستطيع القراءة.

أقضي الوقت عند النافذة المدعّمة بقضبان حديدية، أنظر نحو الأسفل إلى الطريق الموحل الذي يمر عبر وسط البلدة. هناك عدد من الناس أكثر مما رأيت في أي وقت مضى في حياتي. كانت بعض النساء ترتدين معاطف مخملية مع قبعات عليها ريش أبيض. أتمنى لو أستطيع رؤية أحذيتهن. في بعض الأحيان يتوقف الناس وينظرون إلى الأعلى باتجاه نافذتي، وأخطو إلى الوراء في الظل لأنني لا أريدهم أن ينظروا إلي. أتساءل إلى أين هم ذاهبون، وكيف تبدو المنازل الرائعة في الداخل، وما هي البضائع الفاخرة التي سيحصلون عليها من المتجر هناك. لقد كان لدي زبدية صيني هناك في المنزل، تم شراؤها من متجر. لقد أهداها لنا أحدهم كهدية زواج ـ أحد أقارب تشارلي، كان ذلك. لم تنكسر، بالرغم من كل ما حصل هناك في الكوخ. أتذكرها موضوعة على طاولة من خشب الصنوبر عندما رحلت، إلى منزل ماما، دون أن أعرف بشكل مؤكد أنني كنت أغادر ذلك المكان للمرة الأخيرة، ولكنني كنت أفكر أنني ربما لن أرغب في النوم هناك مرة ثانية أبداً. عندما يعود والدي إلى المنزل قادماً من كنتاكي، لأجعله يعيدني إلى هناك لأحضر أشيائي، هكذا فكرت، ولكن ذلك لم يحدث. أتساءل ماذا حدث لتلك الزبدية. لقد كانت بيضاء وعليها ثلاث علامات تشبه الريش الأزرق، مطبوعة على جانب واحد. أود أن تأخذها طفلتي عندما تكبر.

tele @ktabpdf

الفصل الثالث

الملف المُصفَر ملقى على الطاولة الحديدية، لم يُمس، ولكنه ليس غير مُلاحَظ من قِبل المريض الجالس في كرسي الحديقة. بينما كان يحتسي فنجان قهوتة الصباحي على الشرفة وهو ينظر إلى الجبال، حملق سبنسر آروود في الملف المُصفَر السميك، الذي أحضرته له مارثا الليلة الفائتة. كان يشعر أنه متعب جداً لأن يشرع في معالجته في الليلة السابقة، ولكن فضوله الآن كان لا يُقاوَم تقريباً. لم يُلمَس هذا الملف منذ ما يقرب من عشرين عاماً. قد تكون محتوياته غريبة بالنسبة له، بالرغم من أنه كتب معظم تقاريره هو بنفسه ـ ومع ذلك لم يفعل. كان كاتب تلك التقارير الشرطية مساعداً شاباً مختالاً، واثقاً من موقعه في العالم، ومن تفوقه على سجنائه. لقد كان الفارس الأبيض المؤيد للشرف والعدالة في عالم ملوث؛ لقد كانوا الأشخاص السيئين في أفلام الصور المتحركة، بدون أعذار أو عائلات أو مشاعر. لقد تذكر كيف كان ذلك المساعد الشاب ينظر إلى الحياة. وكان يرى عالماً مأهولاً بنوعين فقط من الناس: مجرمون ومؤيدون للشرطة. لقد رأى النوعين مع تنازلات مشبوهة. و استغرق سبنسر وقتاً طويلاً ليتعلم كم كان نطاق خبرته ضيقاً. معظم حياة الناس لم تمس أبداً نشاط رجل الشرطة: إنهم يمرون خلال الحياة كلها لا كضحايا، ولا كموالين، ولا كمرتكبي جرائم، وهكذا فإنه لم يرَ أبداً أولئك الناس.

تمكّن سبنسر من تذكر أنه كان يفكر بتلك الطريقة، ولكنه لم يعد بإمكانه

استجماع غطرسة الشباب التي جعلت من هكذا اعتقاد أمراً ممكناً. إن لديه وجهة نظر الآن. لقد ألقى القبض على ضارب زوجته، وتعرَّف عليه أنه الولد النحيل من الصف السادس الذي اعتاد أن يظهر في المدرسة بسواد حول عينه من الضرب، وكدمات، وكان يتمتم بأعذار حول كيف حصل له هذا. واعتقل قائدة مشجعات شابة جميلة بسبب قيادة السيارة في حالة ثمالة، إلا أنها الآن لم تعد قائدة المشجعات الشابة الجميلة: لقد أصبحت امرأة بدينة وفي الرابعة والأربعين من عمرها، وفي وقت ما في السنوات التي مرت منذ المدرسة الثانوية، تحولت إلى أمها. بالرغم من أنه قلما كان يعترف بهذا، لا سيما لنفسه، فإن سبنسر كان يشعر داخله بالغضب والدوافع ذاتها التي جعلت الناس يُعتقَلون، والآن يعتقد بأن معظم المواطنين الملتزمين بالقانون كانوا محظوظين بقدر ما هم نزيهين. أي قدر ضئيل من الحظ ـ أبوان محبان، أو قدرة خاصة لتحصيل على علامات جيدة، أو مال كافٍ، أو زوج مخلص ـ يمكن أن يمنع ذلك النوع من المأساة التي حدثت لأشخاص أقل حظاً.

كان يعلم أن فيت هاركرايدر لم يكن عضواً شريفاً في المجتمع، ولكنه لم يكن محظوظاً، أيضاً. نظر سبنسر مرة ثانية على الملف المُصفر الذي يحتوي على سيرة ذاتية للقاتل، متسائلاً كيف سيكون تفسيرها بالنسبة له الآن حيث أنه لم يعد ذلك المساعد الشاب المتعجرف الذي اعتقد أن درعه الذهبي جعله فارساً.

لقد تذكر جزئياً طباعة التقارير النهائية، بإصبعين على آلة كاتبة أي بي إم كهربائية، والتي كانت في ذلك الحين تبدو أنها أحدث العجائب التكنولوجية. ربما كانت الآلة لا تزال في قبو مكتب العمدة، مع الدباسات المكسورة، والهواتف ذات القرص الدوّار، وصناديق الأعمال الكتابية القديمة، وجميع بقايا الإدارات السابقة التي كانوا يخططون دائماً للتخلص منها، ولكن لم يجدوا وقتاً أبداً لنقلها إلى مكب النفايات.

كان الشيء الأول في الملف هو رقة صحيفة مصفرّة مقصوصة من هيملين ريكورد، وتتعلق بقضية هاركرايدر، مع صورة للشاهد الرسمي الرئيسي، مساعد في الرابعة والعشرين من عمره واسمه سبنسر آروود. حملق سبنسر في صورته كصبي بريء الوجه يصعب التعامل معه. كانت وجنتاه ممتلئتين، وعيناه غير مبطنتين، ومع كل جو التهديد بالخطر الذي حاول إثارته، بعينيه المتضيقتين وعبوس الشرطي الذي يعتزم فعل شيء ما، كان يبدو ذلك المراهق الهزيل، الذي ترك الجيش حديثاً، ولكنه لا يزال يبحث عن قتال. كان شعره الذي بلون الرمال قد لامس ياقته في تلك الأيام، طويل بشكل مطابق للموضة، ولكن مصدر إزعاج مستمر لنيلسي ميلر، الذي كانت انطباعاته الطفولية عن الرجولة قد تركزت على جنود المشاة ذوي الشعر المقصوص قصيراً جداً العائدين للتو من خنادق الحرب العالمية الأولى المليئة بالقمل. كان سبنسر قد بدد كثيراً من استراحات القهوة وهو يجادل في موضوع الموضة والصحة مع العمدة العجوز، ولكن ذلك كان عديم الجدوى. إهدار وقت لكلا الطرفين، فكر بكآبة، حيث أنه كان الآن يحافظ على شعره الرمادي قصيراً بقدر ما كان نيلسي ميلر يمكن أن يتمناه.

هل كان في أيما وقت مضى شاباً إلى هذا الحد؟

أقلقته الفكرة أكثر مما كان يمكن أن يعترف به. ذلك المساعد الشاب المتغطرس، سبنسر آروود من عشرين سنة مضت، اتخذ قرارات قد تكلّف الرجل حياته. ماذا لو كان مخطئاً؟

لم يفكر هكذا في ذلك الوقت، ولكن في تلك الأيام كان غاضباً جداً، وحريصاً على أن يرى شخصاً ما يُعاقب بسبب ما حدث لإيميلي ستانتون، إلى درجة أنه لم يتوقف أبداً للحظة لوضع استنتاجاته موضع تساؤل.

ابتسم وجهها له من خلال ورق الصحيفة المصفَر. لم يرها تبتسم أبداً. كانت صورة الصحيفة هي صورة الكتاب السنوي التي تم تصويرها في جامعتها. لم يكن

بإمكانهم استخدام صورة مسرح الجريمة في صحيفة عائلية. ليس هناك من يرغب في تذكرها كما كانت عندما عثروا عليها. هذا كان أفضل. كانت الصورة بالأسود والأبيض، ولكن سبنسر تذكرها بالألوان: خصلات شعر طويلة ملتفة حمراء، وعينان خضراوان صافيتان. لقد تذكر ألواناً أخرى كذلك، ألواناً كان يود نسيانها: مسحات من الطين على خدها الأيسر، وكدمة أرجوانية على جبهتها، وسيول من الدم وشظايا بيضاء من العظم تخرج من الجلد الذي كان ينبغي أن يكون وردي اللون، إلا أنه لم يعد كذلك بعدئذ.

كان التعليق تحت الصورة يقول: "ابنة كولونيل في الجيش مقتولة في مأساة أثناء نزهة على الأقدام."

وإلى اليمين من وجه إيميلي ستانتون الجميل، نظرت الملامح الواضحة لمايك ويلسون إليه بتسريحة الشعر المجعّدة، والنظرة المحدقة البرّاقة لطالب جندي، من هيئة تدريب ضباط الاحتياط ـ "روتسي" كما كان يُطلَق على طلاب الجامعة في هيئة تدريب ضباط الاحتياط. كان ويلسون يتطلع إلى فترة خدمة عسكرية في سلاح الطيران بعد الجامعة، ولكنه لم يحقق ذلك أبداً. لقد قاتل في معركة قصيرة خاصة في أرض مقطوعة الأشجار في جبال تينيسي، ولم يحصل على فرصة أبداً. لقد كانت هناك آثار جروح دفاع على طول ذراعيه في الأعلى وفي الأسفل، وحزوز على أصابعه كانت تبيّن أنه حاول أن ينتزع السكين عندما هوجم بها. تلك كانت أخف إصاباته، بالطبع، ولكنها على الأقل ذكرت شيئاً عن الطريقة التي مات بها. بشجاعة، الجميع تشبَّث بذلك. "مايك ويلسون الشجاع" كان ما أطلقته عليه أوصاف الصحف بشكل ثابت، وكأن ذلك يعوِّض ضياع حياته. مات مايك ويلسون أولاً في تلك الليلة. بسرعة. على الأقل سبنسر أمِلَ أن الأمر تم بسرعة.

التقى مايك ويلسون وإيميلي ستانتون في الجامعة، هذا ما ذكرته المقالة، وأصبحا صديقين قريبين ـ إن صحيفة صدرت قبل عشرين عاماً ما كانت ستقول "عاشقين،" إلا أن معظم قرائها كانوا سيكتشفون الأمر بأنفسهم. لقد قررا أن يتنزها سيراً على الأقدام معاً على ممر الأبالاتشي الجبلي، كفرصة ليتعارفا على بعضهما البعض بشكل أفضل، وليريا إن كان بإمكانهما العمل كذلك كشريكين. أحب مايك فكرة العيش في ظروف قاسية في البرية، ليخشن نفسه للانضمام إلى الجيش. إلا أنه لم يكن مسلحاً. في تلك الأيام لم يكن أحد يعتقد بأن ممر الأبالاتشي الجبلي كان مكاناً خطراً. وكان المتنزهون يعرفون كيف يتجنبون الثعابين، وكانوا مطمئنين إلى أن الدببة السوداء لم تكن في الحقيقة تشكّل تهديداً للناس ما دمت لا تزعجها، أو تحاول الاقتراب من صغارها. لم يفكر أحد كثيراً بالوحوش البشرية الضارية في تلك الأيام البريئة.

كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقط في تلك الليلة. ومضى على موتها عشرون عاماً. حاول سبنسر تخيُّل إيميلي ستانتون تكبر، وتشحب متحولة من جمال متألق إلى امرأة عجوز. فكر بتأمل، في كلتا الحالتين تلك الفتاة الشابة الجميلة لن تكون حيّة بعد ذلك، ولكن على الأقل كانت ستحصل على فرصة لأن تصبح شخصاً ما آخر. وتساءل ما إذا سُلبت من مستقبل سعيد، أم تم تجنيبها مأساة مؤجلة أكثر.

على الأقل كان بإمكانه محاولة عدم مضاعفة المأساة بترك رجل بريء يذهب إلى حتفه. ولكن كيف يمكنه أن يتولى التحقيق في القضية بعد مرور كل ذلك الزمن؟ لقد كانت الوثائق الباهتة في الملف المُصفَر كل ما لديه ليواصل. لقد مر وقت طويل منذ تم تدمير الدليل المادي. فلا بد أنه قد تم إحراق عينات الدم، وأدلة الشعر والأنسجة، وأدلة الملابس، وجميع ذكريات المأساة، بعد بضعة أشهر

أو سنوات من المحاكمة وذلك من أجل إدارة الحيز. فبالرغم من كل شيء، لا يمكن أن يحتفظ مكتب عمدة صغير بكل شيء، لمجرد احتمالية ضئيلة بأنه قد تكون هناك حاجة إليها من جديد يوماً ما. فقد كسبت الدولة إدانتها. تخلص من بقايا ذلك التحقيق، وانتقل إلى التالي. لا تنظر إلى الوراء.

إضافة إلى ذلك، فإن الأدلة المادية تتلف. حتى لو نجحت دائرة عمدة مقاطعة ويك في حفظ العينات، فإن النتائج من إعادة الاختبار لن تكون موثوقة، وبالتأكيد لن يتم قبولها كدليل جديد من قبل المحكمة. لم يكن هناك اختبار للحمض النووي في وقت جرائم القتل على الممر الجبلي. ربما حينئذ كان سيعرف بالتأكيد؛ والآن يتعين عليه أن يحقق مع عدم اليقين فقط ليرشده ـ ومع رغبته بعدم إتاحة المجال لوقوع أي أخطاء.

قام سبنسر بتقليب باقي محتويات الملف. كانت لديه صور مسرح الجريمة ـ كان ذلك مشجعاً، ولكن وراءهم كانت لديه فقط ملاحظاته ليواصل، وقائمة قصيرة بأسماء شهود. لقد تساءل كم منهم كان لا يزال على قيد الحياة، وما إذا كانت ذكرياتهم عن تلك الليلة قد تلاشت بمرور الزمن. كان يتعين عليه أن يكتشف ذلك.

أخرج سبنسر الصور. لقد تم التقاط بعضها بكاميرا البولارويد الخاصة بالدائرة، وكانت تُعتبَر كاميرا حديثة آنذاك، ووسيلة رائعة لإنتاج لقطات سريعة لمسرح الجريمة. هل كان يعلم آنذاك بعدم ديمومتها؟ بالكاد كان بإمكانه أن يميز الصور في أوراق الصحيفة المصفرَّة. الحرارة والزمن قاما منذ أمد بتحييد المواد الكيماوية لتظهير أفلام الكاميرا الفورية، جاعلة الصور ناقصة بنفس الدرجة التي تكون فيها الذاكرة. إن لقطات الفيلم قياس 35 ميليمتر كان يتم حفظها بشكل أفضل، ولكن الوضعيات لم تكن دقيقة، وهذا دليل على قلة تمرُّس المصوِّر، والذي كان هو نفسه.

لقد تم استدعاؤه إلى مسرح الجريمة من قِبل ويليس بلين، حارس الغابة لمقاطعتهم. كان تسلسل الأحداث كله هناك في إفادة الشاهد التي طبعها بنفسه منذ زمن بعيد، ولكن لا يمكنه الآن سوى تذكُّرها بشكل مبهم فقط. قام سبنسر بإلقاء نظرة سريعة على الأسطر التي بهتت طباعتها.

وصلت المكالمة بعد منتصف الليل؛ عُثِر على متنزهين اثنين ميتين، ولكن ليس على ممر الأبالاتشي الجبلي، الذي كان أرضاً فدرالية. وقد قرر اثنان من رجال الاطفاء أن يقضيا إجازتهما التي تمتد لأسبوعين في التنزه في جزء نورث كارولينا/شرقي تينيسي للطريق الأبالاتشي. كانا في نهاية رحلتهما تقريباً، وفي تلك الليلة انطلقا إلى الطريق لقضاء ليلة الجمعة في ملهى سيء السمعة لاحتساء البيرة. في الساعة 11:20 مساء، كانا يشقان طريقهما خلال الحقول للعودة إلى موقع مخيمهما عندما تعثرا بشيء ليّن ولزج فيما كان يوضحه ضوء القمر.

إيميلي ستانتون.

توقف رجلا الاطفاء المفزوعان لفترة طويلة بما يكفي فقط لتقرير أن الضحية كانت قد تجاوزت مرحلة أي جهود إنقاذ. أخذ ذلك القرار بضعة ثوان فقط. لقد فحصا التنفس والنبض، ولكن كانا يعلمان أن جهودهما كانت عديمة الجدوى في اللحظة التي قاما فيها بلمسها. "إن جلد الأموات لا يكون له ملمس اللحم،" قال أحدهما في المحاكمة. "يكون ملمسه كلحم الغداء الملفوف بالبلاستيك." لقد قام الصحفيون بحذف ذلك التعليق من قصصهم انطلاقاً من اعتبار للعائلات، ولأنه لا يخدم أي غرض في جعل شخص جيد يبدو سخيفاً في الصحيفة في الوقت الذي يكون لديهم أصلاً تخمة من الأوغاد: عائلة هاركرايدر.

لم يتوانَ المتنزهان في التحقيق أكثر: نزلا على الطريق في ضوء القمر، عائدين إلى الملهى ليستدعيا حارس الغابة.

جثة؟ قال، غير مصدِّق البتة. لن تكون المرة الأولى التي يحاول بها شخص ما المزاح عبر الهاتف على حارس غابة. *أين؟*

في الغابة عند حافة الحقل، قالا له. بالضبط نزولاً من ممر الأبالاتشي الجبلي، عبر الطريق الترابي من الكنيسة ذات البناء الأبيض. كنيسة تجار الأفاعي.

نعم، قال لهما. كان يعرف المكان، لم تكن كنيسة تجار أفاعي، بالطبع، ولكن كان للممر الجبلي أساطيره الخاصة، ولم يكن من المهم أن يكون من الواجب عليه أن يصحح لهما لاهوتيتهما. لقد عرف المكان الذي قصداه. هل كانا سينتظرانه في موقف السيارات، ويقودانه إلى موقع الحادث؟ لا جدوى في تسميته جريمة قتل، بعد. لم تكن تسميته على أي حال. لو قام المتنزهان بوصف الموقع بشكل صحيح، فإن تلك الأرض مقطوعة الأشجار كانت على بعد مائتي ياردة غرب ممر الأبالاتشي الجبلي، لم تكن أرضاً فيدرالية. لقد كانت في مقاطعة ويك.

استقل شاحنته وقادها إلى النُزل. كان من السهل تحديد مكان المتنزهين. كانا شابين نحيلين في أوائل العشرينيات من عمريهما، يجثمان في بقعة ضوء تحت عمود كهرباء، وكانا يرتجفان وهما مرتديان قميصين قطنيين، على الرغم من أنها كانت ليلة دافئة. عندما أوقف شاحنته في قطعة الأرض المفروشة بالحصى، وبدأ بالسير تجاههما، تراجعا إلى الخلف وهما يطلقان نظرات نحو باب النُزل المفتوح، حيث كانت موسيقى الفونوغراف تتدفق في الظلام. أخيراً لاحظا زيّه الخاص بحراس الغابات، وانطلقا مندفعين نحوه، وبدأ كلاهما بالكلام في وقت واحد. *إننا لسنا مسلحين*، أخبرا حارس الغابة. *أياً كان الذي فعل ذلك فربما أنه لا يزال هناك.* أومأ حارس الغابة برأسه، وأراهما مسدسه، وقال لهما إنه توجد بندقية في الشاحنة وإنه يمكنهما أن يحضراها إذا كان ذلك من شأنه أن يجعلهما يشعران باطمئنان أكثر. بعدئذ كانا على استعداد لإرشاده إلى الموقع. لقد كانا مدربين

على التعامل مع الحالات الطارئة، وكانا آخذين بالفعل في التغلب على الصدمة التي أصابتهما مما عثرا عليه.

أخذ ويليس بلين كشافه الضوئي من الشاحنة وتبعهما نزولاً في الطريق إلى الكنيسة، مارين بالحقل، وإلى داخل الغابة.

وعندما سلّط الضوء على الأرض الترابية، قام ذهنه بتسجيل عدة أشياء في الوقت ذاته. انتحار. لم يكن عِراكاً، أو سرقة فاشلة، هذه المرة. يوجد شخص مريض جداً طليق هنا. ضحيتان بالغتان في عمر الشباب، إحداهما أنثى، والأخرى ذكر ـ ملابسهما تدل على أنهما ربما كانا متنزهين من الممر الجبلي، ولكنهما لم يعودا إليه.

أجد لزاماً عليّ أن أؤمّن موقع الجريمة، قال لرجلي الاطفاء الشابين. أوماً برأسيهما. إنهما يعرفان عن مواقع الجرائم. *يتوجب عليكما أن تعودا إلى النُزل وتجريا مكالمة هاتفية أخرى. دائرة عمدة مقاطعة ويك. أخبروهم أن ويليس بلين قد أرسلكما، وأخبروهم عن مكاني. قولا لهم إنها جريمة قتل.*

تذكّر سبنسر المكالمة الهاتفية. لم يكن من المفترض أن يكون في المكتب بأي حال من الأحوال، لأنها كانت دائرة من رجلين في تلك الأيام، فقد كان يتم تحويل المكالمات الهاتفية بعد الحادية عشرة إلى مقاطعة يونيكوي، والتي كانت لدائرة عمدتها دوريات تعمل أربعاً وعشرين ساعة. ولكن سبنسر كان عاملاً نشيطاً في تلك الأيام، فقد كان من الممكن أن يعمل أربع وعشرين ساعة يومياً لو سمح له نيلسي ميلر بذلك، ولم يكن نيلسي ميلر هناك في تلك الليلة لكي يرسله إلى المنزل. إلى أين ذهب العمدة؟ في إجازة إلى شاطئ رايتسفيل؟ أم إلى اجتماع بيروقراطيين في ناشفيل؟ أم إلى عرس ابن عم في أوهايو؟ لم يعد سبنسر

يتذكر. لم يكن مكان وجود العمدة تفصيلاً مشمولاً في التقرير الرسمي عن القضية، ولكن تم أخذ العلم في حينه بأن الموظف المسؤول عن التحقيق كان مساعد عمدة مقاطعة ويك، سبنسر آروود.

كان يجلس إلى المكتب المصنوع من خشب البلوط في المكتب المعتم. كانت التقارير والرسائل، وكوب القهوة الصيني الأبيض هي فقط التي ينيرها ضوء المكتب. لقد كان مستيقظاً منذ الساعة السادسة، وكان مرهقاً جداً لدرجة أن الرسائل بدأت تهتز على الصفحة، بحيث لم يعد بإمكانه أن يميّز ما كتبه للتو. قد يضع رأسه على المكتب، ويأخذ غفوة لساعة أو اثنتين قبل إنهاء التقارير. وانتهت الرتابة المهدئة مع رنين الهاتف. قام صوت هادئ واثق ذو لهجة جنوبية عميقة، بإبلاغ الرسالة مع مسحة خفيفة من العاطفة تلقي بظلالها على الكلمات. أخبره رجل الإطفاء أين كانوا، وماذا وجدوا. وجعل سبنسر المتصل يعيد ما قاله مرتين بحيث يمكنه أن يكون واثقاً من أنه قد سمعه بشكل صحيح.

جريمة قتل على ممر الأبالاتشي الجبلي. حسناً ليس عليه. بالقرب منه. في دائرة اختصاصه. السيد بلين، حارس الغابة، كان هناك مع الجثتين، ينتظر تحويل التحقيق إليه. هل كان يعرف أين كانت قطعة الأرض تقع؟ هز سبنسر نفسه ليصفو ذهنه ويُبعد الإرهاق عن عضلاته. *إنتظرا بجانب الهاتف*، قال للمتنزّهين. *يمكنكما أن توفرا علي وقتاً بإرشادي إلى أين أذهب. وسأحتاج إفادات منكما*

اتصل بآلتون بانر وطلب منه أن يقابل سيارة الدورية عند النُزل. لقد أكّد له المتصل أن الضحيتين كانتا ميتتين، ولكن سبنسر أراد أن يأخذ كل الحيطة.

أخذ معه الكاميرتين، البولارويد، والـ 35 ميليمتر؛ ودفتر الملاحظات؛ وجميع المعدات التي ينبغي حملها إلى موقع الجريمة. كان سبنسر يحفظ درسه جيداً: لقد قام به عدداً كبيراً من المرات من قبل؛ لقد كان حتى مسؤولاً عن التحقيقات في الماضي، ولكنها كانت أحداث تافهة غير ذات شأن حقيقي. إن جريمة القتل بحد

ذاتها كانت غير مألوفة بما يكفي في هذه المقاطعة الجبلية الريفية، وقضية من هذا القبيل كانت أمراً جديداً تقريباً. كان يتوجب عليك الرجوع عقوداً إلى الوراء ليجد قضية أخرى. فليساعده الرب، هل كان متلهفاً؟ هل كان منفعلاً لحصوله على قضية مرعبة ملقاة على حِجره بعد أسابيع من الروتين والعمل المكتبي الورقي؟

أقفل المكتب وتوجّه نحو الدرج ونزل باتجاه سيارة الدورية الخاصة به متسائلاً ما إذا كان، في غمرة اضطرابه، قد نسي نقطة ما هامة من الإجراءات الشُرطية. *آه، اللعنة*، طرأ أمر ما على ذهنه ويده تلمس مقبض باب السيارة، *مكتب تحقيقات تينيسي*.

كان يركض الآن. فتح المكتب ـ كانت أصابعه تبدو وكأنها كبرت ضعفي حجمها في غضون عدة دقائق أثناء ارتباكه في فتح القفل، مبتلعاً الرغبة الملحة في ركل الباب. إن بضعة دقائق أخرى لن تكون ذات شأن. إن المحترفين الحقيقين لن يكونوا هناك لثلاث ساعات أخرى على الأقل، وذلك لأن نوكسفيل كانت تبعد 120 ميلاً. مكتب تحقيقات تينيسي. تقوم باستدعائهم من أجل أية جريمة خطيرة، وذلك لأن لديهم جميع الوسائل. يوجد لدى مكتب تحقيقات تينيسي فرق موت من موظفين مدربين تماماً لا يفعلون شيئاً سوى مواقع الجريمة، والذين كانوا يعرفون كيف يفحصون بصمات الأصابع، وأدلة الشعر والأنسجة، وبقع الدم. كما أنه يوجد لديهم مختبر لمعالجة الأدلة، مما كان يعني أنهم سيفعلون كل شيء على أي حال، لذا، فإنه ربما سيتركهم كذلك يجمعون الأدلة بأنفسهم بحيث لن يكون هناك شك بشأن دليل تشوبه أية شائبة عندما تصل القضية إلى المحكمة. إن سبنسر لم يفكر حتى في إمكانية الوصول إلى طريق مسدود.

تفحَّص خريطة المقاطعة قبل أن يجري المكالمة، وذلك لأنه قد يتعين عليه إعطاء التوجيهات لشخص ما يجهل الطرق الخلفية للمقاطعة. لم يكن بإمكانه أن يقول: "اتجه إلى اليسار عند منزل عائلة إيفانز، ومر بجانب ذلك الحقل حيث يرعى

الحصان الأبيض عادة." لا. لقد حدد موقع الكنيسة والنُزل على الخريطة، مسجلاً أرقام الطريق، وقدَّر المسافات من الطريق الرئيسي. بعد ذلك قام بإجراء المكالمة.

كان موظف مكتب تحقيقات تينيسي سيقابله في موقع الجريمة في غضون ساعتين. لنقل في الثالثة صباحاً. كان سبنسر سيقوم بحماية المنطقة أمنياً، ويقوم بالتصوير ورسم خارطة للموقع أثناء انتظاره. عندما ترتفع الشمس، سيكون بإمكانهما تحديد ما كانا يتعاملان معه بشكل أفضل. لن ينام أي منهما في تلك الليلة. لقد كان ذلك أمراً مفروغاً منه.

غادر المكتب وطعم القهوة الباردة لا يزال في فمه. ووجد إحدى محطات المقاطعة الإذاعية التي تبث طوال الليل، ورفع الصوت بقدر ما كان يمكنه تحمله، بحيث تبقيه الضجة مستيقظاً. كان يأمل أن يستمع إلى أغان مرحة تبدد الظلام الذي في الخارج، والظلام القادم.

أحد رجلي الإطفاء اللذين كانا في إجازة، كان ينتظره بجانب الكنيسة. وعندما تعرَّف على سيارة الدورية، خرج من ظلال شجرة البلوط وأشار له ليتوقف. أوقف سبنسر السيارة في ساحة الكنيسة المفروشة بالحصى، وتبع الشاب نحو أسفل الطريق خلال الحقل وباتجاه الغابة المعتمة وراءه.

كان اسم رجل الإطفاء آل هينشو، وقال إن صديقه نيل كان ينتظر في الموقع مع حارس الغابة. وشرح الأمر حول إجازتهما التي كانا يقضيانها في التنزه سيراً على الأقدام، وكيف أنهما تعثرا بالجثتين في طريق عودتهما إلى الخيمة. اللعنة عليها من طريقة تنهي بها إجازتك، قال وهو يهز رأسه. كان من المفترض أن يكون الممر الجبلي مكاناً آمناً، أليس كذلك؟

"إنه عادة كذلك،" قال سبنسر. والآن رأى توهج ضوء كشاف كولمان، وعرف أنهما كانا ضمن مدى موقع الجريمة.

لقد التقى ويليس بلين مرتين، وذلك عندما التقت مساراتهما في تحقيقات

أخرى، إلا أنه لم يتمكن من تذكر أي شيء عن الرجل الذي سيكون المادة الخام لحديث اعتيادي خلال الانتظار الطويل للخبراء من نوكسفيل. *كيف حال الزوجة والأولاد ويليس؟* من كان يعرف إن كان حتى لديه زوجة وأولاد؟ لم يكن سبنسر بارعاً في الأحاديث الاعتيادية على أي حال، في تلك الأيام. كان يبدو أن ضرورات العمل تطغى على جميع طقوس الحياة اليومية بالنسبة له، تاركة إياه بدون أي شيء عادي ليقوله.

لم يكن بلين يبدو مهتماً في المحادثة، كذلك. وقف وأومأ رأسه بتحية عندما وصل سبنسر إلى الأرض مقطوعة الأشجار. صافحه سبنسر، وصافح رجل الإطفاء الآخر، نيل إيكولز، وهذا أنهى مجاملات المساء. "لم ألمس شيئاً،" قال حارس الغابة له. "ذلك ليس من اختصاصي، على أي حال. ولكنني سأبقى إذا كنت ترغب في بقائي."

أومأ سبنسر برأسه. كان يمكنه أن يفهم من نبرة صوت ويليس بلين أنه لم يكن يحاول أن يتولى التحقيق. لقد كان يسبغ المجاملة تجاه رجل شرطة زميل، وكان سبنسر سيقبل العرض، مدركاً ببعض الدهشة أنه لم يرغب حقاً في أن يكون وحيداً تماماً في الغابة، في هذا المكان المرعب ينتظر أن تصل مساعدة، ولكن آلتون بانر انضم إليهم في ذلك الحين، وبهذا كان لديه صحبة. لم يكن خائفاً؛ وقرر أن قربه من الموت جعله يدرك كم هو قليل الوقت الذي نمتلكه جميعنا في هذا العالم ليس لنكون فيه وحيدين. وبدلاً من التعبير عن هذه المشاعر، قال: "إذهب أنت إلى المنزل. وسأتصل بك لأعلمك بما نجد."

ثم ذهب ليحمل الضوء الكشاف فوق الجثتين أثناء قيام آلتون بفحصهما.

"حسناً، لقد تجاوزا مرحلة مساعدتي،" أعلن الطبيب العجوز بعد لحظة صمت. "إنك لا تحتاج لأن أخبرك بذلك."

"لا يا سيدي. ولكن وجودك يجعل الأمر رسمياً."

كتب سبنسر الكلمات "سجل موقع الجريمة" في أعلى الصفحة الأولى من دفتر الملاحظات. كان سيسجِّل اسم كل شخص دخل إلى المنطقة وكل شخص خرج منها، بحيث إذا طُرِح سؤال فيما بعد حول دليل الأنسجة، فإنه سيكون بإمكانهم التحقق من العينة مقابل تلك العينات ممن كان حاضراً في الموقع. أخذ اسمي وعنواني رجلي الاطفاء المتنزهين، وأرسلهما في طريقهما. كان من الممكن تماماً أنهما كانا مسؤولين عن هذه الجريمة، ولكن ويليس بلين لم يعتقد ذلك، وكذلك سبنسر. كان الرجلان يبدوان منزعجين حقاً باكتشافهما للجثتين، ولم يظهرا أي من علامات الاضطراب أو الغرور التي كان يتوقعها من مرتكبي الجرائم. لقد تصرفا، بقدر ما كان يمكنه أن يقرر، بشكل طبيعي، في ظل ظروف كانت أبعد ما يمكن عن الطبيعي.

"لقد تم قتلهما كل على حدة،" علّق آلتون بانر عندما ذهب المتنزهان.

رمش سبنسر. "ماذا؟"

"الجثتان. هناك اختلاف في درجة حرارة الجسم يشير إلى أن أحدهما توفي قبل ساعة من الآخر. الضحية الذكر مات أولاً. وتم رميه عند الأعشاب. ربما أخذه القاتل هناك لكي - ماذا؟ خصوصية؟ لإبعاده عن الطريق بدون جعل الفتاة تعرف ماذا حصل له؟" هز الطبيب كتفيه مستهجناً. "اكتشاف ذلك هو عملك، على ما أظن." وأدار الكشاف نحو الجثة الثانية، جاعلاً الضوء يتسلط على الحبال التي ما زالت تقيد معصميها. "كانت الفتاة مربوطة إلى الشجرة عند تلك النقطة."

"سبب وفاة الذكر؟"

"نزيف دموي، خنق. تم قطع حنجرته." سلط الضوء على رأس ورقبة الضحية الذكر. "إن القصبة الهوائية مقطوعة. انتبه على الطريقة التي تحرك فيها الجثة عندما يحين الوقت لذلك. ليس هناك ما يكفي لحمل الرأس."

"والجثة الأخرى؟"

"إنني آتٍ إليها. لا أعتقد أن الضحية الأولى، الذكر، كان الهدف الأولي. أبعده القاتل عن الطريق أولاً، ولكن ذلك القتل كان روتينياً إلى حد ما. ضربات بهراوة. جروح أثناء الدفاع عن النفس. ثم القطع السريع الذي يضع نهاية للأمر. مثل صفع ذبابة." أشار إلى جثة إيميلي ستانتون، وتنهد بسأم. "لقد تروّى معها.

أومأ سبنسر. وتساءل كم من الأمر كانت واعية له. لقد سمع أن في مرحلة ما من الألم غير المُحتمَل يقوم العقل ببساطة بالاستغراق في مكان ما آخر. أمِل أن تكون قد انتقلت إلى هناك سريعاً ولم تعد أبداً. كان الدم يبدو أسوداً في ضوء القمر. "أعتقد أنني سأنتظر الشخص القادم من مكتب تحقيقات تينيسي،" قال للطبيب. "يتعين عليه أن يأخذ عينات.

"هذا ما قد أقوم به،" وافق بانر. "إن تحقيقاتي كانت أولية، ولكنه سيقوم بجمع الأدلة. ويمكنك كذلك تصوير المشهد أثناء انتظارك. سأحمل الكشاف.

تمنى سبنسر على نفسه أن لا يقوم بتسجيل ما كان يراه أثناء تصويره للمنطقة ـ فيلماً بعد فيلم من الأفلام بالأسود والأبيض، 35 ميلمتر، مدعومة باثنتي عشرة لقطة بكاميرا البولارويد. إن تسجيل مشهد الجريمة هو عملية منهجية مماثلة إلى حد بعيد لعلم الآثار في دقة القياسات، واستخدام علامات الشبكة المتسامتة لتحديد قياسات المنطقة. كانت الجثة "الساعة الثانية عشرة" على خريطة الموقع. بدأ يتصوير الجثة، آخذاً الصور باتجاه عقارب الساعة حول المشهد، مصوراً كل زاوية، وكل درجة دوران، إلى أن عاد مرة ثانية إلى نقطة البداية. عندما انتهى من تصوير المشهد، عاد سبنسر إلى دفتر ملاحظاته وبدأ بوصف المشهد ـ محدداً موقع الجثتين، والأشياء القريبة منهما، وما إلى ذلك. كان يتم تعليم المحققين أن يكونوا شاملين. لم يكن ذلك الفنان الجيد، ولكنه كان مجتهداً.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما ظهر الموظف من مكتب تحقيقات

تينيسي. عرف سبنسر أنه كان محققاً محنكاً، ليس بسبب عمره بقدر ما هو بسبب الطريقة التي اقترب بها من المنطقة. لقد قدَّم نفسه إلى سبنسر والطبيب.

"أعتقد أنني سأتوجه إلى المنزل،" قال آلتون بانر. "إن أوقات الدوام تأتي في وقت مبكر جداً. تعرف أين تجدني إذا احتجت أي شيء. سأقوم بطباعة تقرير لك في الصباح.

شكره سبنسر، وعندما التفت ليشرح الوضع لرجل مكتب تحقيقات تينيسي، وجد المحقق ينحني بالفعل فوق جثة المرأة الشابة. "آه، يا إلهي،" قال بنبرة تخاطبية هادئة وهو يوجّه ضوء كشافه عبر الجسد العلوي من جسدها. "ماذا *لديك* طليقاً في منطقتك من الغابة، أيها المساعد؟"

أصيب سبنسر بالفزع من السؤال. من المؤكد أنه لا يمكن لدب أن يفعل هذا؟ "إننا متأكدون نوعاً ما أنهما قتلا من قِبل مخلوق بشري، يا سيدي،" قال له.

ضحك المحقق. "آه، لقد كان شخصاً، حسناً. ربما أكون مستعداً للمناقشة حول كم كان *إنسانياً*، على أي حال، مع الأخذ بالاعتبار صنع يديه. أكره أن أؤكد أنه من جنسنا البشري، ولكن، نعم، إنه واحد منّا، بلا شك."

لقد أحضر تيرموس قهوة، ولم يحول نظره عن الجثتين حتى أثناء قيامه بصب القهوة منه، وتجرَّع بسرعة ملء فنجانه الأول. ثم وضع فنجان القهوة وألقى نظرة سريعة على المشهد مرة أخرى. "ليلة عصيبة،" قال بتنهيدة.

قام بالتوقيع على سجل الموقع، ونظر إلى أوصاف سبنسر للمنطقة. "ستكون مفيدة،" قام بالتعليق بدون توجيهه لأحد بشكل خاص. بعدئذ وقف وتمطّى. "إشرب قهوتك. خذ وقتك. سأضطر إلى جمع بعض العينات، ومن ثم سنقوم بالعمل الخاص بخارطة تحديد الموقع معاً، اتفقنا؟

"بالتأكيد، ممتاز.

"هل تعرَّفت على الضحيتين بعد؟"

"لا . كنت أنتظرك."

"ربما سنكتشف شيئاً ما على خارطة تحديد الموقع. إنهما ليسا محليين، أليس كذلك؟ يبدوان لي كأرنبين صغيرين من أرانب الممر الجبلي."

"متنزهان، أعتقد ذلك، أيضاً،" قال سبنسر. "لا أعتقد أنهما قتلا بسبب من كانا. أعني، ليس من قِبل شخص كانا يعرفانه."

"آه، يا إلهي، لا،" قال رجل مكتب تحقيقات تينيسي. "بالطبع نحن نضع احتمالات في هذه المرحلة المبكرة من التحقيق، ولكن في رأيي البعيد عن التواضع، هذه لم تكن جريمة قتل، لقد كانت ضرباً من اللهو. أقصد بالنسبة لأي كان الذي فعلها.

لقد تم نشر صور مسرح الجريمة في كل مكان فوق طاولة مكتب جو لودون، وفي بقعة ضوء مصباح القراءة الخاص به، إلا أنه بالكاد نظر إليها. في هذه اللحظة، كانت قطعة هامبورغر ملفوفة في ورقة ملوثة بالدهن تشغل البقعة الوحيدة على سطح المكتب الخشبي غير المغطاة بصور.

"لقد حملقت في تلك الصور حتى بات بإمكاني رؤيتها في منامي،" قال. "أقصد، لو أنني نمت في هذه الأيام."

"أعتقد بأنه كان ينبغي أن نكون قد قمنا بحل القضية في الوقت الحالي،" قالت مارثا، وهي تعيد فنجان قهوة باردة لم تتذوقها. "لقد نقلنا النبأ إلى المخبرين، وتحدثنا لكل شخص ضمن مسافة ميل من ذلك الحقل."

"نتيجة المختبر ستكون ذات منفعة."

"فقط إذا كان لدينا فصيلة دم أحد ما وحمضه النووي لمقارنته بها."

"إنها بداية."

"كنت راغبة جداً في إخبار سبنسر عن الأمر عندما أخذت له البريد اليوم، ولكنه كان لا يزال يبدو في حالة فظيعة. إن قضية هاركرايدر قد أثرت فيه حقاً. لا أعتقد بأن ينام كثيراً."

"أخذت له البريد؟ وماذا عن الصحيفة؟"

ابتسمت مارثا. "لقد أخذت له *صحيفة نوكسفيل جورنال*. وأخبرته أنني نسيت أن أحضر صحيفة الـ ريكورد، وأنني سأحاول أن أتذكرها في المرة القادمة. إنه لا يريد شيئاً آخر ليقلق بشأنه. إضافة إلى ذلك، ليس هناك شيء يمكنه عمله بشأن ذلك الآن. لقد انتهى التحقيق في الموقع، ونتيجة المختبر لم تعد بعد، وهو ليس بصحة جيدة للقيام بعمل التحقيق الجنائي الذي يتطلب سيراً على الأقدام."

قام لودون بتصفّح ملف آخر على مكتبه: النسخ المصورة لملفات قضية هاركرايدر. لقد قامت مارثا بتصوير نسخة قبل أن تأخذ الأصل إلى سبنسر آروود. "أتمنى لو كان لدينا سلاح جريمة،" قال ذلك ربما للمرة العاشرة.

"حسناً، إنه ليس سكيناً عمرها عشرين عاماً،" قالت مارثا. "إن محقق مكتب تحقيقات تينيسي يتفق مع الطبيب ماكنيل: إن الجروح شبيهة بتلك التي كانت في قضية جرائم الممر الجبلي، ولكن ليست ذاتها. إنه يعتقد بأنها ربما تكون جريمة مقلّدة، مبنية على حقيقة أن قضية هاركرايدر قد عادت إلى الظهور في الأخبار."

"لدينا فصيلة دم فيت هاركرايدر في ملف في مكان ما، أليس كذلك؟"

"أعتقد ذلك."

"عندما تتم إعادة نتيجة المختبر، لنقم بمقارنتهما."

"إنه ليس هو،" قالت مارثا. "إن منحنى النهر هو أفضل إثبات غيبة موجود."

أوماً لودون برأسه. "إضافة إلى ذلك، فهو كبير في السن جداً. إننا نبحث عن

شخص ما دون الخامسة والثلاثين من العمر. هذا النوع من العنف هو مرض يصيب شاباً."

"أعتقد بأنني سأمر على المدرسة الثانوية غداً،" قالت مارثا. "لأرى ما إذا كان هناك أحد يرغب في التحدث عن جرائم القتل.

لقد كان فيت هاركرايدر يفكر بالموت.

بدا الأمر غريباً أن تعرف أنك كنت ستموت في الوقت الذي كنت تشعر فيه أنك بصحة جيدة. وعندما أخذ في التأمل في الأمر، لم يبدُ غريباً جداً بقدر ما بدا ... غير مرجح. من السخف أن تعتقد بأنه بعد عشرين سنة ونيف من رتابة الإقامة في المكان ذاته بدون نشاط، فإن الأشخاص ذاتهم الذين كانوا يتمنون له صباحاً طيباً، والذين كان يمرر لهم تعليقه العابرعن مباراة في كرة السلة، أو عن تغير في الطقس، قد يحضرون لأخذه، ويربطونه في كرسي خشبي عادي، ويقتلونه.

من الغريب أن سلسلة الجبال التي كان يشاهدها يوماً بعد يوم ستستمر في التغير من الخضرة إلى اللون الذهبي مع تغير الفصول بدون وجوده كمراقب. لقد أحب أن يفكر أن سلسلة الجبال كانت هناك من أجله، ووجد من الصعب أن يصدِّق أن موته سيمر بدون أي اهتمام من سلسلة جباله.

بالطبع كان يعلم أنه في قرارة نفسه لم يكن يؤمن بالموت على الإطلاق. بمعنى ليس لنفسه، وبالتأكيد ليس بالإعدام في ولاية تينيسي، لقد كان لا يزال شاباً وقوياً. إنه يقوم بتمرين الضغط كل يوم للتدريب، وبالرغم من عادة تدخين علبة سجائر يومياً لمدة عشرين عاماً، كانت رئتاه وضغط دمه ممتازين. كان يثق في جسده ليبقيه حياً لعدة سنوات أخرى، وكان يثق في أن نظام تينيسي القضائي سيهدر وقته في القيام بأعمال لا تجدي نفعاً على الأقل لفترة طويلة قبل أن يجدوا وقتاً لمحاولة إعدامه. وبحلول ذلك الوقت، ربما سيقوم الناخبون بإلغاء عقوبة الإعدام كلياً، ويوماً ما، عندما تصبح جريمته بعيدة في الماضي بحيث لن يعود أحد

يهتم بها بعد ذلك، قد يتم منحه إفراجاً. كان ينوي أن يكون في حالة من الصحة والعافية جيدة بما يكفي ليستمتع بتلك الحرية عندما يحين الوقت.

حتى مع المحامين الذين كان مستواهم دون المتوسط في أحسن الأحوال، كان فيت هاركرايدر قادراً على تجنب عقوبة الإعدام لعشرين سنة الآن. لم يكن ذلك صعباً. كان هناك دائماً بعض الاعتراض الذي كان يمكن تحقيقه في عملية الاستئناف، وأي انتقاد طفيف كان يمكن أن يشغل المحكمة لسنة أو أكثر، وهكذا تقوم مطاحن العدالة بالطحن ببطء. لقد جادل محاموه أن مستشاره القانوني الأصلي لم يكن جيداً. لقد أصبح ذلك الشخص الآن محامياً بارزاً فعلاً في نوكسفيل، ولكن أحداً لم يلاحظ التناقض، وظن فيت أنها كانت مجرد حركة من الحركات في اللعبة؛ إجراء شكلي. على أي حال، لقد جعلته يكسب مزيداً من الوقت. عندما تم الانتهاء من الاعتراض قبل بضعة سنوات من نهاية المدة المحدودة، اعترض مرشدوه القانونيون على الشهود الخبراء الذين أدلوا بشهاداتهم في محاكمته. والآن يقضون سنوات في البحث في كومة من النسخ طبق الأصل والوثائق التي يمكن أن تملأ شاحنة، ولكن كل نزاع قانوني يستهلك بضعة أشهر أخرى؛ وقت للحفظ في ملفات، ووقت انتظار، ووقت للمحكمة، ووقت انتظار الحكم، واستئناف الحكم، ومن ثم العودة إلى المربع رقم واحد والبدء من جديد.

كان فيت يفكر أحياناً أن تكتيكات التأخير ستستمر حتى لو سقط ميتاً في زنزانته، فقد كان الإجراء غير شخصي تماماً ولا يلين. إنه لم يكن اللاعب الموجِّه في هذه المعركة القانونية؛ لقد كان كرة القدم. لقد مرت سنوات الآن منذ آخر مرة ذكر أحدهم له اسم مايك ويلسون أو إيميلي ستانتون. كانت لفات الوثائق تتزايد فقط، غافلة عن الزمن الحقيقي والأشخاص الحقيقيين. وفي بعض الأحيان، كانت يبدو أن الإجراء القضائي قد استغرق عُمْراً لوحده، مستقلاً عن أي جريمة فعلية حدثت منذ زمن بعيد.

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

اختيار محام

تعمَّقت ثلوج كانون الثاني/يناير في برد شباط/فبراير القارس، واجتمعنا، نحن أبناء البلدة، عند مدافئنا، نقتل الوقت في أحاديث عابرة. ناقشنا الانتخابات الرئاسية القادمة في الخريف، وما الذي دل عليه إعادة انتخاب آندرو جاكسون في الأراضي الغربية. ومنذ زمن الثورة، تقلصت الأراضي المملوكة لشعب شيروكي من عدة آلاف من الفدانات الممتدة من ألاباما إلى فيرجينيا إلى ما تبقى حالياً من نصرهم الماضي؛ بعض المناطق في الجبال شديدة الانحدار إلى الجنوب الغربي منّا. والآن، حتى تلك الحصة الصغيرة كانوا يُضنّ عليهم بها. ومنذ الاكتشاف الحديث للذهب في تلك الجبال، تم إمطار حكومة الولايات المتحدة بمطالب لنقل الهنود باتجاه الغرب بحيث يمكن استغلال فداناتهم الغنية بالمعادن بشكل أفضل. وتم إقرار قانون نقل الهنود في 1830، حيث تم إصدار أمر بإعادة توطين الهنود في أراضٍ غرب الميسيسيبي، إلا أنه حتى الآن لم يتم تنفيذه. وبدأ الناس يفقدون صبرهم. وكان يُقال إن أندرو جاكسون، الذي وصل إلى الشهرة كمقاتل للهنود، كان متعاطفاً مع محنة المستوطنين، وطالبه الناس بأن يعمل على طرد الشيروكي ليكسب دعم الناخبين على الحدود. واجتاحت حمى الذهب الجبال.

كان هناك قدر كبير من المضاربة المحلية حول مناجم الذهب، وعلى الأثر الذي يمكن أن يتركه الاكتشاف على رخائنا. كان جون تيت العجوز، الذي يبلغ من العمر سبعين عاماً، إن كان له تاريخ ميلاد، قد أخذ عائلته أصلاً إلى تلال جورجيا للبحث عن ثرواتهم، وتحدث أناس آخرون عن الانضمام إليه. إنهم ينتظرون أن يسمعوا ما إذا أصبح ثرياً.

بصرف النظر عن الاقتصاديات المتضمَّنة، فقد كان هناك الكثير من القلق بين زملائي من أن آندرو جاكسون قد يتسبب في خراب البلد إذا استمرت فترة رئاسته. يعتقد معظم النبلاء من أقاربي بأن جاكسون شخص أخرق، وفلاح فظ قد يحول البلد إلى حكم الغوغاء من المزارعين غير المتعلمين الذين يعتاشون من زراعة مزارعهم بدون مساعدة أحد. إنه إيرلندي من آنتريم يفتخر بنفسه لقدرته على التعامل مع عامة الناس.

إنه محام كذلك، وقد درس المحاماة في مكان ليس بعيداً عن هنا ــ مع سبروس ماكيه في سالزبيري، في نورث كارولينا. وفي عام 1787، عندما كان والد زوجتي، مالك الأراضي، كاتب محكمة شاب في مورغانتون، كان آندرو جاكسون المدعي العام للمنطقة الغربية من نورث كارولينا. ويتذكره السادة الأكبر سناً كفزاعة يشرب المُسكِرات بكثرة، وحاد الطبع قد يقاتل بأسرع مما يقامر.

لا يزال الناس يتحدثون عن الحادث الذي وقع عندما كان جاكسون يمارس المحاماة فوق الجبل في جونزبورو، في الأشهر التي سبقت انتقاله إلى ناشفيل. لقد كان مدعواً إلى حفلة راقية في منزل إحدى العائلات البارزة في المقاطعة. وسأل جاكسون إن كان بإمكانه إحضار صديق، وتم قبول الطلب، وذلك بلا ريب على أمل أنه ربما سيقوم بتقديم رجل حدود نبيل آخر إلى الوسط الراقي. وبدلاً من ذلك وصل جاكسون إلى المنزل برفقة خمس نساء حانة عاهرات، حاول تقديمهن

على أنهن "سيدات راقيات." ولم تعنِ الصدمة وغضب أولئك الحاضرين أي شيء بالنسبة لآندرو جاكسون؛ بل إن الأمر جعله يشعر بالرضا بأن الطبقة العليا قد فسّرت رسالة ازدرائه بشكل صحيح.

والآن يتحدث السادة في كل مكان عن خطاب تنصيب الرئيس جاكسون في 1829، عندما تم السماح لغوغاء تمثلين من "عامة شعبه" المحبوبين أن يقتحموا البيت الأبيض، مخلفين أثراً من الوحل والخزف الصيني المكسَّر وراءهم. كان الأرستقراطيون يخشون أنه إذا تم السماح لهذا الهمجي أن يدير البلاد لفترة أخرى لتولي الرئاسة، فإن الدمار سيلحق ذلك بالضرورة. هناك كلام عن فرض ضرائب على البضائع المستوردة، الأمر الذي يسبب قلقاً لعدد كبير من الناس. إنهم لا ينتقدون الرئيس علناً، على أي حال، وذلك لأن جاكسون كان بطلاً في الحرب مع إنجلترا قبل عشرين سنة، ويعتز الكثيرون بصلاته مع المنطقة الغربية لنورث كارولينا الغربية. إن شعبية جاكسون بين المزارعين المحليين وساكني الغابات لا يمكن إنكارها بقدر ما هي محيّرة. إنني أعترف، بالرغم من ذلك، بأنني أتساءل أحياناً كيف سيبدو الأمر في أن تكون مستقلاً عن الرجال الأثرياء والأشدّاء، وأن تكون قادراً على مواجهتهم دون التعرض لعقوبة. إن أندرو جاكسون رجل عصامي بكل معنى الكلمة، وإنه ليشد من عزمي أن أرى أن عملاً فذاً كهذا هو أمر ممكن، على الرغم من أنني كنت أرغب أن أحظى باحترام أكثر من جانب السادة المثقفين والمتحدرين من عائلات كريمة، لو كنت مكانه.

إضافة إلى هذه المواضيع السياسية والاقتصادية، والمناقشات القائمة دائماً حول الطقس، فقد كنا جميعنا نتكلم عن فرانكي سيلفر بدون انقطاع، وبشكل استحواذي، وربما حتى بشكل مَرَضي. لم يكن متبقياً على محاكمتها سوى شهر.

هي الوحيدة من عائلتها التي تذوي في سجن مقاطعة بيرك الآن. لقد تم إطلاق سراح والدتها وأخيها بعد جلسة استماع أمام قضاة في كانون

الثاني/يناير. لقد أطلق السيد بيرغنر سراحهما بعدل تماماً. معلناً أنه لم يقم أحد بتقديم أي دليل يثبت أنهما كانا على علم بموت تشارلي سيلفر، أو شاركا فيه. من ناحية أخرى، سيكونان شاهدين في المحاكمة الوشيكة، ولضمان مثولهما أمام المحكمة في اليوم المحدد، قام بإصدار كفالة لهما بمائة جنيه لضمان حريتهما، ودفع أشعيا المبلغ المطلوب، ولم يهدر وقتاً في وضع مسافة أربعين ميلاً من الجبال بينهما وبين القانون في مورغانتون، حيث أعاد زوجته وابنه إلى طريق الجبل الأصفر حيث تقع أرضهم عند نهر تو. كانت فرانكي سيلفر وحيدة تماماً حقاً في زنزانتها في السجن، حيث كانت الرحلة عبر الجبال طويلة جداً بالنسبة لزيارة عائلية، لا سيما في الشتاء. لا بد أنها كانت تفتقد طفلتها إلى حد بعيد جداً، ولكننا لم نتحدث عن ذلك. لقد قام أهل مورغانتون بإعادة وصف الجريمة لبعضهم البعض، مثيرين من جديد مشاعر الرعب فيها مع كل إعادة سرد لها، في حين كان لدينا نحن في مهنة المحاماة مسألة واقعية أكثر للتأمل فيها. من منّا سيقوم بالدفاع عن هذه المرأة الشابة البائسة؟

اجتمعنا على طاولة منعزلة في حانة ماكينتاير لمناقشة هذا الموضوع الحساس. كنت هناك كمشارك محايد، حيث أنني ككاتب في المحكمة العليا لم يكن بإمكاني الدفاع عنها، حتى لو رغبت في ذلك. وأنا بكل تأكيد لم أكن أرغب في هذا.

لم يكن أحد يرغب فيه.

نظرت إلى وجوه زملائي المحامين حول الطاولة، كانت تعابير وجوههم تتراوح من حذر إلى عناد متصلّب. لقد كنا هنا لنقرر ما يتعين عمله بشأنها، وكنت أعتقد بأن أحدهم لا بد أن لا يروق له حلنا. وبالنسبة لبلدة حدودية، فقد كان في مورغانتون عدد كبير من المحامين، غير أنهم لم يكونوا جميعهم مهتمين بدافعهم الذاتي لأداء الواجب في المحكمة. إن حقيقة أن المحكمة المتنقلة الغربية انعقدت في مورغانتون كانت سبباً كافياً لوجود مجموعة كبيرة من المحامين في

كل مكان، إلا أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي من أجله كان عددهم كثيراً. لقد كان المزارعون الأثرياء يرسلون أبناءهم لدراسة القانون، وذلك لأن المعرفة في الأمور القانونية كانت تُعتبَر على أنها مرحلة الصقل النهائية في الدراسة لسيد نبيل. إن عقلاً مدرباً قانونياً كان يجعل الرجل حاذقاً في شؤون أعماله التجارية، وقادراً تماماً على فهم الوثائق القانونية والعقود. ربما كان ذلك من مخلفات الروح الرائدة القديمة التي أوحت للرجال النبلاء الكبار في السن بصنع محامين من أبنائهم: بتلك الطريقة لن تكون مشاريع العائلة التجارية تحت رحمة أغراب عندما يأتي الأمر إلى تفسير واستخدام القانون. لن تكون العائلة مضطرة لتصديق أي شخص بشأن شرعية صفقة تجارية أو معنى القانون. فإذا كانت المعرفة قوة، إذن فالمعرفة القانونية كانت تعني تفوقاً تجارياً ومالياً.

بعض هؤلاء المحامين "السادة"، الذين مارسوا المحاماة من أجل منفعتهم الشخصية فقط، لم يحضروا مؤتمرنا في الحانة، وذلك لأن المُعضلة القانونية الراهنة لم تكن ذات صلة باهتمامهم. وآخرون كانوا حاضرين هناك ربما بدافع الفضول، ولكنها كانت مناقشة عائلية إلى حد كبير. كان هناك ستة منّا لتسوية الأمر ـ وكان يمكن أن نكون سبعة لو أن أخي ألفرد كان حياً، ولكم تمنيت أن يكون هناك ليقدم نصحه. لقد كنت الرجل الأصغر سناً بعقد بين الحضور. وكان زملائي هم والد زوجتي ومالك الأراضي ويليام إيروين؛ وابنه الأكبر وشقيق زوجتي أدولفوس إيروين؛ والكولونيل جيمس إيروين، ابن عمهم؛ والسيد اسحاق تي. آفري، وهو عضو هيئة تشريعية حكومية سابق، ومتزوج من شقيقة زوجتي هارييت؛ والسيد دي. جيه. كالدويل؛ والسيد توماس ويلسون الذي مثَّل أقارب السيدة سيلفر في جلسة الاستماع والمثول أمام المحكمة بنجاح كبير. إن زوجة السيد ويلسون، كاثرين، هي ابنة خالة لعائلة إيروين، حيث أن والدتها هي شقيقة السيدة إيروين، روث.

"يتوجب عليك أن تقبل القضية يا ابن العم جيمس،" اقترح أدولفوس. "يمكنك أن تصنع لنفسك اسماً بهذه القضية."

"نعم، ولكن ليس اسماً يذكَر في صحبة راقية،" قال الكولونيل إيروين بتذمر. "إن تلك المرأة هي موضوع اشمئزاز بالنسبة للمقاطعة بأكملها. وأيا شخص يتولى قضيتها سيوصم بخسة جريمتها. ينظر في القضايا الجنائية مرتين في السنة، أيها السادة، وتشكل بضعة أسابيع من العمل في أحسن الأحوال. وماذا سيحل ببقية عملي؟"

"إنه على حق." قال والد زوجتي. "إن المستندات القانونية والوصايا والقضايا المدنية هي مصدر رزق كل محامٍ ريفي. قم بالدفاع عن تلك المرأة ولن يتخطى عتبة باب مكتبك مواطنون شرفاء من ذلك الحين فصاعداً."

"ماذا عنك سيد آفري؟" سأل أدولفوس.

هز السيد النبيل ذو الشعر الفضي رأسه. "إنني رئيس البنك الآن. وليس لدي رغبة في الانشغال بقانون جنائي. ليس في هذه القضية على وجه الخصوص.

"يتوجب عليك أن تدافع عنها يا ويلسون،" قال الكولونيل إيروين. "لقد مثَّلت العائلة في جلسة المثول أمام المحكمة. لقد كان أداءً مثيراً للإعجاب."

"وهكذا أكون قد قمت بدوري." دمدم ويلسون. "دعوا شخصاً آخر يتولى العبء. أي واحد منكم يمكنه تحمُّل خسارة الدخل أفضل مني."

كان توماس ويلسون الشخص الأصغر الآخر في المجموعة، وليس الأقل تميّزاً. لقد خدم فترة أو اثنتين في مجلس نورث كارولينا التشريعي قبل أن ينتقل إلى الغرب إلى مورغانتون ليقوم بإنشاء مكتبه للمحاماة، وكما سبق وأن أشرت فإن له صلة قرابة مع عائلة إيروين عن طريق الزواج، وهذا أمر مفيد. لقد توفي شقيق ويلسون الأكبر، جوزيف، وهو قاض بارز لمحكمة متنقلة في تشارلوت، في

tele @ktabpdf

غضون أشهر من وفاة شقيقي، ولأن هذه الخسارة شبيهة بخسارتي، فقد كان عندي دائماً شعور برابطة تعاطف مع الرجل لا يمكن التعبير عنها. لقد كان لطيفاً في فاجعتي بالتحدث عن فقدانه لشقيقه مقدّماً مشورة حكيمة إزاء ما ينبغي علي أن أفعله الآن كوني فقدت مستقبلي كشريك أصغر في شركة العائلة القانونية. لقد كان ويلسون رجلاً طيباً، ومحترماً جداً في المجتمع. ومع ذلك، فإن لدي شكوكاً إزاءه بسبب هذه القضية الهامة جداً. لقد كان توماس ويلسون شخصاً منافساً إلى حد كافٍ بالنسبة للأمور العادية، إلا أنه كان يدهشني دائماً بأنه تنقصه روح الفكاهة، وضعيف الخيال. كنت أعلم في قرارة نفسي أنه إذا كنت في أي وقت في قفص الاتهام خائفاً على حياتي من نزوة محكّم أخرق، فإنني سأرغب في شخص آخر غير توماس ويلسون ليترافع في قضيتي.

"بصرف النظر عن ظروف المرء المالية، سيكون من المؤسف أن تدمر عمل عمر بكامله من أجل محاكمة تستغرق يومين وذات نتيجة محتومة،" قال أدولفوس. "سيكون ذلك حماقة."

"من المؤكد أن هذه القضية الوحيدة لن تؤذي مهنة المرء بشكل شديد،" قلتُ. "ينبغي حمل الجمهور على فهم أن لكل شخص حقاً في أن يتم الدفاع عنه في المحكمة. ويجب أن يكون هناك شخص ما يساند متهماً، سواء كان المدعى عليه مذنباً أم لا. إنني أصرح لكم بأن نظامنا القانوني نفسه مبني على أساس تلك المقدمة المنطقية."

"يمكنكم كذلك تعليم بغل العقيدة المسيحية بطريقة الأسئلة والأجوبة،" تشدّق أدولفوس. "إن الرجل العادي لا يفهم أموراً من هذا القبيل، وليس لديه صبر ليتم شرحها له. إنني أعتبر نفسي محظوظاً إذا قابلت هيئة محلفين واعية بشكل مقبول؛ إنني لا أطلب منهم أن يفكروا. الحقيقة هي أن سكان البلدة يريدون القضاء على تلك المرأة الشابة. وليس هناك شك في ذهن أي شخص أنها

مذنبة بقدر ما هي جيزبيل مذنبة، وشريرة ضعف شر جيزبيل. أولئك الغوغاء سيقومون بتلطيخ محامي فرانكي سيلفر بالقطران بالريشة ذاتها التي تدينها بجريمة قتل وحشية، وفي حين أنه لن تكون هناك محاكمة لمحاميها، فإنه سيحكم عليه بالفقر بشكل مؤكد بقدر ما هو موتها حتمي. لنكن واضحين بشأن ذلك."

"لن أسمح حتى لولدي جوزيف أن يتولى القضية إذا أنهى دراسته في القانون، واجتاز امتحان نقابة المحامين اليوم،" قال الكولونيل إيروين. "لا من أجل الخبرة ولا من أجل الشهرة، أو حتى من أجل ثلاثة أضعاف الأجر الذي يمكن أن يحصل عليه للدفاع عنها. ليس هناك أحد في هذه البلدة يمكن أن يتحمَّل وصمة مجتمعها.

"يمكنني أن أقول الشيء ذاته عن ابني ويتستل،" قال آفري. "سينهي دراسته في الجامعة في غضون بضعة أشهر، وهو ينوي أن يجعل القانون مهنته، إلا أنني لن أتمنى أن تُسنَد هذه القضية إليه لأي اعتبار كان."

أوماً الآخرون بموافقة كئيبة، ولم يكن بإمكاني التشكك بهم. يوجد بينهم تجربة نصف قرن حقيقية في مهنة المحاماة، بينما كنت بالكاد قد تجاوزت سنتي الأولى، والفضل لعملي ككاتب أنني كنت مستقلاً عن نزوات العملاء. "ولكن هذا أمر غير عادل، إذن!" قلت محتجاً. "كيف يمكن أن نطلب من أي شخص أن يخاطر بعمله عن طريق تمثيل مدعى عليها مكروهة، وبحسب جميع الآراء مذنبة بالتهمة الموجهة إليها؟"

"أنت بعيد عن القضية تماماً، يا بيرجيس،" قال مالك الأراضي إيروين. "وبقدر ما أنا مدفوع بالتحدي المُطلَق، فإنني أخشى أن عمري وضعفي يمنعاني من بذل جهد كهذا، لذا، فإنه ينبغي كذلك إعفائي. أيها السادة ينبغي أن نكون جميعنا من الحكمة بحيث نبتعد عن هذا الأمر، ولكن لا يمكننا. يتعين علينا أن نقدم خدمة ما للدفاع عن هذه المخلوقة البائسة، لأن أولئك الغوغاء الذين قد

يتجنبونا بسبب الدفاع عن المرأة، هم ذاتهم الذين سيكونون سريعين بالقدر ذاته تماماً في إدانتنا بالإهمال إذا تركناها لمصيرها. يتوجب علينا أن نتجه في مسار آمن بين شرَّين."

"ولكن ما هو البديل؟ ليس هناك محامٍ يريد هذه القضية.

بدا الكولونيل جيمس إيروين مستغرقاً في التفكير. "ربما هناك محامٍ يرغب في ذلك.

"ولكن من هو نيكولاس وودفين؟" سألتني إليزابث عندما عدت من اجتماع المحامين في حانة ماكينتاير (لولا وجود السيد ويلسون، فربما أنني كنت سأصف الاجتماع لقاءً عائلياً بحقيقة مطلقة).

"لم أقابله سوى مرة، على ما أعتقد. لقد كان محامياً مرخصاً لمدة سنة الآن، على وجه الدقة، ولكننا نسمع أشياء جيدة عنه ـ على الأقل ابن عمك جيمس يقول ذلك.

"وودفين... وودفين..." أغلقت إليزابث عينيها وجعَّدت جبهتها. بلا ريب أنها علامة على أنها كانت تقلِّب صفحات كتاب الأنساب الكبير ذلك مع السجل الاجتماعي الذي يبدو أن جميع سيدات الحدود قد قمن بفهرسته في عقولهن.

"آشفيل،" قلت مساعداً.

فتحت عينيها باتساع. "آشفيل! قريب جداً! وزوجته هي ـ ؟"

"ليس لديه زوجة. إنه في الواحدة والعشرين من عمره فقط، وبلا شك أنه كان يعمل بجد في دراساته إلى درجة لا تسمح له بتخصيص وقت للتودد. ولكن هناك أحد معارفك ربما يشهد له، وستثمنين رأيه حتى أكثر من رأيي ـ السيد ديفيد لوري سوين."

رمقتني إليزابث بنظرة. "كان لا بد لي أن أخمن ذلك، بيرجيس. ابن العم جيمس لن يوصي بمبتدئ شاب ليتولى قضية هامة ما لم يكن هناك علامة تميّز فيه. بالنسبة لمحامي من آشفيل، فإن تلك العلامة يمكن أن تكون مجرد منصب كاتب محكمة مع ديفيد سوين المحترم، الذي هو بالتأكيد أحد أكثر الشبان الواعدين على الحدود ـ باستثنائك أنت، يا حبيبي.

ابتسمت لها على كرم روحها، ولكنني لم أكن أعتقد بأنني كنت استحق المقارنة. إنني مجرد محام ريفي بسيط، راضٍ بنصيبي في الحياة. ولم أكن أبداً مدفوعاً لتحقيق نجاح كما كان السيد ديفيد سوين من آشفيل الذي لا يعرف الكلل، وربما يُعتبَر طموحه قسوة قلب في أعين أناس أكثر تواضعاً. وفي الأشهر التي كنت فيها محامياً في مقاطعة بيرك، سمعت الكثير عنه وعن طموحاته. وبالرغم من أنه لم يكن من عائلة مشهورة، فقد كافح وضحّى ليحظى بتعليم جيد، والذي عمل بعد تحقيقه بجد أكثر من أي من الثلاثة الذين يُطلق عليهم سادة، ليجعل حظه في الحياة أفضل. لقد كان بالكاد في الثلاثين من عمره، ومع ذلك كان قد أنهى فعلاً خمس فترات خدمة في الهيئة التشريعية في نورث كارولينا. كانت أيامه التي قضاها في الكدح والفقر وراءه، وأجرؤ على القول إنه أصبح الآن سيداً كأي سيد في كارولينا.

"ديفيد لوري سوين،" قالت إليزابث بتأمل. "ولكنه يسافر باستمرار، ويبقى لأشهر في رالي، أليس كذلك؟ ويتساءل المرء ما إذا كان لديه وقت ليدرِّب محامياً في ناشفيل. هل لا يزال عضو مقاطعة بنكوم في مجلس النواب؟"

"لا. لقد رفض فترة خدمة سادسة. إنه قاض في محكمة متنقلة الآن."

تنهدت إليزابث. "لقد تزوج زواجاً رائعاً جداً."

"حقاً؟ هل هي جميلة؟"

تلك النظرة مرة ثانية. تتخذ إليزابث تعبيراً معادياً إزاء إغاظتي. "إلينور

وايت هي ابنة وزير دولة في نورث كارولينا ،" قالت باحترام . "لقد كان جدها ، والد أمها ريتشارد كاسويل، حاكماً خلال الثورة . والفضل لإلينور ، ولجهودها ، بالطبع، أنه كان لديفيد سوين علاقات تتجاوز آشفيل بكثير . لقد ازدهرت تلك العائلة بكاملها في عمل السياسة الولاياتية . إن جيمس لوري من مجلس العموم التابع للولاية ، هو أخ غير شقيق ، كما تعلم ."

لم أكن أعلم . إن الأفعال اللاتينية هي لعبة طفل مقارنة بفك الأنساب المتشابكة للطبقة العليا في نورث كارولينا .

"ديفيد *لوري* سوين وجيمس *لوري* هما أخوان غير شقيقين؟ مصادفة أسماء غريبة ."

"ليست مصادفة على الإطلاق ،" قالت إليزابث . "ألا تعرف تلك القصة؟ إنها حديث العامة في الدائرة القانونية الغربية . لقد كانت والدة سوين الآنسة كارولين لين ، والتي كامرأة في مقتبل العمر تزوجت من السيد ديفيد لوري ، وعاشا في مزرعة في شمالي جورجيا ، وقد أنجبت له عدداً من الأولاد . من المحزن بالنسبة لزوجته وأطفاله أن ديفيد لوري قُتِل في غارة هندية ، وتزوجت كارولين لوري المسكينة مرة ثانية ـ من السيد جورج سوين ، وهو تاجر وطبيب . وقد أنجبا ستة أو سبعة أطفال ـ نسيت العدد المضبوط ـ

حقاً؟ كنت أعتقد بأنك حفظت تواريخ ميلادهم عن ظهر قلب .

استبعدت ذرية سوين . "إنهم غير مهمين ، باستثناء أصغرهم . وقد أسمته أمه على اسم زوجها الأول ـ ديفيد لوري . لذا فهو ديفيد لوري سوين . أليست هذه قصة لطيفة ، بيرجيس؟ ياله من تذكُّر رقيق . إن المرأة المسكينة لم تنسَ أبداً حبها الأول ."

"يتساءل المرء كيف شعر السيد سوين إزاء الموضوع ،" دمدمتُ . "بالرغم من أنه ربما بعد ستة أطفال ، قد استنفد الزوجان السعيدان الأسماء على أي حال . ربما أنهما كانا سيسميان الطفل التالي على اسم القطة .

"إن الأسماء هي أمر جدي في العائلات المرموقة، يا بيرجيس،" قالت زوجتي مؤنبة. "إنها تخبر العالم على الفور وبدقة ما هي صلاتك. آه!"

تم قطع محاضرتها عن تسميات السلالات الراقية ببكاء من غرفة نوم الطفل. لقد كان طفلنا ووريثنا، السيد الصغير ويليام ويلوبي إيروين غيذر، في حاجة لاهتمام أمه.

بعد بضعة دقائق عادت إليزابث لمتابعة موضوع نيكولاس وودفين باهتمام متجدد، ولكنني كنت غير قادر على إرضاء فضولها فيما يتعلق بأسلاف السيد الشاب. لقد قلت إن الكولونيل إيروين قد شهد لوودفين كمحامٍ كفؤ، وقد كنا مشغولين جداً بالأمور القانونية لدرجة لا تسمح بالبحث في ملاءمته لغايات تتعلق بالسلالات. تمتمت إليزابث أنه ربما هناك شخص ما في عائلتها من شأنه أن يعرف من كان، ولم أشك في ذلك للحظة. لقد كان لعائلة إيروين من بيلفيدير ثماني بنات؛ ولم يفلت أي رجل نبيل غرب ويلمنغتون من تدقيقهن.

بعد بضع دقائق من الصمت الودي، رفعت زوجتي نظرها عن التطريز الذي بين يديها، وقالت: "شيء ما خطر لي للتو، عزيزي بيرجيس."

"نعم؟"

"لا أحد منكم أنتم المحامون يريد أن يدافع عن هذه الفتاة البائسة فرانكي سيلفر. هل هذا صحيح؟"

"إنها القضية الأكثر سخونة،" أكدّت لها.

"آها! إذن لماذا سيوافق نيكولاس وودفين على توليها؟"

"يمكنني أن أعطيك ثلاثة أسباب. أولاً، إنه محامٍ في مقتبل العمر ويحتاج إلى خبرة المحاكمة، وربما الشهرة التي يمكن أن يتم اكتسابها من وراء هذه القضية. ثانياً، لديه قضية أخرى على قائمة قضايا المحكمة العليا، لذا فهو قادم على أي

حال. إن قضية أخرى ستجعل رحلته مثمرة أكثر. ثالثاً، قد يكون وودفين مرتبطاً بشكل وثيق بزمالة مع ديفيد سوين، ولكن عائلتك تؤكد لي أنه ليس غنياً بأي حال من الأحوال. إن الأتعاب القانونية في قضية سيلفر لن تصل إلى مبالغ كبيرة، ولكنني متأكد أنها ستكون مقبولة بسرور من قِبل محام غر."

"تلك أسباب جيدة بما فيه الكفاية، على ما أظن،" قالت إليزابث. "ولكن ما الذي سيجعل السيد وودفين يقبل هذه القضية في الوقت الذي لا يقبلها فيه محامونا في مورغانتون؟"

"هو ذاك بالضبط، يا إليزابث. إن نيكولاس وودفين ليس محامياً في مورغانتون. إن الرجل المحلي قد يفقد ود المجتمع، وجزءاً كبيراً من دخله من الوثائق القانونية والوصايا بربط نفسه بعار فرانكي سيلفر. إن نيكولاس وودفين لن يعاني من أي آثار سيئة، إذ يمكنه أن يتولى القضية، ويستعرض مهاراته القانونية أمام زملائه المحامين في المحكمة المتنقلة، وأن يجمع أتعابه، ومن ثم يرحل إلى آشفيل، على بعد حوالي خمسين ميلاً، حيث قلة من الناس سيعرفون بشأن قضية قتل في مقاطعة بيرك، أو سيهتمون بها. إنه لن يفقد ذرة من عمله بسبب هذه المحاولة، وإذا قام بعمل جيد في المحكمة، فربما أنه سيوسع نشاطه العملي بكسب ود المجتمع القانوني."

"يبدو الأمر مناسباً لجميع الأطراف المعنية،" أقرّت إليزابث. "ولكن ماذا عن تلك المرأة الشابة المسكينة؟ هل سيتم تمثيلها بشكل جيد من قِبل هكذا محامٍ شاب قليل الخبرة؟"

"ابن عمك جيمس يؤكد لنا أن نيكولاس هو شخص مقتدر يخطط للتخصص في ممارسة القانون الجنائي، وقد يكون الأمل الأفضل كمُدافع بالنسبة للسيدة سيلفر. إضافة إلى أن توماس ويلسون قد وافق بكرم أن يكون المحامي الثاني، بحيث يمكن لوودفين أن يستفيد من خبرته."

مقابل جزء من الأتعاب، بالطبع،" قالت إليزابث، مبتسمة.

"بالطبع."

"ولكنه لن يتحدث باسم فرانكي في المحكمة؟"

"لا، بالتأكيد لن يفعل، فتلك مهمة وودفين. ويُنتظَر منه أن يقوم بدور محامٍ لها."

"إذن فجميع محامينا المحليين-

"معظمهم من أفراد أسرتك المباشرين،" أسرعت في تذكيرها.

"شكراً لك يا بيرجيس. أعرف ذلك. إذن فإن عائلة إيروين والسيد ويلسون ارتاحوا من الالتزام في تولي القضية، وبالتالي فإنهم سينقذون مصدر رزقهم. وتخبرني أن نيكولاس وودفين هو رجل كفؤ. إنني سعيدة لسماع ذلك. إن شقيقتي ماري مهتمة إلى حد كبير بشأن المرأة الشابة المسكينة."

"ليست هناك ضرورة لأن تقلق بسبب السيدة سيلفر."

"تقول ماري إنها تود زيارة السجن. إنها ترغب في سماع حقائق القضية من فم المرأة المتهمة ذاتها." أخذت إليزابث نفساً عميقاً. "وأرغب في الذهاب معها!"

"لن يُسمح لأي منكما بفعل أي شيء من هذا القبيل،" قلت بانزعاج مخفي على نحو ناقص. "توماس ويلسون يقوم بدور محامٍ استشاري لحين موعد المحاكمة. لقد حذّر موكلته بأقصى قدر من الصرامة من التحدُّث إلى أي شخص عن قضيتها. وأشك أن العمدة بتلر سيسمح لك أو لماري بالزيارة. إنني أنصحكما بعدم محاولة القيام بشيء من هذا القبيل."

"إن شقيقتي ماري مصممة تماماً."

"شقيقتك ماري مصممة دائماً."

"وأنت متأكد أن السيد وودفين سيكون مدافعاً متعاطفاً وحي الضمير للسيدة سيلفر المسكينة؟"

"إنني على يقين أنه سيكون رائعاً، يا عزيزتي،" طمأنت زوجتي. ولكنني كنت أفكر، *إنه جيد أكثر بقدر كبير مما تستحق، وذلك لأننا نعتقد بأنها قاتلة شريرة*. لم أخبر إليزابث أن ملاحظة ابن عمها جيمس قبل أن نغادر اجتماعنا كانت: "ألن نبدو كحمقى إذا حصلت الشيطانة الشابة على براءتها؟" وضحكنا جميعنا من أعماق قلوبنا على ذلك.

إنني أفتقد الأزهار. بالكاد يمكنني تحمُّل النظر إلى الخارج. إن الأرض جرداء جداً وبنية الآن، والأشجار تبدو للعالم كله كما لو كانت ميتة. "لا تقلقي" هذا ما تقوله لي سارة بريسنل عندما تحضر لي عشائي. "ستعود الأزهار في أواخر آذار/مارس. وسيعود كل شيء حياً عندئذ، تماماً مثل أي وقت مضى."

لا بد أن أكون على عكس الأزهار، في ذلك الوقت، لأنها ستعود للظهور في الأسبوع ذاته الذي تُجرَى فيه محاكمتي. وستعود للحياة عندما أبدأ أنا بالموت. لقد أحضروا لي محامياً، تقول السيدة بريسنل، ويبدو أنها أقامت متجراً بجانبهم، وتتحدث باستمرار عن كم هم رجال نبلاء رائعون، ورجال سياسيون كبار، ولكني لا أرى بأي نفع سيعود ذلك عليَّ. إنني لا أثق بالغرباء، وقد رأيت الطريقة التي ينظر بها الأشخاص الذين نشأوا في المدينة إلينا نحن أهل الجبل ـ كما لو كنا شيئاً قد اصطادوه في سلسلة من الأفخاخ، وخائفين من الإصابة بعدوى منّا. إنني لا أرغب في البوح بسري لأشخاص أمثالهم، لأنهم رجال، ومن المحتمل تماماً أنهم يمتلكون عبيداً إضافة إلى ذلك. ماذا يعرفون عن أن يكون المرء خائفاً؟ إنهم يعتقدون بأن القانون يهتم بالناس الذين بحاجة لمساعدة. إنهم

يعيشون في مدينة مع عمدة داخل نطاق صيحة، وبين جيران فضوليين للتأكد من أن كل شخص يفعل ما يتوجب عليه القيام به. من السهل الموت في البرية، ولا يوجد هناك أحد لإنقاذك.

إنني أحلم بتشارلي أحياناً. إنه يقف في حقل رعي الجاموس، والوقت هو فصل الصيف. كان يقطف ثمار توت العليق من أجلي، لأنه يعرف أنني أحبها كثيراً. ويرفع حفنة من توت العليق نحو فمه، ثم يبدأ بقضمها، ويسيل العصير القاتم اللون من فمه على ذقنه. ولكن فجأة أدرك أنه ليس عصير توت العليق ذلك الذي يسيل على ذقنه، بل دم، وأن هناك جرحاً واسعاً على جانب رأسه يلبّد شعره البني. كانت عيناه مفتوحتين وتحدقان، ولكنهما فاقدتان للإحساس، ويمشي باتجاهي وهو يحمل سلة توت العليق، إلا أن الحلم يتبدل قبل أن يصل إلي وأنا أركع بجانب الجدول الصغير الذي يجري خلف منزلنا. كان الماء بارداً جداً بحيث خدَّر أصابعي، ولكنني أغسل قطعة ملابس بيضاء في مياه الجدول، ولا يمكنني التوقف. وتنزلق دوامات حمراء اللون تحت قطعة الملابس عندما أرفعها لأنظر إليها، ولكنها ليست بيضاء من جديد بعد. أقوم بفركها بقوة أكثر على الحجارة الباردة. هناك شخص ما يراقب. إنه ليس تشارلي.

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

هيئة المحلفين الكبرى

لمدة أسبوع واحد من كل أيلول/سبتمبر وآذار/مارس، تحوّل جلسة المحكمة المتنقلة مورغانتون من قرية حدودية خاملة إلى مهرجان صاخب من خطب الحانات المنددة بالقانون والسياسة، وحفلات عشاء، ويؤسفني أن أقول، إلى بضعة مشاجرات واشتباكات بقبضات الأيدي بين أشخاص ثملين، الأمر الذي ببساطة يُنتِج عملاً أكثر للمجتمع القانوني الذي أوجد المناسبة من البداية. وتكتظ النُزل المحلية بالمسافرين القادمين إلى المدينة من أجل المحكمة. بعض القادمين الجدد هم أطراف في الدعاوى أو أقارب المتهم، ولكن كثيراً غيرهم هم مجرد مشاهدين أتوا من أجل التسلية. إنهم يرون أسبوع المحاكمات كفصل من مسرحية لإضفاء شيء من الإثارة إلى أسلوب الحياة الممل. وكما قلت، المحكمة هي مسرحنا.

إن والدي زوجتي، عائلة إيروين من بيلفيدير، يقومان بحسن الضيافة للمحامين الزائرين، ويقدمان عشاء فاخراً، وحتى سكناً لأولئك الذين يفضلون عدم تجربة حظهم في نُزل البلدة. وربما أن عادة ترفيه موظفي المحكمة هذه نشأت من السنوات الطويلة التي أمضاها والد زوجتي ككاتب في المحكمة العليا، ولكنني

أشك في أن العائلة كانت تقوم بذلك عبثاً. فالقاضي والمحامون الذين يأتون إلى البلدة من أجل جلسة المحكمة يجلبون أخبار العالم الخارجي، ويقدمون أفكاراً حديثة حول تعقيدات الحكومة السياسية في رالي. ويساعد مجتمعهم في تعزيز الروابط بين أبناء الحدود ونظرائهم في أجزاء من الولاية أكثر استقراراً. إن أسلوب بلدهم، وأخبارهم عن الموضة تذكرنا أننا حتى في مكان ناء ومنعزل نحن سيدات وسادة.

كانت إليزابث تتطلع دائماً إلى حفلات العائلات الكبيرة هذه، حيث أنها لا تكل أبداً من الحلقات الاجتماعية، ولا من سماع الأخبار عن ولادات، وزيجات لأقارب بعيدين لها، وكما قالت أكثر من مرة، إنها كانت ترحب بفرصة لتقديمي للزوار أصحاب المستوى الرفيع الذين قد يثبتون أنهم مؤثرون في حياتي المهنية. وأخشى أنه كان لدى إليزابث طموحات أعلى مما لدي أنا نفسي. ربما أن مورغانتون هي قرية خاملة، وأظن أنني سأملّها يوماً ما، ولكنها في الوقت الراهن ترضيني ولا يمكنني أن أتخيل أبداً أنني أرغب في مغادرتها.

كنا نرتدي ملابسنا من أجل حفل العشاء. كنت متألقاً في بذلتي "آرشبولد" (الاسم الهزلي الذي تطلقه إليزابث على بذلتي السوداء الأنيقة)، بما يليق بأهمية المناسبة. إنها البذلة التي ارتديتها في حفل زفافنا، وعند حضور جنازة شقيقي المسكين آلفرد. ربما أنها ستصر على ارتدائي لها كذلك عند ذهابي إلى المحكمة العليا في الأسبوع القادم، وربما أنها ستكون محقة نظراً لهيبة تلك المناسبة. كانت إليزابث ترتدي ثوباً أسود مصنوعاً من قماش لمّاع، وعِقداً محفوراً جميلاً جداً، وأقراطاً من الكهرمان الأسود، حيث أنها كانت لا تزال في حالة حِداد على شقيقتها مارغريت كارولين، التي توفيت السنة الماضية. كان شعر إليزابث مجعداً بشكل خصل ملفوفة كالسجق حسب الموضة الدارجة، ولكن لأنها كانت ذات عنق طويلة وأكتاف رائعة، فقد كان التسريحة مناسبة لها أكثر مما كانت تناسب

الكثير من السيدات الممتلئات المسكينات اللواتي حاولن تسريح شعرهن بها. وأعتقد بأن الثوب هو ذلك الذي صنعته إليزابث من كتاب أزياء من تشارلستون، على الرغم من أنني لست خبيراً على الإطلاق في الملابس النسائية. ولست أفضل بكثير في نزوات سلالات وسلوكات المجتمع، ولكن في هذا المجال على الأقل، فإن إليزابث كانت تحاول تعليمي.

وبعبوس قلق قامت بتعديل ربطة عنقي قبل العودة من جديد إلى تفقُّد صورتها الأنيقة في مرآة الحائط. "والآن يا بيرجيس، حاول أن تحافظ على كل شيء صحيح، أليس كذلك؟ إن أهم ضيفين الليلة هما القاضي دونيل وابن العم ويليام، وكلاهما من تشارلوت.

"ابن العم ويليام...

"ألكسندر!" صاحت بي بنزق إلى حد ما. "ويليام يوليوس ألكسندر. حاول أن تأخذ هذا الأمر بجدية! هناك ما هو أكثر في ممارسة القانون من اجتياز امتحاناتك، وكسبك لحصتك من القضايا. إن ويليام ألكسندر هو قريبي. إنه من عائلة إيروين من جهة أمه، حيث أن صوفيا هي أخت الكولونيل، أي ابن العم جيمس."

"من غير الممكن مطلقاً أن أنساه،" أكدت لها. "وبالنسبة للسيد ألكسندر، فقد التقيته لفترة قصيرة، على ما أعتقد. إنه محامي الولاية في محاكمات هذا الأسبوع."

"نعم، ولكن يجب عليك أن لا تتحدث عن قضايا المحكمة على العشاء. لقد كانت عادة الوالد على الدوام عدم مناقشة قضايا غير مبتوت فيها أمام المحكمة. هناك غرباء حاضرون، أتفهمني، ولا ينبغي إفشاء معلومات سرية في صحبة عامة."

"بالطبع أعرف ذلك،" قلت ببعض الخشونة. قد يعتقد أي شخص بأنها هي المحامي في العائلة وليس أنا. لقد تحاشيت ذكر أنني بصفتي كاتب المحكمة في

القضية القادمة، لم يكن لدي حاجة خاصة إلى استهواء زوارنا القانونيين أصحاب المقامات الرفيعة. وسترد زوجتي بلا ريب على هكذا احتجاج بفتور المشاعر بأن كل اتصال اجتماعي لا بد أن يثبت نفعه عاجلاً أو آجلاً، وأنه لا ينبغي على المرء أبداً أن يضيع فرصة في ترك انطباع عند شخص ذي نفوذ. لا شك في أنها على حق. إن نجاح عائلة إيروين، اجتماعياً وخلافه، لا يحتمل نقاشاً.

"إضافة إلى ذلك،" قالت إليزابث، "كل تلك الأشكال من الحديث القانوني مملة بالنسبة لبقيتنا. ولكن حتى لو ركزنا على محادثة عامة، فإن هناك بعض الأمور التي ينبغي عليك أن تتذكرها."

"مثل ماذا، على سبيل المثال؟"

"إن ويليام ألكسندر ليس ابن عمنا فقط؛ إنه ابن أخت توماس ويلسون عن طريق الزواج، لذا كن حريصاً على عدم قول أي شيء يحط من قدر عائلة ويلسون في حضوره. بالرغم من أنك لا تقول شيئاً كهذا، بالطبع،" أضافت على عجل وهي ترى وميض الانزعاج في عيني.

"لن أستخف بأحد الليلة،" أكدت لإليزابث. "إن مورغانتون، التي تتكون فقط من غرباء وأقارب، علمتني ذلك الدرس منذ زمن طويل. ومع ذلك، فإنه يدهشني أن أجد تشابكاً كهذا في الأنساب في المحكمة. سيكون أسبوعاً عائلياً في المحكمة، أليس كذلك يا عزيزتي؟ جميع المحامين أقارب لبعضهم البعض بدرجات متفاوتة. لا غرباء سوى المتهمين وربما شاهد أو اثنين."

"هذا بالكاد مُستغرَب،" قالت غير متأثرة بفطنتي. "إن العائلات المرموقة تقيم علاقات اجتماعية مع بعضها البعض. إنه مجرد أمر طبيعي أنه لا بد أن يتزاوجوا ضمن بعضهم البعض."

"والقاضي؟ هل نجحنا في جعله واحداً من العائلة بعد؟"

"بصدق يا بيرجيس! أنت فظيع. وأنا أستحلفك أن لا تعتمد هذه النبرة المستهزئة مع السيد القاضي دونيل. إن الرجل المسكين أصبح أرملاً حديثاً، وأنا متأكدة أنه لن تكون لديه رغبة في المزاح. لقد كانت زوجته في الثلاثين فقط عندما توفيت، المسكينة. لقد كانت مارغريت سبيت السابقة، ابنة الحاكم."

"ريتشارد دوبس سبيت،" تمتمت لأظهر استجابة. "أي شيء آخر؟"

"على فكرة، ستلاحظ أن هناك لهجة أيرلندية في نطق السيد دونيل. إنه أحد سكان ذلك البلد الأصليين، ولكنه قضى معظم حياته في هذا الجانب من المحيط، وهو خريج جامعة نورث كارولينا، مثل ابن العم ويليام. إن القاضي هو رجل هادئ، جليل وجدّي إلى أقصى حد. أعتقد بأنه شخص عظيم بكل معنى الكلمة. إن موطنه هو نيو بيرن، لذا، نعمل ما بوسعنا لنجعله يشعر كأنه مع أهله، وأنه مرحب به في هذا الطرف من الولاية. إن لديه ابناً وابنة."

أمسكت ذراع زوجتي. "يكفي، أرجوك!" قلت وأنا أضحك. "لقد بلغت ذاكرتي حدها الأقصى. دعي هذا المسيحي المسكين يدخل إلى عرين الأسود الاجتماعيين قبل أن أنسى كل كلمة قلتها لي عن أنسابهم.

أعتقد أنني أبليت بلاء حسناً في حفل عشاء عائلة إيروين. لقد كنت رزيناً ومحترماً في حضور القاضي دونيل الصموت برصانة، وقمت بالدردشة بود عن الطقس والخيول، وعن نشاطات معارف مشتركة مع ويليام ألكسندر الذي كان أقرب إلي في السن، ولكنه بعيد بالقدر ذاته في الاهتمامات والمزاج. ولم أكن أنا من أثار موضوع فرانكي سيلفر.

لقد نجحنا في إتمام معظم وجبة العشاء بدون ذكر أمور المحكمة من قِبل أي من الحضور، ولكن عندما حان وقت تقديم الحلوى، كان النبيذ يُصَب في أكواب

من الكريستال، وكنا قد استنفدنا تبادل الأخبار والثرثرة عن أصدقاء غير حاضرين، وقمنا بالبت في أسرار الطقس، والسياسة، ومصير الرئيس آندرو جاكسون بما يحقق رضى مشتركاً لنا. وفي السكون الخفيف الذي يرافق غرفة دافئة إلى حد كبير، وشهية متخمة، دوّى صوت الآنسة ماري إيروين من الطرف الآخر من الطاولة الطويلة المصنوعة من خشب الماهوغوني.

"هل سمعت عن قضيتنا الشهيرة سيد ألكسندر؟"

سحب ويليام ألكسندر كأس النبيذ من فمه ووضعه على الطاولة في مجرد إشارة إلى تشوق. "أية قضية شهيرة قد تكون تلك، يا ابنة العم ماري؟" تساءل بلباقة وقورة.

"آه، أن هناك امرأة تخضع لمحاكمة تكلفها حياتها في المحكمة العليا الأسبوع المقبل! من المؤكد أنه تم إطلاعك على القضية؟"

نظر السيد ألكسندر حول الطاولة للحصول على مشورة من زملائه المحامين ـ كانت الطاولة حافلة بهم ـ ولكننا كنا جميعنا حريصين على الاحتفاظ بتعابير محايدة تماماً. وبعد فترة صمت صعبة لم يهب خلالها أحد لنجدته، قال: "آه نعم. القاتلة. أرجو أن لا تتعلمي الفن العائلي لسلوك الزوجة من ذلك المثال التعيس، يا آنسة ماري.

تمت مكافأة سرعة بديهته بتشجيع بضحك خافت من السادة الحاضرين، وأشار رنين الكؤوس إلى أن التوتر قد خفَّ، ولكن أخت زوجتي العانس رفضت ترك الموضوع.

سألت: "إذن فقد اتخذت قرارك في أنها مذنبة، أليس كذلك؟"

أجاب: "لا بد لي من ذلك. إذا تم تقديمها إلى المحاكمة، فإن من واجبي كنائب عام مقاطعة مقاضاتها. إذا كنت قلقة بشأن جريمتها، فمن الأفضل أن تتحدثي إلى

أولئك الذين يدافعون عنها." كانت نظرته المحدقة تبحث عن عم زوجته، على بعد بضع كراسٍ عبر الطاولة المصنوعة من الماهوغوني.

نظر توماس ويلسون بعصبية إلى القاضي الذي بقي هادئاً، وعلى ما يبدو أنه كان في حالة تأمل عميق في كأسه المحتوي على النبيذ؛ ثم قابل النظرة المستبدة لماري إيروين. قفزت صورة كلاسيكية من دراساتي اللاتينية في مدرسة هل إلى ذهني: يوليسيس حبيس بين زوج قاتل من الوحوش، سيلا الصخرة، وتشاريبدس الدوامة. وبالرغم من أن الأمر كان يبدو ملائماً بشكل خاص، فقد قررت عدم التشارك مع باقي الجماعة في هذا الإيحاء الهوميري.

"سنبذل قصارى جهدنا، آنسة ماري. بالتأكيد سنفعل. حاول ويلسون أن يقدم ملاحظة معتدلة، إلا أن صوته بدا مكتوماً. "ومع ذلك، يتعين عليك أن تري أن الدليل ضد السيدة سيلفر هو دليل قوي." نظر بتحفظ إلى القاضي، وكأنه توقّع أن السيد المحترم كان سيطرق على الطاولة بسكين تقطيع اللحم ويدعوه لمراعاة النظام.

في تلك المرحلة تدخّل مالك الأراضي إيروين ليساعد ضيفه المكافح في حفل العشاء. "ماري، يا عزيزتي، لا يتوجب عليك الإلحاح على السيد ويلسون المسكين بشأن موكلته التعيسة، على الأخص عندما تكون مشاركته في القضية غير مباشرة. سيتم الدفاع عن السيدة سيلفر في المحكمة من قِبل محام شاب رائع من آشفيل، السيد نيكولاس وودفين."

نظراً لأن نيكولاس وودفين لم يكن حاضراً في حفل العشاء، فقد نجح مالك الأراضي إيروين في إنقاذ توماس نيلسون بدون رمي زميله إلى الذئاب. وقبل أن تتمكن ماري من متابعة الأمر، قام ضيف آخر بتغيير الموضوع، واستقر الجميع على مناقشة موضوع تافه بأريحية أكثر مما كان باهتمام.

على أي حال، عندما غادرنا الطاولة، سمعت الكولونيل جيمس إيروين يتمتم، "هل حذر أحد الشاب وودفين بشأن آنستنا ماري، أتعتقدون ذلك؟ إنها مصدر تهديد أكثر من موكلته الريفية.

"أسبوع عائلي، فعلاً!" قالت زوجتي إليزابث.

كان يوم السبت، 17 آذار/مارس، اليوم الذي يلي عيد ميلادي الخامس والعشرين. كنت أستعد للمغادرة إلى مبنى المحكمة، حيث كانت هيئة المحلفين الكبرى تجتمع لتقرر أياً من القضايا المحتملة ينبغي أن تُطرَح للمحاكمة عندما تجتمع المحكمة العليا الإثنين القادم.

"ما الذي تقصدينه، يا عزيزتي؟" تمتمت، ولكن تركيزي كان على المرآة.

"هيئة المحلفين الكبرى تجتمع اليوم، أليس كذلك؟" أومأت برأسي. "وككاتب محكمة، فقد قمتَ باختيار المحلفين؟"

"حسناً.

"ومن اخترتَ ليكون رئيس لجنة المحلفين الكبرى؟"

تنهدت. أعتقد أحياناً أن الناس في مورغانتون يعرفون الأمور *قبل* أن تحدث، فالقيل والقال ينتشر بسرعة في المجتمع. "ساموبل تيت."

ابتسمت إليزابث. "آه، بيرجيس، يالك من مخادع! بعد كل ذلك التبرُّم التي أبديته قبل حفل العشاء الذي أقامه والدي، حول كون المحكمة 'أسبوعاً عائلياً'، بحسب تعبيرك، بسبب العلاقات العائلية بين المحامين. وبعد ذلك، من تضع مسؤولاً عن هيئة المحلفين الكبرى؟ سام تيت!"

"إنها بلدة صغيرة، يا إليزابث،" قلت بكل الوقار الذي يمكنني حشده. "تقريباً كل محلف مؤهل مرتبط بطريقة ما ـ بالمناسبة، كيف يرتبط سام؟"

"ساموبل تيت متزوج من ابنة خالتي إليزابث، ابنة بيغي إيروين، هذا ما أعنيه." (بيغي إيروين تيت هي أخت الكولونيل جيمس إيروين، إن كنت مولعاً بصلات القرابة الأسرية كما يبدو أن كل شخص آخر في مورغانتون مولع بها.) "ولكن تلك بالكاد هي النقطة الأساسية، يا بيرجيس، كما تعلم تماماً."

كنت أعرف. بصرف النظر عن عائلته، أن سام تيت هو بالكاد المزارع النزيه الذي يمكن للناس أن يفكروا فيه عند تشكيل هيئة محلفين كبرى. فبالرغم من أنه يتجاوز الثلاثين فقط، ومهنته الأساسية هي زراعة أراضيه التي يمتلكها في "هيكوري غروف،" فإن سام تيت هو عمدة سابق لمقاطعة بيرك، ويعمل حالياً كقاضٍ في محكمة مقاطعة بيرك للاستئناف والجلسات الفصلية.

"أعتقد بأنه اختيار مناسب جداً،" قلت. "إنني أدرك أن فكرة قيام عمدة سابق بالعمل كرئيس هيئة محلفين قد يُدهش المراقب العادي بوصفها حالة غريبة، وحتى مشبوهة، ولكنه سيكون مفيداً جداً. إن لديه معرفة عملية في القانون والإجراءات، ويمكنه توجيه المحلفين الآخرين بأسلوب واع."

"إنه بالكاد طرف غير متحيز." كانت أسئلة إليزابث جدية إلى حد كبير، ولكن كان هناك شيء في لهجتها جعلني أعتقد بأنها ربما كانت تهزأ بي. "وبالكاد ملاك رحمة، كذلك، على ما أظن."

أعرف ما كانت تشير إليه. بالرغم من أن الحادثة قد وقعت قبل أن أصبح كاتب المحكمة العليا، وبالتالي فإنني لم أشهدها، فقد سمعت القصة تروى أكثر من مرة. خلال فترة تولي سام تيت منصب العمدة، أُدين رجل بجناية اقتضت أن يتم وصمه على الإبهام بالحرف الذي يرمز لجريمته. (ق يمثل قتل غير متعمَّد، وس يمثل سرقة أو أية جريمة أخرى.)

هناك كثير من الجرائم في كتب القانون تكون العقوبة المنصوص عليها فيها هي الموت، ولكن في هذه الأيام المستنيرة، لا نختار إعدام كل شخص يسرق، أو

يرتكب جريمة ما أقل من ذلك، بالرغم من أن القانون يسمح بقضاء عاجل من هذا القبيل. إن المدانين للمرة الأولى، لا سيما الأشخاص الذين لولا ذلك هم مواطنون فاضلون باستثناء هذه الزلة الوحيدة، يحظون برحمة من قِبل المحكمة، حتى عندما شهدت تنفيذ البديل، وسمعت الصيحات، كنت أتساءل غالباً ما إذا كانت في الواقع رحمة تلك التي تُمنَح.

لذا، من أجل التمييز بين أشرار ممعنين في الضلال، ومخالفين تعيسين، فإن الجرائم الكبرى تنقسم إلى فئتين: أفعال لا تُغتفَر حيث يحرم المجرم من الاستفادة من الحصانة الإكليريكية في تخفيف حكم الإعدام، ويتم إعدامه بسبب جريمته، والفئة الأخرى، المُسمَّاة جرائم يحق للمذنب فيها الاستفادة من الحصانة الإكليريكية في تخفيف حكم الإعدام، حيث يمكن للسجين المُدان أن يلتمس "الاستفادة من تلك الحصانة الإكليريكية" وبالتالي يفلت من عقوبة الإعدام بقبول عقوبة أقل، وهي أن يوصم على عضلة إبهام اليد اليسرى. إن تعبير الاستفادة من رجال الدين يشير إلى أصل هذه الممارسة. ففي إنجلترا القرون الوسطى كان يمكن لرجل الدين أن يُطالب بإعفاء من عقوبات المحاكم المدنية. فيما بعد اتسع نطاق هذا التساهل ليشمل أي شخص يمكنه أن يقرأ، بالسماح للمذنب بالنجاة من عقوبة الإعدام مقابل عقوبة الوصم الأخف. وفي الآونة الأخيرة، اتسع نطاق "الاستفادة من تلك الحصانة الإكليريكية" ليشمل مواطنين بصرف النظر عن تعليمهم، وتعتمد أكثر على طبيعة الجريمة. إذ لا يمكن للمرء أن يطالب "بالاستفادة من الحصانة الإكليريكية" مرتين، بأي حال. فليس من المفترض في القانون أن يتمتع برحمة السماء الأبدية.

عندما كانت المحكمة تقبل التماس السجين بالاستفادة من الحصانة

الإكليريكية في تخفيف حكم الإعدام، متنازلة عن تنفيذ حكم الإعدام لصالح عقوبة أقل درجة، كانت مهمة العمدة إبقاء حديد الوصم الساخن لحد الإحمرار على إبهام المجرم لفترة تمتد بقدر ما يحتاج الرجل ليصرخ "ليحفظ الله الولاية" ثلاث مرات. وفي هذه المناسبة، صاح المجرم غير النادم، المربوط إلى عمود والذي يتلوّى من ألمه، "فليحفظ الله الولاية!" مرتين، ومن ثم نشج ولهث، "فليلعن الله سام تيت!"

رفع العمدة تيت حديد الوصم بحذر عن إبهام الرجل المسكين، وبدأ الإجراء من جديد مرة أخرى، مع التأكد من أن العبارة المطلوبة تُقال بشكل صحيح ثلاث مرات، كما هو منصوص عليه في القانون. لا، لم يكن سام تيت ملاك رحمة، ولكنه كان حريصاً على تنفيذ النص القانوني، وكان يعرف قوانين نورث كارولينا شأنه شأن أي شخص آخر.

حسناً،" قلت، "مهما كانت تحيزات سام تيت نحو أهل مورغانتون مميزة، إن كان لديه أي تحيزات فعلياً، فمن المؤكد أنه سيكون غريباً بالنسبة لجميع الشخصيات الرئيسية في قضية سيلفر، لأنهم جميعهم أتوا من مكان ناء. لذا فإن النزاهة التامة سيتم الاحتفاظ بها. إن سام يعرف القانون. ولا أعرف شيئاً أكثر عدالة من ذلك.

"أعتقد بأنه أمر مفروغ منه على أي حال، أليس كذلك؟" سألت وأنا ألتفت لأغادر.

"تقريبا إلى حد ما،" قلت. "ينبغي أن تكون جميع آمالها معلقة بالمحاكمة بحد ذاتها. ربما يمكن لمحاميها أن يحرك عواطف هيئة المحلفين بفصاحته. فإن أخفق في ذلك فقد ضاعت."

قامت هيئة المحلفين الكبرى تحت توجيهات سام تيت الكفؤ بدراسة القضية

ضد فرانكي سيلفر، ووالدتها باربرا ستيوارت، وأخيها الأصغر بلاكستون. لقد تم عرض الحقائق، وتم الاستماع إلى الشهود. وعندما انسحبت هيئة المحلفين الكبرى للبدء بمداولاتهم، قاموا بالجدل بشأن ماذا ينبغي أن يتم عمله.

قال أحد أبرز المحلفين، جورج كوربينينغ، الذي يكون شقيقه ديفيد هو عضو الهيئة التشريعية لولايتنا: "أرى أن نتهمهم جميعهم! فجميعهم متورطون في هذا الأمر معاً. أي شخص يمكنه أن يرى ذلك.

اتفقت أصوات أخرى مع كوربينينغ.

أخيراً توقفوا عن الهذر ولاحظوا أن رئيس هيئة المحلفين الكبرى والعمدة السابق قد جلس صامتاً بشكل لافت. وبعد لحظة صمت، قال روكيت ستانلي: "ما رأيك يا سيد تيت؟"

فكر سام تيت بالأمر ملياً. "حسناً، أيها الأولاد،" قال، "إن الأمر على هذا الشكل. المحاكمات هي أمور تتطلب حذراً. يمكنك دائماً اتهام من تريد، ولكن ذلك لا يضمن أنك ستحصل على إدانة عندما تنتهي المحاكمة ويتم اختتامها. لقد رأيت الكثير من القضايا تصل إلى المحكمة في زمني، وسأخبركم ما هي الحقيقة: إن اتهام المشتبه بهم الثلاثة جميعهم سيجعلني مضطرباً. نعم، يا سيدي، سيجعلني كذلك.

"لماذا ذاك أيها العمدة تيت؟"

"لأنه يشير إلى أننا لا نعرف على من نلقي المسؤولية، وأننا نعتقل كل شخص لمجرد التأكد من أن لدينا الطرف المذنب. إن الناس لا يحبون ذلك. إن المحلفين مخالفون تماماً، فربما ينتهي بهم الأمر وهم يشعرون بالأسف من أجل عائلة ستيوارت، مطلقين سراح كل واحد منهم. أرى أنه يتعين علينا انتقاء واحد منهم ـ الشخص الأكثر وضوحاً ـ ونترك ذلك الشخص يتحمل المسؤولية كلها."

كان جورج كوربينينغ مقطباً حاجبيه. "ولكن ماذا عن الاثنين الآخرين؟"

"هل ترى أي دليل على أنهما كانا متورطين؟" تضيقت عينا العمدة. "إنني لا أتحدث عن حس سليم، يا جورج. إنني أتحدث عن دليل سيبقى قانونياً في محكمة عدل. إن كل ما أراه في هذه القضية هو ما تسميه دليلاً قرينياً*. لقد اختفى تشارلي سيلفر، وبعد أسبوع أو نحوه يتم العثور على أجزاء من جثته في الموقد في كوخه."

"ولكن بحسب الشهود فإن أرملة تشارلي سيلفر قد كذبت!" احتج كوربينينغ. "لقد قالت إنه خرج من المنزل، في حين أن أجزاء منه كانت طوال الوقت مسجاة في ذلك الموقد." توقف مع رعشة.

"صحيح تماماً،" قال سام تيت، غير مكترث بفكرة العنف. "لقد تم القبض على السيدة سيلفر بسبب كذبة كبيرة ومرعبة. وهذا يعني أنها ليست طرفاً بريئاً. ولكن ماذا عن الاثنين الآخرين، أيها الأولاد؟ أي دليل يمكنكم إعطائي إياه لربطهم بهذا الموت؟"

"من المنطقي أن فتاة شابة كتلك لا يمكن أن تكون قد تصرفت من نفسها،" قال ديفيد غلاس.

"إنني أتحدث عن دليل،" قام سام تيت بتذكيره. "هل يمكن لأحد أن يقدِّم لي دليلاً؟"

لم يتكلم أحد.

"حسناً إذن. إليكم ما أقترح أن نقوم به أيها الأولاد: نستعيد إحالة السيدة فرانسيس سيلفر إلى المحكمة، ولا نحوِّل والدتها وأخاها. إننا نعلم أنها متورطة

---

* دليل يبين العلاقة بدليل آخر وليس بالجريمة نفسها.

tele @ktabpdf

بالأمر حتى رقبتها، وأفضل رؤيتها تتعاقب على جريمتها أكثر من إلقاء الشبكة على مدى واسع جداً والمخاطرة بفقدان الثلاثة جميعهم. أرى أن نسهِّل الأمر على هيئة المحلفين، ونقوم بإرسال شيء مضمون إليهم. من يقف معي؟"

ارتفعت الأيدي عالياً. لقد كانوا جميعهم معه.

بعد بضع ساعات من بدء مداولاتهم، أعادت هيئة المحلفين الكبرى لمقاطعة بيرك إعلان إحالة السيدة فرانسيس ستيوارت سيلفر فقط إلى المحكمة. هي لوحدها ستخضع للمحاكمة بارتكاب جريمة قتل.

نظراً للمشاعر القوية التي أثارتها قضية سيلفر، فقد أمرت المحكمة كلاً من الشهود المكلفين بالحضور أمام المحكمة في المحاكمة المقبلة أن يقدم كفالة تتراوح بين خمسة وعشرين دولاراً أمريكياً ومئة جنيه بريطاني استرليني، وذلك لضمان حضورهم عند الطلب. كانت تلك مبالغ مذهلة لأن تُطلَب من شهود، ولكننا شعرنا أن ذلك كان ضرورياً لجعل عواقب عدم الإدلاء بشهادة مرعبة تماماً بقدر ما هي عواقب الإدلاء بشهادة مرعبة. كنا جميعنا نعلم أنه عندما يُنظَر في قضايا تتضمن عائلات من سكان الغابة، في المحكمة، فنادراً ما ينتهي الأمر هناك، حيث تقوم العائلة الخاسرة بمواصلة بحثها عن العدالة بعنف وأعمال انتقامية، لا سيما ضد شهود معادين، وعلى الأغلب بعد سنوات من تسوية القضية الأصلية من قِبل المحكمة. لا بد أن الرغبة في تجنب المسألة بكاملها كانت قوية بالنسبة للأشخاص في مجتمع فرانكي سيلفر.

حددت المحكمة موعد المحاكمة في يوم الخميس 29 آذار/مارس، وتم إصدار أمر للعمدة ويليام بتلر باستدعاء 150 محلفاً في يوم الخميس التالي لاعتبارهم من أجل خدمة إجراءات القضية. لقد كان هذا عدداً من المحلفين المتوقعين أضخم مما نستدعيه عادة، ولكن بسبب الطبيعة الحساسة للقضية، فإنني

أعتقد بأنه من الحكمة أن يكون هناك رجال احتياط لتزويد المحامين بمجموعة ملائمة من الرجال ليختاروا منها. وربما أن مفهوم عدالة الجبال من شأنه إقناع الكثير من مواطنينا بعدم المشاركة في القضية.

نيكولاس وودفين، المحامي الشاب الذي تم إحضاره ليمثّل السيدة سيلفر في المحكمة، وصل إلى مورغانتون قبل بضعة أيام من الموعد، وذلك ليطلع على القضية، وليقابل موكلته. لا أعلم أين أقام، ربما في مزرعة المحامي المشارك معه، توماس ويلسون، على بعد بضعة أميال خارج البلدة، أو ربما أنه استأجر غرفة في فندق بكهورن. أياً كان مكان إقامته، فإنني أعرف أنه لم يكن بحاجة إلى دعوات على العشاء. لقد لمحت إحدى شقيقات إليزابث السيد وودفين، بحذاء لماع، ونحاس ساطع، وملابس منفوض عنها غبار السفر، داخلاً البلدة على حصانه الكستنائي الضخم، وقد توقفت في طريقها وحملقت نحو الأعلى كمن جاءته رؤيا سماوية.

"آه، إنه يبدو إلى حد كبير كأمير غريب!" صاحت الآنسة إيروين. هذا التصريح بالطبيعة الملكية لمظهر السيد وودفين انتقل على وجه السرعة إلى كل سيدة في المقاطعة، أو هكذا كان يبدو، وتنافسن مع بعضهن البعض ليبدين له كل اللطف خلال زيارته. وأجرؤ على القول إن أمهات النساء المحترمات غير المتزوجات في مقاطعتنا قد تخيلن دور السيد وودفين كمنقذ للفتيات قد امتد كثيراً ليتجاوز موكلته السيدة سيلفر.

"*وهل* يبدو كأمير، يا بيرجيس؟" أرادت إليزابث أن تعرف. إن انصرافها إلى رعاية ابننا، وواجباتها العائلية والمنزلية شغلتها جداً بحيث أنها لم تكن بعد قد رأت القادم الجديد المميز. واعتمدت على شقيقاتها ليزودنها بالأخبار.

"إنه بلا ريب شخصية مهيبة،" قلت محاولاً تخفيف انزعاجي بشكل مناسب. إنني لا أذكر أنه تم حدوث مثل هذا الاهتمام المفرط بين النساء أول مرة حضرت

فيها إلى مورغانتون. "إن نيكولاس وودفين هو رجل متوسط القامة، وله عينان سوداوان، وملامح ذات شكل يوناني، أعتقد بأنه يمكنك القول كذلك. إن شعره غامق جداً، بالرغم من أنه موشَّح الآن باللون الرمادي."

"ياللخسارة،" قالت إليزابث.

"لا على الإطلاق، يا عزيزتي. إن آخر شيء ينبغي أن يتمنى محام شاب أن يبدو شبهه هو ـ محام شاب. إن العمر يشير إلى الحكمة والخبرة. إن موكليه يجدون ملامحه الناضجة مريحة جداً، حسب توقعي.

"وهل رأى موكلته الأهم بعد؟"

"السيدة سيلفر؟ نعم، أعتقد ذلك. ينبغي عليه إجراء مقابلة معها قبل أن تبدأ المحاكمة، بالطبع. لا بد أنه كان لقاء مشوِّقاً. أتساءل كيف تفاهما مع بعضهما البعض؟"

"كيف ذلك، يا بيرجيس؟"

هززت كتفي استهجاناً. "لا يمكنني تخيل شخصين مختلفين أكثر من نيكولاس وودفين وفتاة الغابة المهزولة التي يتوجب عليه الدفاع عنها. لا بد أنه كان اجتماعاً لا يُنسى بالنسبة لكليهما. ذاك هو، تنبعث منه رائحة صابون اللافندر وملابسه مكوية، ويراقبها وهو يرتدي بذلة نظيفة من الصوف، وحذاء من جلد العجل، إنه محامي قانون، مثقف جداً ودمث الأخلاق، ملم باللاتينية، وعلى معرفة بأبرز السادة في كارولينا ... وتلك هي، ذات شعر دهني، مليء بالقمل، وغير مغسول من أشهر قضتها في زنزانة أرضها مفروشة بالقش في سجن مقاطعتنا بيرك؛ فتاة مهزولة تنقصها اللباقة، وغير قادرة على القراءة أو الكتابة، وبالكاد قادرة على فهم ما يحدث لها، سأضمن ذلك.

"لا بد أن الفتاة تراه كفارس بدرع لامع،" قالت إليزابث.

"إذا كانت قد سمعت في حياتها بشيء من هذا القبيل، نعم."

"ولكن، يا بيرجيس، لقد سمعت أنه على الرغم من كل الحرمان الذي عانته في السجن، فإن السيدة سيلفر جميلة جداً، أيضاً."

"إنني أشك في ما إذا كان السيد وودفين سيلاحظ إذا كانت ملكة سبأ،" أجبت. "سيكون لديه ما يكفي ليفكر فيه مع محاكمة في جريمة قتل ليستعد لها. إنها مسؤولية كبيرة أن تكون حياة شخص ما بين يديك. وهو شاب رائع. إنني لا أحسده البتة!" قلت هذه الكلمات بقوة أكثر لأنها لم تكن حقيقية.

لقد كانت هناك قضايا أخرى أقل شهرة لتتم تسويتها في الأيام الأولى القليلة لجلسة المحكمة العليا، على الرغم من أنها لم تكن موضع اهتمام أحد. لقد تركّز كل الحديث على عمل اليوم الأخير: الولاية ضد فرانسيس ستيوارت سيلفر، المقرر محاكمتها يوم الخميس.

رأيت توماس ويلسون في المحكمة، بطبيعة الحال، حيث كان لديه قضايا أخرى مدرجة على قائمة المحكمة ليشهدها، ولكن كانت هناك عدة أيام قبل أن نكون قد تدبرنا إيجاد لحظة للمحادثة في شيء آخر غير المجاملات الروتينية التي يتلفظ بها المرء بصورة عابرة.

رأيته ذات صباح يمشي من مكتبه إلى مبنى المحكمة، فمشيت بجانبه بنفس سرعته. وبعد أن تمنيت له صباحاً طيباً، قلت: "إنني لا أسمع كلاماً عن أي شيء سوى قضية سيلفر، يا سيد ويلسون. لقد قال أحدهم إنه لو كان بإمكاننا بيع بطاقات لحضور المحاكمة، فسيكون بإمكاننا أن نتخلص من ضرائب الأملاك لمقاطعة بيرك لسنة كاملة."

سمح لنفسه بابتسامة صغيرة. "أخشى أن اهتماماً شديداً كهذا في القضية هو بمثابة كارثة بالنسبة للمرأة المتهمة. إن الاهتمام القوي يعني مشاعر قوية، وسيشعر المحلفون أنهم تحت وطأة ضغط بسبب ذلك، سواء اعترفوا بذلك أم لا "

"على الأقل لن تضطر للجدال مع العمدة السابق تيت. وكونه عمل في هيئة المحلفين الكبرى، فإنه أوفى بالتزامه. ما كنت لأرغب في محاكمة في قضية قتل مع نظرته المحدقة الباردة موجَّهة نحوي.

أوماً برأسه. "حسناً، أنا لن أقوم بالمرافعة في هذه القضية أمام المحكمة. إن نظرات التحديق هي محط اهتمام السيد وودفين، إلا أنني لا أعتقد بأنه ينزعج. إنه أحد رواد المسارح الرائعين، إنه السيد وودفين. إنه يقول إن محامي الدفاع هو الممثل الرئيسي في تراجيديا. حتى أنه ذهب أبعد بكثير بقوله إنه يتوجب على رجال الدين أن يرتادوا المسرح وأن يولوا اهتماماً شديداً للخطب المسرحية، حيث أنه من شأنها أن تحسِّن أسلوبهم في الوعظ كثيراً."

"يبدو أن لديه آراء غير تقليدية بالنسبة لشاب كهذا."

"نعم، ولكنني أعتقد بأنه قدير تماماً. ولست متأكداً من أنني لا أتفق معه بشأن أهمية أن يكون خطيباً مسرحياً. إن المحلفين *يحسّون* بقدر أكبر بكثير مما *يفكرون*، هكذا يبدو الأمر في كثير من الأحيان.

قلت محتجاً: "من المؤكد أنها حجة منطقية، مقدَّمة بشكل جيد.

ابتسم ويلسون مرة ثانية. "إذا حدث وأن وقفت في قفص الاتهام، يا سيد غيذر، مذنباً بالجريمة التي أنت متهم بها، فإنني أضمن أنك ستدرك قيمة جعل المحلفين يبكون بدلاً من أن يفكروا.

في صباح يوم الخميس بدأت المحاكمة. ستكون عائلة الرجل المقتول حاضرة في المحكمة، ومما لا شك فيه أنهم سيتأكدون من عدم انسلال أحد من أقارب عائلة ستيورات في صفوف هيئة المحلفين. وبطريقة مماثلة، فإن أشعيا ستيوارت وولديه، الذين كانوا ينتظرون خارج مبنى المحكمة بنظرات محدِّقة خالية من

التعبير، سيتأكدون من أن أياً من جماعة سيلفر لن يحتل مكاناً في إصدار الحكم على فرانكي. ونظراً لأن العائلتين كانتا على بعد أربعين ميلاً من منزليهما، فقد كنت أعتقد بأن لديهما فرصة أفضل من معظم القضاة المتلقين غير المبالين.

إن التفكير بكل سكان الغابات المتجهمين هؤلاء والقادمين من وراء الجبال، جعلني قلقاً، وذلك لأن فكرتهم عن السلوك المتحضّر قد تختلف اختلافاً كبيراً عن فكرة أولئك في مورغانتون بالذات. في اللحظة التي وصلت بها إلى مبنى المحكمة، تبادلت حديثاً قصيراً مع الشرطي جون بيرسون، محذراً إياه بأن يراقب الحضور خلال المحاكمة، ولا سيما عائلة ستيوارت. ربما يكونون جميعهم مسلحين، وقد يحاولون إثارة أعمال عنف إذا لم تحكم المحكمة لصالحهم. فالقيام بإحقاق الحق بأنفسهم هو ممارسة شائعة جداً على الحدود، من هنا تم نقل المحاكم إلى أماكن بعيدة جداً لتلبية حاجات المستوطنين. لقد تعلم الناس في البرية حماية أقاربهم وأملاكهم بدون الاستفادة من النظام القانوني.

ضيّق بيرسون عينيه بشأن تحذيري. "إذن، فأنت تعتقد بأنهم سيتعاركون؟"

"آمل ألا يفعلوا ذلك،" قلت، "ولكن يجب أن تكون يقظاً. راقب كل شخص. حتى مواطنينا المحليين. فمما يؤسَف له أن الكثير منهم يكونون أسوأ بكثير بسبب شرب الخمر في أيام المحكمة. يمكن أن يصبحوا جامحين. إن المشاعر تتصعّد حول هذه القضية."

"وكذلك المراهنين،" قال بيرسون بصوت أجش.

"يراهنون على هذه القضية؟ على ما إذا كانت مذنبة؟"

"لا. إن ذنبها يبدو واضحاً ـ على الأقل لا أحد يراهن على خلاف ذلك. إن الرهان على ما إذا كان سيتم تبرئة السيدة سيلفر أم إرسالها إلى السجن،" قال بيرسون.

"ولكن بالتأكيد ، إذا تمت إدانتها ـ
هز رأسه . "إنها امرأة . لن يعدموها ."

إن أول عمل من الأعمال في يوم المحاكمة هو اختيار هيئة المحلفين. واليوم سيكون هذا العمل مهمة شاقة بشكل خاص، نظراً لأن هناك أكثر من مائة رجل قد تجمّعوا داخل قاعة المحكمة بناء على استدعاء من العمدة بتلر. كان جون بيرسون يحافظ على النظام والهدوء بينهم قدر استطاعته، في حين قمتُ بتجهيز أدوات اختيار هيئة المحلفين: صندوق اقتراع خشبي مملوء بـ 150 قصاصة ورقية، كل منها تحمل اسم مواطن من مقاطعة بيرك، تم نسخها من قِبلي، بشق النفس، من سجلات الضرائب. ومن بين جميع هؤلاء الرجال الذين تم استدعاؤهم، كنا نحتاج لخدمات اثني عشر رجلاً فقط. وينص القانون على أن أي رجل يتراوح عمره بين الواحدة والعشرين والستين، ومن سكان المقاطعة يمكنه أن يعمل كمحلَّف، شرط أن يكون باسمه، أو في عهدته، ما قيمته عشرة جنيهات استرليني أراضٍ أو عقود إيجار، أو إذا استأجر أرضاً لمدة عشرين عاماً أو أكثر، وتبلغ قيمتها عشرين جنيهاً استرلينياً أو أكثر. إن جزءاً من واجباتي ككاتب في المحكمة العليا أن أجمع من سجلات ضرائب المقاطعة أسماء أولئك المواطنين المؤهلين للعمل في هيئات محلفين لهذه السنة، وأن أزوِّد العمدة بتلك القائمة، مرتبة ترتيباً أبجدياً، مع مكان إقامة كل رجل مسجلة بجانب اسمه بشكل وافٍ، بحيث يمكن للعمدة تحديد مكان الشخص بسهولة لاستدعائه.

ولاختيار المحلفين للمحاكمة، تم وضع قصاصات ورق تحمل أسماء المائة والخمسين رجلاً الذي تم استدعاؤهم، في صندوق اقتراع خشبي، وتم سحب أسمائهم واحداً تلو الآخر بشكل عشوائي.

tele @ktabpdf

مددت يدي داخل الصندوق وسحبت الاسم الأول. "ديفيد هينيسي!"

كانت هناك ضجة بين الحشد، وتقدَّم شاب أشقر الشعر، وقصير القامة، وذو ملامح لطيفة. وأخبر ديفيد هينيسي المحكمة أن تاريخ ميلاده كان 3 أيلول/سبتمبر، 1806، مضيفاً أنه كان ابن السيد جون هينيسي، الذي كان يمتلك قطع أراضٍ ضخمة ممنوحة من الحكومة على طول نهر كاتاوبا، وفي أماكن أخرى. لذا فهو مستوفٍ لشرط العمر والمؤهلات المادية كمحلَّف، وقال القاضي دونيل: "هل سمعت عن هذه القضية؟"

"بعض الشيء،" صرح الشاب. "لقد تكلم الناس عنها في جميع أنحاء البلدة."

"هل أنت على معرفة بأي من الشخصيات الرئيسية في القضية؟"

"تقصد هل أعرف هؤلاء الناس، عائلة سيلفر، أو تلك العائلة الأخرى؟ لا، يا سيدي. لا أحد منهم. إنهم قادمون من مسافة بعيدة إلى الغرب من هنا، يا سيدي.

"وحيث أنك سمعت كلاماً عن هذه القضية، هل اتخذت قرارك حول ما إذا كانت المدعى عليها بريئة أم مذنبة؟"

هز ديفيد هينيسي رأسه. "لا يا سيدي. لا أعرف بحق."

أومأ القاضي دونيل للمدعي العام. "لقد استوفيت أسئلتي، يا سيد ألكسندر،" قال. "يمكنك أن تسأل الأسئلة الخاصة بك الآن.

اقترب ويليام ألكسندر من الشاب المتوتر. "لن أطيل عليك،" قال مطَمئناً إياه. "هل أنت على علم بأن المتهمة في القضية هي امرأة في مقتبل العمر؟"

رمش ديفيد هينيسي بعينيه. "أحسب أن الكل يعرف ذلك، يا سيدي.

كان هناك ضحك خفيف تخلل جملته.

"حسناً، هل لديك أية مشكلة لأخذ مكان للحكم بشأن امرأة؟"

تردد الشاب. "لا بد من القيام بذلك. إنه القانون."

"إنه كذلك،" قال السيد ألكسندر بابتسامة صفراوية. "وإذا أقنعك الدليل المقدَّم بذنب هذه المرأة، هل يمكنك التصويت على إدانتها؟ هل يمكن أن تصوِّت أنها مذنبة ـ وأنت تعرف العواقب؟"

"تقصد، أنهم سيعدمونها." قال هينيسي.

"على الأرجح.

"إذا كنت أعتقد بأنها فعلت ما قالوا إنها فعلته، عندئذ ... نعم يا سيدي، سوف أقوم بدوري لجعلها تدفع ثمن فعلتها. بحياتها. نعم، يا سيدي.

التفت ويليام ألكسندر إلي. "إنه يفي بالغرض."

لقد تم تكرار هذه العملية ما يقرب من أربع وعشرين مرة، إلى أن تم اختيار محلفين ملائمين من قِبل المحكمة. وشكر القاضي دونيل مالكي الأراضي الثمانين الذين لبوا الدعوة للقيام بواجب هيئة محلفين. "يمكنكم البقاء ومشاهدة المحاكمة، إن شئتم،" قال لهم. وطلب الشرطي بيرسون من المحلفين المختارين أن يبقوا قريبين من مقدمة المحكمة. وخرج الباقون من القاعة ليختلطوا مع الحشد المنتظر، وتُرِكنا مع اثني عشر مواطناً مستوفياً الشروط القانونية، ويعرفون أن حياة امرأة شابة كانت في أيديهم.

استغرق اختيار هيئة المحلفين أكثر من ساعة بقليل. بعدئذ أخذنا فترة استراحة قصيرة لتمطيط أرجلنا، ولكننا عدنا جميعنا إلى موقعنا في قاعة المحكمة قبل أن يسمح بيرسون لحشد الناس بالدخول. كنت أجلس إلى طاولتي بجوار مقعد القاضي، محاطاً بكتب قوانين وأنظمة نورث كارولينا، مع نسخة من كتاب شقيقي الراحل في *مبادئ القانون الجنائي* ذي الغلاف الجلدي، جاهزة في المتناول.

جلس مدعي عام الولاية يراجع ملاحظاته عن القضية، غافلاً، على ما يبدو، عن ضجيج الحشد الذين يحومون بلا توقف منتظرين وراء أبواب من خشب البلوط، ولكن بعد إيماءة مهذبة نحوه، فإنني بالكاد رمقته بنظرة أخرى.

كنت أراقب فرانكي سيلفر.

في سجلي الذي أدوّن فيه الإجراءات، كنت بالطبع سأدوّن اسم المدعى عليها كـ فرانسيس ستيوارت سيلفر، ولكنها كانت معروفة بـ "فرانكي" في مجتمع الجبل الذي أتت منه، وكلما كانت قضيتها تُناقَش في تلك الأشهر القليلة الماضية، فإن ذلك اللقب كان هو المُتدَاول في شوارع وحانات مورغانتون. وأصبحت أفكر بها الآن على هذا النحو.

لقد كان الاسم يناسبها، قلت في نفسي. لقد كان فيه إيحاء بالصبيانية التي كانت تلائم تماماً جسدها النحيل، وكان وجهها شديد النحول يبدو متنبهاً دائماً. كانت تبدو أكثر بقليل من طفلة تجلس في قفص الاتهام، تظللها الأناقة السوداء لنيكولاس وودفين. كانت غير مقيدة، حيث أن القانون يمنع استخدام قيود حديدة من أي نوع على السجين خلال المحاكمة، ما لم يكن هناك خطر واضح من الفرار. كانت ترتدي ثوباً أزرق رثاً، وكان يبدو كبيراً جداً بالنسبة لجسدها النحيل، وأكمامه طويلة جداً لأن يكون ثوبها. لا بد أن سارة برينسل قد فعلت ما بوسعها لتجعل الفتاة حسنة المظهر من أجل المحاكمة. كان شعرها الباهت نظيفاً ومعقوداً بمشابك عند مؤخرة عنقها، وكان يبدو أنه تم فركها وتنظيفها بشكل جيد لدرجة لا تبدو فيها كأنها خارجة غير مغتسلة بعد عشرة أسابيع في زنزانة السجين. وتساءلت إن كان الثوب ذو المقاس غير المناسب هو علامة إحسان من سيدة ما من مورغانتون، أم أنه كان ملكها الشخصي، وشهادة على قساوة حبسها. كانت شاحبة بشكل غير طبيعي، وبالرغم من أنها كانت تحدّق بشكل مباشر إلى الأمام بدون تعابير، فقد كانت تثني يديها في حجرها، فتعقد أصابعها

وتفكها في عرض مستمر للقلق. من المؤكد أنها كانت تعرف ماذا كان الناس يقولون عنها، وكم كان التعاطف معها قليلاً في تلك الغرفة.

بالمقابل، بدا نيكولاس وودفين هادئاً. لقد كان من الصعب تصديق أن محامي آشفيل كان يكبر موكلته بثلاثة أعوام فقط. لقد كان هادئاً وواثقاً بنفسه كما لو كان رجلاً يبلغ ضعف عمره. كانت ملاحظاته موضوعة أمامه على طاولة صغيرة من خشب البلوط، ولكنه لم يكن ينظر إليها. لقد رأيته ينحني مرة فوق موكلته ويقول بضع كلمات هادئة. ثم ابتسم مطمئناً، وانحنى إلى الوراء ليعدّل ربطة عنقه المصنوعة من الحرير.

إنني أتساءل ماذا أخبرته عن حالتها، فكرت. وهل من الممكن أنه كان باستطاعته تخيّل كيف كانت حياتها تبدو؟ وإن لم يستطع، فكيف بحق السماء يمكنه الدفاع عنها؟ تخليت عن هذه الفكرة الحمقاء على الفور، وتساءلت من يمكنه أن يفهم الحياة القاسية على الحدود، والتي كانت أسلوب حياة السجينة، مع كونه هو ذاته محامياً بارعاً، قادراً على الدفاع عنها في محكمة لائقة؟ ولسبب ما قفز إلى ذهني اسم بدون استدعاء، ليتم استبعاده من قِبلي بأسرع مما اعتقدته: آندرو جاكسون.

في تلك اللحظة فتح الشرطي بيرسون الأبواب على مصراعيها إلى داخل المحكمة، واندفع حشد ثائر بمحاذاته، يتدافعون بين بعضهم البعض بالأكواع للحصول على أفضل الأماكن، ومطلقين تعليقات بصوت عالٍ وفظ بشأن القضايا. ورأيت أشعيا ستيوارت ذا الوجه المتجهم يرشد زوجته وولديه إلى مكان في جانب غرفة المحكمة، مكان كان يمكن للمدعى عليها أن تراهم فيه، بالرغم من أنهم لم يكونوا قريبين بما يكفي للمحادثة. ورأيتها ترمق والدتها بنظرة ثاقبة، ولكنني لم أتمكن من فهم الإحساس الذي تم إيصاله في النظرة المرتدة. وأخيراً أخذ القاضي دونيل مكانه على المنصة، وافتتح المحاكمة.

"فرانسيس ستيوارت سيلفر."

وقفت المتهمة، وتخيلت أنها ترنحت للحظة قبل أن تثبت نفسها على حافة الطاولة. ووضع نيكولاس وودفين يداً حانية على ذراعها واستحوذ على انتباهها بنظرة محدقة هادئة وثابتة، بشكل يشبه إلى حد كبير ما يمكن أن يستخدمه المرء لتهدئة فرس خائفة. أخذَتْ نفساً عميقاً وأومأت برأسها بعض الشيء، واقتربا معاً من المنصة.

اطلع القاضي دونيل على قرار الاتهام الذي نسخه له السيد ألكسندر بعناية. لقد كان بشكل أساسي الوثيقة ذاتها التي أعدها المدعي العام من أجل جلسة استماع هيئة المحلفين الكبرى قبل عشرة أيام، ولكن في هذه النسخة تم حذف اسمي باربرا وبلاكستون ستيوارت، وذلك لأن هيئة المحلفين الكبرى لم تر من المناسب إلزامهما بالمثول أمام المحكمة للمحاكمة. وقرأ القاضي دونيل وثيقة ألكسندر المعدَّة بعناية، وكانت شفتاه تتحركان بدون صوت خلال الجمل، والتي كانت تتكون من جملة ملتوية فحسب، وكانت طويلة جداً ومعقدة لترهق القدرات الخطابية حتى لأكثر القضاة مقدرة. وبعد بضع دقائق تأمل أخرى، بدأ بقراءة الوثيقة بصوت مرتفع بنبرة رتيبة، ومميزة فقط بترقرق للكنته الإيرلندية في كلمة هناك وهناك.

"ولاية نورث كارولينا. مقاطعة بيرك. محكمة القانون العليا. دورة ربيع 1832. يتهم محلفو الولاية بعد أداء قسَمهم أن فرانسيس ستيوارت من المقاطعة المذكورة، والتي لا تضع خشية الرب نصب عينيها، بل مدفوعة ومُستدرَجة بتحريض من الشيطان، في اليوم الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر من سنة ألف وثمانمئة وواحد وثلاثين لميلاد مسيحنا، وبقوة وسلام في مقاطعة بيرك المذكورة آنفاً، في وفوق تشارلز سيلفر الذي في أمان الرب والولاية، في ذلك الزمان والمكان، وبشكل إجرامي وعن عمد، ومن منطلق سوء النية المبيّتة، قامت

باعتداء ؛ وأن المذكورة فرانسيس سيلفر بفأس معينة بقيمة ستة بنسات، قامت المذكورة فرانسيس سيلفر بكلتا يديها، ثم في ذلك الزمان والمكان، رفعتها نحو، وضد، وفوق المذكور تشارلز سيلفر ، في ذلك الزمان والمكان، وبشكل إجرامي وعن عمد، ومن منطلق سوء النية المبيّتة، قامت بالإلقاء والرمي؛ وأن المذكورة فرانسيس سيلفر بالفأس المذكورة آنفاً الملقاة والمرمية هكذا، كما ذكر آنفاً، في المذكور تشارلز سيلفر وفوق رأسه، والمذكور تشارلز سيلفر، في ذلك الزمان والمكان، وبشكل إجرامي وعن عمد، ومن منطلق سوء نيتها المبيّتة، وبالفأس المذكورة آنفاً، ومن قِبل إلقاء ورمي فرانسيس سيلفر المذكورة، في وعلى رأسه، أحدث جرحاً واحداً مميتاً عند المذكور تشارلز سيلفر بطول ثلاثة إنشات وبعمق إنش واحد ؛ وبسبب هذا الجرح المميت فقد مات، المذكور تشارلز سيلفر، في ذلك الزمان والمكان على الفور ؛ وبذلك، فإن هيئة المحلفين الكبرى المذكورة آنفاً، وعند أداء قسمهم المذكور آنفاً، يقولون إن المذكورة فرانسيس سيلفر، قامت نحوه، المذكور تشارلز سيلفر، بالطريقة والشكل المذكورين آنفاً، وبشكل إجرامي وعن عمد، ومن منطلق سوء نيتها المبيّتة، بقتل، وجريمة قتل ضد سلام وكرامة الولاية.

توقف للحظة في حين تردد صدى دوي كلماته الأخيرة في تمتمات الحضور. وكنت أفكر، يالها من براعة في اللغو تلك التي يمتلكها ألكسندر. إن الكلمات المذكورة، والمذكورة آنفاً كانت تلعلع في الجو مثل النقر على الطبول. إن قرار الاتهام المقدَّم من المدعي العام والذي أُعِدّ بعناية، كان مهيباً في المغزى والإيقاع بقدر ما هو كذلك قداس باللاتينية، ومن المؤكد مستعصياً على الفهم بالنسبة لغالبية المستمعين إليه.

وقفت السيدة سيلفر هناك تنظر نحو الأسفل إلى الأرض، تاركة الكلمات تنصب فوق رأسها كنهر عظيم، دون أن تفهم مقطعاً واحداً من معناها، إنني

متأكد من ذلك، لأنه عندما قال القاضي دونيل، "كيف تردين على التهمة؟" رفعت نظرها إليه محدقة فيه فحسب، وهي مرتبكة.

تكلم فضيلته بصوت أعلى. "ماذا تقولين، يا فرانسيس سيلفر، هل أنت مذنبة أم لا؟"

كان لا بد أن تكون هناك غمزة أو إشارة من نيكولاس وودفين تشير إلى أن ذلك كان تلميحاً لها (لقد تدربا مسبقاً بالتأكيد)، حيث أن السيدة سيلفر وقفت فجأة، وباستقامة أكثر، وقالت بصوت واضح ورقيق: "غير مذنبة.

لم يأت هذا الرد كمفاجأة لأحد. ونظراً لأن عقوبة القتل هي الموت لا محالة، فإنه ليس هناك شيء يجنيه المرء من الاعتراف بذنبه. مما لا شك فيه أن وودفين وويلسون قد شرحا لموكلتهما أن فرصتها الوحيدة للفرار من المشنقة كان أن تقاوم التهمة في قاعة محكمة مفتوحة أمام الجمهور.

غير مذنبة.

أومأ القاضي دونيل لوودفين وألكسندر، ومن ثم نطق الجملة التي تبدأ المحاكمة: "إذن اسمحوا لهيئة المحلفين بالحضور.

لماذا يتوجب علي أن أقول إنني غير مذنبة، سألتهما. لماذا لا يمكنني فقط أن أخبرهم جميعاً كيف كان الأمر في ذلك الزمان والمكان، وعندئذ يمكنهم أن يقرروا بأنفسهم ما الذي ينبغي القيام به معي. أي شخص ينبغي أن يكون قادراً على فهم كيف كان الأمر- حتى أهل المدينة. المحامي الكبير، السيد ويلسون - إنه أسود ونحيل مثل الغراب - وابتسم لي من أسفل أنفه، وقال: "ينبغي اتباع الإجراء المناسب في محكمة القانون." كانت تفاحة آدم تهتز في حنجرته عندما يتحدث إلي، وأنا أتساءل ما إذا كان عنده جفاف في فمه، ولديه مشكلة في البلع، وذلك بسبب كونه في حضرة قاتلة شريرة. ومع ذلك فإنني أبقي عيني مسدلتين، وأتكلم

بصوت رقيق، حيث أنني لا أريدهم أن يعتقدوا بأنني مجنونة ـ أو، ما هو أسوأ بعد، بأنني همجية جاهلة من لا مكان، لأنهم سيقومون بإعدامي بدون التفكير مرتين في حال أدانوني بذلك ـ لكوني لا أحد.

إن والدي يمتلك نقوداً، ويمكنه أن يدفع للدفاع عني. إنه يتحدّر من ناس طيبين في مقاطعة آنسون، بالقرب من بلدة تشارلوت، من حيث أتى محامي العدو. لقد كان جدي ويليام ستيوارت رجل أعمال مميزاً في المقاطعة، وذات مرة كان يقاضي شخصاً ما في المحكمة، تماماً كما يفعل الرجال النبلاء دائماً لتسوية نزاع ما.

إننا نسوي النزاعات بشكل مختلف هناك في الجبل.

لقد اعتدت إلى التحدث بأسلوب سيدة محترمة أكثر عندما كنت صغيرة، قبل أن أحضر إلى هذا المكان، ولكنني خرجت عن هذا الأسلوب الآن. لم يعد هناك تذكُّر كثير لكلمات لطيفة هناك على الجبل. إن العمل الشاق هو الذي يتحدث بالصوت الأعلى هناك فوق.

والشخص الشاب ـ السيد وودفين، هذا هو اسمه ـ لقد أومأ برأسه، وقال: "كنت أتمنى لو أنك تستطيعين فقط سرد قصتك مباشرة. لا بد أن القيام بذلك كان ممكناً في محكمة قانون ذات مرة، فرانكي، ولكن الآن لدينا كتاب ضخم مليء بالقوانين التي تتعلق بإدارة محاكمة ما. إنها لعبة نلعبها نحن المحامون، وينبغي عليك التحمُّل معنا."

إنني أميل إليه. إنه يتمتع بمظهر نظيف تماماً، وله عينا غزال، وملابسه خرجت للتو من كتاب مصوَّر. إنه يشبه الأمير في حكاية من حكايات الجن. إنه ينظر في عيني بشكل مباشر، ويقول إنه لن يقف مكتوف الأيدي ليراني أشنق. لذا، فأنا في أمان.

tele @ktabpdf

الفصل الرابع

لقد شاهد سبنسر آرووود التلفاز لساعات، وتناول وجبات طعام بالكاد استطعم بمذاقها، ونام أكثر مما كان يحتاج قبل أن تظهر مارثا من جديد بحفنة أخرى من البريد، وكومة من كتب المكتبة. وقد تجاهلت أسئلته عن العمل في المكتب، وأعلنت أنه كان بإمكانها أن تحصل على فنجانها القهوة، وأصرَّت على أن يلقي نظرة على ما أحضرته.

"لم يكتب أحد أبداً كتاباً يمكنني أن أجده عن فرانكي سيلفر،" قالت له. "ولكنها صنَّفت بضعة فصول تقريباً في التواريخ المحلية. وقد أحضرت لك كتابين قديمين، *ميتة ورحلت ...* و*كوخ في ورق الغار* لتبدأ بهما. بالمناسبة لقد قمت بالاطلاع عليهما الليلة الماضية. إنهما مشوقان إلى حد ما.

ابتسم سبنسر. "شكراً، ولكن لم أذهب إلى البنك في الآونة الأخيرة. هل تقبلين الشيكات؟"

"اعتبرهما هدية شفاء، يا سبنسر، فأنا لا أحضِّر أوعية طعام. على أي حال، كلاهما مستعمل، وكذلك سمح لي مكان بيع الكتب بأخذهما بسعر رخيص. بل إنهم قاموا بتحديد الصفحات من أجلك. كيف تشعر؟"

تنهد سبنسر. "أنا أفضل حالاً. شكراً على الكتب."

"لقد أحضرت لك شيئاً آخر ربما تود أن تراه. وقامت بتسليمه نسخة من

جونسون سيتي كرونيكل مفتوحة على عنوان رئيسي "والدا فتاة مقتولة يطالبان بالموت للقاتل" كان الكولونيل تشارلز ويث ستانتون، أكبر سناً وأكثر شيباً، ولكن لا يزال على رأس عمله، يحدِّق فيه من صفحة ورق الصحيفة. كان يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق بدلاً من زي الجيش، ولكن تعابير وجهه الحادة لم تتغير. ألقى سبنسر نظرة سريعة على المقالة، وهو يعلم أصلاً ما كُتب فيها.

"الكولونيل تشارلز ستانتون (متقاعد من الجيش الأمريكي)، الذي قُتِلت ابنته إيميلي على الطريق الأبالاتشي في 1977، التقى اليوم مع منظمة ضحايا تينيسي لمناقشة تنفيذ حكم الإعدام المحدد موعده في الرجل الذي قتل ابنته. 'فيت هاركرايدر ينبغي أن يُعدم في الحال،' قال الكولونيل ستانتون للمجموعة. 'لقد منحته المراوغات القانونية عشرين عاماً من الحياة التي لم يكن له حق فيها. أتمنى لو أنه أظهر هذا القدر من الرحمة لابنتي. إنه لم يدعها تعيش لتصبح في العشرين من عمرها.' وشدَّد الكولونيل على حاجة عائلات الضحايا إلى إنهاء الأمر ليتمكنوا من الاستمرار في حياتهم." ومضت المقالة في ست فقرات أخرى، ولكن سبنسر كان قد سمعها جميعها من قبل، ولم يجادل في أي منها، فلم يكن ذلك ما كان يقلقه.

"أين الصفحة الأولى من الصحيفة، يا مارثا؟" سأل سبنسر، ملاحظاً أن الجزء الذي كان يقرؤه كان القسم ب.

"لقد سكب عليها لودون البيبسي هذا الصباح،" قالت مارثا بلامبالاة. "ولم تكن قد جفت بعد.

لقد سمع نبرة غريبة في صوتها، ووضعها في ملف للاطلاع عليها مستقبلاً.

أدارت مارثا كرسيها ليواجه الجبال المضاءة بأشعة الشمس، وجلست على الطاولة مقابله. "لا أعرف كيف يمكنك احتمال الذهاب إلى الداخل،" قالت. "أتمنى أن أجلس لساعات أنظر فقط إلى تلك التلال.

ابتسم. "يصبح الطقس بارداً هنا بعد غروب الشمس.

"إنه مشهد مختلف دائماً، على أي حال، أليس كذلك؟ الجبال تغيّر لونها من يوم إلى آخر. يمكنني أن أحصي ست درجات من اللون الأخضر بدون حتى أن أدير رأسي. قمة الهدوء."

"معظم الوقت." كانت هناك صورة فوتوغرافية صغيرة لإيميلي ستانتون مرافقة لمقالة الصحيفة.

أخذت مارثا رشفة من القهوة. "هل قمت بمزيد من التفكير بشأن فرانكي سيلفر؟"

"بين الحين والآخر،" قال لامبالياً. "ليس لها مثيل في أي مكان من خبرتي حتى الآن. لقد كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. لقد كانت جميلة بكل المقاييس، ومجدّة، وفاضلة. ومع ذلك قتلت زوجها الشاب بفأس. لماذا تقوم بفعل ذلك؟"

"ربما كانت مجنونة؟"

"كانت تبدو بكامل قواها العقلية خلال المحاكمة، حسب ما يبدو. لقد أدانوها على أي حال."

"حمى الكوخ؟ لقد كان فصل الشتاء عندما وقعت الحادثة. أتذكر السيدة هنيكوت تتحدث عن الثلج على الأرض وعن كون النهر متجمداً. ربما أنها تعبت من كونها محبوسة في ذلك القفص الصغير المكون من غرفة واحدة." ارتعشت مارثا. "أعرف أنني كنت سأفعل ذلك."

"نعم،" قال سبنسر، "ولكنك لم تعيشي في مكان كهذا طوال حياتك. من المؤكد أن فرانكي سيلفر معتادة على ذلك."

"أعتقد بأنك على صواب،" قالت مارثا. "ربما أنك لن تفهم ذلك أبداً. لقد كان

الزمان مختلفاً في ذلك الحين. إنني لا أفهم ماذا يمكنك أن تفعل في قضية عمرها مائة وخمسون عاماً، وليس هناك حتى مسرح جريمة باق للنظر إليه، ولكن إذا كانت تبقيك واقفاً على قدميك لفترة أطول، إذن فأنا موافقة عليها تماماً. أفضل من التفكير في تلك القضية الأخرى.

"فيت هاركرايدر."مكتبة الرمحي أحمد

"ليس هناك ما يمكنك القيام به إزاء تلك القضية، كذلك. هل ما زلت تفكر في الذهاب إلى -" لم تشأ أن تقول/*الإعدام*.

أوماً برأسه. "لقد اتصلت بهم وأخبرتهم أنني سأذهب. إن حصل ذلك."

"الأمر الذي لن يحصل،" قالت مارثا. وقفت وقامت بنفض غبار وهمي عن بنطالها. "حسناً، أتمنى لو كان لدي وقت للسهر هنا في هذا المكان الجميل لأنظر إلى الجبال وأمثل دور مخبر، ولكنني أعتقد بأنه يتعين علي الذهاب للبحث عن ملصقات فحص سيارة منتهية مدتها.

ابتسم سبنسر. "إن البحث عن ملصقات مقاطعة منتهية مدتها ليس بالأمر غير الهام، يا مارثا. إن المقاطعة تحتاج إلى الدخل الحكومي. كيف حال جو؟"

"آه، سوف يأتي في يوم من هذه الأيام. أنت تعرف كيف هو."

"أخبريه أنني لست مريضاً،" قال سبنسر. لودون يفضل أن يعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم من زيارة أشخاص مرضى.

عندما ذهبت مارثا، عاد سبنسر إلى المقالة في الصحيفة. لم يكن يريدها أن ترى كم كان مهتماً بالقضية. لقد كانت مارثا قلقة أكثر مما يجب.

كانت الصورة تبدو وكأنها تحدِّق فيه مباشرة من الصحيفة. إن تشارلز ويث ستانتون لا يزال على قيد الحياة، ويزال يقاتل العدو. لقد تذكره سبنسر جيداً. لقد كان هو الشخص الذي أخبر الكولونيل أن ابنته الوحيدة قد قُتِلت.

في ليلة مقتل إيميلي ستانتون (ومقتل مايك ويلسون كذلك، ولكن الناس كانوا يميلون إلى نسيان أمره)، قضى سبنسر وموظف مكتب تحقيقات تينيسي باقي الليلة في عمل تخطيط لموقع الجريمة، فقد كانا يقومان بمد حبل مجدول من وتد خشبي إلى آخر بحيث تم تحديد المنطقة بكاملها داخل مربعات صغيرة كرقعة الشطرنج. كانوا سيقومون بتفتيش كل جزء من الموقع للعثور على أعقاب سجائر، أو ورق لف علكة، أو أقمشة ملابس ـ أي شيء يمكن أن يكون له علاقة بالقضية.

أخيراً، أضاءت السماء بغطاء رمادي، والأشياء التي كانت بعيدة عن متناول كشافاتهما، بدأت تصبح أكثر وضوحاً في السديم. نظر رجل مكتب تحقيقات تينيسي إلى ساعته. "سنقوم بفحص الموقع مرة ثانية خلال حوالي عشرين دقيقة،" قال. "أما الآن، دعنا نفحص جميع المداخل إلى قطعة الأرض هذه لنرى ما إذا كان المعتدي قد رمى شيئاً ما."

نظر سبنسر إلى الجثتين اللتين كانتا تتضحان أكثر مع مرور كل دقيقة، وفكر في صورة فوتوغرافية تتشكل في سائل تظهير الفيلم، وسأل: "متى سننقلهما؟"

"في حدود الساعة. سينقلان إلى مستشفى الجامعة في نوكسفيل من أجل فحص شامل. سأعطيك تلك المعلومة لتمررها إلى العائلتين." نظر إلى الأسفل على الجثتين المسجاتين على الأرض، وتنهد. "سنقوم بنقلهما قبل أن ينتشر الذباب، أعد بذلك."

"جيد،" قال سبنسر. كان أحد جانبي وجه الفتاة يبدو وكأنها كانت نائمة فقط، ولم يشأ أن يراها مغطاة بحشرات.

"عندما ينتشر ضوء كافٍ، سنقوم بإمالة الجثتين لنرى ماذا يوجد تحتهما. لقد وجدت سناً تحت ضحية ذات مرة. كان يخص القاتل."

"أومأ سبنسر برأسه. لم يتمكن من التفكير بأي شيء ليقوله. ومضى في طريق العودة إلى الغابة، موجهاً كشافه الضوئي على الأرض أمامه، تاركاً الضوء يتلاعب يساراً ويميناً ليضيء الأعشاب على جانب الطريق. لم يرَ أغصاناً مكسورة، أو أي دليل على مقاومة، أو حتى آثار أقدام، وقد تأكد حدسه بأن القاتل لم يأت من هذه الطريق بعد بضع دقائق بصيحة نصر من الموظف الآخر. لقد نسي سبنسر اسمه تقريباً في اللحظة التي سمعه فيها، وكان سيبقى يفكر للأبد في المحقق على أنه "رجل مكتب تحقيقات تينيسي،" التجسيد لبيروقراطية بلا هوية للولاية.

عاد مسرعاً إلى قطعة الأرض. وكان الموظف قد وضع محافظ الجيب على زند الخشب الذي كان يجلس عليه ويليس بلين، حارس الغابة، لجزء كبير من الليل. كانت المحفظة ذات اللون البني الغامق بالية ومخدوشة، ومن الواضح أنها ملك لرجل. ووضع بجانبها حقيبة يد حمراء صغيرة تحتوي على قسم للنقود المعدنية، وكذلك على دفتر ملاحظات، وجزء للنقود الورقية. "لقد وجدتهما على بعد حوالي عشرين ياردة أسفل التلة،" قال رجل مكتب تحقيقات تينيسي بابتسامة رضا. "لا بد أن القاتل قد أخذ النقود وألقى المحافظ وهو يهرب. من يعلم؟ ربما نحصل على بصمات. وبصعوبة فتح الجزأين الجلديين بأصابع مغطاة بقفازات. "هل يمكنك أن تقرأ ذلك؟ إنني لست جيداً في قراءة الكلمات المكتوبة بخط صغير في هذا الضوء."

كان يبدو من الواضح تماماً لسبنسر، الذي كان لا يزال على مسافة بعيدة من سن الثلاثين، ومن ثنائية البؤرة، ومن الاضطرار لقراءة الصحيفة وهو يحملها على مدى ذراعيه، كما يفعل في هذه الأيام. "مايكل ويلسون،" قال. "رخصة سواقة من فيرجينيا. إنه في الواحدة والعشرين من عمره. وتوجد هناك هوية طالب، كذلك. جامعة نورث كارولينا."

"نعم، لقد افترضت أنهما طالبياً جامعة. عدد كبير من هؤلاء المتنزهين هم طلاب جامعة. لذا، فهما ليسا من الجوار. ذلك يوضح الأمر."

"كيف ذلك؟" سأل سبنسر.

"قتل الغرباء. لقد هوجموا من كمين في أرض حكومية. هذا لم يكن شاباً يلتقي صديقته، أو شجار بين عدوين قديمين. لقد كان شخصاً ما يقوم بالقنص، والقناصين لا يهتمون بهوية الضحية. من كانت الفتاة؟"

لمس سبنسر جلد حقيبة اليد الناعم بأصابعه. لقد تخيل أنها كانت لا تزال دافئة من كونها مدسوسة في الجيبة الخلفية من جينز الفتاة، ومضغوطة على وركها. " إيميلي ستانتون، رخصة سواقة مذكور فيها ويلينغتون، نورث كارولينا. كانت امرأة شابة رزينة بشعر كستنائي طويل، وملامح رقيقة وجميلة، تنظر إليه من صورة الرخصة. كان بإمكانه أن يرى أطواقاً ذهبية صغيرة جداً في أذنيها، وقلادة من اللؤلؤ على خلفية زرقاء داكنة للون ثوبها. وجال في ذهنه، إنها *نموذج من فتيات نوادي الجامعة*. إنني أتساءل *ما الذي جنته من النزهة*. وقال: "هناك بطاقة هوية طالب لجامعة نورث كارولينا.

"نعم. قدَّرت ذلك. حبيبان جامعيان، يقضيان إجازة قصيرة معاً بعد انتهاء الدروس. أولاد أثرياء، كذلك. على الأقل هي.

نظر سبنسر على الجثة. كان الجسد الصغير مرتدياً جينزاً وكنزة فضفاضة سوداء عادية. والآن هما مطروحان مجعدان على بعد بضعة أقدام من جسدها. "كيف يمكنك أن تعرف؟"

ابتسم رجل الشرطة. "من المساعد أن يكون لديك أولاد، أيها المساعد. إنني أعرف أسماء الماركات على ملابسها. تلك الملابس قد تبدو لك كجينز قديم وحذاء قديم، ولكنها دفعت بضعة مئات من الدولارات مقابلهما. كان من

المحتمل أن أعرف حتى بدون ذلك، ولكنه ليس شيئاً يمكنني تفسيره." وهز كتفيه لامبالياً. أظافرها المطلية. تصفيفة شعرها. بعد أن تراقب الناس لسنوات كافية، يمكنك أن *تعرف*.

"إذن هي سرقة خرجت عن السيطرة؟"

"لا لن يكون هناك نقود في المحافظ، ولكن أخذ النقود كانت فكرة خطرت على البال فيما بعد.

دس سبنسر إصبعه داخل المحفظة. فارغة. لقد كان رجل مكتب تحقيقات تينيسي على حق. "ليس هو الدافع، على أي حال؟"

"بشكل عارض، مؤكد. أعني، النقود مطروحة هناك. ولن تفيد الضحيتين في أي شيء. لماذا لا يأخذها؟ ولكن ذلك ليس هو السبب الحقيقي الذي من أجله قام القاتل بفعلته هذه. لقد فعلها للتسلية، لأنه غاضب جداً من شيء ما، حيث أن هذه هي طريقته في الثأر.

قال سبنسر: *"إنني متهور في ما أفعله لأغضب العالم."* هز كتفيه لامبالياً. "لقد أحببت تلك الكلمات دائماً."

ابتسم الرجل الأكبر سناً. *"ماكبث،"* قال. "من الجميل سماع مقطع لشكسبير بين الحين والآخر من رجل شرطة، بدلاً من كريس كريستوفرسون، وهو ما يعتبر على أنه فلسفة هذه الأيام."

"إنني أحبه، أيضاً،" قال سبنسر. "إذن تعتقد بأن هذا الشخص الذي نبحث عنه هو أكثر من لص خرجت السرقة عن سيطرته؟"

"إنه قاتل أولاً وقبل كل شيء. هل هناك أي جرائم قتل لم تُحل في هذه المنطقة؟"

"لا

"أي اختفاءات؟ ربما أنكم فقط لم تجدوا الجثث."

"ليس هناك أشخاص مفقودون."

"ربما أنه ليس من هذه المنطقة، إذن. من الأفضل أن تأمل أنه لم يقرر البقاء لفترة. هذا النوع من الأشياء يصبح عادات. قد يكون هناك مزيد من الضحايا أحياناً... في مكان ما."

"كيف نشرع بالبحث عنه، إذن؟"

"من الصعب الإمساك بقتلة الغرباء. ليسوا مجموعة من المشتبه بهم. يمكن أن يكونوا أي شخص. يتعين عليك أن تأمل بأن يقوموا بعمل شيء غبي، ولكننا سنفعل ما بوسعنا لمساعدتك في دليل الطب الشرعي. سيستغرق ذلك بعض الوقت، على أي حال."

أومأ سبنسر برأسه. "إنني أفهم ذلك. لا بد أن يكون لدينا مشتبه به، على أي حال، قبل أن يقدِّم دليل الطب الشرعي أي شيء مفيد."

وقف رجل مكتب تحقيقات تينيسي، وتمطّى وهو يتثاءب في الضوء الرمادي. "حلّ الصباح الآن. سيكون أمامك يوم طويل، أيها المساعد، محاولاً اكتشاف ما إذا كان أي شخص قد رأى أي شيء مريب هنا. آه، وعندما تبلغ العائلتين، تأكد من حصولك على وصف للممتلكات الشخصية المنقولة التي كانت لدى الضحايا، فربما تظهر في مكان ما. يمكن أن يكون ذلك أفضل دليل تحصل عليه." تثاءب مرة أخرى. "إبق على اتصال، ودعني أعرف ما إذا كان هناك شيء آخر يمكننا القيام به لمساعدتك."

وبالعودة إلى المكتب، عمل سبنسر طوال الفترة الباقية من ساعات الفجر، ينظم ملاحظاته، ويجري مكالمات لتحديد موقع عائلتي الضحيتين. والآن أصبحت الساعة السابعة. كان يتوجب عليه أن يجري مكالمات تبليغ في الحال، قبل أن

خرج العائلتان إلى العمل. وحملق في رقمي الهاتف، متسائلاً مع أي عائلة يتصل أولاً. لم يكن مضطراً في أي وقت مضى إلى تبليغ عائلة ضحية جريمة قتل. كان نيلسي ميلر يأخذ على عاتقه دائماً الاتصال بالعائلات، وتمنى سبنسر بصدق لو كان العمدة نيلسي هنا الآن ليهتم بهذا الأمر. إن فكرة التعامل مع غرباء باكين وفي حالة هستيريا، جعلته مضطرباً، وتساءل ما الأسئلة التي قد يطرحونها عليه حول الظروف وحالة الجثث ـ وماذا يتوجب عليه أن يجيبهم؟

وفكر، إن المكالمة الأصعب قد تكون مع والدي الضحية الفتاة، وذلك لأن أحداً لا يتصور البتة أن تكون ابنته الصغيرة في خطر. هل يتوجب عليه أن ينتهي من تلك المكالمة، أن يتوجب عليه أن يبدأ بالمكالمة الأخرى، ثم ينتقل إليها؟ لقد كان متعباً جداً.

قام بإدارة رقم هاتف عائلة ويلسون. رن الهاتف أربع مرات قبل أن يرفع أحدهم السماعة، وتمتم صوت نعسان، "لو؟"

أخذ سبنسر نفساً عميقاً. "السيدة ويلسون؟"

"من هذا؟ كم الساعة؟"

أخذ نفساً عميقاً. لن تعتاد على الأمر أبداً. "اسمي سبنسر آروود. إنني أعمل في دائرة العمدة في مقاطعة ويك، تينيسي. هل هناك أحد معك، سيدة ويلسون؟"

أطلقت صيحة رعب، وقالت: "ماذا حصل لمايك؟" سمعها تقول ذلك، لزوجها على ما يبدو، "ليمان، إن الأمر يتعلق بمايك." انتظر سبنسر لحين يأتي رجل إلى الهاتف، ولكن بعد لحظة صمت، عادت السيدة ويلسون إلى الهاتف وطلبت منه أن يتابع. واندفع في وصفه لموت ويلسون. كرر التعريف بمن كان، وإلى أين تم نقل الجثتين، مخبراً السيدة ويلسون أنه ينبغي أن يحضر شخص ما إلى تينيسي

ليتعرف على الجثة. وجعلها سبنسر تكتب رقم هاتفه، لأنه كان يعلم أنها ستحتاجه في وقت لاحق.

في نهاية الأمر قالت: "لقد كنت أتوقع هذه المكالمة منذ وقت طويل، أيها الشرطي. ومع ذلك فإنه أمر مضحك. لقد كنت أعتقد دائماً أنها ستأتي من فيتنام."

"نعم، يا سيدتي،" قال سبنسر. "لقد قُتِل شقيقي هناك.

لم يبق هنالك الكثير ليقال بعد ذلك. وأخبرها مرة ثانية كم كان آسفاً، وسألها إن كانت متأكدة من أنها كانت على مايرام، ولكنها كانت أماً لجندي، وكانت تعرف كيف تكون شجاعة. وقالت إنها كانت بخير، وشكرته على لطفه، ولكن كان بإمكانه سماع شهقات بكاء في حنجرتها.

انتظر سبنسر خمس دقائق بعد أن أغلق السماعة، وقبل أن يجري المكالمة الثانية. شرب قهوة باردة دون أن يستطعم بها، وتساءل هل سيكون قادراً على النوم عندما يكون يومه قد انتهى أخيراً.

أجاب الكولونيل ستانتون على الهاتف، وكأنه كان مستيقظاً لساعات، وربما كان كذلك. كان صوته حاداً وواضحاً. لقد رفع السماعة بعد رنة واحدة، وقال: "ستانتون!" وكأن جميع المكالمات التي كان يتلقاها دائماً في المنزل كانت عاجلة ورسمية.

عرّف سبنسر نفسه، كما فعل مع السيدة ويلسون، ومن ثم سأل، من أجل الالتزام بالصيغة، "هل عندك ابنة اسمها إيميلي؟"

سمع سبنسر صوت نفَس استنشاق حاد، وبعدئذ أجاب الصوت الهادئ ذاته، "نعم عندي،" ثم انتظر. لم يقل: *لم كل هذا؟ لماذا تسأل؟ هل أصيبت بأذى؟* ـ كل الأشياء التي يقولها الناس عادة عندما كان سبنسر يتصل بهم لينقل الأخبار

السيئة عن الأحبة. إن تدريب الكولونيل ستانتون العسكري قد أعدَّه ليواجه المصائب دون أن يرمش له جفن. لقد انتظر ببساطة ليسمع الأسوأ.

طال الصمت على الطرف الآخر من الهاتف عندما شرح سبنسر أن إيميلي ستانتون ورفيقها قد تعرضا لهجوم أثناء تخييمهما بالقرب من الطريق الأبالاتشي، وأن كلا الشابين قد لقيا حتفهما. وأنه كان يريد فرداً من عائلة ستانتون لكي يحضر إلى تينيسي ليتعرف على الجثة ويطالب بها. عند هذه النقطة أصبح الصمت طويلاً جداً حيث قاطع سبنسر نفسه ليسأل: "هل أنت على ما يرام، يا سيدي؟"

تجاهل تشارلز ويث ستانتون السؤال. "هل القاتل في السجن؟"

"لا، يا سيدي. ليس بعد." إن النفوذ في ذلك الصوت أعاد سبنسر إلى أيامه في الجيش في ألمانيا. إن ذلك الغريب على الهاتف قد استحوذ على قيادة التحقيقات.

"هل هناك شيء تريده منّا، أيها الشرطي؟"

"نعم يا سيدي. وصف لأي مجوهرات يحتمل أن ابنتك كان ترتديها."

تم إعطاء القائمة بنبرات الصوت الحادة ذاتها كما كانت من قبل.

"هل هناك أي شيء آخر؟"

"ليس في هذا الوقت، يا سيدي." شعر سبنسر أنه اهتز من الأخبار أكثر من هذا الغريب على الهاتف. *ربما أنه لم يصدق الأمر بعد*، خطر في ذهنه. *إنه لم يرها؛ وأنا رأيتها*.

"سأحضر بالسيارة إلى تينيسي في غضون ساعة،" قال له تشارلز ستانتون. "وسأتوقع أن أجد تقريراً كاملاً لدى وصولي."

"اذهب إلى نوكسفيل، أولاً،" قال له سبنسر. "تعرَّف على الجثة، وتحدّث إلى

مكتب تحقيقات تينيسي. وتوقف في هيملين في طريق عودتك، بعد أن تكون تحقيقاتي آخذة مجراها."

"هيملين هي بلدة صغيرة غير ذات شأن، أليست هي كذلك؟"

"يمكنك أن تقول ذلك.

"آمل من الرب أن تكونوا أنتم أيها الناس قادرين على إجراء هذا التحقيق،" قال تشارلز ستانتون. "لأنه إن لم تكونوا كذلك، سأقوم بالعثور على القاتل بنفسي.

أغلق سماعة الهاتف قبل أن يتمكن سبنسر من الإجابة. لم يكن عنده نية لأن يشرح للكولونيل ستانتون أن "أنتم أيها الناس" كانت هو، الذي يعمل لوحده مع أية مساعدة يهتم بتقديمها مكتب تحقيقات تينيسي. أخذ جرعة أخرى من القهوة الباردة المرّة. وقرر أن النوم لم يكن خياراً.

كانت مارثا إيريس متعبة. إن إدارة دائرة العمدة التي تعاني نقصاً في الموظفين، كانت عملاً شاقاً حتى في الأيام التي يكون فيها العمل أقل ما يمكن. والآن مع تحقيقات تجري في جرائم قتل على قدم وساق، كانت تعتمد على غفوات قصيرة وبيرغر بارد للبقاء على قيد الحياة. لقد كانت تشعر وكأنها قد تحدثت إلى كل شخص في المقاطعة حتى الآن، من صف دراسي إلى صف دراسي، ومن باب إلى باب، ومن موقف شاحنات إلى مقهى. هل رأى أحد شيئاً قد يساعدها؟ كان يتوجب عليها الاستمرار في الحركة، والاستمرار في السؤال. وذلك لأن سبنسر سيكتشف، عاجلاً أم آجلاً، أن بين أيديهم جريمة قتل مزدوجة، وإذا كانت وتيرة التحقيق تقتلها، فقد كان بإمكانها تخيل ماذا يمكن أن تفعل له في حالته الضعيفة. لقد كانت تعرفه طوال حياتها، وكان شديداً جداً فيما يتعلق بما هو جيد بالنسبة

له، كان دائماً كذلك. هذه القضية من شأنها أن تسحبه من ذلك الجبل كسلسلة جذوع أشجار مقطوعة، وإذا أرهق نفسه بمحاولة تولي القضية، سيكون الجحيم هو الثمن الذي قد يدفعه مقابل ذلك. ربما يكون مريضاً لأشهر، وربما يضطر حتى لتقديم استقالته. لا أريده أن يفعل ذلك، قالت لنفسها. إنني آخر خريجي الأكاديمية. وأعرف جميع الأساليب الأحدث في حل الجرائم، وإضافة إلى ذلك، فإن مكتب تحقيقات تينيسي يقوم بمعظم العمل. كل ما علينا فعله، جو وأنا، هو تقديم مشتبه به إليهم.

"الآنسة إيريس؟ هل أنت مستيقظة؟ إن قهوتك ستبرد."

رفعت مارثا نظرها من تأملها من فوق الطاولة. "شكراً يا فريد،" قالت للمزارع العجوز الذي جلس على الكرسي بجانبها. "أعتقد بأنني أجهد نفسي جداً بالعمل."

"لقد سمعت عن الأمر،" قال. "أنتِ لا تتوقعين أن يحدث شيء كهذا في البلدة."

"لا"

"بالطبع، لقد حدث هنا من قبل، أليس كذلك؟ قبل عشرين عاماً." دس فريد ديتون إصبعه في فنجان القهوة. "لقد كان بالقرب من تلك الكنيسة القديمة بالضبط. زوج آخر في الغابة، من المحتمل جداً أنهما كانا يقومان بعمل سيء."

"الزوجان في تلك القضية كانا متنزهين على الطريق الأبالاتشي،" قالت مارثا. "هذان الاثنان كانا طالبين من ولاية شرق تينيسي، يدرسان أزهار الجبل البرية النادرة."

رفع فريد حاجبيه. "في الليل؟"

"حسناً، لقد أقاما خيمة في الخارج. لقد جعلا منها إجازة نهاية الأسبوع."

"رأيت صورة الفتاة في الصحيفة. كانت تشبه الفتاة الأخرى.

آه هاه،" الضحية الفتاة، مواطنة من سينسناتي، كان طولها خمسة أقدام وتسعة إنشات، وذات شعر أسود طويل، وعينين سوداوين. لقد كانت جميلة إلى حد ما، ولكن ذلك كان كل شيء مشترك بينها وبين إيميلي ستانتون الضئيلة وذات الشعر الكستنائي. كما كانت متزوجة، ولكن كان لدى الزوج، وهو طالب طب في السنة الرابعة، ملء مستشفى من الشهود ليقدموا تقريراً عن مكانه في ليلة وقوع الجريمة. لقد تحرّوا عنه بست طرق منذ يوم الأحد، ولكن القضية لم يكن من السهل حلها. لا يمكن أن يخطر على بال أحد فكرة أن شريكها سارق زوجات، كذلك: عالم نبات أصلع وسمين، واهتمامه بالجنس يبدو أنه كان محصوراً بعسل النحل. كانت القضية تبدو مثيرة للمشاعر في بداية الأمر: زوجان شابان قُتلا على الطريق الأبالاتشي. ولكنهما لم يكونا زوجين؛ لقد كانا عالمي نبات، وتصادف أنهما كانا من جنسين مختلفين، ولم يكونا جذابين بما يكفي ليلفتا اهتمام الناس. وربما أن ذلك كان هو السبب في أن تغطية القضية كانت ضعيفة، وعرَضية تقريباً. إن ذلك، وعدم وجود محام مثل تشارلز ستانتون يبقي الإعلام ملتهباً، جعل الاهتمام بالقضية أكثر قليلاً من كونه سطحياً، باستثناء بالنسبة لأولئك الذين يتحملون مسؤولية حل القضية.

"لم يكونا من المنطقة هنا،" قال فريد. وشعر أنه يحق له "الأخذ والعطاء" معها، لأنه ساعدها في جمع الخيول الشاردة على الطريق ذات مرة، ومنذ ذلك الحين شاركها في أحاديث عرضية في المطعم. وتأمل هذه المرة أن يلتقط خبراً ساراً ليجعل رحلته إلى الحلاق مفعمة بالحيوية. وكانت مارثا على استعداد لإشباع رغبته في الفكاهة على أمل أن يكون شيء ما يقوله له قيمة في التحقيق.

"لا،" تنهدت. "لم يكونا من المنطقة هنا."

ولكن القاتل كان من المنطقة، فكرت في عقلها.

بيرجيس غيذر

المحاكمة

إذن لتدخل هيئة المحلفين. ... جعلتني الكلمات أقشعر مرتعشاً، بقدر ما كانت مألوفة لموظف في المحكمة.

بدأت المحاكمة.

قمت بالتسجيل في دفتر ملاحظاتي كما ينبغي: *فرانسيس سيلفر تنكر ارتكابها للجريمة والقتل الذي بسببه تقف المتهمة، وقد تم اختيار المحلفين التاليين، وأدوا القسم، وهم مكلفون بإصدار حكم بين السجينة والولاية بشأن حياتها وموتها، وهم: هنري بين، وديفيد بيدل، وسيروس بي. كونيللي، ووليام إل. بيرد، وجوزيف تيبس، وروبرت غاريسون، وروبرت مكيراث، وأوسكار ويليس، وجون هول، وريتشارد بين، ولافاييت كولينز، وديفيد هينيسي.*

كانوا جميعهم رجال مجتمع شرفاء على حد علمي، بالرغم من أنني لم أكن على معرفة جيدة بأي منهم. وبالمصادفة، لم يتحدر أي منهم من الطبقات الممجدة لآباء البلدة: في الواقع أنني لا أعرف عن أي صلات تربط أي منهم بعائلة إيروين، أو بعائلة مكداويل، أو بأي عائلة من العائلات المشهورة في مقاطعة بيرك، على الرغم من أن إليزابث كان بإمكانها، بلا ريب، إيجاد صلة في مكان ما في الجذور

tele @ktabpdf

الممتدة على نطاق واسع لأشجار عائلات مورغانتون. ولا يهم إن كان هناك صلات، بالطبع؛ فكان من الممكن أن يصدف وتجعل القرعة هيئة المحلفين تمتلئ بأبناء عم من عائلة إيروين والعمدات السابقين، وتبقى المحاكمة قانونية تماماً بالرغم من ذلك، ولكن إذا أخذنا بالاعتبار الأصول المتواضعة للمتهمة، فإن الطابع الذي تضفيه العامة كان ملائماً. ومن المؤكد أن هؤلاء الرجال الصادقين يمكنهم أن يفهموا الحياة البسيطة لهذه المرأة الشابة أفضل مما يمكن أن يفهمها أبناء مدللون لعائلات مزارعين.

فتح الشرطي بيرسون الأبواب على مصراعيها إلى قاعة المحكمة، وتجمع حشد من الجماهير الصاخبة الهائجة بأعداد كبيرة في غرفة سيئة التهوية مع أبخرة الويسكي ودخان السجائر. لقد كان حشداً ضخماً، حتى بمعايير حضور مقاطعة بيرك في محكمة عادية، الذي لم يكن قليلاً أبداً. ولأنه كان يوماً مفعماً بالحيوية وغائماً من أيام أوائل الربيع، فإنني لم أخش حضور الكثير من الأجساد المتعرّقة في حدود قاعة المحكمة، كما كنت أفعل غالباً خلال دورة أيلول/سبتمبر للمحكمة العليا. إن الحراراة والضجة كانتا محتملتين، على الأقل اليوم. ومع ذلك كنت آمل أنه عندما يتم بناء مبنى محكمة المقاطعة الجديد في العام القادم، أن تكون قاعة المحكمة أكبر من القاعة الحالية.

لقد تعرَّفت على كثير من الرجال في الحشد: الحداد، وصاحب الحانة، والعديد من المزارعين المحليين. واندفع رجال حدود يرتدون ملابس رثة شاقين طريقهم بالأكواع بين السادة ببذلاتهم السوداء، وسكان المدينة بقمصانهم، والجميع متلهف لنظرة على المتهمة الشابة الضئيلة. وفجأة لفت انتباهي وميض لضوء أبيض في آخر قاعة المحكمة. من المؤكد أنها لم تكن ... لقد كانت شمسية. امتعضت بيني وبين نفسي، وانحنيت إلى الأمام لأتبيّن من كان حامل هذا الشيء الأنثوي بين زحام الرجال. لقد تمكنت عيناي فقط من تأكيد ما سبق

أن عرفته، على أي حال، وكنت متأكداً منه إلى حد كافٍ، وبعد بضع لحظات، تفرَّق الحشد كما لو كان أمام عصا موسى، وأبحرت ماري إيروين على موجة من التمتمات.

وبالطبع، كانت هي. هل هناك امرأة أخرى ستجرؤ على اجتياح حصن العدالة الخاص بالذكور؟ وبصرف النظر عن خطر الحشود الجامحة، والتضارب بالقبضات، وحتى عروض عنف خطيرة أكثر، هناك جو كرنفالي ليوم المحاكمة، مع رجال ثملين يهللون للمحامين، ومزارعين يبصقون خلاصة التبغ على الأرض، والإهمال العام في آداب التصرف الذي ينبغي أن يجعل أية واحدة من الجنس اللطيف تنأى بنفسها عن هذا المبنى عندما تكون المحكمة الجنائية منعقدة. ولا شك أن حقيقة أن والد الآنسة ماري كان كاتب المحكمة العليا لأربع وأربعين سنة قد منحتها اهتمام المالك في القضايا، وكنتُ أعرف أن المرأة الشابة التي ليس لديها أصدقاء والخاضعة للمحاكمة قد أثارت اهتمامها وتعاطفها.

نظرت إلى القاضي دونيل لأرى ما إذا كان سيأمر حاجب المحكمة بمرافقة الآنسة ماري خارج المبنى، ولكنه لم يُظهر أي اهتمام في الأمر. وأشار لها ابن عمها الكولونيل جيمس إيروين أن تنضم إليه، مستنتجاً بلا شك أنه إن لم يتم جعل السيدة المحترمة تغادر، عندئذ ثاني أفضل شيء يمكن القيام به سيكون أن يقوم فرد محترم من عائلتها بدور مرافقها. ووضعت ملاحظة في ذهني بحذف هذا التفصيل من وصف أحداث اليوم الذي سأقوم بتقديمه إلى زوجتي، ولكن مما لا شك فيه أنها تعرف مسبقاً عن جرأة شقيقتها.

ياله من تباين لافت أحدثته الآنسة ماري مقارنة بالمتهمة! لقد كان ثوبها وسترة السبنسر التي غطته من أجود أنواع القماش، لقد كان شعرها مصففاً بإتقان تماماً تحت قبعة تشارلستون نسائية حديثة، وبالرغم من أنها لم تكن ذات جمال، فإن الآنسة ماري نشرت جواً من الثقة والتنشئة الجيدة التي من شأنها أن

تميزها على أنها سيدة نبيلة وتكسب احترامها وتقديرها في أي ظروف يمكن أن تجد نفسها فيها. لقد كانت المتهمة مخلوقة جميلة ورقيقة، وذات وجه جميل وطفولي، ولكن لو عاشت فرانسيس سيلفر لمائة سنة، لن تكون قادرة على بلوغ الاتزان القوي والهالة الارستقراطية اللذين أبدتهما الآنسة ماري بلا أي جهد.

خطرت لي فكرة أخرى كذلك. بالرغم من أن فرانكي سيلفر كانت متهمة بقتل زوجها بفأس، من المؤكد جريمة وحشية تتطلب جرأة كبيرة، فإنني لا أعتقد، لو تم عكس الظروف، أنه كان بإمكانها الدخول إلى قاعة محكمة مليئة بالرجال، والجلوس بثقة كبيرة بأن وجودها سيكون مقبولاً. وتساءلت إن كانت إليزابث قد عرفت عن المغامرة الجريئة لشقيقتها. وعزمت على ألا أذكر هذا الأمر في المنزل. ولا شك أنها ستعرف عنه في وقت قريب. وبصوت حفيف تنورتها، أخذت الآنسة ماري مكانها بين الحشد وحدقت بترقب في موظفي المحكمة وكأنهم كانوا ممثلين. وبدت تعابير وجهها وكأنها تقول، لندع الألعاب تبدأ.

كان على ويليام ألكسندر أن يقوم بعرض قضيته أولاً. نهض، وأمال رأسه نحو القاضي دونيل بمجرد إيحاء بالانحناء. تزايدت التمتمات، ومن ثم تناقصت تدريجياً بنظرة صارمة من منصة القاضي. لوّح السيد ألكسندر بقبضته في الهواء، وأعلن: "نحن هنا لمحاكمة مخلوقة شريرة ومتحجرة القلب بجريمة قتل وحشية!"

وقام ويليام ألكسندر، مليئاً بالبلاغة الملتهبة الفاضلة التي تملأ محامي الإدعاء، بوصف نتائج التحقيقات التي أجريت على جثة تشارلي سيلفر المقطّعة، مسهباً في الكلام عن شباب وبراءة الضحية. وجعل صوته يهتز وهو يصف الحياة التي تم إنهاؤها مبكراً، والروح التي أرسِلَت إلى الآخرة دون أن تُغتفَر خطاياها بالاعتراف والندم، والطفلة التي تُركَت بلا أب لتعتني بنفسها في هذا العالم. وختم بمطالبة مدوّية من أجل العدالة. "إن دم تشارلز سيلفر بذاته يصرخ من أجل إيقاع العقوبة. لا تدعوا قاتلته تفلت من العقاب!"

جلس نيكولاس وودفين أثناء هذه الخطبة الرنانة مقطباً نوعاً ما، وكأنه كان يتساءل عما كان يتحدث عنه زميله، وتعبير وجهه يلمح إلى أنه تم تضليل السيد ألكسندر، وأنه كان يرحب بفرصة لتصحيح سوء الفهم. ربما أننا لسنا بعيدين جداً عن الممثلين في نهاية الأمر.

كانت فرانكي سيلفر بحد ذاتها تجلس بلا حراك، وتحملق في النافذة التي كانت وراء مقصورة هيئة المحلفين، وكأنها لم تكن قادرة على سماع الضجة التي كانت تجري من حولها. ربما أنها تسمع ولكنها لا تفهم، اعتقدت ذلك. وتساءلت ما إذا كان نيكولاس وودفين قد شرح إجراءات المحاكمة لها، وإذا كان قد فعل ذلك، هل قام به باستخدام عبارات بسيطة بما يكفي لتفهمه فتاة أمية؟ من المؤكد أنه يوجد هنا اليوم أشخاص أكثر مما رأته في حياتها؛ وربما أنها مرعوبة من منظر الكثير من الغرباء الجامحين. لقد بدت غير مغمومة مرة واحدة فقط، للحظة قصيرة جداً، عندما نهض نيكولاس وودفين من جانبها، بحيث يمكنه مخاطبة المحكمة نيابة عنها.

الأمير يتحدث، فكرّت بمرارة، متذكراً الاهتياج الذي سببه ظهوره بين سيدات المجتمع. وقف منتصباً بقامته الطويلة وبذلته السوداء، وبملامحه الكلاسيكية هادئة في طلعته الوقورة. كنت أكره أن أعترف، حتى لنفسي، أنه قدَّم فعلاً شخصية مؤثرة في مبنى محكمتنا الريفي. وتساءلت ماذا سيعتبره المحلفون.

"أيها السادة، إنكم تجلسون في محاكمة في مأساة،" قال للمحلفين. "فتى في ريعان شبابه قُتِل بوحشية، ونقوم بفض حزن العائلة باتهام أرملته بقتله، وبجرها إلى محكمة مفتوحة لتعاني من حملقات الغرباء، في حين أننا نتهمها بأحقر الجرائم.

"لقد أخبركم زميلي كيف قُتِل تشارلز سيلفر، وأنه قد تم تقطيع بقاياه بسكين، كما يمكن لشخص أن يذبح غزالاً، وأنه تم حرق جثته في الموقد كما لو كانت فضلات. هل هذه جريمة لامرأة، أيها السادة؟ هل يمكنكم أن تروا حتى همجية الأنثى الأكثر وحشية ترتكب اعتداء كهذا ضد عدو؟ أنا لا يمكنني ذلك. ومع ذلك فإن السيد ألكسندر يطلب منا أن نصدِّق أن هذه المرأة الشابة اللطيفة، والتي تبلغ الثامنة عشرة من العمر فقط، فتاة ضعيفة وأم حانية لطفلة صغيرة، يمكنها أن ترتكب هذا الفعل المروع ـ لا ضد شخص غريب، بل ضد رجل هو زوجها."

التفت نيكولاس وودفين وأشار إلى المتهمة، التي كانت تجلس بهدوء تام وهي تراقبه بجدية. "هذه المرأة الشابة التي مصيرها بين أيديكم هي فرانسيس ستيوارت سيلفر. أنظروا إليها. إنها ليست مجنونة. إنها ليست متوحشة. إنها امرأة شابة عادية، ولم يتم نطق كلمة مذمة ضدها في مجتمعها. إنها ليست كسولة. إنها ليست داعرة. إنها ليست مدمنة خمر. إنها زوجة وأم شابة بسيطة. إنهم يقولون ذلك، جميعهم في المكان الذي أتت منه. ومع ذلك، فإن السيد ألكسندر يريد أن يجعلنا نصدق أن لديها الوحشية لتذبح رجلاً ـ زوجها! أين المنطق في هذا، أيها السادة؟ أين القوة التي من شأنها أن تسمح لها بفعل ذلك؟ وكذلك ـ ذلك الأمر الذي يخصنا جميعنا أكثر من كل شيء في محكمة القانون ـ *أين الدليل على أنها قامت بذلك؟* حيث أنني لا أرى أي دليل. رجل ميت، هذا القدر الذي تم إثباته. ولكن على يد من لقي حتفه المبكر ـ هذا *لم* يتم إثباته.

لقد كان خطاباً مثيراً، حسب اعتقادي، تم إلقاؤه بنبرات ممثل رنانة، أو ربما واعظ في اجتماع ديني في الهواء الطلق. وتساءلت ما إذا كان سيهز هيئة المحلفين، أم ما إذا كانت فداحة الجريمة قد أثرت فيهم بما يفوق قوة الإقناع.

كان الشهود ينتظرون في الردهة خارج قاعة المحكمة تحت العين الساهرة

للشرطي بريسنل، الذي كان سيقوم بإرشادهم كل في دوره عند استدعائه للإدلاء بالشهادة. وألقيت نظرة على قائمة الأسماء التي نَسَختها في حينه من خلف قرار الاتهام الخاص بالسيد ألكسندر. لقد كان هناك ثلاثة عشر اسماً مدرجاً على القائمة، أفراد من عائلة سيلفر، وجيرانهم من المناطق المأهولة بعدد قليل من السكان، والذين شكّلوا فريق البحث؛ والشرطيان المشاركان في اعتقال المتهمة؛ وطبيبنا تيت ليقدِّم الدليل الطبي فيما يتعلق بسبب الوفاة وطبيعة الجروح.

خلال الفترة القصيرة لقيامي بتولي منصب كاتب محكمة، أصبحت خبيراً في الشهود. وأنا لم أُقصِّر أبداً في التعجب من رجل بحجم الثور يتسلل إلى منصة الشهود، ويتحدث بصوت حاد كصوت الفأر، وعيناه تبرزان بخوف لكونه تحت الفحص والدراسة من قِبل حضور ضخم. ويقدِّم أشخاص آخرون دليلاً بنبرات هادئة وموزونة، وكأنهم كانوا يقدمون طلب شراء بذلة جديدة، وليس كأنهم يقسمون على ما سيؤدي إلى إزهاق روح مواطنة مثلهم. كان بعض الشهود يستشيط غضباً عندما يعيدون سرد آثام المتهمة، أو يبكون بشكل يثير الشفقة إذا تم إجبارهم على الشهادة ضد أحد الأحبة. تساءلت أي نوع من الشهود ستقدمه محاكمة اليوم، وكنت متأكداً إلى حد ما أنه لن يتم ذرف دموع، حيث أنني لم أجد على قائمة الأسماء اسماً يمكن اعتباره كصديق للمتهمة. وتساءلت لماذا لم يتم استدعاء والدة السيدة سيلفر وأخيها للإدلاء بالشهادة، حيث أننا عندما أطلقناهما في كانون الثاني/يناير بكفالة، مع الاعتبار أنهما سيعودان لتقديم أدلة في المحاكمة. ربما أنه ليس هناك أي محام يشعر أنه كان يثق بهما، هذا ما قررته. لا بد أن أحد المحامين يخشى أن يكذبا، والآخر خائف بالقدر ذاته من أنهما قد يقولان الحقيقة كاملة. إن المحاكمة ستستمر بدون شهادتهما.

قدَّم جاك كوليس شاهداً جيداً. لقد كان رجلاً مسناً نحيلاً بعيني ساكن الغابة الزرقاويين. كان يبدو في حوالي الستين من العمر، وعاش طوال حياته على

الحدود ، يعمل بالزراعة وصيد الحيوانات من أجل الفراء والغذاء . ومن غير الممكن التشكيك في خبرته كمقتفي آثار . وإن كانت ملابسه ليست تلك المرجوة في محكمة قانون رسمية ، فقد كانت على الأقل نظيفة بشكل مقبول . وبالرغم من أنه تحدّث بصوت واضح انتقل في قاعة المحكمة بشكل جيد ، فقد أبقى إجاباته قصيرة ومباشرة . لم يكن رجل أحاديث اجتماعية ، على ما أعتقد .

نعم ، لقد كان في فريق البحث عن تشارلي سيلفر . لا ، لم يرَ أي دليل للرجل المفقود في الغابة ، أو في النهر المتجمد .

"وماذا فعلت بعدئذ ، يا سيدي؟"

"قررت البحث في الكوخ .

"لماذا؟"

"لأنه لم تكن في أي مكان آخر ."

"لأنه لم يكن هناك أية علامة لتشارلز سيلفر بين منزل ذويه ومنزل جورج يونغ حيث قالت زوجته إنه ذهب؟"

"ذلك صحيح .

"متى ذهبت إلى الكوخ؟"

"صباح يوم الأحد . كان ذلك في الثامن من كانون الثاني/يناير . بينما كنا في الخارج نبحث في الغابة ، تصادف أنني سمعت أحدهم يقول إن فرانكي عادت إلى منزل ذويها بجانب النهر . وفكرت أنه لن يكون هناك ضرر في البحث في كوخ تشارلي .

"هل ذهبت لوحدك؟"

"نعم . لم يكن الأمر سوى مغامرة تنطوي على مخاطرة . لقد فكرت فقط أن ألقي نظرة على المكان ."

"إذن فقد ذهبت إلى مسكن عائلة سيلفر. هل يمكنك وصف الكوخ من الداخل لهيئة المحلفين، يا سيد كوليس؟"

طَرَف ساكن الحدود بعينيه. "إنه مجرد كوخ."

دعمه ويليام ألكسندر بابتسامة تشجيع. "نود أن نتخيل المشهد أثناء سردك لقصتك، يا سيدي. أين كان الأثاث، وما إلى ذلك."

رمق جاك كوليس المدعي العام بنظرة شك، ولكن بعد لحظة تفكير، شعر بالالتزام كواجب. "إنه كوخ عادي، مصنوع من خشب شجر الكستناء، ومحشّى بالجير. بطول خمسين خطوة، وعرض عشرين خطوة. يقع الباب في الوسط، أمامي وخلفي، ونافذة صغيرة مربعة الشكل بجانب الموقد. وأرضية من الخشب. وهناك سرير في الزاوية بين الموقد والباب، ومهد طفل بجانب السرير. وطاولة ومقاعد ـ في منتصف الغرفة. وخزانة من خشب البلوط على الجدار الخلفي."

حاولت أن أتخيل البيت الصغير. من المؤكد أنه كان بكامله ينطبق على مساحة ردهة منزل مالك الأراضي إيروين في بيلفيدير؛ ومع ذلك كنت أعرف أن عائلات لديها ثمانية أو عشرة أطفال كانت تعيش في مساكن مماثلة، ليس فقط في الغابة الجبلية، بل بين الناس الأكثر بساطة في مورغانتون. نظرت إلى السيدة سيلفر لأرى ماذا كان رد فعلها لسماعها عن ممتلكاتها الهزيلة توصف على هذا النحو أمام غرفة مليئة بالغرباء، ولكنها بقيت بلا انفعال.

"لقد كان نظيفاً،" قال جاك كوليس، ربما ملاحظاً النفور الضعيف في تعابير ملامح ألكسندر.

"إذن فقد دخلت إلى هذا المسكن المكون من غرفة واحدة لتلقي نظرة، يا سيدي. وماذا وجدت؟"

حسناً، لم أتمكن من رؤية الكثير لأبدأ به. كانت النار مطفأة. وكان هناك

ظلام حالك في الداخل، وبرد. ذهبت إلى الموقد لأفعل شيئاً بشأن إشعال نار، بحيث يمكنني أن أرى بشكل أفضل، وعندما جثوت على ركبتي، تفاجأت بوجود كمية كبيرة من الرماد في الموقد."

"هل يمكنك أن تخبرنا ماذا استنتجت من ذلك؟" شككت بأن حيرة المدعي العام لم تكن مزعومة بكاملها. إن ويليام ألكسندر لم ينظف موقداً أبداً في حياته.

"أحدهم أحرق الكثير من الخشب بدون تنظيف الموقد. كان يبدو وكأن الكثير من زنود الخشب قد أحرِقت على عجل، وتساءلت كيف يمكن أن يكون ذلك، لذا، فقد بدأت بالتمحيص خلال الرماد."

"ماذا وجدت؟"

روى جاك كوليس كيف أشعل ناراً جديدة ليسخن الماء في الإبريق، وكيف أخبرته فقاعات الدهن أنه تم حرق لحم فوق الخشب، الأمر الذي دفعه إلى مزيد من التفتيش الدقيق للكوخ.

"بمجرد أن ارتفعت حرارة الغرفة، أخبرتني الرائحة أن هناك شيئاً ما خطأ."

"أية رائحة، يا سيد كوليس؟"

"رائحة الذبح،" قال جاك كوليس، عابساً من تذكر ذلك. وارتعد الحاضرون في قاعة المحكمة معه.

"ماذا فعلت عندئذ، يا سيدي؟"

"ذهبت وعثرت على جاكوب هتشينز مع فرقة البحث، وأعدته معي إلى الكوخ. وساعدني في رفع لوح خشب من الأرض الخشبية مجاور للموقد."

"وماذا وجدت، ياسيدي؟"

"دماً. بركة من الدم الناشف في الأوساخ التي تحت ذلك اللوح الخشبي."

ابتسم ويليام ألكسندر بتسامح. "ربما كان أرنباً، أو غزالاً؟"

"إنك تذبح الحيوانات في الخارج."

كان العديد من المحلفين يومؤن بالموافقة. لقد قام معظمهم بالصيد في غابات مقاطعة بيرك السحيقة، في وقت ما في حياتهم، وكانوا يعرفون حقيقة كلمات جاك كوليس. بدا ويليام ألكسندر راضياً عن ذاته وهو يومئ لنيكولاس وودفين، وعاد إلى مقعده. "إنه شاهدك."

لقد كنت أراقب المتهمة. كانت تجلس بسكون تام، محملقة وراء هيئة المحلفين وكأنها كانت مستغرقة بعمق في صلاة أو تأمل بحيث أن الكلمات لم تصل إليها. وتخيلت، على أي حال، أنني رأيتها تجفل عندما تحدث جاك كوليس عن الذبح.

عندما وقف نيكولاس وودفين ليستجوب الرجل العجوز، ارتعشت نظرة التحديق الفارغة للسيدة سيلفر، ولدقيقة حملقت في محاميها بعينين لامعتين، ولكن النظرة ذهبت على الفور، وعادت إلى وضعية اللامبالاة بالإجراءات التي تجري حولها. تساءلت ماذا كان السيد وودفين سيفعله مع هذا الشاهد. إن الاستراتيجية القانونية ستكون تكذيب جاك كوليس إن استطاع ذلك، عن طريق التشكيك في صحة نظر الرجل العجوز، أو إثبات الروابط الوثيقة لكوليس مع عائلة سيلفر، وعداءه تجاه الأرملة الشابة. كنت سأتردد في اتخاذ هذا المسار من التصرف، على أي حال، لأنني رأيت كم كان الشاهد شخصاً صريحاً، وكنت أعتقد أنه كسب احترام ـ وبالتالي ثقة ـ هيئة المحلفين البسطاء. وسينظرون باستياء إلى أية محاولة من قِبل محامٍ من المدينة للطعن في شهادة هذا الرجل.

لا بد أن وودفين قد شعر كما شعرت، لأنه بعد سؤال أو اثنين روتينيين

يتعلقان بالطبيعة الظرفية للاكتشاف الرهيب، صرف ساكن الغابة العجوز بمجاملة رزينة.

جلت ببصري في أنحاء قاعة المحكمة بحثاً عن وجوه مألوفة. لقد تم تمثيل عائلة تشارلي سيلفر من قِبل عمه السيد غرينبيري سيلفر، وهو نفسه مالك أراضٍ بارز في الأراضي الغربية من مقاطعة بيرك. وقد ذكر شرطي أن زوجة والد تشارلي أنجبت طفلاً جديداً، وقد ولِد قبل بضعة أسابيع فقط، وظننت أنه إما أن جاكوب سيلفر اختار أن يكون مع زوجته، أو أنه لم يهتم بالمخاطرة بالنزول من التلال لسماع بيانات قتل ابنه مفصلة من قِبل أغراب لامبالين. وانتظر أقارب آخرون من عائلة سيلفر في الرواق دورهم كشهود.

لمحت أشعيا ستيوارت في منتصف طريق العودة بين الحشد. كان وجهه يحمل نظرة الحزن الهادئ تلك التي يراها المرء غالباً في الجنازات، وتساءلت ما إذا كان قد تقبّل ذنب ابنته، أم أنه كان يعتقد بأنه تم اتهامها بالرغم من براءتها. لم أكن قادراً على تقرير أي عبء منهما سيكون الأكثر فظاعة ليتحمله أب.

إلى جانب ستيوارت كان هناك شخص ضخم ذو شعر رملي اللون، وكان يبدو وكأنه نسخة في الخامسة والعشرين من العمر عن مرافقه. لم تكن مشاعر الشاب الأصغر سناً مُسيطراً عليها بشكل جيد كما كان مُسيطراً على مشاعر أشعيا ستيوارت، حيث كان بإمكاني رؤية غضب في كل خط من خطوط وجهه. كانت عيناه متضيقتين، وفكّه في وضعية إطباق تبدي عبوساً، وذكرني جسمه بنابض مشدود عندما انحنى إلى الأمام، جاهداً لالتقاط كل كلمة من الشهادة. تأملت أن لا يكون قد نجح في تهريب سلاح إلى داخل قاعة المحكمة. هذا هو الابن الأكبر، على ما أعتقد. الابن الذي كان في رحلة صيد طويلة مع والده وقت وقوع جريمة القتل. ماذا كان اسمه؟ لم يكن مكتوباً في أي من وثائق المحكمة، حيث أنه لم يكن متورطاً في القضية بأي شكل من الأشكال، ولكن هناك شخصاً ما تحدث

عنه. لقد خطر لي الآن! جاكسون. جاكسون ستيوارت، متزوج من فتاة من عائلة هاول، والتي كانت بالتأكيد إحدى قريبات توماس هاول المدرج اسمه على قائمتي المحتوية على أسماء الشهود. ومن المؤكد أن ذلك من شأنه أن يسبب شقاقاً في صفوف العائلة. وشعرت أنه بصرف النظر عن نتيجة هذه القضية، فإن موجات من الألم وسوء النية ستجري خلال ذلك المجتمع لسنوات قادمة. وبمعنى ما، فإن المحاكمة هي نهاية جريمة، ولكن بطريقة أخرى إنها فقط البداية لتعذيب طويل أقسى من حبل مشنقة الجلاد. إن الناجين يعانون على مهل.

تولى السيد ألكسندر القيادة من جديد طالباً إحضار الآنسة نانسي ويلسون للإدلاء بشهادتها. وقام غابي بريسنل بفتح أحد أبواب البلوط الضخمة في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة، وأرشد امرأة شابة ذات ملامح وجه حادة، وترتدي ملابس سوداء. كانت تتحرك بدون عجلة كبيرة، غير مبالية بهدوء بالحملقات والتمتمات التي ارتفعت عند مرورها. كان رأسها مرفوعاً عالياً، وملامحها شاحبة بغضب. ولاحظتُ أن المحلفين قد جلسوا باستقامة أكثر عندما لمحوها. هذه شخصية بارزة، فكرت بيني وبين نفسي. إنها ليست أكبر سناً من المتهمة، ولكن هذه سيدة تعرف ماذا تريد، والويل للباعة المتجولين، أو الأشخاص الفظين، أو الهنود الذين يعبرون في طريقها.

وفي طريقها للإدلاء بالشهادة، مرّت المرأة الشابة المتجهمة بالسيدة سيلفر الضئيلة، وكنت قادراً على الشعور بطرقعة العداوة بينهما. نظرتا إلى بعضهما البعض، ازدراء من كلا الطرفين، وبسرعة أشاحتا بنظرهما بعيداً.

عندما أدت نانسي ويلسون القَسَم كما ينبغي، بدأ ويليام ألكسندر استجوابه بابتسامة مطمْئنة. "والآن، آنسة ويلسون، تكلمي بصوت مرتفع. لا داعي لأن تكوني خائفة."

رمقته بنظرة مومضة قالت غبياً أعلى مما كان بإمكاني أن أقولها بصراخ،

ولكنها لم توجّه رداً مسموعاً. نظرتُ إلى المتهمة. لم تكن توجه نظرتها نحو الشاهدة، ولكن وجهها لم يعد يحمل تلك النظرة المحملقة الفارغة التي رسمتها عليه معظم فترة الصباح؛ والآن، بالرغم من أنها لم تكن تنظر، فقد كانت تسمع.

"أنت الآنسة نانسي ويلسون من قسم نهر تو من مقاطعة بيرك الغربية؟"

"أنا هي."

"ومن أجل المحضر، هل أنت على أي صلة قرابة بالسيد توماس ويلسون، أحد المحامين في مورغانتون."

باغتها هذا السؤال، حيث أنها كانت تحفّز نفسها للحديث عن جريمة القتل. رمشت مرة أو اثنتين في أثناء تحديد موقفها، ثم قالت: "لا أعتقد ذلك. اسم شقيقي هو توم ويلسون، ولكنه ليس محامياً. إننا لا نعرف أي أحد من عائلة ويلسون في البلدة."

كان هناك ضحك خفيف في أرجاء قاعة المحكمة على ارتباك السيدة، ورأيت السيد ويلسون المحامي يهز رأسه، وهو يبتسم.

"حسناً، والآن إننا نعرف أين نحن،" قال السيد ألكسندر بمرح. "لنتابع. هل أنت على معرفة بالمتهمة فرانسيس سيلفر؟"

"نعم،" قالت بصوت خفيض. "لقد كانت متزوجة من قريب لي. والدتي هي شقيقة والد تشارلي."

"هل سمعت السيدة سيلفر تتحدث عن اختفاء زوجها؟"

"سمعتها." بإيماءة تأكيد. "في كانون الأول/ديسمبر الماضي، كنت في زيارة في منزل خالي جاكوب عندما دخلت فرانكي لتقول إن تشارلي لم يعد إلى البيت بعد."

"هل قالت إلى أين ذهب؟"

"سبق أن أخبرت العائلة أن تشارلي كان قد غادر في اليوم السابق، وأنها أتت فقط لتقول إنه لم يعد بعد. قبل يوم أو أكثر كان قد ذهب إلى منزل جورج يونغ، وذلك ليحصل على خمره لعيد الميلاد، بحسب ما قالته، والذي كان كذباً." كانت نبرة صوتها تدل بوضوح على وقاحة شخص بإمكانه قتل رجل بغدر، ومن ثم تلويث ذكراه بأكاذيب قاسية. رأيت المحلفين ينظرون إلى بعضهم البعض، وأقنعتني تعبيرات وجوههم أن جميع الرجال في قاعة المحكمة كانوا يفكرون بانسجام، *"ربما أن تشارلي سيلفر لم يذهب إلى منزل جورج يونغ من أجل الخمر هذه المرة، ولكنه كان يقوم بتلك المهمة من قبل بما فيه الكفاية في أغلب الأحيان."* ومع ذلك، فإن العائلة سلّمت بقصة فرانكي بدون أي شك. أمضى الجيران أياماً وهم يبحثون في الطرقات بين أرض عائلة سيلفر ومزرعة عائلة يونغ. كان يبدو الأمر حقيقياً. لقد كان تشارلي سيلفر، بكل المقاييس، شاباً وسيماً ومفعماً بالحيوية، وكان عيد الميلاد، وهو موسم يفضي إلى شرب المشروبات الروحية. والانطلاق إلى مُقطّر محلي من أجل دورق من الويسكي من شأنه أن يكون عادة مرجحة بالنسبة لشاب كسول، ولكن لأن تشارلي سيلفر كان ميتاً، فإنه يتوجب على نانسي ويلسون أن تقف أمام الرب ومقاطعة بيرك لتنفي إمكانية شيء من هذا القبيل. يجب أن يكون القديسون ميتين، وفقاً لتقاليد الكنيسة القديمة؛ والآن تفوق عليهم الناس العاديون، واعتبروا أن جميع الناس الميتين لا بد أن يكونوا قديسين. إن محاولة فرز جميع المخالفين عندما لا يعترف أحد بأي إثم، يسبب إرباكاً كبيراً في محاكم القانون.

"هل كانت السيدة سيلفر قلقة بشأن فقدان زوجها؟"

"أعتقد بأنها كانت قلقة. كان تبدو وكأنها كانت تبكي. رفعت الآنسة ويلسون الشابة رأسها فجأة. "ظلت تقول إنها تمنت لو يعود، وبعد ذلك كانت تبكي أكثر بعض الشيء.

"هل اقترحت السيدة سيلفر أن تبدأ العائلة البحث عن زوجها؟"

أومأت نانسي ويلسون برأسها. "قالت إنها كانت قلقة لكونه في الخارج في الثلوج المتراكمة. لقد كانت خائفة من أن يصاب بمرض شديد، وقالت أرجوكم أطلبوا من الرجال أن يخرجوا ويبحثوا عنه."

"من كان موجوداً عندما حضرت السيدة سيلفر لتبلغ عن غياب زوجها؟"

قامت نانسي ويلسون بعدّهم على أصابعها. "زوجة والد تشارلي وأخواته، وأخوه آلفرد، وباقي الصغار، وأنا."

لقد تمت تغطية هذه الشهادة في جلسة استماع سابقة من قِبل الآنسة مارغريت سيلفر، الأخت الصغرى للرجل المقتول. وتساءلت لماذا لم يتم استدعاؤها لتكرر شهادتها عند المحاكمة. السيد ألكسندر لم يعذرها مراعاة لعمرها الصغير، لأن ابنة خالها لم تكن أكبر منها بكثير. من المحتمل أكثر أن المدعي العام اعتقد بأن مارغريت ستكون مرعوبة من الإجراءات، وبأنها لن تكون شاهدة جيدة. ربما تضطرب عند الاستجواب. أتذكر شهادتها المشتتة في جلسة الاستماع السابقة، ونظرة الخوف على وجهها وهي تحملق في العدد الهائل من الغرباء. لقد كانت نانسي ويلسون، العذراء الحديدية التي أخذت مكانها اليوم، شاهدة أقوى، ومتسلحة جيداً بسخط معتبرة أنها أقوم أخلاقاً من الآخرين بحيث أن الشيطان نفسه لم يكن ليتمكن من جعلها تتلعثم.

"هل طلبت السيدة سيلفر من أي من النساء أن ترافقها إلى منزلها، حيث أنها كانت وحيدة الآن؟"

"حسناً، ربما أنها طلبت من مارغريت ومني، ولكننا قلنا إن الثلج كان عميقاً جداً. وقلنا لها أن تبقى معنا لفترة، ولكنها ذهبت عائدة."

اختلست نظرة إلى نيكولاس وودفين، الذي لا بد أنه عرف كما عرفت أنا أن

هذه كانت سلسلة الكلمات التي كانت ستعدم موكلته، ما لم يتمكن بطريقة أو بأخرى من تبديد قوة هذه الشهادة. لقد كذبت فرانكي بشأن مكان وجود زوجها، وشهادة هذه المرأة الشابة أثبتت تلك الكذبة. بالكاد استمعت إلى باقي الاستجواب، لقد كنت منشغلاً جداً في تخمين الحركة التالية للسيد وودفين. لم أضطر إلى الانتظار طويلاً.

لقد كان نيكولاس وودفين هو الكياسة ذاتها بالنسبة لشاهدة الولاية، ولكنه وقف ربما أبعد قليلاً مما كان عن ساكن الغابة جاك كوليس، وأعرب شيء في تعابير وجهه عن نفور واهن جداً للسيدة التي أمامه، حيث وجد غضبها مبتذلاً وفظاً. "أعتقد بأنك قلت بأنك كنت من أقارب تشارلز سيلفر؟"

أومأت برأسها.

"ومما لا شك فيه أنك كنت متعلقة جداً بقريبك الوسيم." كان هناك شيء مرهف في نبرته أثار صوراً لمراهقين يضحكان ويلحقان ببعضهما البعض بين قطع أرض مزروعة بالعليق، ويتبادلان القبل خلسة تحت أكشف أوراق الغار. ويمكن للمرء أن يرى غيرة نانسي ويلسون الشابة تتحول إلى مرارة عندما وقعت عينا تشارلي الجوالة على الجمال الشاحب لفرانسيس ستيوارت الصغيرة الحجم. ولكن نيكولاس وودفين لم يقل شيئاً من هذا بكلمات صريحة، وما لم يُنطَق به لا يمكن إنكاره.

أشاحت نانسي ويلسون بنظرها بعيداً عن قناع المحامي للاهتمام المتسم بالاحترام. "لقد كان ولداً جيداً،" قالت. "جيد جداً بالنسبة لها. لقد كانت نكرة."

"وهل حدث وأن تشاجرت في أي وقت مع فرانكي سيلفر؟"

ترددت الشاهدة. "لا أقول تشاجرت،" قالت أخيراً. "كانت فرانكي ستيوارت تعتقد بأنها شيء كثير، هذا كل شيء."

"هل كانت مجدّة في عملها؟"

"وألم تدع الجميع يعرفون بذلك، أيضاً؟ وكأن ذلك لكي نشعر بالأسى من أجلها."

"هل كانت أماً جيدة؟"

تنهيدة تذمر. "كانت جيدة نوعاً ما."

"وكانت زوجة مخلصة؟"

وقفة طويلة. "لم أسمع خلاف ذلك أبداً."

بخلاف تشارلي. تعلقت الكلمات غير المنطوقة في الهواء، مُقترَحة فقط من قِبل ابتسامة معرفة لمحام ذكي. ترك وودفين الصمت يدوّي لفترة طويلة بما يكفي ليدخل في رأس كل شخص، وبعد ذلك صرف الشاهدة بتلويحة لامبالية، مما يدل على أنه لم يعد لديه حاجة لها أكثر مما كان لتشارلي في أي وقت مضى.

هل كانا عاشقين؟ هذه المرأة الغامضة والمعتدّة بنفسها، وابن عائلة سيلفر الوسيم الطائش؟ ربما لا. لن نعرف أبداً. لم يكن السيد ووفين مهتماً في جعلنا نعرف. لقد كانت بذرة الشك التي قصد أن يزرعها، وكان راضياً لقيامه بذلك لمصلحة موكلته. وفكرت في نفسي أن حقيقة أنه كان لدى نانسي ويلسون فأساً مجازية للسحق، لا تزال لا تعني أن فرانكي سيلفر لم تستخدم فأساً بمعنى حرفي أكثر.

كان أحد أطبائنا في مورغانتون، الطبيب ويليام كالدويل تيت، هو الشاهد الأخير قبل الاستراحة. إنه شاب دمث، وقد تخرّج للتو من كلية الطب في جامعة ساوث كارولينا في تشارلستون، وعاد إلى مورغانتون لممارسة الطب إلى جانب شقيقه الأكبر، الطبيب ساموبل تيت، والذي ليس هو سام تيت الذي عمل كرئيس لهيئة المحلفين الكبرى الأسبوع الماضي. إن السامين تيت هما أبناء عم،

ومن أجل إغاظة أبدية لعلماء الأنساب المستقبليين، فإن أحد السامين تزوج شقيقة سام الآخر. (أي شخص يمكنه أن يبقي سلالات مورغانتون دقيقة، يمكنه أن يحسب الجذور التربيعية ذهنياً.) وعن الطبيب الشاب ويليام، يكفي القول: والدته كانت من عائلة إيروين.

وباللهجة المرحة اللاشخصية المميزة لجميع أقرانه (وكأنه لا يملك جمجمة، أو قدرات عقلية ستضعف تدريجياً، أو حياة ستكون بكاملها قصيرة جداً)، قام تيت بالتعليق على الإصابات كما تم تبليغها إليه من قِبل الشرطي بيكر. لقد تم اختيار الطبيب الشاب ليقوم بتلك الرحلة الشاقة التي تستغرق يومين فوق الجبال ليفحص الجثة، وذلك لأنه لم يكن من الممكن أن يمتنع الأطباء المعروفون أكثر عن رعاية مرضاهم في المناطق المجاورة لمورغانتون. وقد علّق شقيقه ذات مرة في قضية محكمة أخرى أنه "لا يمكننا أن نهمل الأحياء لكي نعتني بالأموات."

بعد إثبات هوية الطبيب ويليام تيت، ومؤهلاته الطبية، قال السيد ألكسندر: "لقد وصف الشرطي بيكر طبيعة الإصابات التي عانى منها الضحية، أليس كذلك؟"

"لقد فعل ذلك، يا سيدي. لقد كنت قادراً على فحص البقايا بنفسي، وتطابق رأيي مع رأي الشرطي.

"كيف وجِدَت البقايا؟"

"بعضها، بالطبع، تم حرقه، ومن تلك كان بإمكاني فحص أجزاء مفتتة فقط، ولكن بعضها الآخر كان قد تم دفنه في الثلج، أو إخفاؤه حول قطع خشبية في تلك البرية المتجمدة، وتلك الأجزاء كان قد تم حفظها بشكل لابأس به. كان الجلد قد امتقع لونه وتجعّد بسبب البرد، ولكن لم يكن هناك تحلل أو اجتياح من قِبل حشرات."

نظرت على الفور إلى شقيقة زوجتي الآنسة ماري، آملاً أن أراها مغشياً عليها

بين ذراعي ابن عمها، ولكنها كانت يقظة ومتنبهة كما لو كانت تؤدّى هناك رقصة رباعية. لقد عزوت ذلك لرغبة في التخيل من جانبها، حيث شعرت أن الغرفة أصبحت فجأة حارة بشكل غير ملائم.

تابع الطبيب: "لقد قمت بإعداد رسم تخطيطي لمواضع جروح مختلفة." وسحب ورقة من جيب معطفه وسلمها للمحامي الذي تفحصها، ومررها إلى القاضي، وإلى السيد وودفين، وإلى هيئة المحلفين، وأخيراً إلي. لقد رسم الطبيب تيت الرأس والأطراف منفصلين عن الجذع، ووضع اسم كل جزء مع حجم وطبيعة الجرح. وكانت معظم ترميزاته تنص على: *علامات نشر، تم القيام بها بعد الوفاة*. لم تكن تلك الجروح التي كانت تهمنا.

"هل كان بإمكانك تحديد سبب الوفاة، أيها الطبيب؟"

"أي ضربة من الضربات القوية بواسطة فأس يمكن أن تعمل على قتل الضحية، ولكن الضربة التي أقدِّر أنها في الغالب قد فعلت ذلك كانت الجرح الذي في الرأس ـ شجّ بليغ بعرض عدة إنشات على طول الجانب الأيمن من الجمجمة. تلك الضربة من شأنها أن تجعل إنساناً عاجزاً تماماً بحيث لا يمكنه الدفاع عن نفسه."

فكر ويليام ألكسندر ملياً في الأمر. "ضربة واحدة سريعة على الرأس ـ ربما تم تلقيها بدون سابق إنذار ـ والمسكين تشارلز سيلفر عاجز أمام قاتلته. هل يتطلب الأمر قوة كبيرة لضرب رجل على رأسه على هذا النحو بواسطة فأس؟"

"حسناً، يا سيدي، لن يكون باستطاعة طفل أن يقوم بذلك،" قال الطبيب تيت، "ولكن تقريباً أي بالغ قوي البنية يمكنه أن ينجح في فعل ذلك. قد يحتاج الأمر لقوة أكثر مما يحتاج كسر بيضة، ولكن أقل مما يحتاج تقطيع أعواد الخشب التي تضرم بها النار."

"هل يمكن لامرأة أن تقوم بذلك؟"

"آه، بسهولة، على ما أعتقد. لا سيما إذا كانت معتادة على القيام بأعمال المزرعة."

ابتسم المدعي العام. "أشكرك أيها الطبيب."

أصبحت قاعة المحكمة خلية تمتمات لبضع دقائق بعد ذلك، وسمعت بوضوح رجلاً يقول: "لقد كنت أعرف أنها فعلتها!" قبل أن يوبخهم القاضي دونيل ليلتزموا الصمت.

اقترب نيكولاس وودفين من الشاهد بتمهل. "أيها الطبيب تيت،" قال ببطء، "أعرف أنك ذكرت أنه من الممكن جسدياً لامرأة أن تضرب هذه الضربة المميتة. اسمح لي أن أطلب منك الأخذ بالاعتبار جانباً آخر من تلك الإمكانية. هل سبق لك، طوال فترة تدريبك وممارستك، أن سمعت أو قرأت عن امرأة تقتل أحداً بفأس؟"

بدا الطبيب وكأنه يحدّق بي مباشرة، ولكنني اكتشفت أنه لم يكن يراني، وإنما كان فقط يبحث في الذاكرة خلف عينيه عن قصة ما عن قاتلة. "السم هو سلاح المرأة،" أخيراً قال بتمتمة.

"نعم. السم،" قال نيكولاس وودفين. "إن السيدات لا يملن إلى الفوضى، أليس كذلك؟"

"ليس بشكل عام، لا. ولكن إذا كنت غاضباً أو يائساً، ولديك السلاح في المتناول

"ولكن ـ دعني أكرر ـ أنت لا تعرف عن قضية أبداً قامت فيها امرأة بقتل أي شخص بفأس. هل هذا صحيح؟"

"لا يمكنني أن أتذكر واحدة. لا

"إن أمراً من هذا القبيل من شأنه أن يكون غير مسموع به إذن، حسب خبرتك؟"

"حسناً، تشارلوت كورديه قتلت مارات أثناء استحمامه بسكين. بالطبع، كانت فرنسية."

عندما هدأ الضحك، قال المحامي: "المدموزيل كورديه لم تكن فتاة صغيرة في الثامنة عشرة من عمرها، أيضاً، أليس كذلك؟ لقد كانت متطرفة سياسية تقتل غريباً، ألم تكن كذلك؟"

"أظن ذلك."

"هذا بالكاد مماثل لهذه القضية، قد يكون ذلك، يا سيدي؟"

"ربما أنه كذلك.

"أيها الطبيب، إذا حضر إليك شخص وأخبرك أنه تم فصل رأس رجل بفأس، وأن أجزاء جثته مبعثرة في الفناء، هل كنت ستخبر العمدة أن يبحث عن امرأة ضئيلة في الثامنة عشرة من عمرها ـ *تقوم بذلك لوحدها*!" ونطق الكلمات الثلاث الأخيرة بصوت أعلى من البقية، وسمعت ألفاظ إجابة من الحضور.

توقفت السيدة سيلفر عن التحديق في النافذة، ورمشت بعينيها. لقد رأيتها على هيئة شكل نحيل متصلب داخل قطعة ضخمة عديمة الشكل لذلك الثوب الباهت. وقد قابلت عيناها الزرقاوان عيني؛ كنت الأول في الإشاحة بنظري بعيداً.

تنحنح الطبيب تيت استعداداً للكلام. "حسناً، عدم توقع شيء، لا يعني القول إنه لا يمكن أن يحدث."

هز نيكولاس وودفين رأسه. "مرة ثانية، أيها الطبيب: *أكان من الممكن أن تتوقع شيئاً من هذا القبيل؟*"

نظر الطبيب إلى محامي الادعاء وهز كتفيه مستهجناً قبل الرد على سؤال وودفين. "لا،" قال أخيراً.

بعد لحظات قليلة أذن السيد دونيل للمحكمة الهادرة بالغمغمات بالانصراف لفترة استراحة الظهيرة. كنت آخر شخص يغادر، حيث كان يتعين علي أن أجمع ملاحظاتي، وأرتب مكتبي. إضافة إلى ذلك، لم أكن مهتماً بأن يتم دفعي وصدمي من قبل الحشد أثناء استعجالهم للوصول إلى الحانات. نهض نيكولاس وودفين، وتمتم ببضع كلمات تشجيع للسيدة سيلفر، ثم استأذنها بالانصراف. كنت آمل أن يقضي فترة استراحة الظهيرة في الدراسة والتأمل، لأن الأمور لم تكن تبدو على ما يرام بالنسبة لموكلته الشابة. بعد ذلك، رأيت توماس ويلسون يتلكأ عند المدخل، ومن الواضح أنه كان ينتظر زميله بحيث يمكنهما التشاور بشأن أحداث هذا الصباح.

أخيراً، وقفت السجينة تستعد لإعادتها إلى زنزانتها من قِبل السيد بريسنل، ولكن كان بإمكاني أن أرى أنها هي أيضاً كانت كارهة أن تذهب. وبقيت تنظر إلى الوراء على الجماهير المغادرة، وهمست لمرة واحدة شيئاً ما للشرطي الذي بدا منزعجاً، إلا أنه أعطى موافقة متذمرة.

في نهاية الأمر، ظهر رجلان، يتحركان بعكس تيار البشرية، في الطريق على بعد ذراع من السيدة سيلفر. لم يتمكنا من الوصول إليها، على أي حال. وقف والدها وشقيقها معاً، حيث كانا هما الرجلين، ووجههما مكفهرين، وخجلين تقريباً أمام هذه الفتاة التب أصبحت فجأة طيفاً. لمسا طرف قبعتيهما، وكانا ينتقلان من قدم إلى الأخرى بارتباك. تراجع الشرطي خطوة إلى الوراء عن الاجتماع العائلي، مراقباً إياهم بحذر، ويده على سلاحه. تلكأت فوق أوراقي، مجهداً نفسي لاستراق السمع على ما يُقال.

"حسناً، يا فرانكي،" قال أشعيا ستيوارت.

"كيف يعاملونك؟" سأل شقيقها جاكسون.

"إنني أحصل على ما يكفي من الطعام،" قالت. وكان عبوسها موجهاً نحو الأرض. لقد بدت متلهفة جداً لرؤية عائلتها، ولكن الآن وقد ظهروا، لم يكن يبدو أن اللقاء قد منحها أية سعادة. لم يقوما بأية حركة ليعانقا الفتاة، أو ليصافحاها. لقد وقف ثلاثتهم في صمت ثقيل إلى أن سألت فرانكي سيلفر أخيراً: "هل أرسلت ماما أية كلمة؟"

"فقط أنها تصلي أن يحفظك الرب،" قال والدها.

عادت النظرة العابسة. "أفهم ذلك،" قالت بلطف. "وهي لم تحضر.

"لا. رأينا ذلك أفضل." ما كان والدها ليواجه عينيها عندما قال هذا، وأجهدت نفسي لأسمع جوابها، ولكن لم يكن هناك جواب، إلا بعد مزيد من الصمت الثقيل، قالت: "وطفلتي؟"

"تم إرسالها إلى منزل عائلة سيلفر،" قال جاكسون. "إننا لا نراها، ولكنني أحسب أنها على ما يرام. لقد أنجبت السيدة سيلفر نفسها طفلاً ذكراً جديداً في الشهر الفائت، لذا من المرجح أنه من السهل عليها أن تعتني بطفلين بقدر ما هو سهل أن تعتني بواحد."

كانت عينا فرانكي سيلفر تبحثان عن عيني شقيقها الأكبر. "عندما تعود إلى المنزل يا جاك، أريد منك أن تذهب إلى هناك وتتأكد من أنها تحصل على رعاية جيدة،" قالت، وأجاب بإيماءة فيها خجل، وخطر لها أمر آخر فجأة. "أين بلاكستون؟"

"تركناه في المنزل ليعتني بوالدتك. لا يزال الطقس بارداً أعلى الجبل، وأرادت منه أن يراقب النار، ويعتني بالمواشي."

فكرت في نفسي أن عائلة ستيوارت كانت حكيمة في إبقاء المشتبه بهما الآخرين بعيداً تماماً عن مورغانتون، حيث أن حدة الانفعالات تميل إلى التصعُّد في

أيام جلسات المحكمة، إلا أن عيني فرانكي سيلفر اغرورقتا بالدموع. وكنت أفكر أنها ربما تتمنى أن ترى أمها وشقيقها العزيزين للمرة الأخيرة.

"وحيدة، إذن،" تمتمت.

"إننا هنا، يا فرانكي،" قال والدها.

"سنفعل ما بوسعنا." لقد حمل صوت جاكسون ستيوارت مزيداً من التيقن. "سنفعل *كل* ما بوسعنا."

نظر الأخ والأخت إلى بعضهما البعض، وأومآ وكأنما هناك تفاهم قد مر بينهما. "لن أقول المزيد، إذن،" قالت، والتفتت إلى السيد بريسنل. "يمكننا الذهاب الآن، سيدي."

عندما قادها الشرطي بعيداً، سمعتها تقول: "هل يمكننا الوقوف وحدنا عند المرج قليلاً؟"

"إنه وقت تناول الطعام، يا سيدتي."

"أريد أن أنظر إلى الجبال. هل يمكنك أن تراها من هنا؟"

خرجت من القاعة المهجورة الآن، معتزماً تقوية نفسي في إحدى الحانات، إن كان يمكن إيجاد مكان وصحبة أنيسة، عندما استوقفني صوت حاد على الفور.

"السيد غيذر، *يا أخي*!"

تجمّدت مكاني. إن شقيقات زوجتي يستخدمن عادة تعبير "أخي" فقط عند التمهيد لطلب، وحيث أنني تعرّفت على صوت هذه الشقيقة بكونه صوت الآنسة ماري إيروين المخيف، فقد استدرت ببطء نحوها بابتسامة تحية، ونفس مرعوبة.

"الآنسة ماري،" قلت. "كيف هو استمتاعك بالمحاكمة؟ هل آخذك إلى المنزل لتناول العشاء؟"

"إن المحاكمة مهزلة،" أخبرتني متجاهلة مجاملاتي. "ولا أعرف كيف يمكن لأي شخص ذي ضمير حي أن يأكل بعد مشاهدتها.

قررت ألا آخذ هذه الإهانة بشكل شخصي، بالرغم من أنها كانت محكمتي ومحاكمتي إلى حد ما. إنني أتساءل ما إذا كانت ستقول شيئاً من هذا القبيل لو استمر بقاء والدها العزيز في منصب كاتب المحكمة. هل الأمور لا تسير على النحو الذي يرضيك؟" سألت بأدب.

لم تكن بطول يصل إلى كتفي تماماً، ولكنها وقفت هناك تحملق فيّ، مع عمود شمسيتها الذي يشبه بندقية المسكيت جاثم على كتفها، تنظر إلى العالم بأكمله مثل عذراء الأمازون المحاربة. عند طرحي للسؤال، أعطى عبوس المحاربة مجالاً لنظرة لشفقة أنثوية. "آه، يا سيد غيذر،" تنهدت. "تلك الفتاة المسكينة الضائعة. لا أستطيع أن أفهم هذا كله."

"إننا نعتقد بأنه لا بد أنها قتلت زوجها لأنها كذبت وقالت إنه لم يعد إلى المنزل، وبالطبع ... عاد."

"ليس ذلك!" قالت وهي تعبس بتبرم. "بالطبع تابعت إجراءات المحاكمة. وأفهم تماماً ما أقسم عليه الشهود. ولكن ما نريده هنا هو بعض الكلام البسيط."

"كيف ذلك؟" تمتمت. ونظرت حولي باحثاً عن ابن عمها جيمس، ولكن يبدو أنه تدّبر هروبه بشكل جيد عندما اعترضت طريقي.

"إن الفتاة هي الشخص الوحيد الحي الذي يعرف ما حدث في ذلك الكوخ، سيد غيذر. دعوها تمثل أمام المحكمة واسألوها."

"هذا ما لا يمكننا القيام به، آنسة ماري،" قلت.

"لم لا؟"

"لأن المتهمين لا يمكن أن يدلوا بشهادتهم في قضايا جنائية. ومن المؤكد أنك

تعرفين ذلك. إنه قانون المنطقة، تم توريثة لنا من قِبل القانون العام الإنجليزي. إنه تقليد موقّر يرجع عهده إلى قرون مضت."

"إلى العصور المظلمة، بلا ريب، إلى حيث ينتمي،" أجابت. ولمست يدها المكسوة بقفاز ذراعي. "ألا يمكنك أن تتجاوز القانون في هذه القضية؟ إنني على يقين أن هناك شيئاً ينبغي علينا سماعه. دع الفتاة تتكلم."

ابتسمت بلطافة على الإطراء الكامن في طلبها. هل كان بإمكاني، ككاتب محكمة، أن أضع جانباً قانون المحاكمة المدوّن، والتقليد القديم لأن إحدى أفراد عائلة إيروين رغبت بذلك؟ قمت بهز رأسي. "حتى لو كان لي أن أحاول عمل شيء من هذا القبيل، آنسة ماري، فلا القاضي دونيل، ولا المدعي العام سيسمح به. وربما تجدين حتى أن محامي السيدة قد يرغب في إبقائها صامتة خشية أنها ربما تدين نفسها بشهادتها من غير قصد. إنها لن تتكلم."

"إذن، كيف يمكننا أن نصل إلى الحقيقة؟"

على الرغم من أنني تساءلت غالباً عن هذا التضييق ذاته في نفسي إلى حد كافٍ، فقد وجدت نفسي أدافع عن قانون عدم الإدلاء بشهادة المتهمة لشقيقة زوجتي. "هناك أولئك الذين يقولون إن الاستماع إلى إفادة مجرم تحت القسَم لن ينفع مستمعي الحقيقة. إن تقليداً من هذا القبيل من شأنه فقط أن يمنح المتهم فرصة ليشهد زوراً تحت القسم، وليضع نفسه في خطر أكبر بالحنث بيمينه أمام الله."

"أتعتقد أنها ستحنث بيمينها وتكون ملعونة بسبب ذلك؟" قالت الآنسة ماري.

"ثمة من يحاجج بهذا."

"هل من الأفضل أنها يجب أن لا تقول شيئاً، وتُعدَم بسبب ذلك؟"

لم يكن لدي إجابة على هذا السؤال، ولم تنتظر الآنسة ماري لتسمع إجابة.

عندما استأنفت المحكمة جلستها بعد ظهر ذلك اليوم، استدعى محامي الدفاع المزيد من الشهود من فرقة البحث التي طافت الغابة بحثاً عن بقايا تشارلي سيلفر. لم يكن هناك إفشاءات جديدة تم إظهارها. وكانت الغاية الوحيدة من جلسات بعد الظهر هي تكرار الفكرتين الرئيسيتين في قضية ويليام ألكسندر: أن القتل كان وحشياً ومرعباً، وأن المتهمة كذبت مراراً وتكراراً.

وفي نهاية المطاف، عندما تكاثف ضوء ما بعد الظهيرة إلى المساء، أعلن أنه لم يعد لديه المزيد من الشهود لاستدعائهم. يمكن للسيد نيكولاس وودفين الآن أن يطرح قضيته. لقد كنت أشك في أن وودفين كان سيستدعي أي شهود خاصين به. ما الذي سيقولونه بحق السماء؟ لم يقل أحد أي شيء ضار بحق شخصية المتهمة. إن أولئك الذين وقفوا على منصة الشهود اعترفوا جميعهم، بالرغم من أن ذلك كان على مضض، بأن السيدة الشابة سيلفر كانت مجدّة، ومتزنة، وزوجة وأماً صالحة بمعنى الكلمة. لم يكن هناك حوادث عنف سابقة، أو سلوك وحشي ليفسر الأمر.

هل كانت مجنونة، إذن؟ لم يكن بإمكاني أن أصدق أن أي شخص من الحاضرين في قاعة المحكمة هذه من شأنه أن يعتقد ذلك. لقد جلست فرانكي سيلفر بهدوء وصمت طوال إجراءات اليوم المقيتة، ولم يتميز سلوكها بنوبات مَرَضية، أو نوبات ضحك، ومظهرها الخارجي محتشم وجميل كعذراء على مقعد كنيسة. لم يكن لديه شيء لينكره إذن، سوى الشهادة تحت القسم لنصف مجتمع الحدود: فرانكي سيلفر كذبت. لم أجد طريقة للالتفاف عليه، إلا إذا وضعها على منصة الشهود، وهذا أمر لم يكن مسموحاً له القيام به. إنها رحلة مريرة لمحامٍ متخرج حديثاً. فليساعده الرب.

أخذ نيكولاس وودفين نفساً عميقاً عندما نهض ليواجه القاضي. "حضرة القاضي،" قال، "الدفاع ينهي تقديم الأدلة."

بيرجيس غيذر

حكم هيئة المحلفين

مع الوقت كانت الظلال تطول على العشب خارج قاعة المحكمة، كان كل من المحاميين قد أنهى مرافعته الختامية. وقضيت معظم فترة ما بعد الظهيرة أحملق خارج النافذة على الأشجار والسماء ذات الغيوم المتكاثفة فوقها، تاركاً الكلمات تنهمر عليّ، وكأنها كانت بالتأكيد ستغرق فرانكي سيلفر.

قام القاضي دونيل بإلقاء موجزه الممل للأدلة ، والتزامات المحلفين، ومن ثم أرسل هيئة المحلفين إلى الخارج للمداولة. كان يتوجب عليهم أن يقوموا بتقديم تقرير على الفور في صباح اليوم التالي لينطقوا بحكمهم. وتم تأجيل المحكمة حتى ذلك الحين. وتساءلت ما إذا كان حضرة القاضي سينام بشكل أفضل من بقيتنا، بانتظار قرار الصباح. لقد تم إخراج السيدة سيلفر من قاعة المحكمة لتعود إلى زنزانتها لتقضي ليلة من الرعب كان يمكن أن تكون بصعوبة أسوأ من المشنقة ذاتها. راقبتها وهي تجعل كتفيها النحيلين على شكل زاوية قائمة بينما تسير أمام سجانها، ورأسها مرفوع عالياً، وبدون أن تتجنب نظرة إلى الحشد، وقد صممتُ على التمتمة بصلاة من أجلها تلك الليلة.

تجمّع المحلفون ليتم عزلهم في غرفة هيئة المحلفين في مبنى المحكمة، والتي

كانت أكبر بقليل من الطاولة الخشبية الموجودة داخلها. وبالنسبة لفترة مداولاتهم فقد كان ينبغي أن تكون "بلا لحم ولا شراب ولا نار،" كما كانت تجري العادة منذ زمن بعيد جداً. فسيكون من المرجح أن يصل الرجال الذين بدون طعام أو شراب إلى قرار فوري. وفي حين كانت هيئة المحلفين محرومة هكذا، وتتدارس الدليل ضد فرانكي سيلفر، كان بقية سكان مورغانتون قد ذهبوا إلى الحانات لإعادة المحاكمة في القضية بهدير بليد فوق كؤوس الويسكي وبراميل جعة المِزر. وقامت هذه المحكمة ذات الجو الاحتفالي والمكونة من مخمورين، بتحليل النقاط الدقيقة من المحاكمة استعداداً لسرد لاحق للأحداث أمام السيدات على العشاء في تلك الأمسية.

لقد وجدت المحامين عند ماكينتاير، يجلسون معاً إلى الطاولة في الزاوية البعيدة. وقد تم منحهم هذا المظهر من الخصوصية بسبب الطبيعة الجدية لمهمتهم، وبالتالي كان المعربدون على البار بعيدين بحيث لا يتدخلون بأعضاء جماعة المحامين.

ومما لا شك فيه أن الرجل العادي سيكون مندهشاً من رؤية هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء لدودين من ساعتين، يتحدثون برضا ودوي وهم يحتسون جعة المزر، ولكنني كمحام زميل، لم أكن أتوقع شيئاً آخر. لقد انتهت المعركة الآن؛ وكان الأمر في أيدي هيئة المحلفين، وقد يعيش المحامون ليتعاركوا يوماً آخر. لقد تخلوا عن عداوتهم، كما يحدث دائماً، داخل جدران مبنى المحكمة، حيث أن المهن القانونية طويلة المدى، وخصم اليوم قد يصبح زميل الغد، أو قاضياً، أو صديقاً ذا نفوذ وسلطة في الهيئة التشريعية، فليس هناك مجاملة رزينة أكثر من الاحترام المولود من مصلحة ذاتية طموحة.

وبالرغم من ذلك، فإن نيكولاس وودفين كان صحبة رديئة في تلك الأمسية. لم يظهر أي حقد تجاه أصحابه، ولكنه جلس أمام كأس لم يُمس، وحملق في لا

شيء، ويجيب فقط بكلمات أحادية المقطع إذا خاطبه أحدهم مرتين ـ بصوت مرتفع.

"أعتقد بأنك قمت بعمل جيد،" قلت له، وأنا أجلس في الكرسي الشاغر بجانبه. "لقد تحدثت ببلاغة وبإقناع قوي. لقد كان أداءً مؤثراً بمجمله."

"ولكن ليس بما يكفي،" قال وودفين، سانداً جبينه على مؤخرة كفه. لقد رأيت كم كان يبدو متعباً، ومثقلاً بالهموم. وكان هناك شعر خفيف على ذقنه التي تكون في العادة محلوقة جيداً، وكانت ملابسه مليئة بالعرق والدهن أكثر مما يسمح به سيد أنيق جداً في ظروف عادية. لا شك أنه كان سيقوم بتغيير ملابسه قبل ساعة العشاء، ولكنه الآن فقط كان يبدو مغتماً جداً لأن يهتم بمظهره. أي شخص من شأنه أن يعتقد بأنه كان الشخص المميز في المحاكمة اليوم، بدلاً من كونه مجرد عامل متعلم يقوم بالعمل الذي تم استئجاره من أجله.

"هيا يا وودفين، هل لك أن تكف عن هذا؟" إن السيدة بين يدي الرب الآن،" قال السيد ويلسون الذي كان رزيناً أكثر من زميله إلى حد كبير. وعندما لم يلقَ هذا الخطاب المشجع أية استجابة، علّق ويلسون موجهاً كلامه لبقيتنا: "في المسائل القانونية، لم يتعلم صديقنا الشاب أن يحافظ على أوتار قلبه مشدودة بإحكام كما يشد خيوط محفظته."

رفع ويليام ألكسندر، الذي هدأ مرحه بمجاملته فقط، كأسه البيوترية لشرب نخب. "لا، لا،" قال بمودة. "لا توبخ زميلي على حساسيته، يا عم ويلسون. أحب الرجل الذي يؤمن بقضاياه. إن قلبه المخلص شرف له. لنشرب نخب صحته ـ إن لم يكن نخب صحة موكلته!"

ضحكنا جميعنا بأدب على دعابته. حتى وودفين نجح في رسم ابتسامة شاحبة على وجهه، ولكن كان بإمكاني أن أرى أنه كان لا يزال منزعجاً. "لازال بإمكانها أن تفلت من حبل المشنقة،" قلت له. "إن الدليل قريني بحت."

"وكذلك الدليل على أن الشمس ستشرق غداً،" قال السيد ألكسندر بتكاسل وبطء.

"ولكنني أعتقد بأن الأمر كله سيان."

ضحك السيد ويلسون على هذه الثرثرة. وأحنى كل منهما رأسه معاً ليتحدثا في أمور أخرى، تتعلق بالعائلة، على ما أعتقد، حيث أنهما كانا قريبين بزواج السيد ألكسندر من ابنة أخت ويلسون.

حولت انتباهي إلى محامي الدفاع الشاب القلق. كنت أعتقد بأنه سيكون من غير المجدي محاولة جعله مبتهجاً بتغيير الموضوع، لذا صممت أن أكون مستمعاً متعاطفاً لمحنته بشأن القضية. إضافة إلى ذلك، فقد جعلت المحادثة التي أجريتها مع الآنسة ماري إيروين بعد ظهيرة ذلك اليوم، الأفكار تحوم في رأسي. "هل أخبرتك موكلتك شيئاً عن موت زوجها؟" سألت وودفين. "الناس يشعرون أن هناك قدراً كبيراً من القصة لا نعرفه بعد."

تأوه وودفين. "أتمنى لو أنها أخبرتني شيئاً ما. كنت سأتمكن من الاستفادة منه في الدفاع عنها. ولكن فرانكي سيلفر تحتفظ بأسرارها. إنها مخلوقة صغيرة شجاعة. لا يمكنني أن أنظر إليها بدون التفكير بالصبي الاسبارطي الصغير مع ثعلبه داخل سترته يقضم أحشاءه. ستبقى صامتة حتى لو قتلها ذلك. وسيقتلها."

"ومع ذلك، فقد مثلتها بشكل جيد. لقد أثرت ما أمكنك من الشك. هل تتمنى لو كان بإمكانها أن تقف في منصة الشهود بنفسها؟"

اتخذ وودفين تلك النظرة المحدقة الفارغة لشخص ينظر إلى الأحداث وهي تتجلى في مخيلته، ولا يرى شيئاً من العالم من حوله. "أتمنى لو كان بإمكانها الإدلاء بشهادة،" قال أخيراً. "إنني خائف جداً من أن تكون قد اختارت الصمت، ولكنني بحق الرب أتمنى لو تسنح لي الفرصة لأدعها تتكلم."

"إنها قضية غريبة،" قلت. "إنها تبدو كملاك، ولكن جيرانها يسردون روايات عن الجريمة، وأكاذيبها القاسية بشأنها بحيث بالكاد يمكنني أن أعرف بماذا أعتقد."

"إن ما تعتقده هيئة المحلفين هو المهم، يا سيد غيذر. وأنا آسف جداً أنني أعرف ذلك مسبقاً.

نمت نوماً متقطعاً تلك الليلة لدرجة أن إليزابث أكدت أنني مريض من إجهاد نفسي بالعمل، وعدم استقرار طقس الربيع. وقامت بلف وشاح صوفي حول رقبتي عندما خرجت إلى المحكمة في ذلك الصباح، مما أبقاني أشعر بالدفء مقابل رياح آذار/مارس، إلا أنه لم يفعل شيئاً للبرد في عمودي الفقري، والذي أخبرني أن الموت أقرب حتى من الربيع. كان الطريق مزدحماً بالحشود المندفعة نحو مبنى المحكمة لسماع الحكم، ولكنني لم أتحدث إلى أي منهم. قمت بلف معطفي علي بإحكام أكثر. ومشيت بصمت متمنياً لو أستطيع قضاء اليوم في أشعة الشمس الباردة بدلاً من قاعة المحكمة العابقة برائحة نتنة.

أخذت موقعي أمام المحكمة مع بضع دقائق فقط متبقية ـ متأخراً نوعاً ما عن وقت وصولي الاعتيادي، حيث أنني تلكأت في تناول إفطار معتدل، وتباطأت على الطريق إلى العمل كتلميذ مدرسة مشاكس كاره للبدء بيومه الدراسي. وبدا المحلفون وكأنهم، كذلك، قد مروا بليلة مضطربة، وانزلقوا داخل مقصورة المحلفين بملابس متجعدة، وبذلك التعبير الرزين للحيادية الذي يجد جميع المحلفين وسيلة للحفاظ عليه، ربما دفاعاً عن خصوصيتهم، وهم يعرفون أن مئات الأغراب يتفحصون وجوههم، باحثين عن الحكم.

دخل المحامون إلى المحكمة معاً، باتزان، وكأنهم شمامسة في ترنيمة كنائسية، وكنت مسروراً أنهم لم يكونوا يضحكون ويثرثرون فيما بينهم، كما

يميل المحامون لأن يفعلوا أحياناً، نائين بأنفسهم عن القضايا القاسية. أخذ وودفين وألكسندر مكانيهما المحددين بانحناءات رصينة للقاضي دونيل ولي، وانتظرنا إلى أن يتم جلب السجينة.

ظهرت في المدخل، وكانت تبدو ضئيلة وتائهة، وشعرت بحاجة ملحة سخيفة للوقوف، كما يفعل المرء عند دخول العروس إلى الحرم المقدس. كانت ترتدي الثوب الأزرق الباهت ذاته الذي كانت ترتديه من قبل، ولكن الآن كانت تضع شالاً أسوداً قديماً معلّقاً على كتفيها، حيث أن الرياح كانت نشطة اليوم. وانخفضت تمتمة الأصوات تدريجياً في قاعة المحكمة إلى أن تحولت إلى صمت أثناء شقها لطريقها لتجلس بجانب السيد وودفين. انحنى وهمس لها ببضع كلمات ـ ربما كلمات تشجيع، ولكنني لم أرَ أي انفعال على وجه السيدة سيلفر. كانت ترفع رأسها عالياً، ونظرت نحو مقدمة قاعة المحكمة؛ ربما كانت هي، أيضاً، على دراية بحملقات الجماهير.

"السادة أعضاء هيئة المحلفين، هل يمكننا سماع حكمكم؟" كانت اللهجة الإسكتلندية الصارمة للسيد دونيل تبدو متماشية تماماً مع فحوى هذا اليوم، وتخيلت أنني رأيت أن لون وجه رئيس هيئة المحلفين قد امتقع تحت نظرة القاضي المحدقة الجافة.

"آه، حسناً حضرة القاضي " تحركت عينا الرجل الصغيرتان يسرة ويمنة، باحثتين عن إما مساندة أو عن مخرج، ولكن لم يكن أي منهما وشيكاً. لقد تنحنح وبدأ من جديد. "أعني... ليس لدينا حكماً بعد."

انتظر القاضي دونيل في صمت مطبق لم يتنفس خلاله أحد.

لعق المحلف المنحوس شفتيه، ولكنه صمم على أن يكون قوياً. "لم نتمكن من الاتفاق على الأمر. إننا نود استجواب بعض الشهود مرة ثانية، يا سيدي."

هذه الجملة أحدثت انفجاراً للضوضاء من القاعة، ورداً من مطرقة جون دونيل. "هذا مخالف إلى حد بعيد،" قال للمحلفين.

"نعم، يا سيدي،" قال الرئيس، ولكنه كان أكثر ثقة الآن. قد يكون القاضي هو عازف المزمار، ولكن هيئة المحلفين هي التي تحدد اللحن. "نود أن نستمع إلى بعض الشهادات مرة ثانية، يا سيدي."

تنهد السيد دونيل بضجر، ربما على حماقته في ترك القاعات الرخامية في رالي للخروج إلى المناطق النائية الخام حيث لا يعرف المحلفون حتى كيف يصلون إلى حكم مناسب. ومما لا شك فيه أن القاضي قد تمنى أن يحصل على بداية مبكرة لسفره إلى الشرق، إلا أنه ذلك لم يتحقق له.

أحد المحلفين الآخرين قام بتسليم الرئيس قطعة من الورق. "لدينا قائمة، يا سيدي."

قام حاجب المحكمة بنقل الورقة إلى حضرة القاضي، الذي قرأها مرتين مع تعبير انزعاج متزايد على وجهه. في نهاية الأمر، أشار لوليليام ألكسندر ليتقدم ويأخذ قائمة الأشخاص ليتم إعادة دراستها. نظر القاضي دونيل إلى الخارج نحو البهو. "يتم تذكير الشهود بأنهم لا يزالون تحت القسَم. ويمكنهم الآن مغادرة المحكمة.

جمع غابرييل بريسنل العصبة الصغيرة من الناس القادمين من البرية الجبلية، وقادهم إلى الخارج نحو القاعة لانتظار أدوارهم على منصة الشهود.

إلى جانب همهمة التمتمات القادمة من البهو، سمعت الصوت المرتفع لنيكولاس وودفين. "لم يتم عزلهم!" هب واقفاً وهو يلوح بيده محتجاً. "حضرة القاضي، لم يتم عزل الشهود الليلة الماضية."

لقد كان على حق. في المحاكمات يتم فصل أولئك الذين سيدلون بشهاداتهم

في القضية عن زملائهم الشهود بحيث لا يقومون بمقارنة قصصهم بين بعضهم، وبالتالي، بقصد أم بغير قصد، يؤثرون على وصف بعضهم البعض للأحداث المعنية. في ليلة يوم الأربعاء وقبل أن تبدأ المحاكمة، تم فصل الشهود فعلياً عن بعضهم وفقاً للإجراءات، ولكن في الليلة الماضية لم يهتم أحد بشأنهم. لقد اعتقدنا بأنهم قد أنهوا دورهم، وبأن المحاكمة انتهت. لقد اعتقدنا بأن على هيئة المحلفين فقط التداول في المساء، ومن ثم العودة في الصباح للنطق بالحكم. وبدلاً من ذلك عاد المحلفون الاثنا عشر مطالبين بجولة أخرى من الإدلاء بالشهادات من شهود، باستثناء أن هيئة المحلفين هذه ستستمع الآن لأشخاص كانوا أحراراً في مقارنة الملاحظات، ولتبادل انطباعاتهم حول القضية ـ باختصار، أصبحت ذاكرة الشهود الآن مشوبة بآراء زملائهم. كنت أتساءل ما الذي قد يفعله القاضي دونيل بشأن هذا الخروج عن العُرف. إفترض أن رواية شاهد جديدة ومعدّلة عن الظروف أثرت على الحكم؟

انتظرنا في رعب صامت في حين كان القاضي يدرس الأمر. لن يكون هناك شيء بشأن هذه القضية سهل على أي منّا. متهمة مكروهة، وجريمة لم يُسمع بها من قبل، محامٍ قليل الخبرة، والآن عوائق منتشرة في طريق حل سريع. ومما لا شك فيه أن ذكر اسم مورغانتون ذاته، من الآن فصاعداً، سيجعل القاضي دونيل ينتفض. في نهاية الأمر، وبعد التأمل في جميع العواقب المحتملة للطلب غير العادي، التفت السيد دونيل إلي للمرة الأولى خلال القضية. "يا كاتب المحكمة، قال وهو يومئ لي لأتقدم، "ماذا تقول في هذا الأمر؟" نهضت واقفاً. "حسناً، يا سيدي،" قلت بوهن، "لم أرَ شيئاً كهذا يحدث من قبل، ولكن ليس هناك شيء في كتب القانون يمنع إعادة استجواب الشهود. إنهم تحت القسم.

تضيقت عينا السيد دونيل. "إذن هم كذلك. وانحنى إلى الأمام موجهاً ملاحظاته إلى المحاميين. "سأسمح بهذا الأمر أيها السادة."

شحب وجه وودفين. "ولكن، حضرة القاضي، ربما أن الشهود اجتمعوا."

"إنهم تحت القسم، أيها المحامي. لقد أقسموا بالرب أن يقولوا الحقيقة كما يروها. كما يتذكروها الآن." لم تكن نبرته تحتمل مجادلة، ولكن بالرغم من ذلك بقي السيد وودفين واقفاً للحظة أو اثنتين، فاتحاً عينيه ولاهثاً، كأنه كان يبحث عن قشة لسبيل خلاص قانوني. لقد كان ذلك أحد الأوقات النادرة خلال مسار المحاكمة التي أراه فيها ينظر حوله باحثاً عن المستشار القانوني توماس ويلسون، ولكن ذلك السيد القدير لم يقدم له أي مساعدة؛ بل هز رأسه فقط وكأنه يقول إنه قد تم فقدان السيطرة على الأمر، وإن المجادلة بشأنه لن تجدي نفعاً.

التفت القاضي دونيل إلى المدعي العام. "سيد ألكسندر،" قال، "يمكنك البدء، يا سيدي."

اطلع على القائمة وأومأ لحاجب المحكمة. "الولاية تستدعي الآنسة نانسي ويلسون إلى منصة الشهود."

خلال الفترة الفاصلة القصيرة التي انتظرنا فيها وصول نانسي ويلسون، كان لدي وقت لإلقاء نظرة على الحشد، ولاحظت أن الآنسة ماري إيروين لم تكن موجودة بين الحضور. ربما أنها أخذت كفايتها من الشطرنج القانوني في اليوم السابق، لقد توقعَت حكماً غير مرغوب فيه، بدلاً من الاستمرار غير المتوقع للمحاكمة والذي باغتنا جميعنا.

دخلت نانسي ويلسون قاعة المحكمة في دورها الثاني على منصة الشهود وهي تبدو مضطربة. كانت ترتدي الثوب الأسود ذاته كما في الأمس، ولكنها لم تكن بالمظهر الواثق ذاته، وبقيت قريبة بجانب الحاجب وهي تشق طريقها بين الحضور بتجهم قلق، وكأنها كانت تتساءل ماذا كان المحلفون يريدون منها الآن.

عندما تمت تسوية الإجراءات التمهيدية، اقترب ويليام ألكسندر بابتسامة

روتينية تهدف إلى تهدئة مخاوفها. "يود المحلفون أن يسمعوا شهادتك مرة ثانية، يا آنسة ويلسون. لنبدأ من جديد. سأطرح عليك أسئلة، ويجب عليك الإجابة بصدق، على حد علمك. هل تفهمين؟"

أومأت برأسها. "أبدأ، إذن."

"أذكري اسمك، لو سمحت."

"نانسي ويلسون."

"إنك تقيمين في قسم نهر تو من غربي مقاطعة بيرك؟"

"هذا صحيح."

"ولست قريبة للمحامي توماس ويلسون من مورغانتون."

"لا. لم أسمع بذلك أبداً." هزت كتفيها بلامبالاة. "ربما هناك في إنجلترا قبل خمسمئة عام."

سمح ويليام ألكسندر لنفسه بابتسامة حقيقية، وطمأنها: "ليست هناك ضرورة لأن تتبرأي تماماً من السيد ويلسون، يا سيدتي. إننا فقط نثبت للمحكمة أنه ليس هناك قرابات يمكن أن تؤثر على شهادتك. إضافة إلى ذلك، فإنها ليست جريمة أن تكوني على قرابة بهكذا سيد قدير مثل زميلي المحنَّك."

"حتى لو كان محامياً!" صاح أحد الأشخاص في القاعة.

هذه الدعابة أثبتت الكثير بالنسبة للقاضي دونيل، وتلاشت ابتسامته عندما أبعد الهزل عن قاعة محكمته بالمطرقة المصنوعة من البلوط.

"آنسة ويلسون، هل أنت على معرفة بالمتهمة فرانسيس سيلفر؟"

"أعرفها." بإيماءة تأكيد.

"هل أنت على صلة قرابة بها؟"

"زوجها تشارلي كان ابن خالي." بدت نانسي ويلسون وكأنها كانت تنوي أن تقول المزيد، أو ربما أنها قصدت أن تذكّر المدعي العام بأنه يعرف هذه الأمور سابقاً، ولكن شيئاً ما في تعابير وجه السيد ألكسندر نصحها بالصبر، حيث أنها اكتفت بذلك الجواب المقتضب، واستمر الاستجواب.

"كيف حدث أن سمعت عن اختفاء ابن خالي تشارلز سيلفر؟"

"في كانون الأول/ديسمبر الماضي، كنت في زيارة لمنزل خالي عندما جاءت فرانكي" ـ أومأت بازدراء تجاه السيدة سيلفر ـ "دخلت وهي تقول إن تشارلي قد اختفى."

"هل كانت المتهمة تعرف أين كان؟"

"كانت فرانكي قد أخبرت العائلة سابقاً أن تشارلي قد خرج في اليوم السابق. لقد حضرت فقط لتقول إنه لم يعد بعد من زيارة إلى الجيران بالقرب من سلسلة التلال. وبدأنا نفكر أن تشارلي تعرض لأذى في طريقه إلى المنزل بين الثلوج. ربما يكون قد وقع في الجليد وغرق في نهر تو."

"هل كانت السيدة سيلفر تبدو قلقة بشأن فقدان زوجها؟"

"ليس هي. لقد كانت غاضبة. على الأرجح." رفعت نانسي ويلسون رأسها بحركة مفاجئة. كانت منزعجة بشأن كون تشارلي قد خرج، في حال أنه كان يقضي وقتاً ممتعاً بدونها. وكانت مستشيطة غضباً لاضطرارها القيام بجميع الواجبات المزعجة لوحدها. كانت تريد أن يتم علف البقر، وكأن امرأة كبيرة قوية مثلها لم يكن بإمكانها القيام بذلك بشكل جيد جداً لوحدها. واستمرت في قول إن الحطب كان ينفد لديها، وتريد أحد الفتيان أن يمر عليها ليقوم بتقطيع بعض الحطب لها.

"وهل ذهب أحدهم؟"

هزت رأسها. "لم تكن هناك حاجة لذلك. لقد قال آلفرد إنه رأى كومة من خشب البلوط مربوطة بحبل، وعيداناً لإضرام النار، مقطعة ومكدّسة مسبقاً، موضوعة هناك بجانب الكوخ قبل يوم أو يومين، وقال لها 'لا يمكن أن تكوني قد استهلكتها كلها بعد، يا فرانكي.' وبالطبع، الآن نعرف ماذا حدث لذلك الحطب." نظرت نانسي ويلسون بتحدٍ في أرجاء قاعة المحكمة، وكأنها تتحدى أي شخص أن يأتي بتفسير آخر لكومة الخشب المفقودة.

"هل اقترحت السيدة سيلفر أن تبدأ العائلة البحث عن زوجها؟"

"لم تفعل ذلك،" قالت نانسي ويلسون. "كانت تعلم أن ذلك لم يكن سيجدي نفعاً. واستمرت في قول إنه كان هناك حفلة في منزل عائلة يونغ، وإن تشارلي سيكون في المنزل عندما ينفد الخمر، كما هو الحال دائماً. لم يكن مجدياً الذهاب وراءه، كانت تقول، لأنه كان يفضل أن يرتمي مع أصدقائه الحثالة من أن يقوم بأي عمل على أي حال.

"عندما ظهرت السيدة سيلفر لتبلغ عن فقدان زوجها، من كان موجوداً في كوخ عائلة سيلفر؟"

قامت نانسي ويلسون بعدّهم على أصابعها. "بالإضافة لي، كانت هناك السيدة نانسي سيلفر، زوجة والد تشارلي؛ وأخواته مارغريت وراشيل ولوسيندا، وإخوته آلفرد وميلتون ومارفل؛ والطفل الرضيع ويليام.

"عندما كانت على استعداد للمغادرة، هل طلبت فرانكي سيلفر من أي منكم أن يرافقها في طريق العودة إلى منزلها، نظراً لأنها كانت وحيدة الآن؟"

"لم تطلب ذلك. لم تكن تريد أي شخص أن يذهب بالقرب من منزلها بأي حال من الأحوال. لقد كان ذلك واضحاً، فقد عرضت أخت تشارلي، مارغريت، أن تعود مع فرانكي، على أساس أن معها طفلة، ولكن فرانكي قالت إنها لا تريد

أي زوار. وقالت إنها ستذهب وحدها. وكانت تبدو على وجهها نظرة غريبة، أيضاً. كأنها كانت خائفة أن نتبعها."

لقد كانت هذه الشهادة مختلفة تماماً عن وصف الآنسة ويلسون الذي أقسمت عليه في اليوم السابق. لم أقم بتدوين ملاحظات لروايات الشهود، نظراً لأن عملي كان فقط التأكد من أنه كان يتم اتباع الإجراءات القانونية بشكل صحيح، ولكنني تذكرتها بشكل جيد. لقد تحدثت نانسي ويلسون بثقة بصوت واضح ومعبِّر، لقد انطبعت كلماتها ذاتها في ذاكرتي. لقد كانت فرانكي سيلفر تبكي، هذا ما قالته. لقد كانت الزوجة الشابة قلقة بشأن زوجها المفقود. لقد طلبت من مارغريت سيلفر ونانسي ويلسون أن تعودا معها إلى الكوخ، ولكنهما رفضتا بالقول إنهما لم تكونا ترغبان في المشي من خلال الثلوج العميقة إلى كوخها. هذه كانت الشهادة كما تذكرتها؛ من المؤكد أن هيئة المحلفين كانوا سيتذكرون أيضاً؟

تفحصت الوجوه في مقصورة المحلفين، ولكنني لم أرَ أي تعابير بالاندهاش أو التنبُّه. كان هناك رجل نبيل أبيض الشعر وذو عينان باردتان وفم صغير، يومئ برأسه برضا، وكأن هذه القصة كانت تنسجم تماماً مع ـ مع ماذا؟ ذاكرته لقضية اليوم السابق، أم تخيلاته لسلوك قاتلة مذنبة؟ كان باقي المحلفين يستمعون إلى القصة بوقار معادل. ووجدت نفسي أتفحص قاعة المحكمة من حولي، باحثاً عن ملامح وجه تعكس حيرتي من هذا التحول في الأحداث. ألا يتذكّر أي شخص؟

إن رواية الآنسة ويلسون المحوَّرة لأحداث 22 كانون الأول/ديسمبر أعادت قولبة المتهمة على أنها وحش متحجر القلب، غير مبالية بمصير زوجها، وواضحة في جهودها لتجنب اكتشافها. لقد اختفت صورة الأمس للفتاة الصغيرة الباكية، والقلقة على زوجها تشارلي المفقود، وهي تتوسل لقريباته بأن يأتين معها إلى المنزل ويبقين بصحبتها أثناء قيام الرجال بالبحث في الغابة. وببضع كلمات، ونصف دزينة فقط من

التفاصيل، أثارت نانسي ويلسون صورة قاتلة ماكرة وقاسية، مخلوقة لا تستحق رحمة ولا شفقة، وبالتأكيد لن تحصل عليهما من أولئك الحاضرين في المحكمة. إن فرانكي سيلفر التي تم وصفها اليوم كانت تستحق الموت.

لم يكن لدي طريقة لمعرفة أية رواية للقصة كانت هي الصحيحة، بالرغم من أنني، بالطبع، كنت أشتبه في أن الرواية الأولى كانت هي التذكر الصحيح. على الأقل أردت أن يدرك المحلفون أنهم كانوا يستمعون إلى وصف مختلف إلى حد شاسع عن ذلك الوصف الذي قدمته سابقاً وهي تحت القسم أمام الرب.

من المؤكد أن شخصاً ما آخر في قاعة المحكمة المكتظة هذه قد تذكر الشهادة السابقة. شخص ما قد يرغب في معرفة لماذا تم تغيير الحقائق تماماً عما جاء في الشهادة الأولى. شخص ما ... لقد وجدت الوجه المشدوه الذي بحثت عنه عند طاولة الدفاع: لقد كان ذلك نيكولاس وودفين. لقد أصبح شاحباً أكثر عندما كانت الآنسة ويلسون تتحدث، ورأيت شفتيه ترتعشان وكأنه كان بإمكانه السيطرة على صوت صرخته، ولكن ليس على الحركة.

وللحظة التقت أعيننا، وقرأنا الذعر في تعابير وجهي بعضنا البعض. وأشحت بنظري بعيداً أولاً، حيث لن أتمكن من تحمل رؤية هذا الشاب الشجاع والمثالي يفقد كل الإيمان في هيبة القانون في بداية حياته المهنية. وكنت أريد أن أخبره أن المحلفين لا يمثلون العدالة الإلهية. إنهم الحكام الذين نستحقهم نحن البشر عاجزون، وساذجون، وفوق ذلك كله غير معصومين من الخطأ. لقد كان يرى نهاية آمال موكلته، وقد أدرك ذلك. وتساءلت إن كانت هي قد أدركته.

كان يبدو أن هذا التحول في المصير قد أضرَّ بفرانكي سيلفر أقل مما أضرَّ بمحاميها. ربما أنها لم تستوعب الكارثة التي ألمت بها؛ ربما أنها ببساطة كانت تتوقع أقل من رفيقها الإنسان، أو من هذه الشاهدة بالذات. لقد ربضت في شالها الأسود، واستمعت بتلك النظرة المحدقة الفارغة التي رسمتها على وجهها معظم

فترة المحاكمة لتقطع الطريق على تحديقات الحضور الفضولية، ولكنني رأيتها تبتسم لمرة واحدة. لقد كانت ابتسامة حزينة ومرعبة، وقد عرفت أن ذكراها ستلازمني دائماً. تلك النظرة التي ربما كان على ماري ملكة إسكتلندا أن ترسمها عند سماع الحكم بالموت الذي وقعت عليه ابنة عمها إليزابث الأولى. لقد كانت ابتسامة شجاعة لمقامرة تعرف أنها خسرت كل شيء، ليس من خلال أي خطأ منها، وإنما من خلال خيانة رفاقها. وللحظة وجدت نفسي أتمنى لو أن الآنسة ماري إيروين قد حضرت إلى المحكمة اليوم، فما كانت لتحتمل هذا بصمت. لقد تمنيت ذلك، ولكن لم يكن لدي خيار. لقد كنت موظفاً في المحكمة، ولم يكن بإمكاني إيقاف ذلك.

لقد انتهى كل شيء سوى الانتظار. لقد خرج المحلفون للمداولة، وانتظر بقيتنا متعتهم وهم يحومون داخل مبنى المحكمة وخارجه، ينشدون أشعة الشمس بالرغم من برودة الشتاء المستمرة. لقد كان الوقت بعد الظهيرة تماماً، ولكن لم يكن أحد يريد أن يتخلى عن المراقبة بحثاً عن العشاء. بعضنا لم يكن جائعاً.

لقد بدأ الصباح باستعراض للشهود، وقد قام كل منهم بتغطية شهادته لتعكس ذنب المتهمة وحقدها. وبدا أن حقيقة إدانة فرانكي سيلفر بجريمة القتل تسربت داخل عقول أولئك الذين أدلوا بشهاداتهم، مفسدين ذاكرتهم بذكرى النظرات الغريبة، أو السلوك الغريب حيث لم تتم ملاحظة أي منها من قبل. لقد كانت الفتاة قاتلة، واستنتجوا منطقياً: من المؤكد أنها لا بد قد تصرفت كقاتلة. وما بين عشية وضحاها، تم تحويل المرأة الشابة التي أمضت حياتها في صحبة هؤلاء الناس، وتزوجت من عائلة منهم، إلى نذلة في أصلها من خلال ميلودراما. ولم يبدُ أن أحداً قد وجد ذلك غريباً.

حاول نيكولاس وودفين إيقاف الضرر الذي سببته إدانة الشهود المتسرعة.

وسأل مراراً وتكراراً : "ألم ترو هذه القصة بشكل مختلف من قبل؟" وكان الجواب دائماً : "بعد التفكير تذكرت ما حدث بوضوح أكثر."

أخيراً انتهى الاستجواب، وتم صرف الشهود للمرة الأخيرة، وأعطى القاضي دونيل تعليماته لهيئة المحلفين قبل إرسالهم للخارج للبدء بمهمتهم من جديد. لقد كان بيانه الختامي صارماً ولكنه عادل، بالرغم من أنه لم يتطرق إلى موضوع الشهادة المحوَّرة.

لقد كان حريصاً على أن يوضح للمحلفين أن الشك المعقول لا يعني استحضار حلول خيالية للجريمة، وذلك على الرغم من أن المتهمة كانت امرأة شابة جميلة، لم يكن القانون يحترم الأشخاص.

"هناك عصبة حول عيني آلهة العدالة،" قال مذكّراً إياهم، "حيث أنها ربما لا ترى من هو غني أو فقير، شاب أو مسن، جميل أو بشع، وبالتالي تبني أحكامها على أساس هذه الأمور السطحية. أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين، أرى أنكم أنتم أيضاً عميان عن إغراءات الرحمة المقدمة حيث ليس هناك أحد يتمتع بحصانة."

لقد فوجئت بالقلق الذي شعرت به قبل النطق بحكمهم. في العادة، فإن القضايا في المحكمة العليا، حتى القضايا الجدّية أو المأساوية، كانت تتركني غير متأثر. لم تكن لي مصلحة في الحكم؛ لم يكن هناك شيء مما يحدث في قاعة المحكمة يسيء إلى مقدرتي كمحامٍ، أو يؤثر على محفظة نقودي. إنني مجرد مراقب، حكم إجرائي، إن شئتم. ومع ذلك، فقد وجدت نفسي أتمنى من كل قلبي، بطريقة أو بأخرى، أن ينتصر نيكولاس وودفين، وأن يُطلَق سراح السيدة سيلفر الصغيرة.

لقد صممت ملاحقة السيد وودفين، الذي كان يقف لوحده على الحشائش في حديقة مبنى المحكمة، غافلاً، على ما يبدو، عن الأشجار ذات الزهور البيضاء من حوله مبشرة بقدوم الربيع. بالنسبة له سيكون شتاء أطول إلى حد ما، فكرت

وأنا أراقبه. لقد ذهب زميله توماس ويلسون إلى المنزل لتناول العشاء، ولم يهتم أي أحد من الحضور بالاقتراب من المحامي الشاب، فالرجل الذي يدافع عن قاتلة متحجرة القلب ليس شخصاً ذا شعبية.

"إنني متيقن من أنه لا يمكن أن تكون قد فعلت ذلك." قلت له بصوت منخفض، حيث لن أرغب في أن يسمعني أي شخص آخر.

ابتسم نيكولاس وودفين على الإلحاح في صوتي. لقد كان متعباً الآن، ولم يعد له حاجة للأمل. "هل لديك نظرية أخرى، يا سيد غيذر؟"

قمت بهز رأسي. "لا شيء. إنني أستبعد جميع سلوكات اليوم المصطنعة ـ كل ذلك الحديث المتطرف عن النظرات الغريبة للسيدة سيلفر وسلوكها الحاقد. لقد كان ذلك تنميق أشخاص يتمنون أن يضخموا أدوارهم في المسرحية الوحيدة في حياتهم. إنها شهادة الأمس التي تحيرني. لقد كان الشهود حازمين إلى حد مافي نقطة كذبها. لقد قالت فرانكي سيلفر إن زوجها لم يعد إلى المنزل، ومع ذلك تم اكتشاف أجزاء من جثته في الكوخ. لا يمكنني أن أبرر هذه الحقيقة."

"لا."

"ومع ذلك كانت لا تزال جريمة تنطوي على دم متخثر وأوصال مقطعة، تم ارتكابها سراً بدلاً من ارتكابها في لحظة انفعال عاطفي: هذا ينم عن جنون. ولكن المرأة التي رأيتها في قاعة المحكمة كانت عاقلة بشكل واضح. لا يمكن لأي شخص أن يعيب سيطرتها على نفسها."

"أتمنى لو كان لديها قدر جيد أقل من ذلك." قال وودفين. "إنها تخفي الحقيقة."

"بالتأكيد لا." اعترضت على ذلك. "هل تعلم ما الذي تخفيه؟"

بدا مضطرباً. "لا يمكنني أن أكون متأكداً."

"يجب عليها أن تتكلم بوضوح. إن حياتها تعتمد على ذلك."

أومأ المحامي الشاب برأسه وهو مستغرق بالتفكير. "إنني أتساءل إن كانت تعرف ذلك،" قال. "لقد أخبرتها كثيراً جداً، وقد أكده السيد ويلسون لها بأكثر الأساليب صرامة، ولكن لا يمكنني أن أكون واثقاً أنها تصدقنا. إنها فتية جداً وجميلة بحيث أنني متأكد أنه لا يمكنها استيعاب فداحة الموت. ربما أنها تعتقد لأنها امرأة شابة وعندها طفلة بريئة، بأن المحكمة ستظهر رأفة تجاهها."

"ربما سيفعلون ذلك،" قلت، ولكن كلماتي كانت لا تبدو صادقة حتى لأذني. وقفنا هناك في أشعة الشمس الباهتة وارتجفنا، نيكولاس وودفين وأنا، لأننا عرفنا ما كان سيأتي.

هذه المرة كان لدينا أكثر من ساعة لانتظار عودة هيئة المحلفين. استدعانا حاجب المحكمة جميعنا إلى المحكمة، ووجدت نفسي أبحث في وجهه عن علامة ما تدل على الحكم، وكأنني كنت الشخص الأحمق الأكثر سذاجة في حشد الحضور المخمورين. لم يبح وجهه بأي شيء؛ حتى لو كان في الواقع يعرف ماذا كان الحكم، فقد كان حريصاً على أن لا يكشف أي شيء. لو كنت مكانه لكنت قد فعلت الشيء ذاته. وفكرت في نفسي، سنعرف كل شيء قريباً جداً.

عدت إلى مكاني على طاولة كاتب المحكمة، ورتبت أوراقي مراراً وتكراراً للسيطرة على خوفي. ورأيت بطرف عيني إرشاد السيدة سيلفر لتأخذ مكانها بجانب السيد وودفين. كانت شاحبة، واعتقدت أنني لاحظت مسحة من اللون الأحمر حول جفنيها، ولكنها كانت هادئة كما هي دائماً، وتمشي ببطء ذاهلة عن الجميع. وعندما وصلت إلى طاولة الدفاع، وترك حاجب المحكمة ذراعها، نظرت نحو الأعلى إلى محاميها وابتسمت، وكأنها تؤكد له أن كل شيء سيكون على مايرام. وكأنما كان هو الشخص المعلقة حياته على الميزان. حاول أن يرد لها الابتسامة، ثم أشاح بنظره بعيداً بسرعة.

إنه في الواحدة والعشرين من عمره فقط، فكرت في نفسي، وقد نظر في أقل

من اثنتي عشرة قضية قبل أن يتم استدعاؤه إلى حاجز المحكمة. لن يشعر مرة ثانية أبداً بوخز عاطفة كهذا تجاه أي موكل، ولن يسمح لنفسه أبداً أن يهتم. وكنت على يقين أنه لو شاء الرب أن يبقي نيكولاس وودفين ليمارس القانون لخمسين سنة أخرى، فإنه لن يتحدث أو يكتب أبداً عن هذه الحادثة مرة ثانية.

دخل المحلفون في صف واحد، منضبطين ومتزنين تماماً، آخذين أماكنهم بدون مقابلة عيني أي من الحضور.

"السادة أعضاء هيئة المحلفين، هل وصلتم إلى حكم؟" قال.

تعلقت الكلمات *التي جاءت في الآخر* غير منطوقة في الهواء.

"أحسب أننا وصلنا، يا سيدي،" قال الرئيس. وبنظرة محدقة من القاضي جعلته يندفع واقفاً على قدميه وهو يجيب: "لقد ارتكبت الجريمة."

فقط هيبة المناسبة هي التي منعت القاضي دونيل من النطق بتوبيخ شديد اللهجة لهذا الريفي المتلعثم الذي كان متغافلاً تماماً عن إجراءات المحكمة. واستمر في التحديق بغضب في الرئيس عدة ثوان أخرى ساد خلالها صمت مروِّع قاعة المحكمة. وسبقت بضع نبضات قلوب انفجار الحضور بهذر صاخب، وحتى مع بضعة هتافات بالنصر أطلقها بعض المخمورين عديمي المشاعر.

بدت فرانكي سيلفر وكأنها تترنح للحظة، وتم سندها بذراع نيكولاس وودفين. لقد بدا كرجل شحذ نفسه لتلقي ضربة، وشعر أخيراً أنه تلقاها: لقد كانت سيئة بقدر ما كان متوقَّع، إلا أنه شعر على الأقل أنها انتهت. أخذ نفساً عميقاً وتمتم بشيء لتهدئة موكلته.

بحثت عن عائلة ستيوارت بين الحشد الهائج، جزئياً خوفاً من عنف ضدهم، أو منهم كرد فعل للحكم، إلا أنهم كانوا يقفون بسكون. كان أشعيا ستيوارت حانياً رأسه، ولم أستطع أن أعرف أكان في صلاة، أم في خضوع. ووقف ابنه جاكسون بقبضتين مطبقتين بشدة، محمر الوجه، ويتنفس بصعوبة، وكأنما المعركة

بدأت للتو، لا انتهت. لم يقم أي منهما بأي تحرك نحو المتهمة، وشعرت بوخزة أسى من أجلها. وفكرت في نفسي، ستكون وحيدة بصرف النظر، على أي حال. في هذه اللحظة الرهيبة، عندما وقفت وجهاً لوجه مع موتها، وستكون وحيدة حتى لو كانت هناك عشرة آلاف يد تمتد لتواسيها. وكانت تتجنب أية نظرة نحو والدها وأخيها. كانت تنظر إلى نيكولاس وودفين بوجه مليء جداً بالثقة مما جعلني أخجل من جميع الرجال المهنيين العاجزين. إننا نحن الأطباء والمحامون والوعاظ والقضاة نتصرف وكأننا نملك سلطة الحياة والموت على أولئك الذين يمرون أمامنا، وكأن لا شيء يخيفنا أو يرعبنا، ولكننا في الواقع عدة بيادق في اللعبة. وغالباً ما يمر بنا الموت مروراً سريعاً ليطالب بجائزته بدون حتى ترك مجال لنظرة إلى أولئك الأشخاص من بيننا الذين زعمنا أننا المدافعون عن الإنسانية. إن الناس يثقون بنا كثيراً؛ ومع ذلك لا يمكننا أن نفعل سوى القليل جداً.

"حضرة القاضي، يرغب محامي الدفاع بتقديم استدعاء رسمي لأمر قضائي، بناء على البيان، من أجل إجراء محاكمة جديدة!" كان نيكولاس وودفين يصيح ليُسمَع أكثر من صخب الحشد.

أومأ القاضي دونيل برأسه. لقد توقع اعتراضاً ما. "انطلاقاً من أية أرضية، يا سيد وودفين؟"

"على أن الشهود لم يتم عزلهم."

"تمت الموافقة على منح الأمر القضائي." والتفت القاضي دونيل إلي مشيراً إلى أنه يجب علي أن أدوّن كلماته. تناولت قلمي وبدأت بتدوين ملاحظات.

كان ويليام ألكسندر واقفاً، يتفجر احتجاجاً. "محاكمة جديدة! حضرة القاضي، لقد أضعنا الكثير من الوقت حتى الآن على هذه السجينة المذنبة بشكل واضح. لقد أدلى الشهود بشهاداتهم تحت القسَم. مرتين. ليست هناك حاجة لإطالة إزعاجهم أكثر لتتم إدانة هذه المرأة مرة أخرى."

"إنها تستحق محاكمة عادلة،" قال وودفين.

"لقد حصلت على محاكمة عادلة."

"لقد تغيّرت الشهادة."

"لقد تمت إطالتها، ولكن لم يتم تغييرها جوهرياً. لقد كذبت فرانكي سيلفر بشأن اختفاء زوجها، وقد قال جميع الشهود ذلك منذ البداية."

"هذا يكفي، أيها السيدين."

"الولاية تعترض على إضاعة الوقت والمال العام الذي سيتم تكبده في محاكمة جديدة. إن الدليل على ذنب المتهمة واضح كالشمس. إن محامي الدفاع يماحك على التفاصيل."

"الاعتراض مقبول،" قال القاضي دونيل، متفهماً النقطة التي لا تقبل الجدل.

"سيد وودفين، الأمر القضائي لإجراء محاكمة جديدة مرفوض."

"الشكر للقضاء، حضرة القاضي،" قال المدعي العام قبل أن يتمكن خصمه من الاعتراض أكثر.

"فلتنهض السجينة."

ساعد نيكولاس وودفين السيدة سيلفر للوقوف على قدميها، وأبقى يده عند كوعها لحمايتها وهما يواجهان مقعد القاضي.

نطق القاضي بالحكم بصوت تبريك جهوري بدون وجود شيء في نبرته يوحي بأي انفعال من جانبه تجاه المتهمة أو مصيرها. "فرانسيس سيلفر،" قال، "لقد صدر الحكم بأنك مذنبة بجريمة قتل من قِبل هيئة محلفين من المواطنين. وحكم المحكمة هو أن تتم إعادة السجينة، فرانسيس سيلفر، إلى السجن من حيث أتت، وبذلك تمكث لحين اليوم المحدد لمحكمة تموز/يوليو المقبل لمقاطعة بيرك، وأن يتم أخذها بعد ذلك من ذلك المكان إلى موقع الإعدام، وفي ذلك المكان والزمان تشنق

بتعليقها من الرقبة حتى تموت. ويتم تنفيذ هذا الحكم من قِبل عمدة مقاطعة بيرك.

لقد كان النطق بحكم الإعدام صيغة مألوفة، ولم تختلف أبداً، ومرَّت يداي عبر الصفحة بسرعة كبيرة وأنا أدوِّنه. وعندما رفعت نظري مرة أخرى، كان يتم إخراج فرانكي سيلفر من المحكمة من قِبل السيد بريسنل، مع شرطيين آخرين يحيطان به كحرس في حال وقوع شغب. كانت وجنتاها تتلألآن بالدموع، ولكنها لم تصدر أي صوت مطلقاً.

أشار وودفين لرجال الشرطة ليتوقفوا. "حضرة القاضي،" قال، "ترغب السجينة باستئناف حكم هذه المحكمة إلى المحكمة العليا لنورث كارولينا.

عبس القاضي دونيل، وظننت أنني عرفت سبب انزعاجه. إن الاستئناف إلى محكمة أعلى يكلِّف أموالاً، ولم تترك المتهمة انطباعاً لدى القاضي على أنها امرأة ذات إمكانيات مادية. وسأل: "ومن ستقدِّم السجينة كضامن لسند الكفالة؟"

أعتقد بأن نيكولاس وودفين كان سيدفع التكاليف من جيبه الخاص، حيث أنني رأيت وميضاً في عينيه دل على أن هناك تهوراً قادماً، ولكن قبل أن يتمكن من إثقال كاهله بذلك التعهّد المتهور، دوّى صوت أشعيا ستيوارت من خلفه.

"أنا سأتحمل سند كفالتها، أيها القاضي. شقيقها جاكسون وأنا سنكون مسؤولين عن ذلك."

"من تكون، يا سيدي؟"

"أنا والدها،" قال الصياد العجوز الأشيب، وهو ينظر إلى ابنته، وليس إلى حضرة القاضي. كنت أعرف أن الكلمات كانت موجهة إليها.

"حسن جداً، إذن،" قال القاضي. "إذا كنت ستضمن سند الكفالة، فإن الحكم سيُستأنف." والتفت إلي. "سيد غيذر، ستتفضل بكتابة ملخص المحاكمة ليتم

إرساله إلى المحكمة العليا في رالي، وجهزّه لأدقه قبل موعد مغادرة عربة السفر في الغد.

تقليدياً، يقوم القاضي الذي يرأس المحكمة بكتابة ملخص لوقائع المحاكمة لمحكمة الاستئناف، ولكن عملياً يقومون بتفويض هذه المهمة إلى التابعين من رتبة أدنى ـ أعني، إلي. يجد كاتبو المحكمة العليا الأدنى رتبة أنفسهم غالباً يستخدمون القلم ويحرقون وقود منتصف الليل لتكملة مهمة تلخيص القضية من أجل الاستئناف. "سأفعل ذلك بكل سرور، يا سيدي،" قلتُ بأدب حذر، ولكن كان قلبي مثقلاً وأنا أفكر بمساء العمل الشاق الذي يمتد أمامي، عندما أملت أن أنسى هموم مكتبي في إحدى حفلات عشاء عائلة إيروين.

توانيت فوق أوراقي، حيث أنني كنت أريد أن أتأكد من أن لدي جميع المعلومات التي قد أحتاجها لكتابة ملخص المحاكمة. وعلى بعد بضعة أقدام من طاولتي كان نيكولاس وودفين يستعد لتوديع سجينته المُدانة.

"لقد استأنفنا حكم الإدانة،" قال لها. "هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟"

هزت رأسها، وبدت مثل عجل مذبوح بفأس، فكرت في نفسي، حيث أنها وقفتْ إلى جانبه شاحبة تماماً وساكنة، وكانت تحدِّق في الأرض بلا شعور، وكأنه كان بإمكانها تخيلها تندفع بسرعة لتلاقي قدميها المتدليتين. أبعدت الفكرة عن ذهني، فذلك لن يحدث. إن نيكولاس وودفين هو بطلها، وهو ليس بلا علاقات.

"إن الاستئناف هو طلب للمحكمة العليا لتنظر في إجراءات المحاكمة." توقف محاولاً إيجاد كلمات بسيطة. "يجب أن نجعل المحكمة في رالي تقول إنه ليس بإمكانهم أن يعدموك."

أومأت برأسها بضجر، وأعتقدتُ بأنها لم تكن ترى إمكانية في أي أمل، وإنما لم يبق لديها قوة للمجادلة بشأن ذلك. هل أخبرني بتلر ذات مرة أنه بعد انتهاء

المحاكمة ينام السجين بعمق للمرة الأولى منذ أسابيع، حتى لو حلَّ به الأسوأ، فعلى الأقل ينتهي الغموض. لقد انتهت علاقة فرانكي سيلفر معنا الآن. لقد ذهبت إلى مكان ما آخر، حيث لا يمكننا تعقبها.

"لم أستسلم بشأنك، يا فرانكي،" قال نيكولاس وودفين. كان صوته مشوباً بإصرار، وكنتُ مسروراً لمعرفة أن الكرامة، وكذلك المهارة، كوّنتا الدفاع عن هذه المرأة الشابة المسكينة. "سنحصل على محاكمة جديدة لك، وعندئذ سنحرز نصراً!"

أومأت برأسها مرة أخرى، وعندما أمسك حاجب المحكمة بذراعها ليقودها بعيداً، ذهبت بطيب خاطر، وبعينين مسدلتين. لم تنظر إلى الخلف، بالرغم من أن نيكولاس وودفين وقف وراقب إلى أن تم تأرجح أبواب غرفة المحكمة المصنوعة من البلوط لتغلق خلفها.

لم تره مرة ثانية أبداً.

الفصل الخامس

كان المساعد سبنسر آروود يمضي ليلة أخرى وهو يعمل حتى وقت متأخر على مكتبه عندما وصلته المكالمة. لقد كان من المفترض أن شطيرة الهامبرغر التي كان يسيل منها الدهن من خلال الورق المشمع الذي يغلفها وعلى أوراق العمل الكتابي التي تحتها، أن تكون هي عشاءه، ولكن مر وقت طويل منذ أن تخثر اللحم على شكل كتلة عجينية القوام، ولم يتمكن من جعل نفسه يلمسها، حتى ليرميها.

عندما رن جرس الهاتف، كان مرتخياً من قلة النوم بحيث أنه التقط السماعة ليعيد الصمت وليس للتحدث مع أي شخص.

"آه ـ دائرة عمدة مقاطعة بيرك."

"السيد ميلر؟"

"لا. هذا مساعده."

"آه. سبنسر. أنا هارمون هنا، في الخارج عند موقف الشاحنات، وما شابه. كيف حالك؟"

"رائع، يا هارمون. ماذا يمكنني أن أقدم لك؟"

لقد كانا في المدرسة الثانوية معاً، والمعرفة الشخصية بينهما الآن هي انحاءة رأس فقط، ليست أكثر بكثير آنذاك.

"حسناً، يا سبنسر، لقد كانت محطة الإذاعة تتحدث عن أولئك القتلة هناك على الطريق. أمر رهيب. لقد كرهت سماع ذلك ـ فتاة جميلة في مقتبل العمر وما شابه. وقالوا، كما تعلم، إنك كنت تريد من الناس أن يبلغوا عن أي شيء مشبوه."

"نعم؟"

"لقد كان هناك فتى هنا عند موقف الشاحنات. ربما أنه لا شيء، ولكنني اعتقدت بأن من الأفضل أن أتصل بك."

"طفل؟ كم عمره؟"

"ليس طفلاً. فتى. حسناً، في السابعة عشرة أو نحو ذلك. ليس شخصاً تبيعه جعة بدون نظرة طويلة جداً على رخصته للسواقة."

حاول سبنسر أن يبعد نفاد صبره من نبرة صوته. لم يكن لديه وقت لانتهاكات في قانون شرب الخمور. "إذن، ماذا عنه؟"

"لقد كان يتجول في المنطقة محاولاً بيع حلي لسائق أو اثنين من سائقي الشاحنات هنا."

"أي نوع من الحلي؟"

"سلسلة من الذهب، وساعة يد نسائية، وجديلة من الفضة، وخاتم."

"خاتم زواج؟"

"كان يبدو لي أنه خاتم صف مدرسة ثانوية. خاتم كبير فضي اللون عليه حجر أزرق وهناك شيء محفور على الجانب. لم يتسنّ لي النظر إليه كثيراً. لقد دسه في جيبه عندما رآني قادماً إلى ذلك الطرف من طاولة الحاجز."

فكر سبنسر في نفسه، ربما لم يكن ذلك شيئاً. على أحسن تقدير، قد يتضح أنه دليل على سطو لم يتم التبليغ عنه. ربما قد يبلّغ قريباً زوج ممن يقضون إجازة عن تعرُّض غرفتهما في الفندق للسرقة، أو تعرُّض منزلهما للسطو. ومع ذلك، عليه أن يتحقق من الأمر. لم تكن هناك أدلة أخرى لتعقبها.

"هل لا يزال موجوداً هناك؟"

"نعم، إنه يلعب بلياردو مع اثنين من سائقي الشاحنات. أعتقد بأنه يراهن على اللعبة. أعتقد بأنه يعرض المجوهرات، والسائقان يراهنان بنقود. من الأفضل لك أن تصل إلى هنا قبل أن يخسرها جميعها، ويتدحرج دليلك من هنا بست طرق من يوم الأحد."

"راقبه. أنا في طريقي إليك."

أحياناً تصبح محظوظاً، قال نيلسي ميلر. في الساعات الأولى من الصباح، كان نيلسي يميل إلى إيجاد حكمة في أسفل زجاج أصابه عيار ناري، أو في وهج سيجارته الأخيرة. وكان يؤكد على أنه مقابل كل قضية بقيت بلا حل بالصدفة ـ لم يصادف أن رأى أحد أي شيء، ولم يصادف أن أحداً عثر على السلاح ـ هناك قضية أخرى يتم حلها بالحظ العشوائي ذاته. "هذه المرة ظهرت قطعة النقود لصالحك،" كان سيقول عندما عاد ليجد المشتبه به في السجن عندئذ، وتم تحديد الدليل لإجراء محاكمة.

وتساءل سبنسر الآن، حظ من كان ـ حظه غير المرتقب أم سوء حظ هاركرايدر؟ لقد وجد الصبي عند موقف الشاحنات مع اثنين من سائقي الشاحنات، وكان هارمون قد دلّه عليه. تعرّف سبنسر على الشاب الأشعث ذي الشارب الخفيف القرنفلي اللون على أنه أحد أفراد عائلة هاركرايدر، وطلب أن يرى المجوهرات التي كان الصبي يحاول بيعها. قام الصبي بحركة كأنه سيضع يده في جيبة سترته، إلا أنه، بدلاً من ذلك، دفع اللاعب بعصا البلياردو على سبنسر آروود وهرب نحو الباب لينجو بنفسه. كان على بعد حوالي ثلاثة سائقي شاحنات من الفرار، وبدلاً من أن ينجح في الوصول إلى سيارته، وجد نفسه ملقى على وجهه على الأرض اللزجة لموقف الشاحنات، في حين قام المساعد بتكبيل يديه خلف ظهره.

"إنه دورك،" قال آلتون بانر لمريضه وهو يضرب على رقعة الشطرنج ببيدق أسود.

رمش سبنسر بعينيه وعاد التركيز على القطع الخشبية المنحوتة، إلا أنه نسي الآن أي مناورة كان يخطط لها. "هل أغفلنا أي شيء؟" سأل خصمه.

هز الطبيب كتفيه بلامبالاة. "هل تشير إلى مخططاتي بشأن فيل ملكك، أم أنك هناك شارد الفكر مرة أخرى؟"

"كنت أفكر في ليلة جرائم القتل على الطريق،" قال سبنسر. "عندما كنا أنت وأنا في موقع الجريمة. هل كان هناك أي شيء أغفلناه؟ أي شيء قد تقوم به بشكل مختلف الآن ـ أعني مع مزيد من الخبرة."

"تحدث عن نفسك، يا ولد. لقد كنت في الواحدة والخمسين من عمري في تلك الأيام، ولا يمكنني القول إن الخبرة حققت لي تحسناً كثيراً منذ ذلك الحين. وبالنسبة للتكنولوجيا، فربما يوجد شيء كان بإمكاننا كسبه لو كان لدينا اختبار اللومينول والحمض النووي (DNA)، وباقي جميع الأدوات الجديدة، ولكن لا جدوى من القلق الآن، فقد مر وقت طويل منذ تحلل الدليل. لقد ذهب إلى القمامة في العقد قبل الأخير. ما الجدوى من التفكير في ذلك الآن؟"

"أريد أن أكون متأكداً. لم أتسبب في إعدام أحد من قبل ـ وهذا أمر متوقف على تأكيدي. لقد كان الدليل قريني."

"قريني. هل لك أن تستمع إلى نفسك؟ معظم الأشخاص في السجن، موجودون هناك بناء على دليل قريني، أليس كذلك؟ حتى أن المجرمين أذكياء بما يكفي لدرجة أنهم لا يرتكبون الجريمة أمام مجموعة من شهود عيان. باستثناء جون ويلكيس بوث، هو ذاك."

ابتسم سبنسر. "أعرف ذلك. ومعظم القتلة لا يميلون إلى الاعتقاد بأن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الاعتراف جيد للروح، كذلك. لدينا قضية مُثبَتة. لقد كانت حلي إيميلي ستانتون في حوزته، وكان يحاول بيعها، مما أعطانا دافع السرقة. وتم العثور على فصيلة دمه A سالب في موقع الجريمة. ولم يكن عنده شاهد إثبات غيبة."

"هل تحاول أن تقنعني أم أن تقنع نفسك؟ لأنه إذا كنت تقول كل ذلك لصالحي، فدعني أقول الآن إنه لم يكن لدي لحظة شك واحدة منذ ذلك اليوم وحتى هذا اليوم أن لديك القاتل. إن فصيلة دمه هي A سالب، سبنسر. تلك فصيلة دم نادرة لدرجة أنك إذا دخلت إلى بنك دم وعرضت التبرع ببعض الدم، فإنهم سيبدأون بالرقص من الفرح، وسيقدمون لك عبوات من عصير البرتقال."

"لقد كنت فقط أتساءل إذا كان يوجد أي شيء قد نسيته بشأن تلك القضية."

"إن ذاكرتي طويلة الأجل. لازال بإمكاني أن أرى هذين الشابين مكومين على الأرض في تلك المساحة مقطوعة الأشجار، وهما يبدوان كأنهما علقا في آلة دراس حبوب. لا، لن أنسى ذلك أبداً. لذا، لا تطلب مني أن أخصص الكثير من الوقت لمساعدتك في التألم لإعدام فيت هاركرايدر، لأنه في الليلة التي عثرنا فيها على جثتي ضحيتيه، كان بإمكاني أن أطلق عليه النار بنفسي بدون ارتعاشة تردد. أقسم أنه كان بإمكاني فعل ذلك."

دفع سبنسر القلعة (الرخ) إلى الأمام. "جاء في مذكرة استدعائي أنني كعمدة المقاطعة الوطن للسجين، كان بإمكاني تعيين شاهد آخر، بالإضافة لي، للحضور كذلك. أترغب في الذهاب؟"

تنهد آلتون. "لا أرغب في ذلك،" قال. "لقد قضيت عمراً أحاول أن أنقذ الناس من الموت، والآن ليس لدي نية في هذا الوقت المتأخر من اللعبة أن أشاهد الموت يقع عن قصد. إذهب أنت، إذا كنت تشعر أنه واجبك، ولكن تم الوفاء بمسؤولياتي كلها في هذه القضية قبل عشرين عاماً. لقد انتهت علاقتي بها."

هز العمدة رأسه. "سأخبرهم أنني أتنازل عن شاهدي الثاني، إذن. إن حارس الغابة، ويليس بلين، ميت. لقد طلبت من مارثا أن تتأكد من ذلك قبل يومين. بالاضافة إليه، لا يمكنني أن أفكر بأي شخص آخر يلزم أن يكون هناك."

مرت بضع لحظات في صمت أثناء ما كان سبنسر يحدق في رقعة الشطرنج، ولكن آلتون بانر كان يعرف أن الشطرنج ليس على باله. "ماذا عن قضيتك المدللة الأخرى؟" قال بصوت مرتفع، آملاً أن يحوّل انتباهه. "هل كان الدليل ضد فرانكي سيلفر قرينياً؟"

كان سبنسر قد انتهى من قراءة جميع المواد التي أحضرتها له مارثا عن قضية القتل التي وقعت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. حتى هذا الحين لم يرَ أي سبب ليشك في قرار نظيره من القرن التاسع عشر. وفي ضوء الظروف المقدَّمة لم يستطع أن يرى أي خيار سوى إلقاء القبض على فرانكي سيلفر لارتكابها جريمة قتل. "لقد كذبت،" قال. "عندما اختفى تشارلي سيلفر، ذهبت فرانكي إلى منزل عائلة زوجها، وقالت إنه لم يعد بعد إلى الكوخ.

"في حين أن معظمه عاد ..." قال الطبيب بانر ببطء. "أعرف القصة. ذلك لا يثبت أنها قتلته. ربما كانت تتستر على أحد ما.

"إذن فهي ليست بريئة،" قال سبنسر. "يتم كذلك إعدام المشارَكين في الجريمة قبل حدوثها. يبدو أنه لم يكن هناك دليل عن أي شخص آخر متورط، على أي حال. ولم تُتهَم فرانكي سيلفر أبداً بوجود عشيق لها. وكان والدها وشقيقها الأكبر في رحلة صيد طويلة في كنتاكي عندما تم ارتكاب الجريمة."

"هل أنت متيقن من ذلك؟"

"هذا ما قاله جميع رواة القصة، وأنا أميل إلى تصديقه، لأنه لم يتم إلقاء القبض عليهما أبداً. لو أنهما كانا هناك لكانا خيار الشرطي الأول كمشتبه بهما."

"حسناً، لقد كانت مذنبة. أتساءل ما الذي كان يزعج نيلسي ميلر بشأن القضية، إذن؟"

"حقيقة أنها لا تبدو صحيحة،" قال سبنسر. "فتاة ضئيلة في الثامنة عشرة من عمرها داخل كوخ مع طفلة عمرها سنة واحدة. كوخ من غرفة واحدة. كانت جثة تشارلي سيلفر مقطّعة إلى أجزاء، وتم حرق قطع منها في الموقد. كم سيستغرق ذلك من الوقت، على أي حال؟"

هز الطبيب كتفيه استهجاناً. "الأمر يعتمد. ماذا لدينا لنستخدمه من أجل ذلك؟"

"إنه عام 1831. فأس، ربما. سكين تقطيع طرائد الصيد."

"ساعتين، بسهولة. وأكثر إن لم تكن معتادة على الذبح. إذا لم تضرب بين الفقرات بشكل جيد تماماً، فقد يستغرقك الأمر ساعة لتفصل الرأس فقط. أتساءل كيف كان لديها الجرأة لتفعل ذلك. كونه هو زوجها وما شابه."

"لقد كانت خائفة من أن يتم القبض عليها،" قال سبنسر. "يمكن للخوف أن يجعلك تقوم بأشياء غير عادية."

"ربما كان الأمر كذلك. ولكنه ليس شيئاً يمكن توقُّع فتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن تكون قادرة على فعله. لم أعرف عن سابقة لهذا."

"لقد كانت فرانكي سيلفر رائدة. لقد كان الناس أقسى في تلك الأيام." دفع سبنسر بيدقاً نحو منتصف الرقعة. "دورك."

"مات الملك."

لقد نجح سبنسر في إبقاء قضية هاركرايدر بعيدة عن تفكيره لمباريتي شطرنج أخريين، وقد خسر كلتيهما، وذلك لأن عقله بقي شارداً في أمور ذات عواقب أعظم. أخيراً كان وحيداً من جديد، وقد وعد بأن ينام مبكراً مراعاة

لحالته الواهنة. وبدلاً من ذلك، كان يجلس في كرسيه الجلدي مع الملف المُصفَر المصنوع من ورق القنب على حجره، ويقوم بفرز الأدلة مرة أخرى.

إن الدليل المادي ربط فيت هاركرايدر مباشرة بمسرح الجريمة ـ لا شك في ذلك.

في بعد ظهر ذلك اليوم عند موقف الشاحنات، اعتقل سبنسر فيت هاركرايدر بتهمة اشتباه في جريمة قتل. وتمت مصادرة المجوهرات كدليل على ذنبه. كانت الأشياء تتطابق تماماً مع القائمة التي كتبها سبنسر خلال مكالمته الهاتفية مع الكولونيل ستانتون: خاتم المرأة لصف في جامعة نورث كارولينا يتضمن الأحرف الأولى EAS، والساعة الذهبية التي تصدر نغمة، وسلسلة من الذهب.

أخذ سبنسر السجين إلى السجن في هيملين لاستجوابه، وأبلغ رجل مكتب تحقيقات تينيسي أن لديه مشتبهاً به في السجن. كما ترك رسالة مع نيلسي ميلر، وأياً كان الأمر فقد إنقضى. تحقيق في اعتقال بجريمة قتل كبرى: هذا من شأنه أن يعيد ذلك الداهية إلى الموقع. لقد كان سبنسر متأكداً من ذلك.

قرأ المساعد سبنسر آروود على المشتبه به حقوقه. "هل تفهم؟" قال وهو يضع البطاقة جانباً. "يمكنك توكيل محام إذا أردت محامياً."

جلس الشاب المتجهم الوجه وقدماه مربوطتان حول أرجل الكرسي، وهو ينظر بعبوس إلى المأمور الذي يستجوبه. كان شعره الطويل أشعثاً، وكانت ملابسه الفضفاضة تحتاج إلى غسيل منذ عدة أيام. لقد كان سبنسر على وشك القيام بغسله قبل وضعه في زنزانة السجن.

هز السجين كتفيه استهجاناً. "لماذا أحتاج محامياً؟"

لم تكن مهمة المساعد أن يخبره ذلك. وقال: "إنني أخبرك فقط أنه إذا أردت محامياً، يمكنك طلبه الآن. وإذا كان ليس لديك القدرة على توكيل محام، يمكننا أن نعيّن واحداً ليقوم بتمثيلك."

هز كتفيه لامبالياً. "إنني لست بحاجة إلى مساعدة لأقول إنني لم أرتكبها."

"من أين حصلت على الحلي؟"

أبدى استهجاناً آخر. "وجدتها."

لقد قدم الاستجواب القليل من المعلومات الثمينة بعد ذلك. جلس فيت هاركرايدر هناك متجهماً وصامتاً، رافضاً جميع عروض الطعام والعصائر بهزة سريعة من رأسه، وكأنه كان مصمماً على قول أقل ما يمكن.

في البداية بدأ سبنسر بطرح أسئلة بسيطة بنبرة حازمة ولكن مهذبة. وعندما لم يجد ذلك نفعاً، انتقل إلى تكتيكات الصدمة، واصفاً الحالة المشوّهة للجثتين، وموضحاً أن القاتل غير النادم لن يحصل على أي تعاطف من القاضي أو من هيئة المحلفين. "إذا أردت أن تكون ميتاً كما هما ميتين، ابق جالساً هنا بدون قول أي شيء،" قال. "لا يمكنك التهرب بشأن وجود الحلي في حيازتك."

"هذا لا يثبت شيئاً."

لقد قدَّر أعضاء هيئة المحلفين خلاف ذلك.

* * *

كان جو لودون يكره الهاتف. لقد كانت رنته المجلجلة إزعاجاً آلياً في رأيه، ولم يكن يجيب عليه أبداً بدون لعنة في عقله على المقاطعة. لو أنه لم يكن يعمل في تنفيذ القانون، لما كان لديه هاتف في منزله. لقد كان أمراً مثيراً للسخرية، فكر وهو يحدق في الجهاز، عنكبوت إلكتروني على مكتبه، حيث أن الكثير من عمل الشرطة كان يتطلب براعة في إجراء الاتصالات الهاتفية.

لقد اتفق هو ومارثا على التمهل يوماً آخر قبل إخبار العمدة عن حوادث القتل. كان رجل مكتب تحقيقات تينيسي يجري تحقيقاته، ولكن مارثا وجو كانا سيكملان كل العمل الصعب في البحث عن شهود، بحيث قد يكون هناك القليل

ليقوم به سبنسر عندما يتم إبلاغه بالقضية. لم يكن جو يعتقد بأنه لن تكون هناك فرصة كبيرة في إبقائه فوق الجبل بمجرد سماعه بجرائم القتل الجديدة على الممر الجبلي، ولكنه برر ذلك بأن العمدة كان لا بد أن يعرف عن ذلك عاجلاً أو آجلاً، وكان من الأفضل أن تأتي الأخبار منهم.

حتى الآن كانا يتصرفان بحسب متطلبات القانون، بكل الشمولية التي يمكنهما جمعها في ست عشرة ساعة في اليوم. لقد تفحصا مسرح الجريمة، ومن ثم قاما بإعادة تفحص الموقع مرة ثانية عندما وصل رجل مكتب تحقيقات تينيسي. لقد تم قضاء الأيام القليلة التالية في التحدث إلى سكان مقيمين في جوار الموقع، واستجواب الناس في الحانات والمقاهي المحلية، واستجواب مزودي بضائع التخييم وفائض التجهيزات العسكرية.

رفضت مارثا أن تصدّق أن جريمتي القتل اللتين وقعتا على الممر الجبلي، واللتين يفصل بينهما عشرون عاماً، كانتا مرتبطتين بأي شكل من الأشكال، إلا أنها درست ملف القضية القديمة، على أي حال. ويليس بلين، حارس الغابة، كان ميتاً، ولكنها استجوبت هارمون ريتر، الذي لا يزال يعمل في موقف الشاحنات منذ وقت طويل. وتتبعت حتى رجلي الإطفاء من ألاباما، ولكن لم يكونا قادرين على إخبارها بأي شيء مفيد. لم تكن تتوقع وجود صلة بين القضيتين، ولم تجد أية صلة.

لقد ركز لودون انتباهه على الأفراد الذين يكون تورطهم في نشاط إجرامي أكثر إحتمالاً. راجع أولاً قائمة السجناء المُطلق سراحهم والمقيمين في المنطقة، مجرياً مكالمات هاتفية مع الأشخاص الذين تضمنت جرائمهم سرقة أو أعمال عنف، ومتأكداً من وضعهم الوظيفي الحالي. ولم يستبعد أصحاب السوابق بشكل كلي، ولكنه كان متيقناً بشكل منطقي من أنهم كانوا سيبحثون عن القاتل في مكان آخر.

في ذلك الصباح اتصل بخدمة المتنزه وطلب منهم أن يرسلوا إليه بالفاكس

نسخة عن ورقة سجل الدخول من تاريخ الجريمتين من الملجأين الواقعين على ممر الأبالاتشي الجبلي الأقرب إلى مسرح الجريمة. ربما أن أحد المتنزهين قد رأى شيئاً. ربما كان أحدهم هو الرجل الذي كانوا يبحثون عنه. لقد أمضى عدة ساعات في عملية شاقة للعثور على العناوين وأرقام الهواتف بواسطة الإنترنت، والاتصال بالمتنزهين، أو، في بعض الحالات، إرسال رسائل بالبريد الإلكتروني إليهم. لقد كان من غير الممكن الوصول إلى معظم أولئك الذين كانوا يتنزهون على طول الطريق حتى نهاية ممر الأبالاتشي الجبلي في ولاية مين، ولكنه كان قادراً على الوصول إلى عدد لابأس به من مخيمي عطلة نهاية الأسبوع، وزوار الحدائق العامة الذين قاموا بالتنزه لبضعة أيام فقط. لقد كانت الآن الساعات الأولى من المساء، وكان لودون لا يزال مستمراً في العملية دون توقف، مبرراً أن ساعات العشاء كانت أفضل وقت لإيجاد الناس في بيوتهم. وبالإضافة إلى قائمة الأسماء، أصبح فنجان القهوة، الذي كان هو عشاءه، بارداً.

لقد وصل للتو إلى جيف غاريسون في ماريلاند. وقام لودون بتوضيح من كان، وماذا كان يريد. لقد حددت أيام من الممارسة توضيحه في موجز مقتضب بأقل عدد ممكن من الكلمات. عندما انتهى، كان هناك صمت على الطرف الآخر من الهاتف.

"سيدي؟ هل أنت على الخط؟"

"إنني أفكر." في أواخر العشرينيات، كان لودون يفكر في نفسه محللاً الصوت. متعلم. موظف يعمل في عمل كتابي. ربما محام. غير منزعج من فكرة تحدثه إلى موظف قانون. كان ينتظر.

"إنني أحاول فرز الأيام المختلفة للرحلة."

"إننا على خط نورث كارولينا بالضبط،" أخبره لودون. "بالقرب من إيروين.

يونيكوي. هل تعرف أحداً كان يبدو ـ حسناً، من خارج المنطقة ـ على الممر الجبلي؟"

"آه، صحيح. دعني أرى.... كان هناك شخص مع كلاب صيد. لم أظن أنه كان من المفترض أن يكون في متنزه وطني."

أحد أفراد عائلة جيسابس، فكر لودون في نفسه. "إنهم يفعلون ذلك أحياناً في هذه المنطقة،" قال بصوت مرتفع، مسجلاً ملاحظة لاكتشاف من كان في الخارج مع كلاب، ولاستجوابهم، أيضاً.

"فيما عدا ذلك، كان هناك الناس العاديون الذي يتنزهون على الممر الجبلي. إنه مزدحم في هذا الوقت من السنة، كما تعلم. الكثير من المدنيين ـ المتبقين من سكان وودستوك، كما تعلم ـ في الخارج يتناجون مع الطبيعة، وبعض النساء المتحمسات حقاً يقمن بذلك الشيء الذي يدعى إكسينا. جميع الأنواع، في الواقع. وأشخاص كانوا يبدون محليين بوضوح. غير مثقفين.

قاوم لودون الرغبة الملحة في إخبار السيد غاريسون كم كان يكره التحدث إلى متعصبين. كان لا بد له أن يكون مؤدباً مع الشهود المحتملين، وإلا ستكون الممارسة بلا جدوى. لقد كان متأكداً من أن الشاب الأنيق سيكون مرتبكاً لاتهامه بالتحيّز. إن التأديب السياسي لا يتطلب تسامحاً أو مجاملة تجاه الجنوبيين البيض.

"آه، انتظر. بمناسبة الحديث عن المحليين. كان هناك شخص في الخارج يبدو غريباً."

"كيف ذلك؟"

"كان يبدو وكأنه كان مضطراً للذهاب إلى درس حاسوب بدلاً من الخروج للتخييم بحقيبة على الظهر. شاب نحيل وضئيل، يحمل أقلاماً في الجيب، وينتعل

حذاء رسمياً، وربطة عنق. في الغابة.

"هل كان معه حقيبة تُحمَل على الظهر؟"

"نعم. أعتقد ذلك. حقيبة كتب، في الواقع. ليس لوازم تخييم هامة."

"كم يمكنك أن تقدِّر عمر هذا الفرد؟"

"أواخر المراهقة. أوائل العشرينيات. من الصعب القول."

"هل يمكنك إعطائي وصفاً له؟ الطول؟ لون الشعر؟"

"ليس تماماً. لقد نظرت إليه فقط وقلت في نفسي: طالب كثير المذاكرة، وواصلت المشي.

"طالب كثير المذاكرة، هه؟"

"نعم. آه، إنتظر هناك شيء آخر أذكره. كان الشخص يضع قرطاً. هل تعرف برنامج الخيال العلمي ذلك الذي يُعرَض في التلفزيون عن المحطة الفضائية؟"

"لا

"حسناً، إن الأشخاص من هذا الكوكب يضعون دائماً هذا النوع الغريب من الأقراط المزدوجة. وكان يضع واحداً من تلك الأقراط. لذا فقد عرفت أنه كان متدرباً في محطة فضائية. وتساءلت ما الذي كان يفعله بالتنزه في الخارج، بدلاً من إطلاق النار على الغرباء في غرفة ألعاب الفيديو."

"إذا عثرت عليه سأسأله،" قال لودون.

كان فيت هاركرايد يعاني من ذلك الحلم مرة ثانية. كان المكان مظلماً، ولم يكن بإمكانه أن يرى أين كان، ولكنه كان يعرف، بالطريقة التي يعرف بها الشخص في الأحلام، أنه كان ميتاً. لم يكن بإمكانه أن يتذكر كيف وصل إلى الموت، أو ما إذا كان هناك أي ألم تضمنه مفارقة حياته: كل ما كان يعرفه هو أنه كان ميتاً، وأنه كان هناك ظلاماً دامساً. بقي ساكناً للحظة، يصغي إلى دقات قلبه،

أو صوت رئتيه تسحبان النَفَس، ولكن لم يكن هناك سوى سكون وصمت. لقد شعر بضيق الصدر من المكان المحصور، وكان يعرف أنه كان في صندوق في أعماق الأرض، إلا أنه كان واعياً نوعاً ما. ربما كان هناك خطأ ما، وأنه لم يكن ميتاً على أي حال. لقد سمع قصصاً عن رجال على المشنقة عادوا إلى الحياة بعد سقوطهم على الأرض عند قطع حبل المشنقة، وعن سجينة أعدمت بالصدمة الكهربائية احتاجت إلى صدمتين أو ثلاث من التيار الكهربائي ليتوقف القلب عن النبض أخيراً. ذهبت إيثل روزنبيرغ ـ الجاسوسة المتهمة في تلك القضية المتعلقة بأسرار القنبلة الذرية في الخمسينيات ـ إلى الكرسي الكهربائي في سجن سينغ سينغ. لقد مات زوجها من الجولة الأولى، ولكن كان عليهم تعريضها لصدمة كهربائية لمرة ثانية لتموت. ربما انتهت عملية إعدامه، وتم انتقاله إلى اللاوعي، ولكنه لم يُقتَل. كان سيصرخ ليخرجه أحد منا من هناك، ولكن عندما حاول فتح فمه وجد أنه قد تم إغلاقه بتخييطه، ولم يتمكن من فتح عينيه، وذلك لأنهما هما أيضاً قد تم إغلاقهما بخيط من النايلون. حاول رفع ذراعيه ليلكم غطاء التابوت، ولكنه لم يستطع القيام بأية حركة بذراعيه الميتين. وبقيت الصرخات داخل عقله، محجوزة وراء شفتيه المغلقتين بخيط، يدوّي صداها في الظلام.

عندئذ استيقظ. المكان ذاته الذي يستيقظ فيه من الحلم، إلى الزنزانة التي تبلغ مساحتها ستة أقدام في تسعة أقدام، والمليئة بكتبه وصور الجبال على تقويمه.

"هيه، ميلتون، هل أنت هناك؟" كانت الساعة الثانية فجراً، ولكن لا أحد ينام بعمق في زنزانات المحكومين بالإعدام. كان فيت يرتجف حتى في الحرارة الخانقة ليلة صيف في ناشفيل. لم يكن المكان مظلماً تماماً. لم يكن المكان هنا مظلماً تماماً أبداً. انتظر ليسمع صوتاً من وراء الجدار. "ميلتون؟"

ولكن ميلتون، جاره، تاجر مخدرات شاب من ممفيس، تم القبض عليه وحكم بالإعدام في قضية مخدرات، لم يُجب. لم يكن فيت يحب ميلتون كثيراً ـ ولكن

ربما، علل ذلك، تلك كانت هي المسألة. ليس هناك أحد يمكن أن تحبه كثيراً يصل إلى عقوبة الإعدام هذه الأيام، وذلك لأن هيئة المحلفين ما كانت لتطالب بعقوبة الإعدام لو أنه كان بإمكانهم إيجاد أي صفات في المتهم تحرره من الخطيئة. في الأيام الماضية، ربما، ولكن ليس الآن. لقد كان الرأي العام والمحامون الليبراليون يجعلون إعدام المساجين أصعب أكثر فأكثر، لذا، فقد كان المجرمون المحترفون، والقتلة للمرة الثانية بشكل رئيسي هم الذين يصلون إلى القسم الخامس الآن. وتساءل فيت إن كانت محاكمة جديدة من شأنها أن تشطبه من القائمة، ولكن ذلك لم يعد يبدو محتملاً الآن، كما ذكّره الحلم.

"ميلتون، هل أنت مستيقظ؟"

قد يطعن ميلتون جدته في ظهرها ويراهن على أي جانب ستقع، ولكن على الأقل كان هناك، ومستيقظاً، وحيّاً، ولو كان هناك أي شخص يمكنه أن يفهم كيف تشعر عندما تحلم أنك ميت وأن الحلم سيتحقق قريباً جداً، فسيكون هناك شخص آخر مُدان في زنزانات المحكومين بالإعدام. لقد كان أفضل من لا شيء.

"ما الذي يزعجك، لا ـ في ـ ييت؟" تدفق التشدّق الرتيب من الظلال مما جعله يتساءل إن كان بإمكان ميلتون أن يغني.

"أردت بعض الصحبة فقط. حلم مزعج، هذا كل شيء."

صمت، ومن ثم ضحكة مجلجلة. "الوقت يمضي بسرعة، أليس كذلك؟ حلمت أنك في فيرجينيا، لا ـ في ـ ييت؟"

"حلمت أنني كنت ميتاً. دُفنت حياً. لم أستطع أن أخرج. لم أتمكن من الصياح طلباً للنجدة."

"نعم، لا بد أنك كنت في فيرجينيا بالضبط، إذن،" قال ميلتون. "لقد كانوا يقتلون السجناء يمنة ويسرة هناك. كنت ميتاً، لا بد أنك كنت في فيرجينيا، لأنهم، اللعنة، بالتأكيد لم يقتلوا أي أحد في تينيسي خلال ثلاثين سنة ونيف. ولا

أحسب أنهم سيبدأون بقفاك النادم."

"لقد تم رفض جميع الاستئنافات."

"لدي نقود للمراهنة على استمرار وجودك، يا صديقي. حسناً، سجائر، على أي حال. علبتا مارلبورو تقولان إنك ستبقى حياً ونشيطاً في ليلة رأس السنة الجديدة."

أخذ فيت نفساً عميقاً وانتظر ليرى ما إذا شعر بأي تحسن. لم يشعر بذلك. "ميلتون؟ أريد أن تُحرَق جثتي."

"بعد أن تكون قد ذهبت إلى الكرسي الكهربائي؟"

"إنه الحلم. إنني في صندوق وأنا ميت ولكن لا أزال واعياً، والمكان مظلم، ولا يمكنني الخروج، وقد تم إغلاق فمي بتخييطه.

كان ميلتون صامتاً لدقائق قليلة، وبدأ فيت يفكر أنه استغرق في النوم، ولكنه ضحك بعدئذ وقال: "تُحرَق جثتك. ألا تهزم الجميع؟" وضحك مرة أخرى. "تحرق مؤخرتك. يا رجل، هل تعلم ماذا سمعت عن أولد سباركي؟ يقولون إنه ينبغي على فريق الموت الانتظار نصف ساعة قبل حتى أن يمسكوا الجثة، فهي تصبح ساخنة جداً. إنها تُطبَخ بسبب كل ذلك السائل الذي يضخونه داخلك. وأحياناً، يقولون، يحترق الجلد باشتعال النار فيه، وتُقلى مقلتا العينين على وجهك تماماً. وتعتقد بأنك ستبقى واعياً خلال ذلك، يا صديقي؟ لن يتبقى لديك شيء لتفكر به في الوقت الذي يضعونك فيه داخل الأرض لتبرد.

"أريد أن يتم حرق جثتي. إذا كانوا سيقومون بحرقي، فليس هناك ما يمنعهم من إتمام المهمة حتى النهاية."

بيرجيس غيذر

الاستئناف

ذهب طلبي للاستئناف الذي كتبته بعناية إلى رالي على عربة جياد نيولاند، وكذلك ذهب القاضي دونيل نفسه. كلاهما كان سيصل إلى عاصمة الولاية خلال ثلاثة أيام، ولكنني كنت أعرف أن عدة أسابيع ستمر قبل أن أستلم رداً من المحكمة العليا لولاية نورث كارولينا فيما يتعلق بمصير فرانكي سيلفر.

راقبت العربة تتمايل على طول الطريق العام، مخلفة وراءها وحلاً أسود، إلى أن توارت أخيراً داخل شجر الصنوبر بعيداً. تساءلت ما إذا كان بإمكان السيدة سيلفر أن ترى الطريق من نافذة زنزانتها. إنها نافذة مرتفعة وعليها قضبان، وربما أنها ضئيلة جداً حتى لتكون قادرة على الوصول إليها، ولكنها على الأقل ستمنحها لمحة للسماء، ويجب على أن أستمر في تذكير نفسي بأنها أكثر مما سيراه زوجها المسكين في أي وقت مرة ثانية. على الأقل لا زال لديها صيف آخر لتعيشه، في الوقت الذي يقوم فيه رجال القانون في رالي بالتداول. ينبغي أن لا تستغرق دراستهم للأمر وقتاً طويلاً، حيث كان ملخصي للمحاكمة يتألف من صفحة واحدة، تذكر ببساطة حقائق القضية، وطبيعة اعتراض الدفاع على الحكم. إنني لم أكتب الكثير من طلبات الاستئناف خلال فترة عملي القصيرة ككاتب محكمة،

tele @ktabpdf

ولكن القاضي قام بقراءتها بعناية، ووضع توقيعه على الوثيقة، وأبلغني بخشونة أنها ستؤدي غرضها. لم أهتم بسؤاله عما إذا كان يعتقد بأن فصاحتي من شأنها أن تجعل السجينة تحظى بمحاكمة جديدة.

لم أرَ فرانكي سيلفر منذ انتهاء المحاكمة، ولكنني سمعتها تبكي.

في يوم الجمعة، عندما أنهت المحكمة أعمالها لذلك اليوم بإدانة فرانكي سيلفر والحكم عليها، كان لدي فرصة للمشي في الخارج، حيث كان اليوم لطيفاً ومشمساً، وكنت ممتناً لقدوم الربيع، بالرغم من استمراريته الخفيفة للطقس في أواخر آذار/مارس. لقد تفرّقت الحشود الآن، بعضهم ليذهب في سفر طويل إلى الوطن، ولكن آخرين كثيرين كانوا سيملأون الحانات محتفلين بانتصار العدالة، أو على الأقل، حظهم الجيد في معرفة أنهم لم يكونوا هم الذين سيشنقون. كان بإمكاني سماع أصوات الصيحات والضحكات الصاخبة بعيداً أسفل الشارع، وصممت أن أذهب مباشرة إلى المنزل الليلة، حيث لم أكن أرغب في الاختلاط بالمحتفلين المعربدين. كنت أعتقد بأن منظر أوراق الربيع الجديدة، الذهبية إلى حد ما في أشعة الشمس، والتنفس العميق لهواء الجبل المنعش، من شأنها أن تفيدني أكثر من جعة المزر في حانة ماكينتاير.

لقد تمت مرافقة السجينة من قِبل السجّان، وكانت لا تزال تمشي بذلك الذهول الذي أصابها منذ سماعها حكم الإعدام يُنطَق بحقها. والآن تم حبسها في زنزانة سجن مخصصة للسجينات في الطابق العلوي، حيث كانت ستقضي الأسابيع الباقية من حياتها القصيرة. لقد تساءلت ما إذا قام قِس بزيارتها، حيث أنها بالتأكيد كانت بحاجة لراحة روحية في هذا اليوم المرير.

قبل أن أتمكن من التفكير في الأمر بشكل أفضل، وجهت خطواتي نحو المنزل ذي الإطار والذي كان بمثابة سجن. طرقت على الباب ـ نقراً بتردد، حيث كنت

أفكر الآن برغبتي المفاجئة بشكل أفضل متمنياً لو أنني لم أحضر، ولكن عندما استدرت لأغادر، فتح غابرييل بريسنل الباب بعبوس مدوٍ هدأ عندما رأى أنني كنت أنا الطارق.

"مساء الخير، سيد غيذر،" قال. رأيت أنه كان يحمل مسدساً على جنبه، وقام بخفضه بخجل عندما تعرّف علي. "ظننت أنك ربما تكون أحدهم، المتفرجين التافهين الذين يريدون أن يلقوا نظرة على السجينة. يعرضون عليّ مالاً، لقد فعل ذلك أحدهم." كان يبدو وكأنه يريد أن يبصق.

فتح بريسنل الباب بما يكفي ليدعني أدخل، وعندما كنت أمشي في المدخل الضيق، كان بإمكاني سماع نحيب بصوت منخفض من الطابق العلوي.

"لم أشأ أن أزعجك،" قلت على عجل. "هل السيد بتلر هنا؟"

"لا. لم يكن يبدو أن هناك مشاكل بعد النطق بالحكم، لذا فقد ترك أمر المراقبة لي. إنه في المنزل، إن كنت تريده."

فجأة شعرت بأنني أحمق. "ظننت أنه كان بإمكاني السؤال ـ أعني، كنت أتساءل ما إذا كان القِس قد رآها. أعني السيدة سيلفر. ليتلو صلاة معها، ربما. سيكون ذلك إحساناً، أليس كذلك؟"

هز غابي بريسنل رأسه باتجاه صوت العويل المرتفع. "إنها لن ترى أي أحد الليلة. لقد جثمت هناك متكورة على نفسها تحت النافذة في زنزانتها، تصيح كعجل تم كيه بالنار."

"هل قالت شيئاً ما؟"

"لا. تنوح فقط. إن زوجتي هناك في الطابق العلوي تحاول تهدئتها، لنتمكن جميعنا من الحصول على قليل من الراحة هذه الليلة."

"هذا لطف منها،" قلت وأنا أتراجع نحو الباب. "إنني سعيد لمعرفة أن السجينة لم تُترَك وحيدة الآن."

"إن ذلك أكثر مما تستحق،" قال بريسنل.

"حسناً، أعتقد بأنه كذلك،" قلت وأنا غير راغب في مناقشة الأمر على عتبة الباب. "ولكننا مأمورون بأن نكون رحماء، إلا في ذلك الإجراء الأخير للعدالة الذي لا بد أن تقاسيه قريباً."

"ذلك كما يمكن أن يكون،" قال بريسنل، "ولكن من الصعب الحصول على الإحسان مع جميع هؤلاء المخمورين المشاكسين الذين يطرقون الباب كل لحظة، وذلك المواء الصادر منها في الطابق العلوي هو أكثر من أن يُحتمَل."

"سينتهي كل شيء قريباً جداً،" قلت له.

ذهبت إلى المنزل في هواء آذار/مارس البارد، دون الاستمتاع بالسمات الدالة على الربيع من حولي. لقد كان يوماً مضجراً، واكتشفت أنه لم يكن بإمكاني الشعور بالفرح بهذا الحكم، سواء تحققت العدالة أم لم تتحقق. لقد جعلتني الأغصان ذات الأطراف الحمراء لشجر البلوط المتبرعم أفكر في أصابع تقطر دماً في الغابة، وارتعشت وأنا أفكر بيد تشارلي سيلفر مطروحة في كتلة من الثلج وهي لا تقبض على شيء. لم تكن المحاكمة قد انتهت بالنسبة لي. كان لا يزال يتوجب علي أن أكتب الاستئناف. كنت أخشى ليلة من العمل المجهد بجانب ضوء المصباح، في حين تستمتع زوجتي وعائلتها بأحاديث سارَّة بجانب الموقد.

كانت هناك خمس أخوات من عائلة إيروين، وابنة خالتهن إليزا غريس ماكدويل ينتظرنني في القاعة الكبيرة في بيلفيدير، وهن يحتسين الشاي، ويتناوبن الدور في ذرع المكان جيئة وذهاباً بترقب. كانت إحدى الأخوات الصغيرات تقوم بمحاولة فاترة لإتمام لحن على البيانو المصنوع من خشب الورد. عندما ظهرت عند المدخل، توقفن وحملقن فيّ فاغرات أفواههن، ومنتظرات إشارة.

قمت بهز رأسي، فتراجعن بشهقات أسى خفيضة، ولكن في حين أنني رأيت

فزعاً على وجوه بعضهن، وأسفاً لطيفاً على وجوه بعضهن الآخر، فإنني لم ألاحظ اندهاشاً. لقد كنا نعرف، جميعنا كنا نعرف، ماذا كان سيأتي.

انهرت على الكنبة بإرهاق، ومددت يدي لأحصل على فنجان من الشاي قبل أن أدعهن يقنعنني بإخبارهن عن ماذا حدث في المحاكمة.

"أرجوك، سيد غيذر،" قالت إليزا ماكدويل الصغيرة الجميلة. "كان السيد وودفين يبدو فصيحاً جداً و... نبيلاً جداً. ألم يتمكن من إقناع هيئة المحلفين بأن يكونوا رحماء؟"

"لقد حاول، آنسة إليزا، ولكن دون جدوى،" قلت محاولاً إخماد شرارة انزعاج أخرى بشأن جاذبية وودفين التي لا مفر منها. تجمعت سيدات عائلة إيروين حولي بحيث شعرت بأنني مثل نحلة عسل محصورة داخل بتلات من ألثواب حريرية وأنا أروي القصة. لقد بدين جميعهن مهتمات جداً، ولكن حائرات جداً، بشأن تحوّل الأحداث الذي استقصيناه في قاعة المحكمة في ذلك اليوم. كيف كان يمكن لامرأة شابة أن تقتل زوجها؟ كيف كان يمكن لامرأة مسكينة أن تحصل على عدالة من الدرجة الثانية؟ لم يكنَّ يعرفنّ عن حياة فرانكي سيلفر على الحدود أكثر مما تعرف زهور البيوت البلاستيكية عن أزهار زنبق الماء. كيف كان بإمكان وقف تدفق أسئلتهن في الوقت الذي ليس لدي فيه نية في تنويرهن بشأن حقائق العالم ما وراء بيلفيدير؟

نظرت في وجه إليزا غريس ماكدويل الجميل الطفولي، لقد كانت شبيهة جداً بفرانكي سيلفر نفسها من حيث العمر والملامح، ووجدت نفسي أتساءل أي بذور قتل قد تكمن في قلب تلك الطفلة البريئة. إن إليزا غريس هي حفيدة لأخوين من عائلة ماكدويل، أحدهما برتبة كولونيل، والآخر برتبة جنرال في الحرب الثورية، ويروي الأشخاص الكبار في السن حكايات عن أم جدة الآنسة إليزا، مارغريت أونيل ماكدويل، التي واجهت بجسارة جنود التوري عندما كانوا

ينهبون منزلها . وبمثل هذه القسوة في نسب عائلتها ، فمن المؤكد أنه يجب أن تكون إليزا غريس قادرة على الوحشية ذاتها التي وجدتها هيئة المحلفين في فرانكي سيلفر ، ومع ذلك لم يكن بمقدوري تخيُّل هذه المرأة الشابة المدللة تضرب أي شخص بغضب ، أو استجماع أي انفعال من شأنه أن يطلق العنان لزوبعة من العنف . ربما كانت تلك السيدة الوطنية مارغريت أونيل ماكدويل ستفهم المشقة والخطر في حياة سكان الحدود ، إلا أنها عاشت قبل عدة أجيال ، ومنذ ذلك الحين لم يعرف خَلَفها سوى الثراء والحظوة .

تساءلت هل ما يفصلهن عن خطايا القاتلة هي تربيتهن ، والطابع الارستقراطي الرفيع ، أم هل هي فقط مسألة حظ جيد بسيط؟ هل إليزا غريس قادرة على ارتكاب أعمال عنف بقدر ما هي أية قاتلة ، ولكنها بريئة فقط لأنها لم تعانِ أبداً من أي نوع من أنواع العذاب التي قادت فرانكي سيلفر لارتكاب جريمتها؟ وضعت الفكرة جانباً . إن القانون هو مهنتي ، وينبغي أن يحكم على الناس بما فعلوه ، بدون شغل نفسه في ما إذا كانت الحياة قد عاملتهم بعدالة أم لا ، لأن القيام بذلك يعني التشكيك في مشيئة الرب . هناك أشياء يُفترَض أن لا نفهمها . ولكنني لم أشفق على فرانكي سيلفر بدرجة أقل بسبب ذلك . لقد كانت مخلوقة في مقتبل العمر جميلة وضعيفة ، وكانت تعاني من حياة قاسية وموت مبكر ، في حين أن النساء هنا الجالسات أمامي عشن حياة مضبوطة ومنمقة ، خالية من الكدح والخطر . لم يكنّ أكثر جمالاً أو ذكاء من المتهمة ، ولكنهن كن بنات عائلات الطبقة الرفيعة في المجتمع ، وهذا يفسر كل شيء . لا يمكنني أن أجد أي عدالة في ذلك . ربما هناك نوع مختلف من العدالة في السماء .

"أخبرنا ماذا حدث ، بيرجيس ،" قالت زوجتي ، وهي تربت على ذراعي . "تبدو في حالة ذهول تماماً ، يا عزيزي .

"إنني مرهق،" قلت، وأخذت رشفة من فنجاني الشاي، وانسحبت من استغراقي في حلم يقظة. "لقد كانت المحاكمة غير عادية إلى أقصى حد؛ فبدلاً من الدعوة إلى عقد جلسة جديدة سريعة للاستماع إلى الحكم وتحديد العقوبة، فقد كان هناك المزيد من الشهادات هذا الصباح."

"بالتأكيد هذه أكثر محاكمة مخالِفة." كانت الآنسة ماري إيروين تراقبني عن كثب، وتمنيت لو أنها لا تسألني عن رأيي بشأن أحداث اليوم.

حسناً،" قلت، "إنها غير عادية." ضغطن علي من أجل مزيد من التفاصيل، وبالرغم من أنني ترددت في مناقشة مسائل حساسة من هذا القبيل مع سيدات كريمات، فإن مطالبتهن بالتفاصيل تغلبت علي، وأخبرتهن قدر استطاعتي عما حدث اليوم في قاعة المحكمة.

"لقد غيّر الشهود رواياتهم؟" قالت الآنسة ماري عندما انتهيت. "ولكن هذا أمر فظيع!"

"من المؤكد أن الشهادة كانت كذبة،" قالت إليزابث. "لا يمكنهم شنق الفتاة المسكينة بناء على شهادة شاهدة زور، أليس كذلك؟"

"ماذا قال السيد وودفين بشأن خيانتهم؟" أرادت إليزا ماكدويل أن تعرف.

قمت بهز رأسي. "لقد ادعى الشهود أنهم أعادوا التفكير في شهاداتهم، وأنهم بعد التأمل والتفكير تذكروا الأحداث بشكل أوضح. هذا، بالطبع، يمكن أن يكون صحيحاً.

"وبالتالي وجدوا أنها مذنبة،" قالت الآنسة ماري إيروين. "كنت أخشى أن يجدوها مذنبة. هل تمت الموافقة على الحكم؟"

"نعم، لقد نطق السيد دونيل بحكم الإعدام. في قضايا جرائم القتل، ليست هناك وسيلة مشروعة أخرى. وبالطبع، قد لا يصل الأمر إلى ذلك،" أضفت بسرعة

وأنا أرى وجوههن المصابة بذهول. "إنني أكتب الاستئناف بنفسي، وسأهتم بالتأكيد على التغيير في الشهادة، وعلى الشهود الذين لم يتم عزلهم."

نظرت إليزابث في أنحاء الغرفة بانتصار. "هوذا!" قالت. "لقد قلت لكم إن الأمر سيكون على ما يرام! بيرجيس سينقذها!"

بدت أخواتها، غير منخدعات بعاطفة الزوجة، متشككات كما شعرت. قلما يتم قلب قرارات المحلفين من قِبل المحكمة العليا للولاية ما لم تقع أخطاء فادحة في إجراءات المحاكمة. ستعرف أخوات المحامين وزوجاتهم وبناتهم من عائلة إيروين كما أعرف عندما يضعون المشاعر جانباً، ولكن لم تعارض أي منهن زوجتي المخلصة. لقد وجدنا أنفسنا نتحدث في غايات متعارضة في استعجالنا لتغيير الموضوع.

جلست الآنسة ماري في صمت عبوس لفترة لا بأس بها، وقالت بعدئذ: "ينبغي علينا أن لا ننسى هذه المخلوقة المسكينة التي تذوي في السجن. يجب علينا زيارتها."

فتحت فمي لأعترض على هذا الاقتراح الفظيع عندما أضافت شقيقة زوجتي: "ألم يأمرنا ربنا أن نزور أولئك القابعين في السجن كما نزور أولئك الراقدين على أسرّة الشفاء؟"

يمكن لماري إيرون أن تستشهد بالكتاب المقدس بما يناسب غايتها.

مر الصيف بهدوء في مورغانتون. لقد ابتهجنا بالجو الحار، وطرحنا ملابسنا الصوفية جانباً، واستمتعنا بمذاق بندورة حزيران/يونيو، وكنا مسرورين لإطلاق سرحنا من حجز الشتاء. بعد ذلك، وبمجرد أن أبعدنا البرد القارس والثلوج عن عقولنا كما لو كان كانون الأول/ديسمبر لن يعود مرة ثانية أبداً، دفعنا الذباب والغبار الأحمر الخانق، والحرارة الشديدة إلى العودة إلى الداخل مرة ثانية لانتظار رياح الخريف المنعشة.

لم أتكلم كثيراً عن قضية سيلفر، وذلك لأنه في الحقيقة ليس هناك أي شيء يمكن عمله سوى انتظار إرادة المحكمة العليا في رالي، ولكن قلة كلامي عن القضية لم تبعدها عن تفكير السيدات.

في بعد ظهر أحد الأيام الخانقة، وأثناء جلوسي في المكتبة في بلفيدير أطالع مجموعة من الكتب التي وصلت للتو من إنجلترا عن طريق ويلمينغتون، ظهرت الآنسة ماري إيروين في المدخل وهي ترتدي ثوباً أبيض للصباح ومزركشاً بشريط تزييني، وتحمل سلة مغطاة بقماش، ولكنها لم تكن تبدو أقل إرعاباً بسبب هذا التكلُّف العذري. إنها عانس في السادسة والثلاثين من عمرها، أكبر بعشر سنين من زوجتي، شقيقتها إليزابث. ولا بد أن بعض كبر السن المرعب للأخت الكبرى قد حوّل نفسه إلى موقف الآنسة ماري تجاهي، حيث أنني كنت أشعر دائماً كأحمق يتصبب عرقاً وغير قادر على الحركة في حضورها، وأكاد أقسم أن لساني يصبح كبيراً جداً بالنسبة لفمي في الأوقات التي أكون مضطراً فيها للتحدُّث معها.

أخفيت ارتباكي، بالطبع، بود قلبي مخادع. "صباح الخير، آنسة ماري!" قلت بمرح. "هل أنت خارجة في رحلة اصطياف إلى الغابة؟"

نظرت إلي كما يمكن أن تنظر القطة إلى دودة. "لا، يا سيد غيذر،" قالت. "أتمنى أن يكون لدي أشياء لأقوم بها أفضل من إضاعة أيامي في أمور سخيفة." نظرت بحدّة على الصحيفة المصورة التي كنت أقرأ فيها، وكبتُّ رغبة ملحة في دسها تحت سترتي. "هل تسمح لي بإزعاجك لبضع دقائق من وقتك؟"

أشارت لهجتها إلى أنه طالما أنه ليس لدي شيء أفعله أفضل من قراءة كتابات تافهة، يمكنني على الأقل أن أجعل نفسي مفيداً بتنفيذ طلبها. وضعت الصحيفة جانباً ونهضت واقفاً بتثاقل. "إنني في خدمتك، بالطبع، آنسة ماري."

"شكراً لك." وجذبت قفازاتها بطريقة تنم عن نفوذ حاد. "كالرين وأنا

نرغب في الذهاب ورؤية السجينة، ونود أن يرافقنا سيد نبيل إلى البلدة، وأن ينتظرنا في السجن. وأنت ستلائم هذا الغرض على نحو رائع. لن تكون مضطراً إلى مرافقتنا إلى الطابق العلوي إلى زنزانة المخلوقة المسكينة."

"ترغبان برؤية ... السجينة؟ السيدة سيلفر؟"

"بالتأكيد."

"إذن سأعتبر ذلك امتيازاً، فضلاً عن كونه من واجبي مرافقتكما،" قلت وأنا أميل رأسي كإشارة على انحناءة مجاملة. لقد خشيت من هذه المناورة لأسابيع، والآن كونها أتت أخيراً، شعرت بمزيج غريب من القلق والارتياح. وتساءلت ماذا سيقول مالك الأراضي بشأن ذهاب ابنتيه لزيارة قاتلة، وما إذا كان يتوجب علي أن أتحمل اللوم بسبب رحلتهما القصيرة. ومع ذلك، كنت بأعتقد أنه من الأفضل أن أذهب لأراقبهما. "ألن تكون السيدة غيذر الأخرى واحدة من المجموعة؟"

كنت أقصد زوجتي، بالطبع، حيث أن شقيقة الآنسة ماري، كاثرين، هي السيدة غيذر كذلك، كونها أرملة شقيقي الراحل ألفرد، وبذلك تكون شقيقة زوجتي، وزوجة شقيقي، ولكن كان يبدو أن زوجتي كانت غير مشمولة في الرحلة مع شقيقتيها الأكبر سناً.

"لدى إليزابث موعد قياس عند الخياطة،" أبلغتني الآنسة ماري. "ربما تذهب في وقت آخر. لقد وعدنا أن نروي تفاصيل زيارتنا لباقي أفراد العائلة."

أرسلنا في طلب عربة مكشوفة، حيث أن ذلك اليوم كان لطيفاً، وتقدمت جياد العربة مهرولة بنا على طول الأميال القليلة إلى مورغانتون مع تبادل قليل من الحديث فيما بيننا. كانت كاثرين سيدة لطيفة وضعيفة، ويأتي ترتيبها في المنتصف بين عمري شقيقتيها ماري وإليزابث، ولكن بعد بضعة ملاحظات عن

الطقس، وعن مواضيع أخرى غير هامة، أجد نفسي بلا شيء لأقوله لها. إنني خائف دائماً أن تذكّرها ملاحظة عارضة مني بألفرد المسكين، وأعيش في خوف بأنني قد أسبب طوفاناً من الدموع سأكون عاجزاً عن كبح مَدِّه. أرضيت نفسي بالابتسام لكاثرين المسكينة الشاحبة، الملتفة بثوبها الأرجواني الخاص بآخر حِداد. كنت آمل ألا يجعلها شبهي بألفرد تبكي، ولكن يبدو أنها كانت تحتمل رؤيتي بهدوء كافٍ.

اقتربنا أكثر من البلدة، وشعرت أنه كان من الضروري أن أزوِّد شقيقتي زوجتي ببعض الكلمات عن زيارة السجون، فحذرتهما قائلاً: "قد لا ترغب السيدة سيلفر برؤيتكما بأي حال من الأحوال. وإذا رغبت هي بذلك، فإن السجان لن يكون راغباً في أن تبقيا معها لوقت طويل، أو في قول أي شيء قد يزعجها.

"على العكس تماماً،" صاحت الآنسة ماري بصوت يعلو على صوت صلصلة العجلات. "سنريح بالها بإخبارها بأن مطالبات الاستئناف قد تم تقديمها لضمان عفو لها من المشنقة.

"والآن، لا ينبغي أن تعطيا السجينة أملاً كاذباً، كذلك،" قمت بتحذيرها. "من القسوة أن نجعلها تصدِّق أنه سيتم إنقاذها من عقابها."

"أتمنى أن لا أقول أبداً شيئاً لا أؤمن بأنه صحيح،" قالت بتأنيب.

فهمت أنها كانت حقاً تؤمن بهذا، ولهذا لم أبتسم، ولكنني كنت أفكر أنه لا يمكن لأحد أن يتواجد، حتى ولو ليوم، في مجتمعنا المهذب بدماثة عن طريق قول حقيقة غير منمقة. بقيت صامتاً بقية الرحلة، وهذا كان بحد ذاته كذب، لأنها اعتقدت بأنني كنت أتفق معها.

كان سجن مورغانتون منزلاً أبيض من طابقين مُقاماً على مرج منسق بعناية،

على بعد مسافة قصيرة من مبنى المحكمة. لم يكن الحفرة القذرة التي يتخيلها المرء لمساجين في فيلادلفيا أو في بوسطن ـ أو حتى في رالي، ولهذا السبب، بل على الرغم من ذلك، خامرني شك في أنه كان سيبدو مرعباً بما يكفي بالنسبة لشقيقتي زوجتي. وتساءلت إن كان ينبغي علي تجهيزهما استعداداً للمشاهد القادمة، ولكن وضع فك الآنسة ماري أقنعني بأن أبقى صامتاً. وكلما كانت التجربة مزعجة كان رضا السيدتين الذي ستحصلان عليه من القيام بواجبهما أكبر.

توقفت العربة أمام السجن وبعد أن قمت بمساعدة رفيقتي في النزول، ذهبت لأخطر السجان بوصول زائرتي بعد الظهر المميزتين. "لقد أحضرت الآنسة ماري سلة طعام للسجينة،" قلت للسيد بريسنل. "يمكنك بالطبع تفتيش المحتويات، ولكنني أؤكد لك أنها تحتوي فقط على خبز وجبن، وكذلك، على ما أعتقد، على شريحة من فطيرة توت العليق. لقد شممت رائحة خَبزها هذا الصباح في بلفيدير."

"مكافأة جيدة لجريمة قتل،" تمتم بريسنل، ولكنني كنت أعرف أنه لن يُبدي أي تذمر نحو الأختين إيروين، لذا فقد شكرته لسماحه بالزيارة، وعدت لإحضار شقيقتي زوجتي.

سارت الآنسة ماري إلى داخل السجن كذئب يدخل إلى حظيرة للخراف، وتقدمت نحو بيت الدرج بخطوات جريئة ومتروية، ولكن كاثرين تراجعت عند المدخل، ورأيت أنها أصبحت شاحبة.

"لا تخافي،" قلت لها وأنا ألمس مرفقها. "فرانكي سيلفر ليست أكبر من ابنة شقيقتك ويتستيل، وهي ليست فظة ولا مجنونة. سيكون الأمر على مايرام. سأصعد معك إلى الطابق العلوي."

همست كاثرين بشكرها، وقالت: "أعتقد ". أخذت نفساً عميقاً وبدأت من جديد. "جئت لأنني اعتقدت بأن ذلك ربما يكون مريحاً لها أن تقابل امرأة أخرى قد فقدت زوجها."

أومأت برأسي، لأنني لم أكن أثق في نفسي لأتكلم. إنها امرأة لطيفة، وتستحق سعادة في هذه الحياة أكثر مما ارتأت العناية الإلهية أنه مناسب لتمنحها لها. وأشرت إلى كاثرين أنه يجب عليها أن تتبع شقيقتها الأكبر على الدرج الضيق، وأنني سأصعد في الآخر وأحمل السلة.

كان السيد بريسنل، الذي كان قد سبقنا في الصعود، ينتظر عند زنزانة السجينة. قام بفتح قفل الباب الذي كان عبارة عن باب خشبي عادي مصنوع من خشب بلوط متين، وعليه مربع من القضبان موضوع على مستوى النظر في منتصفه، بحيث يمكن مراقبة السجينة من قِبل الحرس. "لا تطيلوا البقاء هناك في الداخل،" قال لي بهدوء عندما مررت بجانبه. "القمل."

حدَّقنا داخل الغرفة المغطاة بالقش والتي كانت تحتوي فقط على فرشة مملوءة بالقش فوق سرير يطوى، ودلوين من خشب البلوط: أحدهما نظيف للماء، وآخر نتن الرائحة للنفايات. كانت السجينة تقف عند النافذة المدعّمة بالقضبان وهي تنظر إلى الخارج نحو القرية، أو ربما نحو الجبال بعيداً.

"إنها تقف هناك لوقت طويل،" أشار بريسنل. "تحدِّق فقط إلى الخارج من خلال القضبان."

"كذلك سيتوجب علي أن أفعل لو أجبرت على البقاء في هذا المكان،" قالت الآنسة ماري، التي سمعته صدفة. "فعلى الأقل الهواء في الخارج أنقى من الرائحة الكريهة هنا في الداخل، وهناك شيء لشغل الذهن في المشهد دائم التغيُّر."

أومأ بريسنل برأسه. "زوار لكِ، سيدة سيلفر،" قال، مضيفاً كلاماً على انفراد، "سأكون في الطابق السفلي عندما تكون جاهزاً سيد غيذر."

التفتت فرانكي سيلفر لتواجهنا، ورأيت أنها كانت تبكي. كانت عيناها حمراوين ومنتفختين، إلا أنها ربتت على خدها بظاهر إحدى يديها، ووقفت هناك باستسلام متسائلة، بلا شك، ما المحن الأخرى التي كان يتوجب عليها تحملها.

ابتسمت، آملاً أن أؤكد لها النوايا الحسنة لزائرتيها. "السيدة سيلفر، أنا بيرجيس غيذر، كاتب المحكمة العليا للمقاطعة،" قلت بأدب حذر. "ربما تذكرين رؤيتي في محاكمتك. إن زيارتي ليست زيارة رسمية، على أي حال. إنني هنا كمرافق لشقيقتي زوجتي اللتين حضرتا بدافع الإحسان المسيحي لزيارتك. هل لي أن أقدم لك الآنسة إيروين والسيدة آلفرد غيذر؟ سيدتاي، هذه هي السيدة تشارلز سيلفر."

حوّلت نظرتها الموجهة ناحيتي إلى الشقيقتين إيروين الواقفتين بارتباك عند المدخل. اتسعت عيناها، وأومأت برأسها للدلالة على أنها فهمت أكثر مما كان ذلك لتقديم تحية. وكالعادة استلمت الآنسة ماري زمام الأمور. خطت إلى الأمام وأمالت رأسها وكأنها كانت تحيي سيدة نبيلة على مقعد في الكنيسة.

"يوم طيب، سيدة سيلفر. لقد حضرنا لزيارتك،" قالت بحيوية. "ولنقتنع بأنك تتلقين معاملة حسنة وفي صحة جيدة."

أومأت فرانكي سيلفر بخجل. كان شعرها مسترسلاً ومتدلياً حول كتفيها، حيث لم يكن لديها شيء تربطه به، خشية أن تستخدم دبوس شعر لتفتح القفل. ولم تكن ترتدي ثوب المحكمة الأزرق، وإنما كانت ترتدي ثوباً بسيطاً بني اللون كان يبدو قديماً وليس نظيفاً جداً. وكانت تضع يديها على شعرها، وكأنها كانت تفعل ذلك لكي تملسه ليبدو في مظهر لائق، وعندما تقدمت إلى الأمام قليلاً نحو زائرتيها، سمعنا صوت صلصلة من الأرض.

نظرت الآنسة ماري إلى الأسفل على القش. "ماذا كانت تلك الضجة؟"

"سلاسل،" قالت السجينة برقة.

"عذراً؟"

رفعت فرانكي سيلفر طرف تنورتها بضع إنشات عن القش، كاشفة عن سلسلة حلقات سميكة، وقامت بلي قدم بيضاء صغيرة فأصدرت السلسلة صوت صلصلة.

تدخلت بسعلة مكتومة. "السيدة سيلفر مقيّدة. هناك قيد حديدي حول كاحلها، وهو مربوط بسلسلة إلى حلقة في منتصف الأرض.

استدارت الآنسة ماري إلي وهي ترمقني بنظرة غضب تلمح إلى أنني كنت مسؤولاً شخصياً عن هذه الإهانة. أعتقد بأنها كانت على وشك طردي من الغرفة عندما تكلمت السجينة بهدوء، "لا بأس في ذلك، إنني معتادة عليه. لا يمكنك الابتعاد كثيراً في هذه الزنزانة على أي حال."

ابتعدت كاثرين من جانبي، وذهبت لتضع يدها على ذراع السجينة. "إننا آسفون جداً لرؤية امرأة في ضائقة كهذه،" قالت. "هل أنت على ما يرام؟"

هزت فرانكي سيلفر كتفيها باستهجان. "أحسب أنني سأعيش حتى أيلول/سبتمبر،" قالت. أيلول/سبتمبر هو موعد الجلسة التالية للمحكمة العليا، وهو الموعد الذي سيحدد فيه القاضي تاريخ شنقها. *لقد كانت أمّية، ولكنها لم تكن غبية*، فكرت في نفسي. لقد كان لجوابها سخرية ظريفة تنم بوضوح عن ذكائها.

"هل هناك شيء يمكن أن نفعله من أجلك؟"

ترددت للحظة قبل أن تهمس، "هل يمكنني رؤية طفلتي؟"

التفتن جميعهن لينظرن إلي، وكنت مجبراً على لعب دور الوغد مرة ثانية. "إن ذلك ليس ضمن سلطتنا،" قلت بلطافة قدر استطاعتي. "إن طفلتك فوق الجبل مع جدها وجدتها."

"هل سأراها في أي وقت مرة ثانية؟"

"إنها رحلة طويلة بالنسبة لطفلة صغيرة،" قالت كاثرين برفق. "لدي ابنة صغيرة أنا نفسي، ولن أكون راغبة في جعلها تسافر مسافة بعيدة في حرارة الصيف.

"لنأمل أنك ذات يوم ستذهبين إلى المنزل إليها ،" قالت الآنسة ماري.

"ستكون قد نسيتني."

"لن تسمح عائلتك بحدوث ذلك،" قلت، على الرغم من أنه لم يكن لدي فكرة إن كان ذلك صحيحاً أم لا. لم أشأ أن أعذب المرأة البائسة بآمال كاذبة، ولكنني لم أكن أريد أن أزيد على بؤسها بأفكار موجعة عن المنزل.

وقفنا هناك بارتباك محاولين أن نفكر بشيء آخر لنقوله لهذه المخلوقة المسكينة. كانت بالكاد تعرف، أو تهتم، بالسياسة أو بأزياء الحاضر، وكان قلقها على منزلها وعائلتها في البرية أمراً غريباً علينا على حد سواء.

وأخيراً تذكرت الآنسة ماري السلة التي على ذراعي. "لقد أحضرنا لك بعض الطعام،" قالت، مشيرة إلي لأضعها على فرشة القش. "هل أنت جائعة؟"

نظرت فرانكي سيلفر بعيداً، وتخيلت أن كبرياءها كان يتصارع مع جوعها. إن سكان الجبل يخجلون من قبول إحسان من أي شخص؛ إنهم لا يهتمون بأن يكونوا مدينين، كما يسمونه. إنه موقف غريب، كما كنت أعتقد دائماً، في حين أننا نحن طبقة الأشراف في البلاد المنخفضة نحرص على أن كل شخص في دائرة معارفنا يجب أن يكون مديناً لنا بدين من الشكر والامتنان مقابل شيء ما، سواء كان حفلة عشاء أقيمت لسيد مسافر، أو تعيين سياسي تم ترتيبه من أجل ابن جار بارز. إننا نحرص على ضمان أن يتم تسديد قروض النفوذ والضيافة تلك عينياً، وأن يتم نشرها من جديد في دائرة من المعارف تتوسع أكثر، حيث أن تلك هي عملة المجتمع المهذب. لن تفهم فرانكي سيلفر آلية نظام الأعمال الخيرية المتضافرة. ولكنها كانت جائعة.

"أخشى أنك ستضطرين لأن تأكليه الآن،" قلت لها. "فالسيد بريسنل لا يريدنا أن نترك السلة أو محتوياتها هنا عندما نغادر."

"أرجوك لا تقلقي بشأننا،" قالت كاثرين. "لقد تناولنا عشاءنا."

ابتعدنا عن السرير الذي يطوى لنسمح لها بالاقتراب منه، إلى حد كبير مثلما يمكن للشخص أن يترك الفضلات لكلب ضال كان خجلاً من الناس. جلست السيدة سيلفر على فرشة القش وبدأت تنظر خلال محتويات السلة. "أشكركم،" قالت برقة، وهي تشيح بنظرها بعيداً عنا. "إنكم لطيفون جداً لتفعلوا هذا." اهتزت رجل دجاجة بين أصابعها، وبدأت تمزق قطعاً من لحمها البني. تململنا في صمت، ولم نكن نرغب في أن نحدّق، ولكن لم نجد شيئاً آخر لنفعله.

"هل يطعمونك جيداً هنا؟" سألت الآنسة ماري.

ابتلعت السجينة لقمة من الدجاج قبل أن تجيب. "نوعاً ما،" قالت. "كمية من عصيدة الذرة، وأحياناً بعض اللحم في يخنة خضار. ونادراً ما كان أي شيء طازج، على أي حال." تنهدت. "إنني أحلم بالبندورة والبصل. لقد كنت معتادة على الاعتناء بنبات البندورة هناك في المنزل، وأن أبعد الغزلان برشق حجارة عليهم، وإزالة البق عن أوراق البندورة، وكنت أراقب الثمار الخضراء تكبر كل يوم، إلى أن تصبح في نهاية المطاف حمراء وناعمة، ويمكنك أكلها. أحسب أنه بإمكاني تناول بوشل منها الآن. آكل إلى أن أصاب بتخمة وتنتفخ خواصري بغازات، مثل حصان عجوز في مخزن ذرة غير مقشرة."

تبادلت شقيقتا زوجتي النظرات. لم يكن هذا النوع من الحديث هو الذي توقعتا أن يدور بينهما وبين سجينة متهمة، وحيث أنهما لم تعانيا من الجوع أبداً في حياتهما، فإنني متأكد من أنهما كان يمكن أن تجدا القليل لتضيفاه إلى المحادثة. لقد عانيت من الجوع، على أي حال، عدة مرات بعد موت والدي، وتذكرت تماماً ذلك الشعور بالخواء الذي كان يحشد جميع الأفكار الأخرى خارج رأس الشخص.

"بالنسبة لي كان حصاد التفاح دائماً،" قلت مبتسماً. "في بعض الأحيان لم

أكن أتمكن من انتظاره لينضج، وكنت آكل التفاحات الخضراء، وأصاب بالتخمة كالجرو."

ابتسمت وأومأت برأسها، "تفاح، أيضاً!" كانت تبدو كطفلة عندما أضاءت الابتسامة ملامحها، وفكرت للحظة قصيرة أن هناك خطأ ما قد وقع. من المؤكد أن هذه الفتاة الصغيرة لم تكن القاتلة الشريرة التي تحدّث عنها الجميع؟ وجدت فطيرة التوت عندئذ بالضبط، وأخذت قضمة كبيرة من جانبها، وأراقت العصير الأرجواني على ذقنها وعلى صدرها. مسحت البقعة بظاهر يدها واحمر وجهها خجلاً. "أستميحكم عذراً،" قالت. "ولكن مر وقت طويل منذ أن تناولت فطيرة."

أكلت لبضع لحظات أخرى بصمت، عندئذ، وبعد أن خف جوعها، بدأت بدراسة زائرتيها. ابتلعت لقمة من الطعام وقالت للآنسة ماري: "ذلك ثوب جميل، سيدتي. كنت أرغب دائماً بثوب أبيض بشريط تزييني عليه. أحسب أنني لن أحتاج للحصول على واحد الآن. وأومأت برأسها تجاه كاثرين، التي كانت ترتدي ملابس الحداد. "يجب أن أرتدي ملابس سوداء مثلك، يا سيدتي."

نظرنا الآنسة ماري وأنا إلى بعضنا البعض، ولم يجرؤ أحدنا على الدخول في النقاش بأسلوب الإتيكيت الملائم بالنسبة لأرملة أصبحت أرملة بما جنته يدها، إذا صح التعبير. قالت كاثرين برقة: "هل كان لديك ثوب أبيض من أجل يوم زفافك؟"

هزت السجينة رأسها. "لقد تزوجنا بعد الحصاد، تشارلي وأنا. انتظرنا إلى أن حضر الراكب المتنقل إلى الاجتماع بحيث يمكننا الوقوف أمامه وجعل كل شيء قانونياً. قامت ماما بقص أحد أثوابها المصنوع من قماش الكاليكو، والذي كانت قد أحضرته من مقاطعة آنسون، وصنعت لي ثوباً جديداً لحفل الزفاف. وساعدتني أختا تشارلي، مارغريت وراتشيل، في حبك أوراق شجر وزهور أقحوان على شكل إكليل لشعري. لقد انتهى بسرعة جداً، بالكاد كان لدي وقت

لأفكر فيه. أقاموا حفل عشاء لنا في الهواء الطلق، على أي حال، فيما بعد. لقد أحضر الناس الفول والبطاطا الحلوة، وخبز الذرة، وآخر نتاج البندورة الصيفية. وقامت عائلة سيلفر بذبح واحدة من بقراتهم للشواء، ثم قاموا بشيها على سيخ فوق نار مكشوفة."

"من قام بذبحها؟" ارتفعت الكلمات من تلقاء نفسها إلى ذهني، وقلتها قبل أن أكون حتى مدركاً لها.

التفتت عينا فرانكي سيلفر الزرقاوان نحوي بتحديقة فيها حذر. "لا أصدق أنني أكلت هذه الكمية من الطعام قبل أو منذ ذلك الحين،" قالت.

في أحد أيام تموز/يوليو الملتهبة، وعندما ارتعش الهواء كماء الغدير، محدثاً التواءات في أشكال الأشجار والتلال بعيداً، وصلت لي رسالة من رالي. لقد كانت موجهة إلى *ب. س. غيذر، كاتب المحكمة العليا، مقاطعة بيرك، مورغانتون*، بالخط العنكبوتي المنمق، والذي هو السمة المميزة لكتبة وموظفي القانون المحترفين. لقد كنت أعرف بالضبط ماذا كانت، وأخذت نفساً عميقاً قبل شق المغلف لأفتحه، حيث أنه أمر مهيب أن تمتلك حياة شخص آخر بين يديك.

بضعة أسطر بالحبر الأسود، ولا شيء أكثر. وقفت هناك في الغبار الأحمر للطريق وأنا أقرأ تلك الكلمات، حيث أنني، بقدر ما كان ذلك غير لائق، لم أتمكن من الانتظار إلى أن أعود إلى مبنى المحكمة لأقرأ الحكم المحتوى داخل تلك الرسالة.

> تعتبر المحكمة أن قرار محكمة القانون العليا لمقاطعة بيرك يجب أن يتم إقراره. وتصدر أمراً بأن تمضي المحكمة العليا المذكورة آنفاً قدماً في قرار المحكمة والحكم بالإعدام ضد المتهمة، فرانسيس سيلفر. بالنسبة للاقتراح المُقدَّم، فقد تمت الموافقة على قرار المحكمة ضد جاكسون ستيوارت وأشعيا

ستيوارت، كفيلي الاستئناف، لدفع تكاليف هذه المحكمة والتي سببتها الدعوى.

جنو. إل. هيندرسون

كاتب المحكمة العليا لنورث كارولينا

طويت الرسالة وأعدتها بين الرسائل الأخرى التي وصلتني ذلك اليوم. هناك نهاية لذلك، فكرت في نفسي، ولكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالحزن بسبب هذا التحوّل في مجرى الأحداث.

وقف ديفيد نيولاند، مالك خط عربة الجياد، قريباً وهو يراقبني. وحيث أنه يجلب معظم الأخبار إلى مورغانتون، فإنه من غير الطبيعي أن يكون مضطراً لأن يلقي بالاً لها. "أخبار سيئة، سيد غيذر؟" قال وهو يمشي ببطء لينضم إلي.

"إنها سيئة جداً بالفعل بالنسبة للسيدة سيلفر،" قلت. "لقد تم رفض طلبها في الاستئناف."

قطّب حاجبيه. "إذن السيد وودفين لم يكن قادراً على إقناع القضاة بأن ينظروا إليها بعين الرحمة؟"

ترددت، ولكنني لم أتمكن من إيجاد طريقة للتهرب من السؤال، وقلت لنفسي إن ذلك لم يكن من شأني على أي حال من الأحوال. "وفقاً للرسالة لم يكن السيد وودفين هناك."

"ولكن من قدَّم قضيتها للقضاة، إذن؟ السيد ويلسون لم يغادر البلدة في الأسبوعين الماضيين."

لم أتمكن من مواجهة نظرته، لأنني كنت أعرف أنني سأرى الخِنق الذي شعرت به أنا نفسي معكوساً في عينيه. "لم يظهر أحد ينوب عنها أمام المحكمة

العليا . وتم الحكم في القضية بناء على الوقائع الموضوعية في طلب الاستئناف المكتوب فقط ." وهو وثيقة مكونة من حوالي ثلاثمائة وخمسين كلمة تم جمعها معاً من قِبلي بجهد وسرعة في الليلة التي تبعت المحاكمة . لقد اعتمدت حياتها على هذه الرسالة الموجزة ومجموعة مملة من الكلمات، وقد خذلتها .

اتسعت عينا ديفيد نيولاند . "لم يكن لها محام ليدافع عن قضيتها في رالي؟ لا أحد؟"

تفحصت آثار العربة على الغبار الأحمر عند قدمي . وتمتمت : "الطريق طويلة إلى رالي .

"ألا أمتلك عربة الجياد ، بحق الرب؟ أعرف كم تبعد ، سيد غيذر . أعرف بالضبط . ولو تم توكيلي من قِبل عائلة تلك الفتاة المسكينة لأساعدها في محنتها ، لكنت وفيت بعهدي، لذا سوف أساعد في ذلك، حتى لو كانت رالي في منتصف الطريق إلى الجحيم وتنتشر فيها رائحة الكبريت ."

لم أستطع التفكير بشيء أقوله بحيث لا يؤدي إلى التشهير بزميلي المحامي، لذا ، قمت فقط بالتربيت على ذراعه وحاولت رسم ابتسامة على وجهي . "حسناً ، ما الذي يجب عمله الآن؟" سأل نيولاند .

"عمله؟" حملقت فيه . "ليس هناك شيء يجب عمله . لقد أصدرت هيئة المحكمين قرارها ، والمحكمة العليا للولاية أيدت قرارهم . انتهى كل شيء الآن ، ما عدا النطق بالحكم بالعقوبة ، والذي سيأتي في دورة المحكمة في الخريف، وبعدئذ الإعدام الذي ينبغي أن يلي ."

"سنرى بشأن ذلك،" قال نيولاند .

"عذراً؟"

تنهد. "أنت تعرف، سيد غيذر، عندما أجرينا تلك المحاكمة من قبل في آذار/مارس، كانت الانفعالات عالية في كل مكان هنا، ولا أمانع في إخبارك أنني كنت متشوقاً، كالآخرين، لأرى تلك المرأة الشابة تُشنق بسبب جريمتها، ولكن كان هناك كلام في أنحاء البلدة في الآونة الأخيرة. يقول الناس إن تشارلي سيلفر لم يكن يستحق الكثير، وربما أنه حصد ما زرعت يداه. لقد كانوا يفكرون ملياً في هذه القضية، والآن أسمع الناس يقولون إن امرأة محترمة لا تلجأ إلى العنف سوى لسبب واحد: للدفاع عن نفسها، أو من المرجح أكثر عن طفلتها. لديهما طفلة صغيرة، على ما أذكر."

"إبنة،" تمتمت. "كان عمرها أكثر من سنة بقليل عندما وقعت الجريمة."

أومأ نيولاند بانتصار. "ها أنت ذا. إن ذلك يدفعني للتفكير، تماماً. لماذا لم يعترف محاموها بأنها قتلت تشارلي سيلفر وبعدئذ يفسرون لماذا؟"

تنهدت. من الصعب أن تفسر القانون للرجال العاديين. يبدو أنهم يعتقدون أن القضاء يتعلق بالصواب والخطأ، بالحقائق المُطلَقة. ربما عندما نقف أمام خالقنا يوم الحساب، ستكون محكمته محكمة عادلة، ولكن تلك المحاكمات التي تُجرَى على الأرض ليست حول ما حدث، ولكن حول ماذا كان يمكن أن يتم إثبات أنه حدث، أو ما كان يمكن أن يتم إقناع اثني عشر مواطناً به ليصدقوا أنه حدث. أعتقد أحياناً بأن شفيع المحامي يلزم أن يكون بونتيس بايلت*، لأنه بالتأكيد قالها أفضل: *ما هي الحقيقة؟*

جذب ديفيد نيولاند كم قميصي. "أنت محام، سيد غيذر، لماذا لا يخبرونا فقط ماذا حدث بدلاً من المراوغة بحجة غير مذنبة؟"

تنهدت. "كان الأمر سيكون مقامرة كبيرة أن تعترف بذنبها في محكمة

---

* قاضي روماني لمنطقة يهودا ترأس محاكمة السيد المسيح وأمر بصلبه.

مفتوحة للجمهور. لم يكن هناك دليل عن دفاع عن النفس، حيث أنه ليس هناك سوى إفادة السيدة سيلفر من أجل ذلك، ولم تكن تتمتع بحرية الإدلاء بشهادة. لا بد أن محاميها قد شعر أنه كان من الأسلم جعل الحكومة تثبت ذنبها على أساس دليل قريني، بدلاً من الاعتراف بأنها هي التي ارتكبتها، بدون أية وسيلة لإظهار الاستفزاز."

"كان لا بد أن يقوم أحدهم بشرح الحالة لأولئك القضاة في رالي."

"ما كان ذلك سيكون ذا أهمية. إن المحكمة العليا لا تقرر الذنب أو البراءة. إنهم يحكمون في أمور إجرائية. ولا يمكنهم منح عفو في حين يمكن للحاكم أن يفعل ذلك.

"حاكم؟"

فزع نيولاند. "سنحت لي فرصة لمقابلة السيد مونتفورت ستوكس في مدينة ويلكيسبورو في نيسان/إبريل الماضي. كانت المحاكمة لا تزال حيّة في أذهاننا، وعندما ناقشت الأمر معه، كنت أقف بتصميم ضد العفو. لقد أخبرته أنها كانت تستحق ما حصلت عليه، وقلت إن باقي سكان المقاطعة كان لهم طريقة تفكيري ذاتها إلى حد كبير نوعاً ما. أعتقد بأنني أخطأت في كلامي، على أي حال، والآن ينبغي علي أن أضع الأمور بشكلها الصحيح. يمكن الاحتكام إلى الحاكم، وإذا كان من الممكن جعل مونتفورت ستوكس يرى المنطق، فربما لا يزال من الممكن إنقاذها.

"إن الأمر يستحق المحاولة،" قلت له.

"هل ستكتب له، إذن؟"

قمت بهز رأسي. "قد لا يبدو من اللائق بالنسبة لكاتب محكمة عليا أن يحتج على حكم صدر من محكمته." لم أرغب في التفكير فيما قد يقوله مالك

tele @ktabpdf

الأراضي إيروين لو توليت هكذا إجراء. "أعتقد بأنه كان بإمكاني التوقيع على عريضة، على أي حال،" قلت. "كمواطن عادي. ستكون الرسالة بحاجة إلى إرفاقها بعريضة تبين دعماً واسعاً للسجينة داخل الولاية."

"من يمكن أن يكتب إلى الحاكم، إذن؟"

ليس أنا، قلت في نفسي. قلت له: "ليس هناك ما يمنع مواطناً شريفاً من استئناف القضية، وحيث أنك أنت من فتح الموضوع مع الحاكم، فمن المؤكد أنك أنت الشخص الذي سيدافع عن قضيتها معه الآن. هل يمكنك تدبُّر أمر رسالة كهذه، سيد نيولاند؟"

نظر إلي نظرة ثاقبة. "ربما. ربما يكون هناك سيد أو اثنان يمكنهما إسداء النصح لي حول كيفية شرح حجتي. وأنا لدي عمل في رالي في أوائل أيلول/سبتمبر، لذا سأحرص على التأكد من أنه سيحصل عليها."

ابتسمت. "إنني متأكد أن باب الحاكم ستوكس مفتوح دائماً لمواطني مقاطعة بيرك."

بعد عدة أسابيع اعترضني ديفيد نيولاند مرة أخرى عندما تصادف أنني كنت أنتظر العربة. "لقد أنهيتها!" قال بفخر. "تلك الرسالة إلى الحاكم. لقد روستها 'رالي،' حيث أنني سأسلمها عندما أصل إلى هناك."

سلمني الرسالة من أجل المراجعة.

رالي، 6 أيلول/سبتمبر، 1832

سعادتك

م. ستوكس، الذي كان من دواعي سروري رؤيته في ويلكسبورو في وقت ما في نيسان/إبريل الماضي.

إن ظروف قتل السيدة سيلفر لزوجها قد تم تحديدها، وتم إبلاغكم أن

عريضة الاسترحام سيتم تقديمها إليكم من أجل منحها عفواً. لقد أصبحت عريضة الاسترحام بين يديكم من أجل اطلاعكم. في الوقت المُشار إليه في ويلكسبورو، أكدتم أنكم لم تعرفوا أبداً عن أنثى تم إعدامها في نورث كارولينا، وسألتموني إن كنتُ قد عرفتُ عن ذلك ـ الأمر الذي أجبت عنه بالنفي. ثم قلتم بعد ذلك إنه سيتم وضعكم في الظروف بدقة، وسألتموني عن رأيي. وأجبت أنه إذا كانت الإشاعة صحيحة، فإنني كنت أعتقد بأنها شخص مناسب كمثال.

ولكن يا سيدي، من مختلف المعلومات التي عرفتها منذ محاكمتها، فإنني مدفوع للاعتقاد بأنه تم المبالغة كثيراً في جرمها الذي ستدركونه من رأي بعض السادة من نقابة المحامين الذين قاموا بالتوقيع على عريضة الاسترحام الخاصة بها، وكانوا حاضرين، وكذلك غير متحيزين أثناء محاكمتها. فوق كل شيء، فإنني أعتقد حقاً بأنها شخص مناسب لرأفة تنفيذية.

المخلص،

د. نيولاند

"إنها رسالة جيدة، سيد نيولاند،" قلت ذلك لأنني إذا ساعدته في صياغتها، أو قمت بتغيير أخطائه في التهجئة، فسيكون لي يد في هذه الوثيقة، الأمر الذي لم أشعر أنني قادر على القيام به. "آمل أن تحقق الغرض منها."

أومأ برأسه بسعادة. "وكذلك تم الانتهاء من تجهيز عريضة الاسترحام. يمكنك أن ترى أنها تحمل عدداً كبيراً من الأسماء فيها. بعض المحامين، وأربعة من المحلفين. يجب على الحاكم أن يجلس منتصباً وأن يحيط علما بذلك." لم يزد قولاً على ذلك، إلا أنه راقبني بترقب.

"إنني آسف، سيد نيولاند،" تمتمت أخيراً. شعرت أن وجنتيَّ احمرتا عندما تكلمت. "لا أعتقد أنني سأتمكن من إضافة اسمي إلى قائمة المؤيدين. إنني لا أعرف ظروف موت تشارلز سيلفر، لذا لا يمكنني البت فيما إذا كان ينبغي إطلاق سراح أرملته أم لا "مكتبة الرمحي أحمد

تأمل الكولونيل نيولاند فيّ بحزن. "إنك تتعامل بالعدل، سيد غيذر،" قال. "وأنا أتعامل بالرحمة. آمل يوماً ما ـ قبل فوات الآوان ـ أن تكتشف أن السيدة سيلفر تستحق كليهما."

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بيرجيس غيذر

الحكم

في رابع يوم اثنين من شهر أيلول/سبتمبر، اجتمعت المحكمة العليا لمقاطعة بيرك للاستماع إلى قائمة قضايا الخريف. وكان أحد الأمور الثانوية من حيث وقت المحكمة، ولكن الأعلى في الترتيب في عقول سكان مورغانتون، هو الحكم على القاتلة المُدانة فرانكي سيلفر. كان وقتها وشيكاً، وكان الناس يتحدثون بالفعل عن الحشود التي قد تتدفق إلى البلدة لحضور الإعدام. لم يتم إعدام امرأة من قبل أبداً في مقاطعة بيرك، أو، في الواقع، في أي مكان سمعنا عنه في أي وقت مضى، وكانت الإثارة تتصاعد مع توقع مشهد قاس، وعلاوة على ذلك، غير عادي. ولم يكن من الممكن لسيرك متنقل، أو لخيمة اجتماع ديني أن ينافس الإثارة في مشاهدة امرأة شابة جميلة تموت عند نهاية حبل، أو كما قال المثقفون المحليون في الحانة. كان يبدو أنني كنت الوحيد الحاضر الذي لم تكن لديه رغبة في رؤية مشهد مرعب من هذا القبيل، ولكنني احتفظت بآرائي لنفسي.

لقد كانت هذه آخر محكمة عليا لويل بتلر كعمدة. وكان سيتم إجراء انتخابات المقاطعة في تشرين الثاني/نوفمبر بالتزامن مع الانتخابات الرئاسية، ومجموعة متنوعة من الموظفين في جميع أنحاء الولاية، وحيث أنه غير مسموح

للعمدات بأن يخدموا فترات متعاقبة في نورث كارولينا، فقد كان بتلر يستعد فعلياً للمغادرة. كان يبدو سيداً نبيلاً في كل جزء منه عندما دخل قاعة المحكمة في ذلك الصباح الخريفي النشيط، وهو يرتدي صدرة خمرية اللون، وحذاء بنياً لامعاً، ولكن تعابيره كانت تلك التي تميز رجلاً قلقاً، وقد تساءلت ما الذي كان ناقصاً.

لم تكن قاعة المحكمة مليئة بالجمهور كما كانت من أجل محاكمة فرانكي سيلفر، وذلك لأنه لم يتم إعداد جرائم هامة للمحاكمة، ولم تكن هناك شهادة مثيرة وشيكة، ولكن نظراً لأنه لا يمر يوم للمحكمة يغفل عنه الفضوليون والواشون، فإنه لم يكن هناك نقص في الجمهور من أجل إجراءات القضية.

أحضر غابرييل بريسنل السجينة من خلال الأبواب المزدوجة الضخمة، وكان تفكيري الأول عند رؤيتها أن ثوبها المُقترَض يناسبها أكثر الآن. ولم تعد عظمتا الترقوة، الحادتان كسكة مشقوقة، بارزتين فوق صدر الثوب، ولم تعد ملفوفة بغطاء من القماش الأزرق كما كانت في الربيع الماضي. لقد جعلتها أشهر السجن مستريحة وأقل كآبة مما كانت عليه عندما رأيتها في محاكمتها. *إنها تأكل في السجن أفضل مما تأكل في المنزل*، فكرت في نفسي، وأحزنني هذا الأمر.

ذكّرت نفسي أن هذه المرأة قتلت زوجها بلا شفقة أو ندم، وأنها قطّعت جثته بقسوة، وتركتها كجيفة لكل ما يقتات على الجيف من السماء ومن الغابة. إنها جريمة أبعد من العفو البشري؛ والرحمة الإلهية هي فقط التي كان يمكنها أن تغفر عن هكذا خطيئة. ولكن كم هو غريب أن الشر لم يترك علامة على مظهرها؛ لم تكن هناك قساوة في ملامحها، ولا برود في عينيها، أو عبوس ازدراء لشخص غير نادم. كانت بشرتها لا تزال تحمل تورُّد شمس الصيف، وكان شعرها الباهت مربوطاً إلى الأعلى على شكل عقدة عند مؤخرة عنقها، مؤطراً وجهها بأجنحة من ذهب. تذكرت شِعر جون ميلتون *الجنة المفقودة (برادايس لوست)*، الذي يتم فيه وصف الشيطان على أنه الأجمل بين جميع الملائكة. من المؤكد أن هذا مثال

ميلتون قد تم جعله بشراً، فكرت في نفسي، ولكن لم يكن بإمكاني انتزاع أي غضب من قلبي، بل أسف وشفقة فحسب من أجل فتاة مذعورة قد لا ترى طفلتها مرة أخرى أبداً. لقد مرت سنة تقريباً منذ موت تشارلي سيلفر، رجل لم أره حتى. من السهل نسيان الضحية عندما يكون غريباً؛ ومن السهل نسيانه لا سيما عندما تكون المتهمة مخلوقة بائسة وضعيفة تبدو عاجزة عن فعل الشر. ربما لهذا السبب يكون القانون صارماً في قيوده على العقوبة لأولئك المتهمين بجريمة قتل. إن عمى العدالة يحمينا، نحن البشر الفانين الأدنى، من نقطة ضعف الشفقة. اتبعت السجينة الشرطي إلى داخل قاعة المحكمة باللامبالاة الحذرة ذاتها التي رأيتها من قبل، ولكن توماس ويلسون نهض لتحيتها، فتراجعت إلى الوراء، ورأيت عينيها تتسعان باندهاش. بعد لحظة واحدة، كان وجهها خالياً من التعابير من جديد، وأومأت له بمجاملة رزينة، ولكن عندما التفت المحامي ليجلس، رأيت عينيها تبحثان في قاعة المحكمة. لم أظن أنها كانت تبحث عن وجوه عائلتها.

نيكولاس وودفين ليس هنا، أردت أن أخبرها. *إنه يعيش في آشفيل، على بعد مسافة طويلة من هنا، ولم يكن لديه قضايا مدفوعة الأجر أمام المحكمة هنا اليوم. إضافة إلى ذلك، فإن المحامي ليس ضرورياً في الواقع في جلسة الاستماع للحكم. ليس هناك شيء ليُناقش الآن.*

رأيتها وقد ثبتت شفتيها على شكل خط مضغوط، وعرفت أنها لن تسأل عن بطلها السابق، ولا حتى إذا وضعوا الحبل حول عنقها في هذه اللحظة بالذات، ولكنني تمنيت لو أن شخصاً ما يقوم بشرح الظروف لها.

لقد كان توماس ويلسون محامياً محلياً. لقد حضر هذه الدورة للمحكمة العليا لأنه كان لديه موكلون آخرون ليمثلهم، ولكن من باب المجاملة، أو ربما تعاطفاً مع هذه الفتاة المسكينة التائهة، جاء ليقف بجانبها من أجل الاستلام الرسمي للحكم بالإعدام، بحيث ربما تجد ذراعاً تتكئ عليها إن احتاجتها، أو شخصاً ما لمواساتها في

وقت الضيق. لقد كنت مسروراً لرؤية ويلسون هناك، فزاعة بلا ابتسام ببذلة سوداء، ولكنني كنت أحبه أكثر بسبب ذلك. كم سيكون أمراً قاسياً أن تتحمل لوحدك تماماً، وبين أغراب، سماع صدور حكم الإعدام عليك.

نظرت في أرجاء قاعة المحكمة. وعلى الرغم من أن الساعة التاسعة كانت على وشك أن تحل علينا، فإن القاضي لم يكن قد ظهر بعد، مما كان يعني أنه يجب علينا جميعاً الانتظار ليأتي على راحته بدون أي شيء لنفعله. تركت ملاحظات وأوراق اليوم على مكتبي، وتمشيت نحو ويلسون، وأنا أمد يدي وكأنما مرت أيام مذ رأيته، بدلاً من ساعات.

"صباح الخير يا سيدي! أرجو أن تكون والسيدة ويلسون على ما يرام."

"جيد نوعاً ما،" قال ويلسون. وعبرت وجهه ومضة حيرة لمبالغتي المفاجئة في الترحيب، إلا أنه صافحني بكياسة تامة.

أملت رأسي باتجاه السيدة سيلفر لإقرار وجودها. وشعرت أن قيامي بأكثر من ذلك قد يكون غير ملائم، نظراً للغرض الحزين الذي كنا مجتمعين لأجله. حملقت فيّ بدون اهتمام للحظة، ومن ثم أشاحت بنظرها بعيداً، موجهة تحديقها نحو نافذة قاعة المحكمة، كما كانت تفعل طوال معظم فترة المحاكمة.

"ما الذي تسمعه من السيد وودفين هذه الأيام؟" سألت توماس ويلسون. ورأيت من زاوية عيني كتفيها يتيبسان، وبالرغم من أنها أشاحت بنظرها بعيداً بسرعة، كنت أعرف أنها كانت تستمع الآن.

"نيكولاس وودفين؟" طرف ويلسون بعينيه، متسائلاً، بلا ريب، ما الذي استحوذ علي لأستفسر عنه. "آه، أعتقد بأنه بخير. لم أسمع خلاف ذلك."

"ولا أنا،" قلت بمودة لمصلحة السجينة. "لا شك أنه مشغول جداً بمكتب المحاماة الخاص به هذه الأيام، حيث أنه محامي محاكمات ممتاز. أعتقد بأننا لن

نراه اليوم، على أي حال. لدي قائمة بالقضايا، وأعرف أن لا أحد ممن يقفون للمحاكمة اليوم سيتم تمثيله من قِبله." توقفت للتأكد من أن كلماتي قد فُهِمت. "حيث يمكن للسيد وودفين، بلا ريب، أن يساعد أولئك الذين تمت إدانتهم سابقاً، بشكل أكثر فاعلية خارج قاعة المحكمة برسائله وتأثيره."

"لا شك في ذلك،" قال ويلسون بمسحة من الحدة. "يوم سعيد، إذن." إن توماس ويلسون هو محام قدير، ولكنه ليس مولعاً كثيراً بالرقة، وأنا متأكد أنه اعتقد أن محادثتي كانت هذيان شخص غريب الأطوار. لقد فهمت موكلته، على أي حال، حيث أنها أبدت لي أبهت ابتسامة، واستأذنت منهما بالانصراف.

رجعت إلى مكاني في مقدمة قاعة المحكمة، وانتظرنا قاضي المحكمة المتنقلة. حيث أن ذلك الرجل الإسكتلندي الصارم جون آر. دونيل، الذي ترأس محاكمة فرانكي سيلفر كان قد أتم فترة توليه للمنصب في المنطقة الغربية، واستعيض عنه بقاضٍ حديث التعيين لم يكن غريباً على الأراضي البعيدة لسفح الجبل؛ السيد ديفيد لوري سوين من آشفيل. لم أقابله أبداً، ولكنني عرفته من سمعته كرجل مقتدر وطموح.

قبيل زيارته إلى مورغانتون، سمعت بالصدفة عدة أشخاص في البلدة يذكرون قصة تسميته التي سمعتها من إليزابث؛ لقد تم إطلاق اسم ديفيد لوري على سوين إحياء لذكرى زوج والدته الأول، الذي قُتِل من قِبل الهنود على حدود جورجيا. وتذكرت، أيضاً، أنه عندما أصبح ديفيد سوين محامياً شاباً واعداً في آشفيل، درس نيكولاس وودفين القانون على يده قبل اجتيازه لامتحان نقابة المحامين هو نفسه.

تساءلت ماذا يمكن أن يفعل السيد سوين من هذه المرأة الشابة الضعيفة التي انتظرت أن يُحكم عليها بالإعدام. هل سمع القاضي بقضيتها من زميله السابق السيد وودفين؟ لم أرَ ما الاختلاف الذي يمكن أن يصنعه ذلك الأمر، على أي حال.

لقد نطقت هيئة المحلفين بالحكم، وأيدت المحكمة العليا قرارهم، ولن يكون أمام القاضي ـ أيا كان ـ خيار سوى تحديد تاريخ تنفيذ حكم الإعدام.

نظرت إلى ساعتي. بعد النصف تقريباً. أين كان السيد ديفيد سوين؟ هل رآه أحد في البلدة؟ تفحصت الوجوه في قاعة المحكمة إلى أن عثرت على السيد ويل بتلر في الخلف، بجانب أبواب البلوط، يتحدث مع أحد رجال الشرطة. لقد أخبرتني النظرة إلى وجه العمدة أنه كان محتاراً مثلنا بقيتنا. انسللت من مكتبي وذهبت لأتشاور معه.

"هل هناك أي أخبار عن القاضي، سيد بتلر؟"

هز رأسه. "لم تحضر لي عربة الأمس أي رسائل. إنني في حيرة من أمري لأعرف ماذا حل به. لا يجب إلقاء اللوم على الطقس."

نظرت إلى النوافذ اللامعة في الشمس فوقنا. كان اليوم جميلاً كما كانت الأيام التي سبقته لفترة طويلة من الصيف الهندي. لم تقذف أي عواصف بأغصان الأشجار على طريق عربة رالي، ولم تجعل أنهار فائضة المخاضات غير سالكة.

"ربما أن حضرته مريض،" قلت لبتلر.

"حضرته في الواحدة والثلاثين من العمر،" قال العمدة. "وأشك في ما إذا كانت صحته تمنع حضوره. من المرجح أكثر أن يكون طموحه هو الذي يعيقه. لا بد أن هناك شيئاً يجري في عاصمة الولاية." ونظر إلى ساعة الجيب خاصته. "سأمهله حتى الساعة، وبعد ذلك سنقوم بالتأجيل ليوم بحكم سلطتي. هل يحظى هذا بموافقتكم؟"

"بالكاد يمكننا عمل خلاف ذلك،" قلت. "إذا لم يكن هناك قاضٍ ليترأس المحكمة، فإنه لا يمكن للقضايا أن تمضي قدماً."

ارتفعت الأصوات أعلى وأعلى عندما شارفت الساعة على الانتهاء، وكان

باستطاعتي سماع الناس يتساءلون بصوت مرتفع عن غياب القاضي. وفي النهاية ارتفع صوت ويل بتلر فوق الصخب، وصاح بصوت مدوٍ: "أعلن بموجب القانون تأجيل دورة المحكمة العليا هذه حتى الغد، وذلك بسبب غياب القاضي."

كان هناك بضع آهات احتجاج، ربما من أولئك الذين سافروا مسافات شاسعة لحضور الجلسة، والذين كانوا سيضطرون إلى الدفع مقابل ليلة سكن أو نوم ليتدبروا أمرهم من أجل الحضور إلى المحكمة في الغد. انتظرنا في حين كان الجمهور يتضاءل، إلى أن بقي في النهاية فقط العمدة، والسجينة، وتوماس ويلسون، وأنا في قاعة المحكمة. وعند المدخل، كان هناك شرطي ينتظر إشارة لمرافقة السيدة سيلفر للعودة إلى زنزانتها.

كان بإمكاني أن أرى أنها كانت مرتبكة من هذا التحوّل في الأحداث. قامت بلمس كم معطف السيد ويلسون الأسود. "لماذا لم يحضر؟"

ابتسم المحامي. "آه، بعض التأخير البسيط على الطريق، من المحتمل جداً، يا سيدتي. حصان أصيب بالعرج، عجل عربة تعرّض للكسر. إنها مسافة طويلة إلى مورغانتون، كما تعلمين. سوف يحضر هذا المساء، لا أشك في ذلك." كان يقصد أن يكون مطمئناً للسجينة؛ ومما لاشك فيه أنه لم يأخذ بالاعتبار الآثار المترتبة على وصول القاضي.

"ماذا لو لم يحضر؟"

ابتسم توماس ويلسون لها ابتسامة مُداهِنة. "ولكنني متأكد من أنه سيحضر."

في اليوم التالي امتلأت قاعة المحكمة من جديد بسجناء قلقين، وجمهور من المتعطلين بانتظار العدالة بما يلائم بيروقراطية البلاد المنخفضة. وفي هذه المرة، عندما أتت الساعة التاسعة وانتهت، كانت هناك تمتمات في أرجاء قاعة المحكمة. "أعتقد بأن القاضي لديه أشياء أخرى ليقوم بها أفضل من المجيء إلى منطقتنا!" صاح أحدهم.

"ربما خائف من الهنود!" صاح شخص آخر، وساد الضحك فوق التذمّر، حيث يمكن أن يكون المرء خائفاً كذلك من الفينيقيين في هذه الأجزاء في الوقت الحاضر.

كان ويل بتلر يذرع المكان جيئة وذهاباً، مخرجاً ساعته وناظراً إليها مراراً وتكراراً لدرجة أنني تساءلت لماذا كان يزعج نفسه بإعادتها إلى جيبه. وبشكل حتمي شب عراك بالقبضات في مؤخرة الغرفة: إن المزارعين الضجرين والمرهقين مع قليل من المشروبات في بطونهم ليسوا هم الرجال الأكثر صبراً. وعندما رأى العمدة أن الرعب كان جاداً، ومن الحكمة التفريق بين باقي الحشد، ضرب على المقعد لفرض النظام، وصاح بصوت كالخوار، "أعلن تأجيل هذه المحكمة حتى دورة الربيع ـ *اللعنة*." ثم نطق تلك الكلمة الأخيرة همساً، بحيث أنني كنت أنا فقط من سمعه، ولم يكن لدي وقت لأناقش حكمه قبل أن يغرق في العِراك وعلى وجهه نظرة رضا غريبة جعلتني أفكر أن قمع التمرد سيكون بمثابة منعش لأعصابه المنهكة.

لقد كان آخر إجراء هام لبتلر كعمدة مقاطعة بيرك، حيث أنه في غضون أسابيع سيتولى جون بون منصب شرطي أمن المقاطعة، وهو واجب لديه الآن قدر ضئيل من الحماس تجاهه. وقد ضمن تأجيل ويل بتلر لقضية فرانكي سيلفر أن خَلَفه، وليس هو، سيكون مضطراً لإعدام السجينة. وأعتقد، على أي حال، بأن كليهما كان يتعمد التأخير لكسب الوقت، معتقداً بأن الالتماسات والرسائل المُرسلة إلى الحاكم ستوكس ستؤدي بالتأكيد إلى إصدار عفو، وبالتالي لن تكون هناك ضرورة لتنفيذ ذلك الحكم بالإعدام المرعب من قِبل أي شخص.

بدأت قاعة المحكمة تخلو.

"ماذا يعني هذا؟" جلست السيدة سيلفر وقد رفعت نظرها نحو محاميها

المرتدي ملابس سوداء . كان يرتسم على وجهها تعبير أمل حذر ، وكأنها تجرأت بصعوبة على تصديق ما اعتقدت بأنه لا بد أن يكون صحيحاً .

"لديك هبة بستة أشهر ،" قال لها ويلسون بهدوء . "أتمنى أن تستغيلها بحكمة ، سيدتي ، في الصلاة والتأمل . ستجتمع المحكمة من جديد في آذار/مارس .

"انتهى الأمر؟"

"هذا يُسمى تأجيلاً ، يا سيدتي ." كان صوت المحامي مليئاً بالانزعاج ، وذلك ، بلا ريب ، لأن وقته كان يُهدَر بدون غاية مفيدة من قِبل قاضٍ صغير كجرو لا يهتم كثيراً بمصالح الأراضي الغربية لنورث كارولينا . لقد كانت طموحات ديفيد سوين تكمن في رالي ، ومما لاشك فيه أنه هجر مبنى محكمة بلدنا ليحقق أهدافه الخاصة .

"ماذا يجب علي أن أفعل؟"

"يجب عليك أن تنتظري ، سيدة سيلفر ، كبقية سكان مقاطعة بيرك . يوماً طيباً ." انحنى توماس ويلسون لها انحناءة بسيطة ، وأومأ للسجان الذي تقدَّم وهو يحمل الأغلال ليعيد السجينة إلى السجن .

ظهر ديفيد نيولاند بابتسامة نصر ، "لقد كان هذا أفضل يوم عمل قام به ويل بتلر!" قال مجاهراً . "لقد نجح في تأجيل القضية حتى الربيع ، وبالتالي منح الحاكم وقتاً لإصدار العفو . ليس عندي شك في أنه سيفعل ذلك ."

أشرت إليه ليبقي صوته منخفضاً ، حيث أنني رأيت السيدة سيلفر الضئيلة تمشي ببطء نحو الباب ، وتنظر إلى الوراء باتجاهنا . كنت أعرف أنها كانت تستمع إلى إعلان الكولونيل نيولاند ، رفعت رأسها وأخذت نفساً عميقاً ، وكأنما حملاً ثقيلاً رُفِع عن ظهرها .

tele @ktabpdf

تابع نيولاند ثرثرته غير واعٍ لإشارتي. "أو ربما يجب أن يذهب الشكر إلى القاضي الشاب سوين لهذا الوقت الإضافي لمنع تنفيذ هذا الإعدام خلاله،" كان يقول ذلك. "إنها نعمة من العناية الإلهية تماماً أن لا يظهر سوين من أجل موعد المحكمة هذا." التفت الكولونيل إلى توماس ويلسون. "هل هذا من فعل السيد وودفين، هل تعتقد ذلك، يا سيدي؟"

كان وجه المحامي متقداً بالغضب. وفي النهاية قال: "أعتقد بأن الكلمة التي استخدمها للتو كانت *العناية الإلهية*، كولونيل نيولاند، وأقدِّر أنها الكلمة الصحيحة. يجب أن لا أشكر أحداً سوى الرب العظيم على هذا التأجيل، إذا كنت تميل إلى الاعتقاد بأنها نعمة. إن صلواتي في هذا الموضوع ستكون بأن لا تطول معاناة السجينة بآمال زائفة، وانتظار مديد للموت الذي قد يكون رحيماً أكثر لو أتى بسرعة."

وهكذا ذهبت، وتم حبسها لفصل آخر لتمضي موسم الحصاد، وبعد ذلك فصل الشتاء، في تلك الزنزانة الضيقة، وأخشى أنني منحتها القليل من التفكير على مر الأسابيع العديدة التالية، حيث أننا كنا مشغولين جداً في موسم الحصاد. أعرف أن السيدات في مورغانتون واصلن زيارتها، على أي حال، فقد سمعت إليزابث تتحدث عن الأمر بين أخواتها. لقد جعلن من أشهر مجرمة في المقاطعة طفلة مدللة جداً، ووجدت نفسي أتساءل ما إذا كانت السيدات يتمتعن بميلودراما المرأة المحكوم عليها بالموت، أو ما إذا كن يحسدنها على الشجاعة والتصميم اللذين أبدتهما في التخلص من زوج غير مرغوب فيه. وكان رجال المقاطعة يعتقدون بأنها ارتكبت عملاً شريراً عظيماً، ولكنني لست متأكداً أن الجنس اللطيف كن يشاركننا أفكارنا حول الموضوع. كثير من الرجال في الحانة كانوا قلقين عندما تمحور الحديث عن فرانكي سيلفر، وأولئك الذين صرحوا بأعلى صوت بأنه يجب أن تُعدَم بلا تأخير، كانوا هم ذاتهم الرجال الذين كانوا يبدون

أنهم الأقل احتراماً لزوجاتهم. وتساءلت أحياناً ما إذا كان الأزواج الشرسون قد تصرفوا بشكل أفضل قليلاً في تلك السنة بسبب المثال المرعب للعقاب الذي ضربته لنا السيدة سيلفر.

بعد عدة أسابيع من فض المحكمة، أجريَت الانتخابات، وشغل جون بون مكانه بوصفه العمدة المُنتخَب حديثاً. إنني متأكد من أنه اعتقد بأن قضية فرانكي سيلفر كانت ستنتهي وتسوّى قبل توليه المنصب، إلا أنها تأجلت بالرغم من ذلك، مزعجة إياه بالاحتمالية المرعبة من تنفيذ حكم الإعدام في فترة ولايته. وكان مواطنون بارزون آخرون من المقاطعة لا يزالون يحاولون إقناع موظفي الحكومة بالاصغاء لصوت العقل. وكان توماس ويلسون عند كلمته، فقد قام بكتابة رسالة إلى الحاكم باسم موكلته.

ستيتفيل

19 تشرين الثاني/نوفمبر 1832

سيدي العزيز،

آمل أن تعذر إزعاجي لك بهذه السطور القليلة. وستلتمس لي أهمية الموضوع الذي أرغب في ذكره التبرير. إنه حالة السيدة التعيسة المحجوزة الآن في سجننا في مورغانتون: فرانكي سيلفر. لقد دُفعَت لبعض الوقت لتصدِّق أنه تم منح عفو لها من قِبل سعادتكم. وقد خرج هذا الرأي من خلال سوء فهم سببه الكولونيل ديفيد نيولاند.

ليس ضرورياً أن أكون مضطراً إلى الإسهاب بالكلمات أو بالأسباب حول لماذا أعتقد بأنها يجب أن تنال عفواً. يكفي أن نقول إنني لست متردداً في قول إن المجتمع يتوقع العفو عنها، وأعتقد بأنهم يتمنونه عموماً. لقد كان السيد جوزيف إيرون حاضراً في المحاكمة والذي ألمحت له عنك. إنني أعلم أنه اعتقد في وقت ما بأنها قضية مثيرة للريبة جداً. لقد رأيت ديفيد نيولاند

في ويلكيسبورو، وقرأت الرسالة التي كتبها هيو إم. ستوكس عن الموضوع. إنني أتفق تماماً معه في المشاعر بالنسبة لرأي المجتمع. وبالتأكيد هناك شخص، ربما أكثر بقليل، يعتقدون أو يتمنون تنفيذ الإعدام بها. ومن المُعتقَد من قِبل كثيرين بأن أسبابها كانت ذرائعية جداً في ارتكاب ذلك الفعل المروع. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أنه سبب قوي جداً لماذا ينبغي أن تمتد الرأفة التنفيذية لتصل إلى واحدة في عمرها وظروفها.

إنني أعرف، سيدي العزيز، أنك كنت غالباً مُلاماً لتوسيع السلطة العادية المنوطة بالسلطة التنفيذية. ليس هناك ما تخشاه من هذا النهج؛ إن الإنسانية هي بالتأكيد إحدى السمات العظيمة. إنني آمل وأثق، يا سيدي، أنه إذا كان الأمر يتساوق مع واجبك ومشاعرك تجاه بائسة تعيسة، أنك ستمنحها العفو، إن لم يكن قد تم ذلك فعلياً، وأنك سترسل العفو ذاته إلى في مورغانتون. لقد طلبت من عمدتنا السيد بون لكي يتحدث إليك عن الموضوع. إنني أعرف مشاغلك وأخشى أنني أنهكت صبركم الآن.

أرجو أن تقبل تقديري الشديد وتمنياتي بسعادتك.

ت. دبليو. ويلسون

رفض مونتفورت ستوكس، الذي كان في أيامه الأخيرة كحاكم ولاية نورث كارولينا، الرد.

وقد عرفنا في حينه لماذا لم يظهر القاضي سوين للاجتماع في دورة الخريف للمحكمة العليا، وقد ثبت، بشكل لم يكن مفاجئاً لأحد، أن حكمنا كان صحيحاً؛ لقد كان لدى السيد عمل عاجل في أماكن أفخم من عزلة بلدنا. لقد كان ديفيد لوري سوين رشح نفسه للمنافسة على منصب الحاكم.

لقد استقال من منصبه كقاض لقضاء أشهر الخريف في تنظيم حملة من أجل المنصب بين أصدقائه ذوي النفوذ في رالي، في حين أصبحت واجباته نحو العدالة

في المقاطعات الجبلية طي النسيان، محجوبة بطموحه. عندما أصبحت الأخبار معروفة، تم التعليق على هذا التحول في الأحداث من قِبل مجموعة متنوعة من قادة المجتمع في مورغانتون، بدرجات متفاوتة من الموافقة. ومن أكثر التعليقات التي سمعتها تساهلاً فيما يتعلق بترشيح القاضي سوين كانت بمعنى أنه ربما كان شيئاً جيداً، طالما أن سوين كان مواطناً من آشفيل؛ ربما، كغربي هو بحد ذاته، كان يمكن لسوين أن يفعل شيئاً جيداً للمناطق الجبلية لنورث كارولينا المهملة غالباً. لقد قال البعض إنهم قد يصوتون له، والبعض الآخر لم يكونوا متأكدين جداً من ذلك. وقال العمدة السابق ويل بتلر إنه إذا كان اهتمام القاضي سوين بواجبه كقاضٍ متنقل هو دلالة على اهتمامه بموطنه، فسيكون من الأفضل لنا أن ننتخب قرداً كحاكم، لأنه لا يمكننا أن نفعل أسوأ من ذلك. لقد رأيت قدراً كبيراً من المنطق في تقدير العمدة للوضع، ولكنني لم أقل ذلك، لأن التكتم هو الفضيلة الأعظم للمحامي، وإضافة إلى ذلك، كنت أعتقد بأن كانت هناك فرصة ضئيلة جداً أن يفوز رجل من الجزء الخاص بنا من الولاية، على أي حال، حيث أن السلطة السياسية تتركز، وكانت دائماً كذلك، في الجزء الشرقي من الولاية.

فاز ديفيد سوين، على أي حال. لم يتم اختياره في الانتخابات العامة التي تم إجراؤها في تشرين الثاني/نوفمبر. في ذلك الوقت تمت إعادة انتخاب أندرو جاكسون رئيساً، مما أدهش عدداً من السادة في مقاطعة بيرك، وأدهش سوين ذاته، الذي عارض بشدة سياسات جاكسون، ولكن مزارعينا المحليين المالكين للأراضي كانوا سعيدين جداً لسماع خبر نجاح أولد هيكوري، حيث كان رجل الشعب، وهو نفسه من هذه الأجزاء، وقد أخذ بعضهم حتى عهداً على نفسه أن يقوم بالسفر الطويل إلى واشنطن لحضور احتفال تنصيبه في كانون الثاني/يناير. بعد ذلك، في كانون الأول/ديسمبر، عيّن السياسيون في رالي ديفيد إل. سوين لدورة مدتها سنة واحدة خاصة كحاكم لنورث كارولينا، وبالتالي، في النهاية لم

يكن أحد مضطراً للتصويت له، ولكنه أصبح حاكماً بالرغم من ذلك، وعلى العموم كان ويل بتلر مخطئاً بشأن موقف ديفيد سوين تجاه مقاطعات الجبل. فكان أن أثبت أنه صديق مخلص لمنطقته، وقد آثر تطوير طرق السكك الحديدية إلى المناطق الغربية من الولاية، الأمر الذي من شأنه أن يكون نعمة كبيرة للتطوير بالنسبة للمنطقة، إلا أنه لم يُصلح جميع الأخطاء في الجزء الخاص بنا من الولاية. ليس بأي شكل من الأشكال.

"السيدة سيلفر مسرورة جداً لسماعها عن انتخاب الحاكم سوين للمنصب،" علّقت إليزابث باكراً في أحد صباحات السنة الجديدة 1833. "قالت لي شقيقتي ماري إنها بكت من الفرحة عندما أخبروها."

أجبت أنني لم أكن أعرف أن السيدة سيلفر كان لديها هذا الاهتمام في السياسة، لا سيما أنها من غير المحتمل أن تعيش طويلاً بما يكفي لتتمتع بأداء الحاكم.

رفعت إليزابث حاجبيها. "إنك فظ جداً هذا الصباح، سيد غيذر،" قالت. "هل كان شراب الرم الليلة الماضية غير ملائم لك؟"

"إن استقبالها كان منهكاً،" اعترفت بذلك، "ولكن هذا لا يغير حقيقة أنني قلق بشأن كل الاهتمام الذي تبدونه أنتم السيدات تجاه السيدة سيلفر. إنها غير معتادة جداً على المجتمع الذي تعرّضونها له في زياراتكن، ولا أعلم ماذا تفعل بكن جميعاً. ومع ذلك، لا بد أنها تستغل هذا الوقت بحكمة لإعداد روحها للحياة الآخرة، وأعتقد بأنكن أنتن أيها السيدات، في أحسن الأحوال، إلهاء لها عن تلك الغاية."

ضحكت إليزابث. "ولكنها لم تبلغ العشرين بعد! لديها وقت طويل لتستعد للآخرة."

"لديها وقت حتى آذار/مارس، وربما ستة أسابيع بعد ذلك، للقيام بالأعمال

التحضيرية، وليتم تنفيذ الإعدام. إن جلسة الاستماع للحكم هي مجرد إجراء شكلي، إليزابث. لن يكون هناك دليل جديد، ولا هيئة محلفين، ولا استئناف. إنها مسألة تنظيم مواعيد، لا أكثر ولا أقل. لقد تم تحديد مصيرها الآن."

تكرَّمت زوجتي عليَّ بابتسامة مترفِّقة. "لقد تم تحديد مصيرها قبل تعيين الحاكم الجديد. والآن، بطبيعة الحال، فقد تغيّر كل شيء."

"لم يتغير أي شيء

"ولكن بالطبع تغير، يا عزيزي! ديفيد سوين من آشفيل هو الآن حاكم نورث كارولينا. باختصار، إنه واحد منّا. ويجب أن لا تنسى أن محامي السيدة سيلفر، نيكولاس وودفين، درس القانون على يد السيد سوين. يمكن تقديم طلب استئناف شخصي. تلك هي الطريقة التي يتم بها حسم الأمور."

ابتسمت إليزابث لي ابتسامة رقيقة فخورة لواحدة من أفراد عائلة إيروين المتفوقين. كان جدها، شارب، عضواً في الكونغرس القاري، وقامت بعدّ الجنرالات وأعضاء الهيئة التشريعية، وأصحاب المزارع الأثرياء في سلالتها. ومن كنت أنا لأقول لها إنها كانت على خطأ؟ لذا فقد أومأت برأسي فقط، وتخليت عن الأمر. كنت أفكر، على أي حال، أنه لو رفعت السيدة إليزابث إيروين غيذر فأساً على زوجها، فسيكون من الممكن جداً أن تحصل هي نفسها على عفو من قِبل صديق والدها العزيز، الحاكم، ولكنَ لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لفرانكي سيلفر. فجميع الداعمين المؤثرين في العالم لا يمكنهم أن يجعلوا منها امرأة مهمة. وربما لن يكون جناح حماية سيدات إيروين كافياً لإنقاذها.

tele @ktabpdf

الفصل السادس

لم يذهب سبنسر آروود إلى الكنيسة منذ عدة شهور، ولكن هذا الأحد، وعلى الرغم من الصعوبة التي يعانيها في التنقل، وتحفظات الطبيب بشأن مغادرته المنزل مبكراً، فقد حضر. لقد كانت عائلته تنتمي إلى الكنيسة الصغيرة ذات الإطار الأبيض لأجيال، وكان يشعر أن أي شكر مقدَّم لاستمرار وجوده حياً يجب أن يُقال هنا. وكالعادة، على أي حال، لقد حضر بنيَّة تقديم طلبات إضافية أكثر من الشكر للرحمات التي مُنحت له أصلاً.

إن رؤية عدد كبير من الناس الذين كان يعرفهم سبنسر معظم حياته كان أمراً يبعث على الاطمئنان بالنسبة له في إدراكه الجديد للفنائية، وكأن اهتمامهم وأمنياتهم الطيبة كان من الممكن أن تعيق الموت لفترة أطول قليلاً من الزمن. جلس على المقعد الخشبي في الكنيسة بجانب والدته، وكان يشعر بحرارة بشكل مزعج وهو مرتدٍ معطفه الأزرق الصوفي وربطة عنق، كما كان لا يزال شاحباً وضعيفاً بسبب إصاباته، إلا أنه كان يحاول أن يبدو وكأنما ليس هناك شيء خطأ. وكان أفراد من الحشد يبتسمون له من وقت لآخر، ويلوحون له من مقاعد جانبية، وكان يحاول رد الابتسامات، ولكن ربما أنه خاطر بالخروج مبكراً. كان يشعر بدوار، وكان متعباً بشكل لايُطاق من مسافة مشي قصيرة من السيارة إلى حرم الكنيسة. كان وكأن الشيخوخة قد استبدت به في غضون ساعة من الزمن، ولكن هذه المرة، عندما شعر أنه بخير من جديد، كان بإمكانه العودة إلى سن

الشباب. لقد تساءل عما سيكون عليه الحال عندما يكون عجوزاً بشكل نهائي، متجاوزاً العودة إلى الوراء. ربما لن يعيش لمعرفة ذلك.

عندما بدأ الطقس الديني، غمره اللحن المريح للشعائر بدون إدراك منه لمعنى الكلمات. حملق إلى الأعلى في النافذة ذات الزجاج الملون، والتي تحمل صورة الملاك الفيكتوري السمين وهو يرشد صبياً وبنتاً فوق الجسر. عندما كان طفلاً، كان يحب الصورة المشعّة، ولكن عاطفيتها القوية لم تكن قادرة على الوصول إليه الآن. لقد أصبح شارد الفكر بإيقاعات جسده: الصوت المكتوم لضربات قلبه، ووخزات العرق على جبهته، وكتلة الضماد التي فوق خصره بالضبط، والتي كانت تسبب له حكّة تحت قميصه الأزرق المنشّى. لقد أصبح جسده ساعة تدق ثواني وقته المخصص إلى أن وصل إلى الهاوية، والجسر الذي كان عليه أن يجتازه، بملاك أو بدونه.

كان يفكر أنه في غضون اثني عشر يوماً أخرى سيذهب فيت هاركرايدر إلى الكرسي الكهربائي. وأثناء ما كانت ترنيمة الافتتاح تُغنّى، كان سبنسر يقف صامتاً، وغافلاً عن الكلمات، يحسب عدد الساعات في اثني عشر يوماً. وكان جزء آخر من عقله يتساءل ما إذا كان يتوجب عليه أن يحاول التحدث إلى الرجل المُدان في ليلة تنفيذ حكم الإعدام. ماذا كان هناك ليقال، على أي حال؟ أرجوك أخبرني أنك فعلتها لكي أشعر أنني بحال أفضل؟ لماذا يجب أن يُسمح له بأن يشعر أنه بحال أفضل في حين لن يشعر فيت هاركرايد خلال 288 ساعة بأي شيء على الإطلاق.

شعر بالأسف لفكرة أن تؤخذ حياة رجل منه، ودفع بصورة لجثة إميلي ستانتون إلى ذهنه لتذكره بأن هذا الرجل كان يستحق موته، ولكن ذلك لم يقلل من عدم الارتياح، وأدرك أنه كان يتخيل المراهق المتجهم الذي أرسله إلى السجن قبل سنوات. دعوه يرى القاتل المنافق الخائف الذي كبُر وأصبح قاسي القلب في

السجن، وربما كان سيقبل بهدوء إطلاق سراح الرجل، وسيكون بمقدوره رؤية ذلك يحدث.

كان سبنسر يجلس هناك وهو يفكر بشأن قضية هاركرايدر لبعض الوقت، وفي حين كانت أصوات أبناء الأبرشية الآخرين تتلاشى في ترنيمة في الجزء الخلفي من دماغه، عندما أدرك أنه لم يعد في حرم الكنيسة ذات الإطار الأبيض. لقد كان يقف في الظلال على الممر في الغابات الكثيفة، وكانت هناك فتاة شقراء صغيرة ترتدي ثوباً أبيض تجلس القرفصاء في الجدول الجبلي الصخري الضحل. إن الجدول الصغير، المغطى للأبد بالغابات الكثيفة، من شأنه أن يكون جليداً ذائباً أكثر من كونه ماء، وحتى في الصيف قد يكون بارداً جداً بحيث أن الخوض فيه أكثر من بضعة أقدام على طول منبع الجدول قد يجعل ساقيك تؤلمانك، وقد تشعر بوخز في قدميك، وبعد ذلك تنحدران.

كانت الفتاة الشاحبة تغسل قطعة قماش بيضاء في المياه السريعة الفضية. كان شعرها بلون الذهب الباهت، وكانت صغيرة البنية، كظل أبيض في أشعة الشمس المتسربة لأرض الغابة المقطوعة الأشجار. كانت منحنية فوق الجدول، وتغمر قطعة القماش في الماء البارد جداً، وكانت تبدو أنها لا تشعر بالبرودة في أصابعها. وقامت بفرك قطعة القماش الملطخة بالصخر المسطح عند منبع الجدول، وكانت منكبة على عملها، وغير مكترثة بالمراقب. بعد لحظة رفعت نظرها نحوه، بدون ابتسامة أو ومضة تعبير، مجرد نظرة تقول إنه كان هناك، وعرف أنها كانت فرانكي سيلفر.

حاول التوجّه نحوها، ولكن وجد أنه لا يستطيع ذلك. وعندما فتح فمه لينادي بها، نظرت إليه بشكل مباشر، وبعينين متضيقتين، وابتسامة باردة. بعد ذلك أخرجت قطعة القماش البيضاء من الماء، ورأى بقع الدم التي كانت تحاول أن تغسلها.

عندما استعاد وعيه، كان يقف مع بقية جماعة المصلين، وكانت الأنغام الأخيرة من الترنيمة تتلاشى إلى صمت. رأى سبنسر أن كتاب الترنيمات الخاص به كان مفتوحاً على "هل أنت مغسول بدم الحَمَل،" وكانت والدته قد وضعت يدها على ذراعه، وكانت تهزه بلطف.

"إنني بخير،" تمتم، وهو يفرك جبهته ليبعد الشذرات الأخيرة من الحلم. "أعتقد بأنني غفوت."

"لقد قلت لك إنه كان الوقت مبكراً بالنسبة لك لكي تخرج!" ردت مهسهسة.

"لا. إنني على ما يرام. هناك كثير من الأمور تدور في رأسي فقط، هذا كل شيء."

كان الناس قد بدأوا الآن في السير أرتالاً خارج مقاعد الكنيسة الخشبية، وأدرك أن الطقس الديني قد انتهى. بدا له أن بضع دقائق فقط قد مرت منذ دخوله إلى الكنيسة. وتوقف عدد من صديقات والدته في ممشى جناح الكنيسة ليتمنين له الخير، وصافح أيدياً مغطاة بقفازات بيضاء بابتسامة مترددة، وتمنى لو أن والدته لم تقم بدعوة ضيوف إلى عشاء يوم الأحد، فهو لم يكن مؤهلاً للمجاراة في الأحاديث التافهة للمعارف القادمين من القرية.

"طوبى للفقراء في الروح، أيها العمدة،" قال صوت رقيق بجانبه.

التفت ليجد نورا بونستيل، واحدة من أقدم أفراد الأبرشية، انسلت في المقعد الذي خلفهم. كانت طويلة القامة ومنتصبة بثوب الكنيسة الأزرق الخاص بها، مع شال من الصوف الرمادي متدلٍ فوق كتفيها. كان شعرها لا يزال أسود أكثر منه فضياً، وكان مسحوباً إلى الخلف بجناحين يؤطران وجهها، ومشدوداً في عقدة عند مؤخرة رأسها. لمست ذراعه، وفجأة شعر بالبرد. "الفقراء في الروح،" تمتم وهو يعترف بالنعمة. لقد كانت الآنسة بونستيل معلمته في المدرسة ليوم الأحد لسنوات مضت أكثر مما اهتم أي منهما أن يتذكر. "لأنهم سيرون الرب."

ابتسمت المرأة العجوز، وهزت رأسها. "لم يكن بإمكانك أبداً حفظ تلك الآيات بشكل صحيح، أليس كذلك؟ إنها: *لأن لهم ملكوت السماء*

هز كتفيه لامبالياً. "حسناً، أعتقد بأنه لهذا السبب لم أرَ الرب."

"ماذا رأيت؟"

يروي الناس قصصاً عن نورا بونستيل، بالرغم من أن لا أحد أبداً قال إنها لم تكن امرأة طيبة وورعة. كانت تعرف أشياء، على أي حال. كانت ترى الأشياء قبل وقوعها، وكانت تمتلك طريقة لمعرفة أشياء سرية لم يكن أحد ليحلم في قولها لها. لم تكن تتدخل تماماً في حياة الآخرين، ولكنك لو ذهبت إليها من أجل مساعدة، فإنها كانت تعرف دائماً بأي شأن حضرت. لقد زعم الأشخاص الكبار في السن أن نورا بونستيل كانت حتى تتحدث إلى الموتى، ولكن سبنسر لم يدع نفسه يصدق ذلك، لذا فقد اختار أن لا يهتم بالموضوع نهائياً. لقد كان يعرفها طوال حياته.

ماذا رأيت؟

"فرانكي سيلفر." تفوه قبل أن يفكر بها بشكل أفضل. لقد كانت نورا بونستيل قادرة دائماً على الحصول على الحقيقة منه، حتى عندما كان ذلك المراهق المشاكس الذي كان يمضي الدقائق القليلة بين مدرسة يوم الأحد والكنيسة في الانسلال لتدخين سيجارة في الجزء الخلفي من باحة الكنيسة مع بعض الأولاد الأكبر سناً. وقد وضعت نورا بونستيل حداً لذلك في صباح أحد أيام الربيع حتى بدون مرور كلمة بينهما.

فرانكي سيلفر.

أي شخص آخر كان سيقول: "من؟" أو: "لا بد أنك كنت تحلم!" أو قد يمررون

التعليق كمزحة، ولكن نورا بونستيل لم تفعل أياً من تلك الأمور. لقد تأملت في الأمر للحظة وأمأوت برأسها ببطء.

"لقد سمعت أنها تمشي،" قالت. "بالرغم من أنني لم أرها أنا نفسي. ليس أمراً مستغرباً، على أي حال، أليس كذلك؟"

"لا؟" لم يتمكن من تصديق أنه كان يجري هذه المحادثة في وضح النهار في حرم الكنيسة الصغيرة البيضاء. لقد كان المكان فارغاً تقريباً الآن. وكانت والدته قد مشت باتجاه الباب لتتحدث إلى بعض صديقاتها، لذا فلم يكن هناك أي أحد ليسمعهما.

"يقولون إن أولئك الذين يموتون من جراء عنف يمشون غالباً. وموتها كان موتاً قاسياً."

"هل تعرفين ما حدث في الحقيقة في تلك الليلة؟"

هزت نورا بونستيل. "ليس لي أن أقول. ولكن إذا كنتَ قد رأيتها، فإنها تقصد أن تخبرك بشيء، يا سبنسر. من الأفضل لك أن تكتشف ما هو."

في تلك الليلة جلس سبنسر آروود في دائرة من الضوء على طاولة غرفة الطعام، ومعه أوراق ملف القضية وكتب عن تاريخ نورث كارولينا مختلطة في كومة أمامه. ماذا كان هناك بشأن قضية هاركرايدر قد ذكّر نيلسي ميلر بفرانكي سيلفر؟ لم يتمكن من فهم ذلك. لم يكن يعتقد بأن نيلسي ميلر كان يعرف الصلة بينهما، كذلك. لقد كان نوعاً من الحدس القوي الذي لم يوضح نفسه أبداً في عقل الرجل العجوز. لم يكن سبنسر يدقق كثيراً في أمور من هذا القبيل في تلك الأيام، ولكن الآن، وقد أصبح أكبر بعشرين عاماً، وأكثر حكمة، فقد كان يؤمن بأن حدس شرطي متمرس يمكن أن يُعتبَر سبباً مرجحاً. لو أنك عشت أطول بما يكفي لكنت عرفت أشياء فقط بالغريزة والملاحظة.

كان سبنسر في ذلك الوقت قد قرأ جميع المواد التي يمكن أن توفرها المكتبات عن قضية سيلفر. وقد كان بعضها يدعو للتأمل، ومعظمها حافل بالتكرار، ولكنه قرأها جميعها، ومازالت الصلة بين الأسطورة والصبي هاركرايدر تستعصي عليه. عندما درس قضية سيلفر كما قد يفعل رجل قانون، كان بإمكانه أن يفهم لماذا لم يكن أمام الشرطي بيكر خيار سوى اعتقال فرانكي سيلفر بشأن الجريمة. ولم يكن لدى هيئة المحلفين بديل، كذلك. ونظراً لأن هيئة المحلفين الكبرى لم توجه تهمة إلى عائلة ستيوارت، فإنه لم يُقدَّم لها أي مشتبه بهم آخرين لإلقاء اللوم عليهم. وخلال المحاكمة لم تقم فرانكي سيلفر بتقديم أي تفسير لحقيقة أنها كذبت بشأن مكان تواجد تشارلي، أو لحقيقة العثور على بقايا جثته في كوخهما. "لست مذنبة،" قالت. هذا ما لدي اقبلوه أو ارفضوه، وقد رفضوه. كانوا مجبرين على ذلك. لقد فهم كل ذلك، ولكن حدسه أخبره أن هناك شيئاً ما خطأ بشكل رهيب في هذه القضية. الفتيات في سن الثامنة عشرة لا يقتلن بدون تحريض، ولا يقطّعن جثثاً.

لقد تساءل ما الذي حدث فعلاً في تلك الليلة. أي تفسير ـ بصرف النظر عن كم يكون واهياً ـ كان يمكن أن ينقذها، ولكنها جلست هناك بوجه جامد خال من التعابير، وصامتة. *لست مذنبة*.

لقد فعل هاركرايد الشيء ذاته.

لقد تم توكيل محام معيّن له من قِبل المحكمة، ليس محامياً شاباً بقدر ما كان نيكولاس وودفين، ولكن ليس أكبر بكثير، كذلك. ربما كان المحامي يفتقر إلى الخبرة لتقديم دفاع مناسب عن التهم الموجهة، ولكن بما أن المتهم لم يكن يملك نقوداً، فقد كان يفتقر كذلك إلى الموارد اللازمة لتوليد شك معقول في عقول هيئة المحلفين. لم يقم أي محقق خاص بتعكير مياه الدليل بنتائج تحقيق إيجابية؛ ولم يتم استخدام أطباء نفسيين، أو خبراء طب شرعي من قِبل الدفاع لدحض شهود

تخفيف الحكم. لم يكن بإمكان فيت هاركرايدر أن يوفر سترة بذلة وربطة عنق ليؤثر على هيئة المحلفين بمظهره الجدير بالاحترام. لقد جلس في المحكمة بقميص صوفي منقوش، وبنطال عمل رمادي، ليبدو أكثر همجية مقارنة بالمحامين الأنيقين ببذلاتهم السوداء، وقمصانهم الرقيقة المنشّاة.

كل ذلك كان لا غبار عليه بالنسبة للعمدة، بشرط أن يكون المتهم مذنباً. في بعض الأحيان كان القانون يحتاج إلى كل المساعدة التي يمكن أن يحصل عليها لينتزع إدانة من قلوب المحلفين الرحيمة، ولكنه لم يكن يريد أن يفكر أنه تمت إدانة رجل بجريمة قتل ببساطة لأنه انتهك قانون لباس الطبقة الوسطى. وتكون العقوبة أعظم لخرق القوانين غير المدوّنة.

تخيل سبنسر قاعة المحكمة. فيت بقميصه الصوفي المنقوش المهترئ، ومحاميه الشاب العصبي، لائق ولكن غير مثير للاهتمام، وهو نفسه بزيه البني الخاص بمساعد العمدة. لقد كان الكولونيل ستانتون ملفتاً للنظر تقريباً بقدر ما كان المحامون في قاعة المحكمة الصغيرة لمقاطعة ويك. لقد فهم رموز قوانين المجتمع غير المدونة، وجلس هناك يوماً بعد يوم، منتصباً كمدك البندقية، ونظيفاً في زيه الرسمي مع كل شريط ووسام معروضين بشكل بارز: صورة للحزن المتزن المُطالب بتحقيق العدالة. كانت زوجته بجانبه معظم الوقت، وكانت ترتدي سترة قصيرة وقبعة لم تكن لتبدو في غير موضعها في جنازة أو في طقس ديني في كنيسة. كانت تبدو مرتبكة قليلاً لوجودها هناك، وتحمر خجلاً كلما تحدث أي شخص إليها، ولم تكن تنظر أبداً إلى المتهم، أو إلى هيئة المحلفين، ولكن الكولونيل ستانتون كان يراقب الإجراءات القضائية بنظرة المخرج المتنبهة التي تراقب بروفة المسرحية بملابس التمثيل. لقد استوعب كل شيء، وكان يومئ برأسه عندما كان يوافق على شيء ما، ويعبس عندما لا يوافق. لقد حرص على

الجلوس في مكان لا يمكن لهيئة المحلفين أن لا تراه منه، وربما بسبب مظهره المثير للإعجاب، وجو السيطرة الذي يتمتع به، كان يبدو أنهم كانوا يراقبونه مختبرين رد فعلهم تجاه شهادة الشاهد عن طريق تفحص تعابير ستانتون بالموافقة.

ماذا عن والدي الضحية الأخرى، فكر سبنسر في نفسه. لقد حاول أن يتخيلهما في قاعة المحكمة، ولكن الصورة لم تُستحضَر. لقد كان الزوجان ويلسون كبيرين في السن. وقد حضرا إلى المحكمة مرتين على الأقل، لقد كان سبنسر يعرف ذلك لأنه تذكر أنه تحدث إليهما في الردهة، ولكنهما كانا من أهل الريف البسطاء، وقد غطى عليهما الزوجان ستانتون الأنيقان.

خارج قاعة المحكمة، كان تشارلز ويث ستانتون يصدر الأوامر كذلك. لقد نشر الثقة والغضب المهيب على موت ابنته. لقد كان على استعداد دائماً ليصوَّر من أجل الصحف، أو ليقدِّم حديثاً موجزاً لصحفيي التلفاز، وكان سيقدم لكل مراسل صورة مؤثرة لإيميلي الجميلة. "ينبغي أن لا تُنسى،" كان سيقول بابتسامة دامعة. "هذه المحاكمة ليست بشأن ذلك الوحش هناك في الداخل، إنها بشأن ما تستحقه إيميلي، أيضاً، مقابل حياتها."

كان سبنسر معجباً بالرجل لاتزانه في مواجهة وسائل الإعلام. لقد تم دفع الميكروفون في وجهه بضع مرات أثناء المحاكمة، وكان يعرف أن تقديم صورة لذكاء جريء كان أصعب مما كان يبدو عليه. لم يكن العمدة العجوز يريد شيئاً من عائلة ستانتون، على أي حال. وأكثر من مرة رفض عروضهم لأخذ أفراد الشرطة للغداء.

"ذلك الرجل هو مخلوق ثأر،" علّق نيلسي ميلر لمساعده، بعد استراحة المحكمة في اليوم الثالث.

"ربما أن لافاييت هاركرايدر قد قتل كذلك أحد فرسان ديزني الثلاثة، وانتهى

من الأمر، لأن هذا الرجل ذا الكلام المتملق، والمحتال سيتعقبه إلى ضواحي الجحيم. عندما تقدم على قتل أحد في أي وقت من حياتك، ياسبنسر، تأكد من أن أباهم ليس كلباً بوليسياً ضخماً لعيناً لتقفي الأثر."

"هكذا أريد أن يتصرف أقاربي إذا تم قتلي،" أجاب سبنسر. "لستانتون حق في المطالبة بالعدالة.

"أعرف أن له حقاً في ذلك. ولكنني فقط لست متأكداً من أنه يمكنك أن تأخذ يوماً واحداً من حياة شخص، وتقرر ما هو صواب وما هو خطأ، وتحكم عليه على أساس ذلك.

"إننا نفعل ذلك كل يوم،" قال سبنسر. "في الأمس حررت مخالفة سرعة لأحد أعضاء جوقة الكنيسة."

هز نيلسي ميلر رأسه. "إنني أتقدم في السن،" قال. "وأواصل التفكير في أن العالم قد يكون مكاناً أفضل إذا كانت هناك عدالة أقل وإحسان أكثر."

كان نيلسي ميلر يهاجم بكلام لاذع خلال المحاكمة بأكملها، دافعاً سبنسر للسؤال أكثر من مرة: "مع أي طرف أنت؟" قد يشكو العمدة العجوز يوماً ما من هيمنة الكولونيل ستانتون على المحكمة أمام وسائل الإعلام. وفي مرة أخرى، علّق قائلاً: "هل سبق لك أن لاحظت أنه يمكنك أن تعرف مع أي طرف يكون الشخص في هذه القضية من طريقة لباسهم؟"

لقد كان ذلك صحيحاً جداً.

كان أفراد عائلة ستانتون ومؤيدوهم يرتدون دائماً ما يدعوه نيلسي ميلر "الزي الرسمي الخاص بالكنيسة الأسقفية البروتستانتية،" في حين كان أفراد عائلة هاركرايدر، الذين لم يكن لديهم نية في إظهار احترامهم للمحكمة ـ أو ربما كان لديهم نية ـ يظهرون بملابس لم يكن سبنسر ليرتديها في ساحة بيع

الممتلكات المستعملة: ملابس قديمة ملطخة بالبقع، وقمصان ذات أكمام قصيرة (تي شيرت) مطبوع عليها من الأمام عبارات وقحة، وملابس صيد مموهة بشكل عَرَضي. كانت والدة فيت هاركرايد ميتة، ولكن كانت مجموعة متنوعة من القريبات يظهرن من وقت لآخر، وكن يرتدين عادة سراويل عادية عليها طباعة زاهية، وقمصاناً رخيصة محمّلة بخرز من محلات كل شيء بعشرة سنتات. ولم يكن من المفترض أن تلاحظ هيئة المحلفين أمراً من هذا القبيل، ولكن ملاحظتهم لذلك كان يتعذر اجتنابها.

أوضح ذكريات سبنسر عن المحاكمة كانت الملامح الوقورة والمنحوتة للكولونيل ستانتون على أحد جوانب قاعة المحكمة، وفيت هاركرايدر المتجهم الأشعث على الجانب الآخر. وفي كل يوم كان أخواه يجلسان بالقرب من الجزء الأمامي من قاعة المحكمة، ضمن مسافة اللمس تقريباً من المتهم. وكانا هما أيضاً يتجهمان طوال مراحل الإجراءات القانونية، وهما يتمتمان بطريقة تنذر بشؤم عندما كانا يعارضان شهادة الشاهد. بقي سبنسر يراقبهما طوال المحاكمة، مرتقباً بروز سلاح من ملابسهما، أو أية إشارة أخرى تدل على أنهما كانا ينويان إثارة مشاكل.

عندما أعلن الحكم، صاح أحد الأخوين: "إنها كذبة ملعونة!" أسرع سبنسر وحاجب المحكمة ليضعا نفسيهما بين السجين وعائلته، توقعاً لأكثر من مجرد مباراة في الصياح، إلا أن فيت هاركرايدر نظر ببساطة إلى أخويه للحظة طويلة وهزّ رأسه.

هدأ الأخوان من جديد باستياء مكبوت. "سنقاوم هذا، يا أخي،" تمتم أحدهما. "تماسك بقوة،" قال الآخر.

أومأ فيت هاركرايدر برأسه.

وفي الوقت الذي تم فيه اصطحابه مقيد اليدين من قاعة المحكمة، كان أخواه

قد ذهبا بالفعل. وتساءل سبنسر ما إذا كان قد رآهما بعد ذلك مرة أخرى. ماذا حدث للأخوين هاركرايدر، على أي حال؟

لدى فيت هاركرايدر عشرون عاماً خبرة في عدم إظهار مشاعره. لقد جلس فاقداً للحس في الكرسي الأزرق المبطن، يتفحص الرجل ذا ربطة العنق الخضراء الذي جلس مقابله. لقد كان شخصاً مربوعاً في أوائل الأربعينيات من عمره، ذا شعر أسود غير مرتب، وقابلية للتعرُّق. كان يبتسم بارتباك، ويثني زوايا أوراقه. كان فيت يحاول أن يحدد لماذا كان الرجل عصبياً. بعض الناس يشعرون باضطراب في صحبة قاتل مُدان، ولكن بما أن هذا الرجل كان أخصائياً نفسانياً حكومياً قام كثيراً بدراسة سجناء، فإن الشخص الحالي موضوع الدراسة لم يكن يعتقد بأن قلقه كان نابعاً من ذلك المصدر الخاص بالذات. ولم يكن العِرق عاملاً، أيضاً. وقرر فيت أن الرجل لا بد أنه مضطرب بسبب التحدث إلى شخص سيكون ميتاً في غضون أيام قليلة. كان الموت يُعتبَر أمراً كريهاً في مجتمع رفيع المستوى. إن الناس لا يهتمون بأن يتم تذكيرهم به. والآن بما أنه تم تحديد موعد لتنفيذ حكم الإعدام في فيت، فإن بعض الحراس حتى قد توقفوا عن النظر إليه مباشرة، وكأنهم كانوا محرجين بوجود شخص ما قريب جداً من الجحيم.

نجح الأخصائي النفسي برسم ابتسامة مترددة على وجهه وهو يدفع نظاراته إلى الوراء أكثر على طول جسر أنفه. "والآن، سيد هاركرايدر،" قال، "اسمي الطبيب ريتر. إنني لا أريد أن أرعبك بأي شكل من الأشكال. إنني أريد فقط أن أتحدث معك لأرى ما إذا كانت هناك أي شؤون تريد أن تعبر عنها."

"شؤون؟" طَرَف فيت بعينيه. لقد وجد أن تمثيل دور الغبي كان شيئاً نافعاً في حياة السجن. إنه يمنحك وقتاً أطول لتقويم خصمك، وأحياناً يجعله يقلل من شأنك، وهذا يُعتبَر حتى أكثر فائدة.

"نعم، كما تعلم، فإن إعدا ـ إيه ـ إعدامك محدد في وقت لاحق من هذا

الشهر، وفيما عدا أي تطورات غير متوقعة، فإنه سيتم تنفيذه في ذلك الوقت. إنني أتساءل ما إذا كنت ترغب بالتعبير عن مشاعرك."

"إنني بريء، يا سيدي."

أشاح الأخصائي النفسي بنظره بعيداً. "إنني لا أعرف أي شيء عن تفاصيل قضيتك، سيد هاركرايدر. إنني أجد من الأسهل استشارة السجناء إن لم أكن على علم بما فعلوه. إن همي الوحيد هو راحة بالك في هذه المرحلة من الزمن."

"حسناً، يا سيدي، إنهم سيقتلونني. كيف تعتقد بأنني أشعر؟"

كان ريتر جاهزاً لذلك الأمر. "هناك العديد من الاحتمالات، سيد هاركرايدر. ربما تشعر براحة حيث أن إقامتك الطويلة في السجن شارفت على الانتهاء. ربما تغتنم الفرصة للتكفير عن خطاياك. ربما تجد سلوى في الدين وتتطلع إلى السلام والفرح في عالم ما بعد هذه الحياة."

"أو ربما أعتقد بأن هذه الحياة هي كل ما هو موجود، وأنني غُبنتُ بها من قِبل الحكومة التي لفقت لي جريمة قتل لم أرتكبها."

"لقد كنت آمل بأنك قد تجاوزت ذلك،" تنهد الأخصائي النفسي. "إنني أدرك أن تقبُّل الموت هو شيء صعب للغاية. ولهذا نميل إلى التركيز على الطقوس القليلة التي تسبقه كطريقة لشغل أنفسنا عن احتمال الموت ذاته. هل تود مناقشة بعض تلك المواضيع؟"

"مثل ماذا؟"

"حسناً، لنبدأ بموضوع عادي ـ لماذا لا تخبرني ماذا ترغب كآخر وجبة طعام لك؟"

هز فيت هاركرايدر كتفيه استهجاناً. "لم أعطِ الأمر الكثير من التفكير،" قال. لقد أعطاه، بالطبع. بالعودة إلى مبنى اثنان، كانت نقاشاته عن آخر وجبة له

مستمرة على مدى أسابيع. بعد برهة من الزمن بدأ بملاحظة أن الاقتراحات المُقدَّمة من الرجال الآخرين كانت تميل لأن تكون على نمط واحد. كانوا يحثونه على طلب لحم ستيك، وميلك شيك؛ ولحم ستيك على الطريقة الريفية، وأصابع بطاطا مقلية وكعكة فراولة مع كريما مخفوقة؛ وبيتزا من الحجم الكبير، وحلوى شرحات الموز. لقد كانت جميعها أطعمة فارهة ـ قائمة طعام الأحلام لفتيان مراهقين، أو لرجال امتدت ذكرياتهم بالسعادة إلى زمن ماضٍ بعيد في حياتهم. لقد كانت أطعمة غنية بالدهون، والملح، والسكريات، مُقترَحة من قِبل رجال عاشوا لسنوات على حمية نشوية مملة عديمة المذاق لم تشبعهم تماماً أبداً.

من الاقتراحات الأخرى كانت فكرة رجل فقير لوجبة طعام خاصة بالطبقة العليا. وفتى المزرعة الذي اقترح رطلاً من الجمبري، ورطلاً من جراد البحر، ورطلاً من ضلع عجل رضيع، لم يذق أي من هذه الأشياء. لم يكن لدى فيت أفكار أفضل بشأن ماذا ينبغي عليه أن يطلب في ليلة إعدامه، ولم يكن متأكداً بأي حال من الأحوال أنه كان بإمكانه بلع لقمة واحدة من أي شيء قد يتم إحضاره إليه، ولكنه، على الأقل، تباهى بمعرفة لماذا اقترح رفاقه قوائم الطعام التي ذكروها. بعد عشرين عاماً في السجن، ظن أنه ربما يكون أخصائياً نفسياً أفضل من الأخصائي النفسي المتصبب عرقاً، والذي جلس مقابله الآن.

"لا أفكار بشأن الوجبة الأخيرة،" كان الطبيب ريتر يقول. وقام بتدوين ملاحظة على دفتره القانوني. "لنترك ذلك إذن، أيمكننا ذلك؟ لديك متسع من الوقت لتفكر ملياً في ذلك الخيار. والآن، هل هناك أي شخص ترغب في رؤيته في الأيام المقبلة؟ أي شخص تود أن نتصل به؟"

عاهرة، فكر في نفسه. مرت أسماء لمجموعة متنوعة من نجمات السينما الجميلات في ذهن فيت هاركرايدر، ولكنه لم يعد يستهويه مزاج الشاب اللعوب. إضافة إلى ذلك، كان متأكداً من أن الرجل السمين قد سمع من قبل

بمحاولات من هذا القبيل على سبيل المزاح، وربما كان يتوقعها. وربما كانت ضحكته الخافتة، وجوابه المناسب جاهزين في حنجرته الضفدعية. وقرر فيت أن المحادثة كانت قد بدأت تشعره بالضجر. هز رأسه. "لا أحد."

"قريب ما، ربما؟ هل والدتك لا تزال على قيد الحياة؟"

"توفيت عندما كنت في الثامنة."

"والدك، إذن؟"

"سرطان رئة. قبل عشر سنوات."

"أفهم ذلك. أظن أن لك أخوة، على أي حال. ربما ترغب بزيارة منهم؟"

ابتسم فيت هاركرايدر تقريباً. "ربما أرغب بذلك،" قال. "لماذا لا تتأكد من أنهم يرغبون في المجيء وقول وداعاً؟"

"يمكنني بالتأكيد أن أفعل ذلك،" قال ريتر بلطف. "والآن دعنا نتحدث عنك للحظة. هل تعاني من أعراض قلق لا داعي له؟ فقدان شهية، نوم مضطرب؟"

"قلق *لا داعي له*؟" حملق السجين فيه. "حكومة ولاية تينيسي ستربطني في كرسي وتطلق كهرباء خلال جسدي إلى أن أحترق حتى الموت من الداخل إلى الخارج. أي قلق قد تدعوه لا داعي له؟"

"قد تفعل خيراً لمصلحتك ببقائك مفعماً بالأمل. ربما يكون من المحتمل أن تحصل على تأجيل لتنفيذ حكم الإعدام،" قال المعالج النفسي، متجاهلاً الثوران الانفعالي. "في الوقت الحالي، قد نتمنى أن تتمكن من البقاء هادئاً ومتفائلاً قدر الإمكان في ظل الظروف القائمة. ويمكنني أن أوصي بحبوب منوم ـ بجرعات مُراقبَة بعناية، بالطبع ـ وربما نوعاً ما من المسكنات للاستخدام النهاري، إن كنت تشعر أن ذلك من شأنه أن يفيد."

هز فيت هاركرايدر رأسه. "أبعد الأدوية،" قال. "إذا كان لدي بضعة أيام فقط

لأقضيها وأنا على قيد الحياة، فإنني لا أريد أن أفوّت أياً منها. إنني أعتزم أن أقاوم بكل ما أوتيت من قوة."

أخبره تجهم ريتر أنه أساء الفهم.

"قانونياً، هذا ما أعنيه،" قال فيت. "استئنافات. استدعاءات تُقدَّم إلى كل محكمة يمكننا التفكير بها. رسائل إلى الحاكم."

"حسناً. في الوقت الحالي، إن شئت، يمكننا أن نناقش الحادثة التي وضعتك هنا. هل تود إخباري برأيك في الأمر؟"

"لا أظن أنني أرغب في ذلك."

هز الأخصائي النفسي كتفيه لامبالياً. "بعض الأشخاص يجدون من الأسهل أن يذهبوا إلى حتفهم وقد حققوا سلامهم مع هذا العالم. هل هناك أي جزء من عمل غير منجز يسبب لك انزعاجاً؟"

"ليس أي شيء يمكنك تعديله،" قال الرجل المُدان.

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

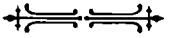

الهـروب

لن يعدموا امرأة، هذا ما واصل الناس قوله، مراراً وتكراراً مثل المطر الهاطل على سطح منزل. لن تشنقوا فرانكي. كنت فتاة في مقتبل العمر، وامرأة متزوجة صالحة، وأم لطفلة بريئة. لم أكن امرأة مجنونة متعطشة للدماء، ولا عاهرة شوارع تسرق فأساً جديدة مضيفة القتل إلى لائحة خطاياها. لن تُشنقي. وكنت أقف خانعة وضعيفة في كل مرة تعقد فيها المحكمة، بشعري المملس، وثوبي النظيف والملائم كأفضل ما يمكن أن أحصل عليه. "إنها شيء صغير جميل!" كان الرجال يقولون عندما كنت أمر بجانبهم. "إنها لا تبدو كامرأة فاجرة." وكنت أبقي رأسي منخفضاً وأتظاهر بأنني لا أسمعهم، لأن الأمر كله كان لعبة، وإن لم يكن بإمكاني أن أقول الحقيقة بصراحة لتلك المحكمة المليئة بالأغراب وأنتهي من الأمر، لماذا إذن يجب عليّ أن ألعب لعبتهم وأحرص على الفوز.

لقد فعلت خيراً. لقد أحضرت نساء المدينة لي فطائر وأتين وجلسن معي، وقرأن الكتاب المقدس بصوت مسموع في زنزانتي، وكنت ممتنة، فقد كن لطيفات، ولكن القصص التي أفضلها أكثر كانت حكايات الجنيات التي اعتادت ماما روايتها لي. كانت هناك حكاية عن أميرة جميلة مسجونة في برج عالٍ، وأتى

أمير وسيم على حصانه وأنقذها . عندما روت لي ماما الحكاية، كان للأميرة شعر طويل ذهبي اللون مثل شعري، وكان الأمير رجلاً ذا شعر غامق يمتلك بيتاً كبيراً وكل ما يحتاجه من مال. لم أطلب من السيدات أن يروين لي حكايات من هذا القبيل، حيث أن ذلك لم يكن ملائماً ، ولكنني كنت أفكر فيها بالرغم من ذلك، لنفسي، ولتمضية الوقت كنت أتظاهر أنني كنت الأميرة في ذلك البرج في انتظار أن يتم إنقاذها .

لقد أخبرتني السيدات أن الناس كانوا يعملون بجد ليحصلوا لي على عفو. لقد كانوا يكتبون رسائل إلى الحاكم ستوكس يلتمسون منه الرحمة، وكان هناك كلام عن الحصول على رسالة موقّعة من قِبل نصف سكان المقاطعة يطالبون فيها بإنقاذ حياتي.

لقد ترك الحاكم ستوكس المنصب في السنة الجديدة، وكان الحاكم الجديد رجلاً يدعى ديفيد سوين، جاء من مقاطعة بنكوم، ليست بعيدة من هنا . بعد ذلك، جاءت زوجة السجان، سارة بريسنل، التي لم تكن تلك الإنسانة التي تقدم وعوداً جيدة، إلى زنزانتي بالأخبار، وقالت: "يبدو أنك ستكونين على ما يرام الآن، يا فرانكي، حيث أن الحاكم الجديد هو من هذه المناطق، وسيتم دفعه إلى الاستماع لجميع الناس الذين لن يقفوا مكتوفي الأيدي ليروك تُشنقين." وجاءت النساء الأخريات من مورغانتون وقلن الشيء ذاته. لقد قلن لي أنه حتى هيئة المحلفين كانوا آسفين لأنهم حكموا بإعدامي، وإن بعضاً منهم وقّع على الورقة التي تطالب الحاكم بالرحمة. حسبتُ أن الأمر سيكون على ما يرام إذن، تماماً مثلما قالت ماما . جلست خلال فصل الشتاء أفكر بشأن كم كبرت طفلتي نانسي، وأتساءل كم سناً ظهر لها ، وإذا ما كانت تمشي جيداً بعد . اعتقدت بأنني كنت سأراها في الربيع. لا بد أنها ستضطر للتعرف عليّ من جديد ، ولكن، على الأقل،

سنكون مع بعضنا البعض، عندما تم حبسي بعيداً عن هذه البلدة القديمة.

ولكن بعدئذ، في آذار/مارس، جاء قاضٍ جديد، وكان كبيراً في السن وبغيضاً، وذا وجه كالخوخ المجفف، وعينين مثل الحصى المغروس في طين النهير، ونظر إليّ وكأنني كنت امرأة عجوزاً متغضنة ومنكمشة، ويمكنك أن تقول إنه لم يكن يعتقد بأنني شيء صغير جميل، بل مجرد قاتلة شريرة يجب أن تُلعن وتُرسل إلى الجحيم، وكان هو الشخص الذي سيقوم بذلك.

لقد حدد الثامن والعشرين من حزيران/يونيو على أنه يوم موتي.

لم أتوقع أبداً أن أموت في موسم البندورة، تاركة طفلتي بدون أم أو أب لرعايتها. الدخول في الطين البارد وأسناني لاتزال قوية، وشعري أصفر كضوء القمر. إن ذلك لا يبدو صحيحاً.

تخبرني السيدات أن والدي كان يتجول في أنحاء المقاطعة كدب مربوط إلى وتد، محاولاً الحصول على بعض المساعدة من أجلي. لقد ذهب وقبعته في يده إلى هذا الكولونيل، وذاك الرجل النبيل، وجميعهم قدموا له النصح، ولكنهم كانوا في بعض الأحيان يقولون كلاماً متضارباً مع بعضهم البعض. في نهاية المطاف، أحسب أن والدي ظن أن الأمر كان يعود إليه ليبحث بنفسه. وماذا كان يمكنني أن أقول عندما أتوا إليّ؟ أردت أن أعيش. أردت أن أحس بالحشائش تلامس كاحليَّ العاريين، وأن أشرب من مياه النبع.

لذا، عندما وقفوا هناك في الليل ومفتاح زنزانتي يتدلى من يد جاك، لم أتجنب التفكير في الحاكم، أو السيدات الرائعات من مورغانتون مع فطائرهن والتماساتهن. ارتديت قميص وبنطال جاك القديمين، ولطخت وجهي بغبار الفحم الأسود، وذهبت معهن.

كان الناس في تلك البلدة ذوي نوايا حسنة، معظمهم، يحاولون أن يساعدوني برسائل وما شابه، ولكننا لا نأخذ حسنة من الغرباء إن كان بإمكاننا فعل ذلك. إنه ليس أسلوبنا. قد أفضّل حصاناً راسخ الخطوة، وجبلاً منحدراً على كل الكلمات الرائعة في العالم.

أعرف أن الناس كانوا يقولون إنه لا بد أنني كنت أعرف شيئاً ما عن الأمر، ولكن أقسم أنني لم أكن أعرف شيئاً، بالرغم من أنه لا بد أنني خمنت، ربما. لقد سمعت القصة غالباً بما يكفي، عندما تحدث الناس عن إليزا غريس ماكدويل. إن العائلة فخورة بذلك، وربما يجب أن يكونوا كذلك، ولكن في الآونة الأخيرة فقط أصبح الأمر يسبب لي إزعاجاً على حد سواء.

لقد كان مساء دافئاً، السابع عشر من أيار/مايو، وكنت مسروراً لرؤية غروب الشمس الضارب إلى الحمرة، فقد كان إشارة إلى أنه لا ينبغي أن نعاني من مزيد من أمطار الربيع التي أفسدت أيامنا، وأوحلت طرقنا، وجعلت من حقولنا برك مياه لعدة أيام. تلكأت على العشب في حديقة مبنى المحكمة وأنا أتحدث مع العمدة بون في توهج شفق الربيع. كنا فقط نتبادل المجاملات عندما كنت مغادراً لأذهب إلى بيلفيدير لتناول العشاء. لا أعتقد بأننا تحدثنا عن فرانكي سيلفر، حيث أن إعدامها كان لا يزال على بعد بضعة أسابيع، وكنت أعرف أن العمدة كان مشغول البال بشأن اضطراره للقيام بالمهمة المقيتة، ولم يهتم بالتحدث عن الأمر. لذا لم يكن الحديث يتعلق بشيء على وجه الخصوص عندما قال لي بون: "هل تعلم يا سيد غيذر، لقد كنت أفكر بجون سيفيير في الأيام القليلة الماضية."

كان ذهني مشغولاً بأمور أخرى، على ما أعتقد. كنت أفكر بسعال الطفل، وما إذا كان معطفي الأسود القديم سيخدمني فصلاً آخر، وكنت أتساءل بجانب من سيتم وضعي في عشاء هذا المساء، حيث كنت متعباً جداً لأتحدث في سخافات

مع السيدات، أو في نذور الشؤم السياسية الواقعية لمن هم أكبر مني سناً. "جون سيفيير،" قلت لأظهر أنني كنت مصغياً. وبالكاد كنت أنظر إلى العمدة بون، حيث كنت متلهفاً لبدء الأمسية، فقط لأنتهي منها. "بطل معركة جبل الملك. كان سيفيير شخصاً رائعاً وجريئاً، ووطنياً."

"ربما جريء جداً،" قال العمدة. "ولكن أعتقد بأنه كان رجلاً طيباً بالرغم من ذلك.

أومأت برأسي. لقد كان هناك أولئك الذين قالوا إن سيفيير كان قاسياً جداً في معاملته للهنود، ولكنني بالكاد كنت أعتقد بأن جون بون من شأنه أن يكون مهتماً بأمور من هذا القبيل بعد حوالي ثلاثين عاماً من وقوع الحدث. بعد ذلك تذكرت أن سيفيير قد هرب مع زوجة رجل آخر في تينيسي، وتساءلت ما إذا كان العمدة يلمح إلى مشكلة عائلية خاصة به لم يتخيلها جيرانه حتى الآن. بالتأكيد لا! وكوني لم أرغب في الاستماع إلى أسرار معسولة من هذا الشخص العجوز الكئيب، فقد أطلقت الموضوع في مسار آخر. "جون سيفيير. بالفعل، ياسيدي، لقد كان نوليتشكي جاك العجوز مفخرة لهذا البلد، أياً كانت عيوبه الشخصية. ولكن، أيها العمدة، أعتقد بأنه إذا تحدثنا عن أبناء هذه المنطقة المفضلين، فمن المؤكد أنه عمك الذي انتشرت شهرته في جميع أنحاء العالم، والذي سينير نجمه بأكثر سطوع وأطول مدى في الذاكرة. هكذا هو الأمر بصدق."

احمرَّ وجه جون بون خجلاً وأوماً برأسه. إن العمدة هو ابن شقيق الريادي العظيم دانييل بون، ولكنه هو نفسه رجل طيب القلب ومتواضع، وليس مولعاً إلى حد كبير بالتباهي بنسبه، وقد تساءلت ما الذي أثار قريحته إزاء أبطال ماتوا منذ زمن بعيد. أبديت ملاحظة أو اثنتين غير هامتين أمتدح فيهما مستكشف كنتاكي رد عليهما باقتضاب، وبعد ذلك استأذنت العمدة بالمغادرة، وتركته يقف في حمرة الغروب، والآن حيث عدت للتفكير بالأمر، بدا الشخص العجوز وكأنه كان

لديه شيء ما إضافي ليقوله لي، ولكنه لم يعرف تماماً كيف يبدأ. تركته على ذلك الحال، دون أن يقول ما كان يفكر فيه.

لقد أدركت الآن، بالطبع، ما الذي أثار التفكير في جون سيفيير في رأسه. لم تكن أعمال سيفيير البطولية في الثورة هي التي كان جون بون يفكر بها، ولا فراره مع سوزانا تيبتون، بل حادثة وقعت منذ وقت قريب، أقرب إلى المنزل. منذ حوالي خمسين عاماً مضت ـ قبل زمن العمدة بون وزمني، بل حادثة لا تزال موضوع حديث الناس ـ أراد جون سيفيير ومؤيدوه أن تخلّص المنطقة الجبلية نفسها من تملك نورث كارولينا. وكان لديه مبرر قوي لهذا الأمر، أنا متأكد من ذلك، لأن نورث كارولينا كانت على استعداد للتنازل عن الأراضي الغربية للحكومة الفدرالية تسديداً لدينها من الحرب في الثورة. إننا قسم مهمل من الولاية حتى هذا اليوم. لقد تم تشكيل ولاية فرانكلين من المقاطعات الشرقية لما يُعرَف اليوم بتينيسي، وأصبح سيفيير حاكمها. بعد مرور أربع سنوات انهارت المساعي الشجاعة لتشكيل ولاية جديدة في تناحر سياسي، وفي عام 1788، أرسلت ولاية نورث كارولينا فرقة من الرجال المسلحين لإلقاء القبض على جون سيفيير، ليُحاكَم بتهمة الخيانة.

تم إحضاره بسلاسل فوق الجبال إلى مورغانتون ـ محنة محزنة لواحد من القادة العظام في حربنا لنيل الاستقلال. كان عمدة مقاطعة بيرك في ذلك الحين، ويليام موريسون، قد خدم مع سيفيير في جبل الملك، وكان خائفاً من أن تتم معاملة قائده السابق على هذا النحو بأمر من السياسيين الجبناء في رالي. وقد قام العمدة موريسون بكسر سلاسل السجين، ووافق على إطلاق سراحه بكفالة بحيث يمكنه البقاء في مورغانتون، ولكن ليس في السجن، بانتظار المحاكمة. وتم دفع نقود سند الكفالة من قِبل أجداد إليزا غريس ماكدويل. هذان الجنديان

tele @ktabpdf

العجوزان، تشارلز وجوزيف ماكدويل، كانا هما نفسهما شقيقين، وكذلك ضابطين شقيقين لجون سيفيير، أحدهما كولونيلاً والآخر جنرالاً في الثورة.

لا بد أنه كان لسيفيير أعداء أقوياء في حكومة نورث كارولينا، أو ربما أن السياسيين رغبوا فقط في معاقبة أي شخص قد يشكك في سلطة الحكومة ليكون عبرة لغيره. لقد خططوا لشنق جون سيفيير، هناك بالضبط في مورغانتون، ولكن ذلك الجندي القديم المخلص الذي أصبح عمدة، ويليام موريسون، لم يقم بأي شيء من ذلك. وقبل أن تتمكن المحكمة من الانعقاد، تسرب خبر إلى ابن جون سيفيير أن والده كان حراً في البلدة، ولكن في خطر على حياته عند قدوم موعد المحاكمة. بعد ذلك، دخل شقيق سيفيير وابنه جون الإبن إلى البلدة مع بعض مؤيديه وهم يجرون حصان سيفيير المفضل. وجد سيفيير الشاب والده في الحانة مع رفيقيه القديمين، الشقيقين ماكدويل من مروج كويكر. "لقد حضرت لأخذ أبي إلى البلد، أيها السيدين." أخبر الشاب رفيقي والده.

تمنى الشقيقان ماكدويل رحلة موفقة لجون سيفيير، وراقباه وهو يمتطي حصانه وينطلق مع أصدقائه المخلصين باتجاه طريق الجبل الأصفر، الذي سيوصلهم أخيراً داخل تينيسي وبعيداً عن السلطة القضائية لحكومة ولاية نورث كارولينا. لم يتم أبداً إعداد جماعة لإعادتهم. ولم يتم فعل أي شيء أكثر أبداً من قِبل عمدة مقاطعة بيرك، أو من قِبل حكومة نورث كارولينا لمقاضاة جون سيفيير. في الواقع أنه في خريف السنة التالية بالذات، تم انتخاب سيفيير لمجلس شيوخ نورث كارولينا، واستلم منصبه في تلك الهيئة الموقرة عندما صوت أعضاء الهيئة التشريعية لإعادة رتبته كعميد. كان الأمر يبدو وكأنه لم يكن أبداً سجيناً مقيداً بالأغلال، وهدف انتقام نورث كارولينا.

من المؤكد أن ذلك هو الحدث في حياة جون سيفيير الذي كان جون بون يفكر فيه ـ وليس الحرب، ولا محاولة الانشقاق عن نورث كارولينا، ولا الحادثة

مع السيدة من تينيسي، بل الهروب من سجن مقاطعة بيرك. الهروب الناجح من السجن ذاته الذي أقسم العمدة جون بون على حراسته الآن. في بعض الأحيان يمكن خدمة العدالة بشكل أفضل بتجنب الإجراء القانوني.

هربت فرانكي سيلفر من السجن في تلك الليلة.

انتشرت قصص عديدة حول الطريقة التي تمكنت بها من الفرار، ولا يمكنني الجزم أية قصة من تلك القصص كانت حقيقية. لقد اتفق الجميع على أن المتسللين قد دخلوا إلى المبنى عن طريق نافذة القبو، وقاموا بفتح قفل الزنزانة بواسطة مفتاح. يبدو أنه تم القيام بذلك في الخفاء، حيث أنه لم يكن هناك أي شجار بين الحرس والمنقذين. وزعم أكثر رواة القصص خيالاً أن شقيق فرانكي سيلفر، جاك، أخذ طبعة شمع لقفل باب زنزانتها، وأنه نحت مفتاحاً يمكن أن يناسب ذلك القفل، ولكنني شخصياً لم أعوّل كثيراً أبداً على تلك القصة. أعتقد ـ بالرغم من أنه لا ينبغي علي أبداً أن أحلم بقول ذلك، ناهيك عن محاولة إثباته ـ بأنه لا يمكن لرجل لطيف وحي الضمير أن يحتمل فكرة إعدام تلك الفتاة الصغيرة المسكينة التي بلا أصدقاء، وبالتالي، مقتبساً نصه من مثال سلفه العمدة ويليام موريسون، ترك هذا الرجل النبيل مفاتيحه حيث يمكن لأصدقاء السجينة أن يصلوا إليها، ثم يختطفوها ـ ربما، مثل جون سيفيير، إلى تينيسي، وبعدئذ يتجهون قُدماً إلى الأراضي الغربية الشاسعة الخالية، حيث يمكنها أن تختفي للأبد، بعيداً عن متناول الانتقام الرهيب لولاية نورث كارولينا. أو العدالة. سمِّه ما تشاء.

في صباح اليوم التالي، انتشر خبر هروب فرانكي سيلفر في جميع أنحاء الولاية بسرعة بقدر السرعة التي يمكن لحصان أن يعدو بها. كنت أجلس بسلام إلى طاولة الإفطار عندما نبهنا صخب في القاعة إلى وجود زائر مستعجَل، واندفع أحد رجال الشرطة من جانب الخادم ليقول لي الخبر. وضعت فنجاني وحملقت بالشخص. كان يرقص نوعاً ما بحذائه الموحل على البساط المحبوك يدوياً، وفي

يده بندقيه، ولم يتذكر حتى أن يرفع قبعته عندما سمح له الخادم بالدخول عند الباب الأمامي. "لقد فرّت في الليل، سيد غيذر!" قال، وكانت عيناه تلمعان بالإثارة وكأنه كان يعلن عن جماعة صيد ثعالب أكثر من الإعلان عن بحث قاس عن قاتلة. "لقد هربت فرانكي سيلفر من السجن!"

حملقت فيه للحظة تأثر وأنا أفكر بدزينة أفكار في وقت واحد. أخيراً نجحت في قول: "هل أصيب أحد بأذى أثناء عملية الهروب؟"

هز رأسه. "لم يعرف أحد أنها كانت مفقودة إلى أن رأوا زنزانتها فارغة هذا الصباح. تم خطفها بدون عوائق! خرج بعضنا على الخيول على أمل اقتفاء أثرها. هل ستذهب معنا؟"

نظرت عبر الطاولة إلى تعبير زوجتي بالاستياء. صفعت فمها بإحدى يديها، وكأنها كانت مصممة على منع نفسها من الصراخ في احتجاج على ذهابي. لم يكن لدي نية في القيام بذلك، على أي حال. من المؤكد أن إليزابث لم تتصور أن محامياً محترماً للبلد، وكاتب محكمة من شأنه أن يتخلى عن يوم عمل ليركض في البرية الجبلية مع جماعة من أفراد هيئة الأمن الأهلية؟ بعد أمطار الربيع لن تختلف الطرقات عن الجداول المائية. وماذا سيقول والدها مالك الأراضي لو عاد الحصان الذي أعطاني إياه كهدية زواج يعرج بسبب مهمة حمقى من هذا القبيل؟

"سأترك المطاردة بين أيديكم المؤهلة، يا جاك،" قلت للشرطي. "وكموظف محكمة، سأبقى في البلدة. ربما تكون هناك كفالات تتطلب كتابة، أو أمور قانونية أخرى تحتاج للاهتمام بها.

لقد فهم المنطق في هذا ـ في الواقع أنه فهم منطقاً في هذا الأمر أكثر مما كان فيه، حيث أنني لم أكن أتوقع أي عمل قانوني من شأنه أن يتطلب وجودي ـ ولكن العذر أرضاه، وكنا إليزابث وأنا قادرين على العودة إلى فطورنا بسلام، بالرغم من أن أياً منا لم يكن لديه شهية كبيرة للطعام بعد ذلك.

tele @ktabpdf

"لقد هربت من السجن!" قالت زوجتي بنبرة اندهاش. "لا يمكنني أن أصدق ذلك! كيف كان بإمكانها تدبّر أمر كهذا؟"

"بمساعدة، بلا ريب." لم تكن مهمتي التأمل في أمور من هذا القبيل، واحتفظت بأفكاري لنفسي. كانت لإليزابث عدة شقيقات لأمنحها ثقة.

"ولكن من يمكن أن يساعدها؟"

ابتسمت، وأنا أفكر مرة أخرى بجون سيفيير. "ربما كانت إليزا غريس ماكدويل، يا عزيزتي. يبدو أن عائلتها اتخذت من ذلك مهنة لها."

"آه، بيرجيس، كن جاداً!" لا أعرف ما إذا كانت إليزابث قد استوعبت قصدي أم لا. لم أذكّرها بالحادثة. وأخيراً، قالت: "هل تعتقد بأنهم سيمسكون بها؟"

"آمل أن لا يحصل ذلك،" قلت قبل أن أفكر بشكل أفضل بالأمر. لقد أدركت أن معارضتي لرؤية السجينة مقبوض عليها كانت هي السبب الحقيقي في أنني كنت غير راغب في الانضمام إلى الباحثين ـ بالرغم من أنني على يقين بأنني لن أكون ذا نفع للصيادين وساكني الغابة الخبراء الذي خرجوا في أثرها. لم أكن أريد أن يُعثَر عليها. من الأبسط بكثير ترك السجينة تختفي في برية تينيسي، مثلما فعل جون سيفيير ذات مرة قبل جيل مضى. عندئذ لن يكون جون بون مضطراً للخوف من المهمة المقيتة لإعدام امرأة، وكان بإمكاننا وضع حد لكل الالتماسات الموجهة للحاكم الشاب سوين، والذي تكمن اهتماماته في مكان آخر. علاوة على ذلك، لو ألقوا القبض على فرانكي سيلفر، فقد كنت متأكداً أن ذلك من شأنه أن يقع بقسوة على والدها وشقيقها، اللذين أبعداها بلا شك ـ ولكن من الممكن أن يؤذي ذلك الشخص الذي أطلق سراحها. إن محاكمة من هذا القبيل ستقسم مورغانتون إلى معسكرين عدوين متعارضين، وهذا الصدع لن يجدي نفعاً. لذا، مذنبة أم لا، كنت أتمنى لفرانكي سيلفر رحلة موفقة في هروبها عبر الجبال، ودعوت أن لا أراها مرة أخرى.

tele @ktabpdf

لقد كان هروبها مصدر ذهول لتسعة أيام في بلدة مقاطعتنا الصغيرة، وبدا أن الناس لا يتحدثون عن شيء آخر، ولم يحاولوا أبداً التفكير في من يمكن أن يكون مسؤولاً عن هروبها. لم أخبر أحداً بحديثي مع جون بون، وخرج متجهاً إلى الغرب مع فريق بحث، فقد كانت تلك مهمته التي أقسم عليها في إعادة سجين فارّ، أياً كانت مشاعره الخاصة إزاء الأمر.

إنني أتساءل ما إذا كان أي من أولئك الباحثين يرغب في القبض على السجينة لأنهم كانوا يعتقدون بأنها كانت تستحق الموت، أم ما إذا كانوا ببساطة يتصرفون دون إعداد مسبق، مثل كلاب الأثر التي ستلحق بأي شيء يجري، ببساطة لأنه يجري. لقد كانت لعبة الاستغماية، متبارين بمهاراتهم مقابل الفريسة المراوغة. إنني متأكد من أنه كان هناك قدر كبير من الهتاف والتباهي والإسراف في شرب الكحول من قِبل جماعة الباحثين، وأنه في نهاية الأمر كان كل شيء يبدو كرياضة رائعة بالنسبة لهم بحيث أنهم نسوا الغرض القاتل لمطاردتهم.

لم يتم القبض عليها بسهولة. ومر يوم بعد يوم بدون أخبار من الباحثين، وانتشرت أخبار الهروب إلى ما وراء حدود مقاطعة بيرك. قال الكولونيل نيولاند إنه حتى صحيفة رالي نشرت مقالاً عن السجينة المفقودة، وكنا نعلم أن رجال قانون آخرين من البلدان المجاورة شاركوا في البحث. ومع ذلك، فقد مرت عدة أيام منذ هروبها، وكان يبدو من المرجح أنها ذهبت للأبد.

"سبعة أيام،" أعلنت الآنسة ماري على العشاء في إحدى الليالي. "من المؤكد أنها أصبحت بعيدة المنال الآن. إن حدود تينيسي على مسافة أربعة أيام على الحصان، على الأكثر، أليس كذلك؟"

نظر مالك الأراضي إلى ابنته نظرة لوم. إن أموراً من هذا القبيل لا يتم التحدث عنها أمام الكتان الأبيض والكريستال. "هل تشيرين إلى القاتلة الهاربة، يا عزيزتي؟"

"بالطبع هي، يا أبي،" قالت إليزابث. "لا يمكننا التحدث عن شيء آخر! إننا منزعجات جداً من شدة القلق."

"لا أعتقد بأن عليك أن تقلقي،" أجاب والدها. "لا أعتقد بأن السيدة سيلفر ستقتحم بيلفيدير وتهاجمنا بفأس ونحن في أسرَّتنا."

حملقت نساء إيروين جميعهن به للحظة رعب قبل أن ينفجرن بالضحك. إنه أسلوب مالك الأراضي في المزاح ليتظاهر بسوء فهم زوجته وبناته، وبالتالي ليسمح لنفسه أن يعرف المغزى الحقيقي لملاحظاتهن.

"آه، حقاً، يا والدي!" قالت ديليا التي كانت طفلة العائلة، في العشرين من عمرها تقريباً، وطفلة والدها المدللة جداً. "إننا لا نعتقد بأن السيدة سيلفر تمثل أي خطر لأي شخص. إننا جميعاً نأمل أنها ستفلت!"

"حقاً؟" قال مالك الأراضي بذهول ساخر. "تتمنون لها أن تفلت من قبضة العدالة؟ عزيزتي ديليا، هل أخبر أحدهم طبيبك هاردي بمشاعرك المتعلقة بقتل الزوج؟"

صرخت ديليا بصوت رفيع، واحمرت خجلاً بظرافة على تنويه معجبها الأكثر تحمساً لها، وبدأت الأخريات بالضحك وإغاظتها، وهكذا تم نسيان الموضوع. من ناحية أخرى، عند مغادرتنا للطاولة، التفتت الآنسة ماري إلي وتمتمت: "أتمنى أن تكون ديليا محظوظة في اختيارها لزوج أكثر مما كانت السيدة سيلفر."

"ليس هناك شك في ذلك،" قلت. "وبالنسبة للسيدة سيلفر، فقد انتهى الأمر على خير، على الأقل. لقد نجحت في هروبها، ويمكننا فقط أن نأمل أنها تستحق هذه الفرصة الثانية في الحياة التي مُنحَت لها. وحتى الآن، ربما تكون في أمان في تينيسي، وتضع خططاً للذهاب غرباً، وقطف التوت البري الذي تحدثت عنه بولع."

"أمل أن تكون محقاً،" قال الآنسة ماري. "ولكنني سأواصل الصلاة من أجل

نجاتها . في الواقع لن أرتاح بشأن ذلك حتى يتم التخلي عن المطاردة، ويعود آخر الباحثين من الجبال."

"ألا تعتقدين بأن الحاكم سيمنحها عفواً إذا عادت؟"

ترددت شقيقة زوجتي . "من المرجح جداً أن يفعل،" قالت . "ولكن أعتقد من الأفضل عدم وضع كثير من الثقة في الرجال ـ أو الحكومات."

سمعت صوت فرقة البحث العائدة قبل أن أراهم . ومشيت نحو نيولاند لأرى ما إذا كانت عربة الجياد قد وصلت بعد ، وعندما كنت أعبر الشارع تماماً لأتحدث مع الكولونيل نفسه، دوّت صيحة قوية وصرختان حادتان في الشارع، مصحوبة بدبيب حوافر الخيول . وقفز رجل ضعيف عجوز على الشرفة المجاورة، وحاول الوصول إلى مسدسه قبل أن يتذكر نفسه . لقد انتهى الهنود منذ جيل أو أكثر . ولم يكن أحد أصغر سناً من الرجل العجوز ليفكر في احتمالية هجوم، لأن مثل هؤلاء الهنود كما كانوا في تلك الأيام، كانوا يعيشون في مناطق أبعد إلى الغرب، أو على مسافة أميال في مدن تشيروكي، مثل تشوتا . لقد كان هؤلاء المحاربون ذوو الصيحات نوعاً مختلفاً من الهمج ، وبعد لحظة سمعت صرخاتهم وعرفت ماذا كانت تعني : لقد عادت فرقة البحث، ناجحين في العثور على طريدتهم .

تسلقت لأصل إلى أمان شرفة نيولاند ، في حال قرر المبتهجون أن يقوموا بجعل الخيول تعدو بسرعة احتفالاً بالنصر على طول الشارع الرئيسي في مورغانتون . لقد كان الكولونيل نيولاند يظهر من مكتبه بالضبط عندما وصلت إلى موقعي بالقرب من مدخله .

"ما كل هذا الصخب؟" سأل وهو ينظر إلى الشارع باتجاه مثيري الضجة .

"أخشى أنهم فريق البحث،" قلت له .

نظر إلي وكأنه كان يريد أن يجادل في نظريتي، ولكن الفضول تغلب على كلينا، وتخلينا عن مجادلة صغيرة لصالح الميل عبر درابزين منصة المكتب، جاهدين من أجل لمحة على ممتطي الأحصنة العائدين، بعد لحظة أصبح الموكب بادياً للعيان. نصف دزينة من ممتطي الأحصنة المكسوين بالوحل على أحصنة مبللة بالعرق التفوا حول المنحنى على الطريق. كان القادة الثلاثة يلوحون بقبعاتهم ويصيحون للمارة، متفاخرين بالاستعراض المرتجل، وتبعهم ثلاثة فرسان أكثر هيبة على بعد مسافة قصيرة وراءهم، يمسك كل منهم بلجام حصانه، ويجر كل منهم حصاناً آخر بحبل قصير. لم أتعرَّف مباشرة على أي من أفراد فرقة البحث، ولكنني عرفت على الفور هوية الأشخاص الثلاثة ذوي الملابس الرثة والمجهدين المربوطين بسروج الأحصنة المجرورة.

كان أشعيا ستيوارت يجلس متدلياً إلى الأمام، وكأن إرهاقه قد تغلب على حزنه وغضبه. كانت ملابسه ممزقة وموحلة، وكانت هناك بقع دم في لحيته ذات الشعر الأشيب. لم يتم القبض عليه بسهولة، فكرت في نفسي. وجلس بجانبه جاكسون ستيوارت منتصباً، يحدق باستفزاز في المتفرجين، وكأنه يتحداهم أن يهزأوا بمحنته. إنه دب بشري ضخم، طوله ستة أقدام، ولا تنقصه ضخامة الحجم، وتخيلت أن جميع الكدمات والرضوض الظاهرة عليه قد تم تسديدها مع الفوائد ضد معتقليه. كان يضع قيوداً معدنية حول معصميه، وفوقها حبل يربطه إلى السرج. وبالرغم من أن فرانكي سيلفر كانت تعتبَر السجينة الرئيسية، فقد كانت هذه المساعدة في هروبها هو ما كان يخشاه الحشد أكثر شيء. كانت فرانكي سيلفر ذاتها تمتطي حصاناً وعيناها مسدلتان نحو الأسفل، وكانت ذاهلة عن نظرات الحشد كما كانت أثناء محاكمتها. وكانت يداها مربوطتين بحبل، ولكن قدماها كانتا متدليتين على جانب الحصان، ولم تكونا مربوطتين ببعضهما

البعض تحت بطن حصانها، كما كانت أقدام شركائها. كانت ترتدي ملابس رجال: سروالاً من جلد الغزال وقميصاً كتانياً يدوي الصنع تحت سترة رجالية، وكان شعرها الأشقر مسترسلاً من تحت قبعة جلدية ذات حافة بيضاء، بالرغم من أنه كان ينبغي أن يكون مربوطاً إلى الأعلى عندما عثر عليهم الباحثون. كانت ضئيلة الحجم وقوية بما يكفي ليحسبها المرء صبياً صغيراً. اعتقدت أنه لا بد أن الملابس كانت تخص بلاكستون ستيوارت، وتساءلت ما إذا تم تركه في المنزل ليعتني بالمنزل، أو ما إذا فر هارباً في الغابة عندما حضر رجال القانون.

صاح رجل عجوز من الحشد: "كيف قبضتم عليها، أيها الفتيان؟"

قام أحد الحرس في المؤخرة بشد لجام فرسه الكستنائية ليوقفها، ومال إلى الوراء في السرج بتكشيرة نصر مضنٍ. *مهما حدث*، فكرت في نفسي، *فلديك القليل فيما يتعلق بالأمر*. "حسناً،" قال، "لم تكن مطاردة سهلة. إنها منطقة محفوفة بالمخاطر هناك، ويمكنك الالتفاف مرتين وتصبح تائهاً، ولكننا تعقبناهم بشكل جيد بما يكفي، بالرغم من أن التقدم كان بطيئاً عندما تركوا الطريق وواصلوا المسير في الغابة. كان يمكن أن لا نقبض عليهم إطلاقاً، لولا ارتفاع المياه."

ضحك أحدهم وصاح: "بالرغم من كل العوائق، ألم يكن هذا المقصود؟"

"بعضاً من كليهما، أحسب ذلك،" قال راكب الحصان. "قدرنا أنهم كانوا متجهين غرباً إلى مقاطعة بنكومب، وبعد ذلك يتجهون إلى حدود تينيسي، ولكن لم يكن ذلك هو ما فعلوه. لقد كانوا في مقاطعة رذرفورد عندما أدركناهم، يحاولون أن يعبروا النهر الذي كانت مياهه مرتفعة بسبب أمطار الربيع، حيث لم تتمكن خيولهم من النجاح في العبور."

"هل تبادلتم إطلاق النار معهم؟"

تقدَّم الموكب الحزين باتجاه الشارع الآن، ونظر راكب الحصان وراءهم كأنما كان يريد أن ينهي الحديث ويلحق بالآخرين، ولكن بعد لحظة أدرك أنهم كانوا على بعد بضعة ياردات من السجن، وكان سكان المدينة يحيطون بهم الآن، حريصين على أن يكون لهم دور صغير في إعادة القبض على الخارجين عن القانون ذوي السمعة السيئة، بحيث يمكن أن يصبحوا هم، أيضاً، رواة للقصص. راقبت السجناء وهم يسحبون من فوق خيولهم، وتساءلت إلى أين كانوا متجهين. إن مقاطعة رذرفورد إلى الجنوب منّا مباشرة، وليست على الطريق إلى تينيسي. لعل أصول عائلة ستيوارت انحدرت من جنوب تلك الطريق، وكانوا يعيدون فرانكي إلى أقارب هناك، أو في كارولينا الجنوبية. *أي مكان إلا هنا*، فكرت في نفسي، لأنهم لو تمكنوا في أي وقت من التملص من الباحثين، وجعلوهم يعودون لعدم وجود دليل يتبعونه، لأفلتوا. لم يكن لدى العمدة الإمكانية ولا الجرأة لإطالة أمد البحث عنها. يوم آخر من شأنه أن يشهد أنها في أمان.

نظراً لأنه لم تعد هناك حاجة إليه بين الباحثين، قام راكب الحصان المتخلف عن الباقين بمسح حاجبيه بخرقة موحلة، وحوّل انتباهه نحو الحشد القليل الذي كان ينتظر كل كلمة منه.

"حسناً، الآن، لا يمكنني أن أقول إنني سمعت أخباراً عن أي إطلاق نار،" قال. "كان الهاربون يأملون في جعل المسافة أكبر بكثير بينهم وبين مقاطعة بيرك بحيث لن يضطروا لرؤيتنا على الإطلاق، وبفشلهم في ذلك، كانوا يعتقدون بأنه كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر دهاء منّا. كانت فرانكي المعروفة مرتدية زي صبي، وكان الآخران يحاولان دفع عربة محملة فوق النهر، لذا، قام أحد الباحثين ـ شخص يدعى غوج، أعتقد بأن هذا كان اسمه ـ بالصعود إلى العربة وهو يقول

للصبي الصغير: 'أنت فرانكي سيلفر، أليس كذلك"' طأطأت رأسها وهي تقول: 'لا يا سيدي، اسمي هو تومي.'" توقف راكب الحصان لبرهة وكشَّر. "ذلك الشخص الضخم هناك كان يقود العربة، وسمعهما يتحدثان. 'هذا صحيح!' صاح متذمراً. 'إن *اسمها* هو تومي.'"

ضج المستمعون باستحسان، وردد العديد منهم، "*اسمها* هو تومي،" ليطبعوها في أذهانهم قبل يسارعوا إلى إمتاع أصدقائهم بالخبر.

تساءلت ما إذا كان الأمر قد تم بهذه الطريقة، أو ما إذا كان الشخص قد استغل العودة إلى مورغانتون ليخرج بقصة مثيرة للحانات. كان سيشرب قدر ما يستطيع هذه الليلة على رواية تلك القصة، فكرت في نفسي. سيكون هناك صخب وعربدة الليلة في حانات مورغانتون، كنت أفكر وأنا أستدير مبتعداً. إن الإعدام سيتم تنفيذه بالرغم من كل شيء.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بيرجيس غيذر

الاعتـراف

انتهـت أيـام حريـة فرانكـي سـيلفر الثمانيـة بـالقبض عليهـا، واعتقـال والـدها وشقيقها لمساعدتها في هروبها. كنت أعتقد بأن مثل هذا التصرف الذي لا يحترم القوانين قد يقلب المجتمع ضدها مرة أخرى، ولكنه لم يفعل ذلك. إننا لا نزال شعب الحدود. لقد شكّل جيل آبائنا جيشهم الخاص للدفاع عن أنفسهم ضد هجمات الهنود، وطبقوا قوانينهم داخل المستعمرات، لذا، فإننا لا نزال بعد غير راضين إزاء تلقي الأوامر من حكومة بعيدة. ويبدو أن الناس كانوا يعتقدون بأن هروب فرانكي سيلفر كان رد فعل مقنعاً تجاه حكم غير عادل بالإعدام. في الواقع أن الضجة التي ثارت من أجل إطلاق سراح السجينة كانت حتى حادة أكثر، وأصبحت قائمة الأسماء على عريضة الاسترحام المتداولة أطول من أي وقت مضى.

لم أكن قد وقعت بعد على العريضة، على أي حال. لقد قلت لنفسي إنه مهما يمكن أن أعتقد بشأن القضية، فإنني لم أعرف الحقائق المتعلقة بموت تشارلي سيلفر. وإلى أن أصبح راضياً بشأن تلك النقطة، فإنه لا يمكنني أن أطلب بضمير حي أن يتم إرجاء تنفيذ حكم الإعدام بقاتلته. وقد قلت الكثير للعمدة، ولعدد من الأشخاص ذوي النية الحسنة الذين دفعوا بالعريضة أمامي مباشرة.

tele @ktabpdf

"إنها تريد أن تعترف."

لقد كان الحادي عشر من حزيران/يونيو، وقد وجدني توماس ويلسون في حانة ماكينتاير، أتشارك نصف ليتر من المشروب مع الطبيب الشاب تيت، وهو شخص متعلم وذو ميول مشابهة لميولي في مدينتنا الريفية الصغيرة. وقف ويلسون يلوح فوق مقعدي مثل غراب مكسو بالسواد، جلفاً وجدياً كما هو شأنه دائماً. لم يكن أمر مثير لدهشتي أن حياة ويلسون المهنية في السياسة كانت قصيرة وغير مواتية. حملقت به محاولاً أن أدرك المراد من انفجار كلماته. قلت بغباء: "إنها ... تريد ..."

"السجينة. فرانكي سيلفر! الفتاة التعيسة أقنعت نفسها أخيراً بأن الحكومة تنوي قتلها، وكانت تبكي لساعات بدون توقف. يخبرني العمدة أنها استسلمت لليأس، ولكن بعض أصدقائها تحدثوا معها في السجن ـ" توقف هنا ونظر إلي تلك النظرة ذات المعنى بحيث عرفت على الفور من كانوا أصدقاء السجينة، بالرغم من أن ويلسون رجل محترم جداً لأن يذكر أسماء سيدات من عائلة كريمة بصوت مرتفع في حانة عامة.

"أفهم ذلك."

"إنني متأكد من أنك تفهم،" قال بجفاء. "ومن الواضح، أن هؤلاء الأصدقاء أقنعوا المخلوقة المسكينة بأن أملها الوحيد بالنجاة هو قول الحقيقة عما حدث في ليلة موت تشارلز سيلفر. يعتقد مستشاروها بأنه إذا تم إخراج قصتها للضوء، فإنه سيكون من الممكن إقناع الحاكم بالإبقاء على حياتها."

"هل تعتقد ذلك؟"

"إنه أمر ممكن، على ما أظن." قال هذا بدون اقتناع ظاهر. "إنه أمر يستحق المحاولة. لقد تم استدعائي للاستماع إلى رواية السيدة سيلفر، وأريد شاهداً آخر. في هذه الحالة ينبغي أن يكون هناك مستمعان اثنان لتوثيق الشهادة."

tele @ktabpdf

"هذا يبدو ملائماً،" قلت. "هل ستطلب ذلك من العمدة بون؟"

"أظن أنني لن أفعل،" قال توماس ويلسون، بعد لحظة تردد. "إنه مشتبه به أصلاً بكونه متساهلاً جداً تجاه السجينة. أعتقد بأنك ستكون الشاهد المناسب. ككاتب محكمة، فإنك الموظف ذو الرتبة الأعلى في المقاطعة، طالما أن القاضي المتنقل، ومحامي المقاطعة ليسا من مورغانتون. إضافة إلى ذلك، فقد كنتَ أحد محامي السيدة سيلفر، ولكنك مراقب غير متحيز ـ هذا أكثر شيء مرغوب به في الشاهد. هل ستستمع إلى اعترافها؟"

"سأستمع، بكل سرور،" قلت وأنا أنهض واقفاً. "هل آتي معك الآن؟"

"الآن وقت مناسب كأي وقت آخر. أحضر مواد كتابة معك. سنكون بحاجة إلى سجل لإفادة السجينة." توقفت عند مبنى المحكمة لإحضار حبر وورق، وواصلنا طريقنا عبر الحديقة إلى المبنى ذي الهيكل الخشبي الذي هو بمثابة سجن المقاطعة. كان جون بون يتوقع مجيئنا، على ما يبدو، حيث أنه استقبلنا عند الباب بنفسه، وقادنا إلى الطابق العلوي حيث زنزانة السجينة بقدر قليل جداً من التعليق إضافة إلى التحية اللطيفة.

لا بد أنها سمعت خطواتنا على الدرج، حيث أننا عندما اقتربنا من الطابق الثاني، سمعت صلصلة السلاسل مما يشير إلى أن السجينة كانت تتحرك في زنزانتها. "هل يمكنك فك قيودها أثناء حديثنا معها؟" سألتُ العمدة.

لم يكن جون بون لينظر في عيني، وقال: "لا."

لم أحتج أكثر، حيث أنني كنت أعرف أن هروبها قد أجبره أن يكون حذراً. سمح لنا بالدخول إلى الزنزانة، وأقفل الباب وراءنا، معيداً المفتاح المعدني إلى حزامه.

"حقاً!" قلت لويلسون عندما أُغلق الباب صفعاً. "سيجد العمدة صعوبة في الاعتقاد بأننا ننوي تنفيذ عملية هروب مع السجينة."

"إنه لن يجازف،" قال ويلسون. "لا يمكنني أن ألومه على ذلك.

فكرت بأسف بالمرأة الشابة الجميلة التي كانت تثرثر عن البندورة والتفاح في الصيف الماضي. لقد انتهت. لم تكن المخلوقة الكئيبة المهزولة المكومة بجانب نافذة الزنزانة تحمل أي شبه لتلك الفتاة زرقاء العينين التي احتفظت برباطة جأشها أمام الأخوات إيروين قبل عدة شهور مضت. لم تلتفت لتنظر إلينا عندما دخلنا. أعتقد بأنها لم تعد تهتم كثيراً للزوار.

قال توماس ويلسون: "مساء الخير، سيدتي. لقد تم استدعاؤنا لنتحدث معك. أعتقد بأنك تعرفين السيد بيرجيس غيذر؟"

أومأت برأسها، والتفتت لتنظر إلي. "أتذكره.

"لقد طُلب مني أن أشهد إفادتك،" قلت لها. "هل ترغبين في سرد القصة بكلماتك الخاصة، سيدة سيلفر، أم هل تفضلين أن نقوم بطرح أسئلة عليك؟"

"سأرويها مباشرة، على ما أظن. لقد تم كبتها داخلي لفترة طويلة جداً الآن، أشعر أنها تندفع خارج معدتي. دعوني أرويها.

جلست على السرير الصغير القابل للطي، وأخرجت مواد الكتابة الخاصة بي، وجهزت ريشتي على الورقة. "وقتما تكونين مستعدة،" قلت بما كنت آمل أن يكون ابتسامة تشجيع.

تدفقت الدموع بسخاء على وجنتيها الشاحبتين، وقالت "أنا قتلته.

حبست نفسي. كنت أعرف، بالطبع، أنها لا بد أن تكون قد فعلت ذلك، وقد أعلنتها هيئة المحلفين مذنبة منذ أكثر من عام، ولكن لا تزال هناك قشعريرة تسري في الجسد عندما يسمع المرء قاتلة تقول بهدوء، أنا قتلته. انتظرتها لتواصل كلامها، ولكنها ببساطة جلست هناك وهي تنظر إلينا.

"علينا أن نعرف أكثر،" قال توماس ويلسون.

أومأت برأسها، ونظرت إلى الوراء باتجاه النافذة والجبال الخضراء البعيدة.

"تشارلي كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تزوجته. كان وسيماً جداً، وأحسب أن ذلك هو السبب في أنني قلت نعم عندما طلب الزواج بي. كان الناس يقولون دائماً يالهما من زوجين وسيمين. وكنت أريد أن أهرب من المنزل، على أي حال. فقد كان يبدو أن كل ما كان هناك لأفعله دائما هو واجبات مزعجة، وفكرت أنني قد أقوم كذلك بالغسيل والطبخ لزوجي في منزلي بدلاً من ترك ماما تأمرني بشكل متكرر لأقوم بالمهام ذاتها في المنزل. أتمنى لو أنني لم أفعل ذلك، الآن." نظرت إلي، وقالت: "إنك لا تكتب."

"لا. سأدون فقط ما يتعلق بالجريمة ذاتها،" قلت لها. لم أتمكن من الكتابة بالسرعة التي كانت تتحدث بها، وعلى أي حال كنت أعتقد بأن هذا الاستهلال لن يكون ذا قيمة تذكر بالنسبة لغاياتنا. "يمكنك أن تقولي ما تشائين، على أي حال، سيدة سيلفر. سأعيد قراءته لك عندما ننتهي."

أومأت برأسها. "أين كنت؟ آه، تشارلي. قد تفكر بوالدته التي ماتت وهي تلده، وأنه لن يكون مدللاً عند زوجة أبيه، ولكنني أحسب أنه كان كذلك. أو أنه كان عابثاً وكسولاً بطبيعته. لم يكن يرفع يده ليساعد في العمل. كان يجب عليه أن يقطع الحطب ويعلف الماشية، وكان يقول إنه يذهب للصيد في حين أنه كان ينسل لساعات في الوقت الذي كنت أقوم فيه أنا بالاهتمام بكل شيء آخر.

عبس توماس ويلسون في وجهها. "سيدتي، هل قتلت زوجك لأنه كان كسولاً؟"

هزت رأسها. "لا يا سيدي. لم أهتم له في معظم الأحيان، ولكن الأمر كان أن تشارلي كان يحب أن يسكر، وكان الخمر يحوله إلى شخص دنيء."

"كيف ذلك؟"

"كان يأتي إلى المنزل فاتر المشاعر، وعنيداً، يبحث عن أشياء ليجد فيها خطأ ما. قمت بالرد عليه مرة أو اثنتين في البداية، ولكنه ضربني على وجهي بظاهر يده، وشق شفتي. أو كان يضربني ويسبب لي كدمة سوداء حول عيني، ويقول إنني كنت أستحق ذلك. لقد تعلمت أن ابتعد عن طريقه عندما يكون ثملاً. هناك كثير من النساء يفعلن ذلك، يا سيدي."

"كان يحتسي الخمر في الليلة التي هي موضوع حديثنا؟"

"في الليل ومعظم النهار، أيضاً. كان قد ذهب إلى حانة جورج يونغ للحصول على الخمر، ولا بد أنه كان قد تناول كمية وافرة قبل أن ينطلق إلى المنزل. عاد بعد حلول الظلام، وهو يحمل مسدسه، وترك الريح الباردة تدخل إلى الكوخ عندما فتح الباب، واستيقظت الطفلة وهي تصيح بصوت مرتفع."

كتبت: *تؤكد السجينة أن تشارلز سيلفر حضر إلى المنزل مخموراً في ليلة 22 كانون الأول/ديسمبر، 1831.*

"تجادلنا بغضب بعدئذ، يا سيدي، حيث كنت غاضبة جداً لأنه كان قد غاب لفترة طويلة، وقد تركني أهتم بإبقاء نار الموقد مشتعلة، والاهتمام بالماشية. أحسب أنني صرخت فيه: *حان الوقت لتعود إلى المنزل*، أو كلمات من هذا القبيل، فقام بدفعي بعيداً. سقطت على المهد، وصاحت الطفلة بصوت أعلى، فتغضّن وجه تشارلي حيث أن الضجة أزعجت أذنيه، وكنت لا أزال أتكلم بصوت مرتفع جداً ليكون صوتي مسموعاً فوق صوت الضجة. بعدئذ سحب مسدسه، وقال: *سئمت منكما، أقسم بالرب أنني سئمت!* لم أهتم كثيراً لذلك، حيث أنه كان دائماً كثير الكلام بلا فعل، لولا تلك النظرة التي كانت على وجهه، والتي لم تكن حمراء كنظرة غضب، بل رمادية، مثل شخص كان بارداً حتى العظم. ثم نظر إلى الأسفل نحو طفلتي، يا سيدي، وقال لي، *فرانكي إذا لم تخرسي تلك الطفلة، أحسب أنني أنا سأفعل.*"

"صوّب المسدس نحو طفلته؟" قلت، فرمقني السيد ويلسون بنظرة ثاقبة، وتمتمت باعتذار لنسياني لنفسي، وعدت إلى تدوين شهادتها.

"سحب تشارلي زند المسدس إلى الوراء، وكنت أعرف أنه كان يعني ما يقول. لم يكن في حالته السوية على الإطلاق. كان مجنوناً بسبب الشرب، وكنا محبوسين في ذلك الكوخ معظم الشتاء بسبب الثلوج العميقة، مع طفلة تعاني من المغص نهاراً وليلاً. إن تشارلي يحب أوقات اللهو، يا سيدي. لم يكن ذلك الشخص الذي يتقبل المعاناة في الأوقات المقيتة. كان سيأسف فيما بعد، على الأرجح، لو قتل الطفلة، ولكن لن يجدي ذلك نفعاً عندئذ."

قال السيد ويلسون برقة: "وماذا فعلت؟"

"حسناً، لم يكن لدي أكثر من نبضة قلب لأفكر بالأمر، حيث أنه كان يثبت المسدس على رأس الطفلة. الأمر التالي الذي أتذكره هو أن الفأس كانت في يدي وكنت ألوح بها نحوه بكل قوتي. كان يجب علي أن أوقفه، أترى، بأية طريقة كنت أقدر عليها."

نظرنا توماس ويلسون وأنا إلى بعضنا البعض. لقد كان هناك حزن في وجهه، وغضب في وجهي، ولكننا لم نقل شيئاً للسجينة سوى جملة "تابعي، أرجوك."

"ضربته، أحسب أنني فعلت ذلك."

"وبعد ذلك؟"

"سقط أرضاً، وكانت هناك دماء حول جانب رأسه، وكان ينتفض. لقد كانت عندي قطة صغيرة بيضاء ذات مرة، وعندما كانت تلعب بجانب الموقد، انقض كلب الصيد الخاص بوالدي على حنجرتها الصغيرة وهزها في حين تسمّرت مكاني وصرخت. وعندما أسقط ذلك الكلب قطتي الصغيرة، كانت ملقاة هناك تنتفض، والدماء تخرج من فمها، وعيناها كالجليد، تحدقان بدون أن تريا شيئاً. لقد

استغرق الأمر دقيقة طويلة جداً لتموت. وبقيت أبكي لثلاثة أيام." رفعت نظرها نحونا، وكأنها تذكرت فجأة أننا كنا موجودين. "لقد كان الأمر كذلك بالنسبة لتشارلي. لقد كان سريعاً."

جلسنا هناك في صمت للحظة؛ وكان كلانا، ويلسون وأنا، ننتظر أن تلتقط خيوط القصة من جديد، حيث أنها لم تعد تبكي، ولكن الصمت استمر. في النهاية قال توماس ويلسون برقة: "وبعد ذلك ماذا حدث يا سيدة سيلفر؟"

رفعت نظرها وحملقت فيه. "قتلته،" قالت بهمس. "وقد قلت لكما كيف. هذا كل ما يمكنني أن أقوله."

"ولكن كيف قمت بحرق جثته؟"

هزت كتفيها لامبالية. "حرقتها وحسب.

"من المؤكد أنك تدركين أن تدمير الجثة هو الذي تسبب في الغضب الأعظم فيما يتعلق بجريمتك؟"

أومأت برأسها. وانتظرنا لدقيقة طويلة أخرى في صمت، ولكن كان واضحاً أن السجينة لن تقول أكثر من ذلك.

تضيقت عينا ويلسون. "حسناً جداً إذن، يا سيدتي،" قال. "دعينا نكمل. أخبرينا ماذا حدث في ليلة هروبك."

أخذت نفساً عميقاً. "هل سيقع أولئك الذين ساعدوني في ورطة بسبب ذلك، سيد ويلسون؟"

"إنهم يستحقون ذلك،" أجاب. "لقد أثاروا مشاعر الحاكم إلى حد كبير ضدك، حيث أنه يعتقد الآن بأنك خارجة عن القانون. يمكنك إنقاذ نفسك، على أي حال، إذا قمت بتسليم أولئك الذين ساعدوك في تنفيذ هروبك."

"لن يكون ذلك صحيحاً،" قالت فرانكي سيلفر.

"سينقذك.

"إذا بلّغت عنهم، الذين ساعدوني... هل سيعدمون؟" لم تكن تنظر إلى السيد ويلسون، بل إليّ.

"لا يمكننا توقع نوع العقاب الذي ستقرره لجنة المحلفين بشأنهم،" قال بصرامة، ولكن تعابير وجهي كان من شأنها أن تخبرها عن أفكاري: سيعدمون، بشكل مؤكد، كما أنا متأكد من جلوسي هنا.

"لا يمكنني أن أقول،" همست وهي تربض ملتصقة بالحائط.

حاول ويلسون إقناعها بأن تثق بنا، ولكنها لم تكن لتقول أي شيء أكثر. في النهاية صاح بها بعض الشيء: "سيدة سيلفر، بدون شهادتك لا يمكن إدانة هؤلاء الناس!"

ابتسمت على تلك الملاحظة، وهزت رأسها مرة ثانية. وتساءلت ما إذا كانت فهمت حقاً ما قد يكلفها رفضها.

غادرنا الزنزانة بعد ذلك، حيث كان من الواضح أنه ليس هناك مزيد يمكن انتزاعه من مضايقة هذه المخلوقة المسكينة بالإلحاح. لقد قررت أن تبقى صامتة. عندما نزلنا الدرج، تمتمت لويلسون: "لا يجب إعدامها على هذه الجريمة، يا سيدي! لقد كان دفاعاً عن النفس."

"أعلم ذلك،" قال. "أعتقد بأنه لا بد أنه كان كذلك، ولكن كونها لا يمكن أن تدلي بشهادتها في المحكمة، فإنه لن يكون بإمكاننا تقديم هذا الدفاع إلى هيئة المحلفين. ليس قتل تشارلي سيلفر هو ما سيؤدي إلى إعدامها، على أي حال.

"لا، ليس هو. إنه تقطيع الجثة الذي أثار حنق المجتمع، ولن تبرر تلك النقطة. لقد كان الفزع، على ما أظن. أرادت أن تخفي الدليل على جريمتها، حيث أنها لا تفهم الفوارق القانونية الدقيقة مثل 'الدفاع عن النفس' أو 'القتل غير العمد.' الفتاة المسكينة الجاهلة! ماذا ستفعل الآن؟"

tele @ktabpdf

تنهد توماس ويلسون. "سأكتب إلى الحاكم سوين مرة أخرى أيضاً. يجب أن أخبرك، على أي حال، أنه متردد في التوسط. لقد استلمت رسالة منه الأسبوع الماضي فقط، وأظهر عدم ميل إلى منح الرحمة. وبالنسبة للأشخاص الذين ساعدوا السيدة سيلفر في الهرب، فإن الحاكم يريدهم أن يعدموا، أيضاً."

"ولكن ما كان ينبغي أن تكون قد أدينت!"

"لقد أدينت، على أي حال. وتقول الحكومة إن أحكام هيئة المحلفين ينبغي أن تُحترَم، سواء كانت عادلة أم غير عادلة. لقد تشاركت في رسالة الحاكم مع والد السجينة، أشعيا ستيوارت. أتمنى أن تكون بمثابة تحذير له، خشية أن يتسبب في إعدام العائلة بكاملها بدلاً من الإبنة فقط."

"السيد ستيوارت المسكين. لقد تمت إدانة ابنته ظلماً، وهو عاجز عن إنقاذها. هل يمكنك أن تعجب من أنه مدفوع إلى اتخاذ تدابير يائسة؟"

"ليس لدي أي تعاطف لأوفره للأقارب،" قال توماس ويلسون. "إنه تدخلهم الذي سيتسبب في إعدامها. كان عليهم أن يثقوا في القانون من اللحظة التي مات فيها تشارلي سيلفر، بدلاً من الوقت الحالي، عندما فات الأوان تقريباً." هز رأسه. "حسناً، سأفعل ما بوسعي. سأعلم الحاكم باعتراف السيدة سيلفر. يجب أن أقنعه بأن الفعل كان دفاعاً عن النفس. ربما لن يعدمها عندما يعرف حقائق القضية. ولكن الهروب ـ لقد كان تصرفاً غير حكيم. إنها حقاً امرأة تعيسة الحظ."

"عليك أن تنقذها يا ويلسون."

"حسناً، سأحاول. ستقدم لي معروفاً بعمل عدة نسخ واضحة من اعتراف السيدة سيلفر. سنحتاجه لإرفاقها مع عرائض الاسترحام التي سنوزعها في جميع أنحاء المقاطعة. سيحتاج الحاكم إلى تأكيد بأنه يتخذ قراراً شعبياً."

"سأقوم بكتابتها الليلة،" قلت.

"حسناً. الوقت قصير. سأكتب إلى وودفين في آشفيل بنفسي. أعتقد أنه عندما يسمع بهذا الدليل الجديد، فإنه سيساعدنا، أيضاً."

قمنا بتوديع العمدة بون في الطابق السفلي. "لقد شهدت على اعترافها،" قلت له. "وإنها قصة محزنة فعلاً. آمل أن تنقذك هذه الوثيقة من المهمة الرهيبة المتمثلة بإعدامها."

"آمل ذلك، أيضاً،" قال. "من كل قلبي. بالرغم من أنني أحسب أن ذلك من شأنه أن يخيب أمل نصف سكان المقاطعة لحرمانهم من المشهد."

"ليس أنا،" قلت. "إذا أتى اليوم المروع، آمل أن أكون بعيداً عن موقع تنفيذ حكم الإعدام، وسأتمنى أن لا أسمع أي شيء كان عن الأمر في حينه أو فيما بعد."

عندما بدأت بعبور عتبة الباب إلى الهواء الطلق، نادى جون بون عليّ لأعود. "سيد غيذر،" قال، "أنت تدرك، أليس كذلك، أنك ككاتب محكمة عليا، أنت الموظف الأعلى رتبة في المحكمة في المقاطعة؟"

"أظن ذلك،" قلت. "لماذا تذكر هذا؟"

وضع العمدة العجوز يده على كتفي. "لقد تساءلت ما إذا كنت تعرف أنك شاهد الولاية على حكم الإعدام."

في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن ذهب معظم أهل المنزل للنوم، جلست أمام النار في القاعة الكبيرة في بيلفيدير أنسخ الاعتراف الذي دونته. سمعت خشخشة تنانير، وطقطقة شباشب خفيفة على الأرض المصنوعة من خشب البلوط. كنت آمل أن تكون إليزابث، وقد أتت لتبقى في صحبتي بعد أن وضعت ويليام الصغير في السرير، ولكنني رأيت الآنسة ماري عند المدخل، وهي تحمل قنينة البراندي.

"اعتقدت أنك ربما تكون بحاجة إلى تقوية، سيد غيذر،" قالت. "هل أصب لك كأساً؟"

"أشكرك،" قلت دون أن أزعج نفسي برفع نظري، حيث أنني لم أكن أرغب في فقدان المكان الذي وصلت إليه في الكتابة.

وضعت الكأس بجانب الشمعة، وصبت كأساً آخر لنفسها، وعند تلك النقطة رفعت نظري، ولكنني رفعت حاجبي كذلك على هذا التصرف غير اللائق، ولم أقل شيئاً. "أتيت لأقرأ الاعتراف،" قالت وهي تأخذ الكرسي الذي بجانب طاولتي التي أكتب عليها.

تنهدت. وعلى العشاء في تلك الليلة تحدثت عن زيارتي إلى السجن، ولكن قبل أن يتمكن أحد من الإلحاح علي أكثر من أجل تفاصيل اللقاء، غيّرت الموضوع لأتحدث عن زيارة لتشارلوت، وساعدني مالك الأراضي في ذلك موجهاً الحديث بعيداً عن الموضوع الكئيب مرة تلو الأخرى. كنت أعرف، على أي حال، من رؤية نظرة الآنسة ماري المستغرقة في التفكير أبعد من الطاولة، أنه على الرغم من بذل أفضل جهودنا لإخفاء الأمر عن السيدات، فقد قمت فقط بإرجاء المناقشة.

"ربما تكدرك الوثيقة،" قلت.

ابتسمت الآنسة ماري. "لماذا، سيد غيذر،" قالت، "كنت أعرف أنها قتلته. إنني أود فقط أن أعرف لماذا."

بدون كلمة أخرى، قمت بتسليم الورقة، وراقبتها وهي تقرأ الملخص الذي كتبته عن إفادة السيدة سيلفر. لم تتغير تعابير وجهها. "كنت أعتقد بأنه سيكون شيئاً من هذا القبيل،" قالت أخيراً. "فتاة بسيطة مثلها بالكاد يمكن تحريضها لارتكاب جريمة قتل لأي شيء أقل. ومع ذلك فهي ليست جريمة قتل، أليس كذلك، سيد غيذر؟"

"يقول السيد ويلسون إنها كانت قضية قتل غير عمد بوضوح، إن لم تكن قتلاً مُبرراً. إن القانون يدرك أن الناس يجب أن يدافعوا عن أنفسهم. أو هكذا ينبغي."

"ومع ذلك فقد حكِم عليها بالموت بسبب ذلك."

هذا صحيح. على أي حال، إننا نعتقد بأن العدالة لم تتحقق في هذه القضية، ونحن نفعل كل ما في وسعنا لإبطال الحكم.

كان بإمكاني أن أفهم من تعابير وجه الآنسة ماري أنها لا تشك في أنهم سيحققون نصراً. إن عائلة إيروين هم أصحاب سلطة ونفوذ. إنهم يعرفون كيف يتعاملون مع هذه الأمور، فهم يعرفون جميع الأشخاص المناسبين في رالي، وفي أماكن أخرى. لقد كنت فرداً جديداً في العائلة، وليس لدي ثقة بأقاربي الجدد.

"يتساءل الناس لماذا لم أتزوج أبداً،" قالت الآنسة ماري، وهي تأخذ رشفة أخرى من البراندي. "هناك مخاطرة كبيرة جداً في هذه المغامرة. إن المرأة تكون تماماً تحت رحمة معتوه أو وحش شرس، ولا يمكن للشخص أبداً أن يعرف الصفقة التي أبرمها حتى يكون قد فات الأوان."

"لسنا جميعنا شريرين بهذا الشكل،" قلت محتجاً.

ابتسمت الآنسة ماري. "ليست جميع الثعابين سامة،" قالت، "ولكنني أتركها وشأنها بالرغم من ذلك. وأخذت ريشة أخرى من الوعاء القصديري الموضوع على طاولة الكتابة. "هل لا يزال لديك الكثير من النسخ لتكتبها؟ إنني أكتب بخط جميل، دعني أساعدك."

تحدثنا قليلاً جداً بعد ذلك، ولكننا جلسنا بجانب بعضنا البعض إلى أن خفتت النار ونحن ننسخ الكلمات الباردة لاعتراف فرانكي سيلفر إلى أن حفظنا الجمل عن ظهر قلب.

بعد بضعة أيام وصلت إلى بيلفيدير قبيل ساعة العشاء بالضبط، هارباً من المقدمات لمعظم فترة ما بعد الظهيرة، حيث كان يتم احتساء شاي ما بعد الظهر في القاعة الكبرى. لم أكد أنفض الغبار عن حذائي حتى ظهرت الآنسة ماري، نشيطة كالمعتاد، ودفعت عدة صفحات من الورق في يدي. وأخبرتني قائلة: "بالضبط الشخص الذي أردت أن أراه. اقرأ هذا وقل لي ما رأيك."

رتبت الأوراق وبدأت بالقراءة.

29 حزيران/يونيو، 1833

إلى سعادة ديفيد إل. سوين:

حاكم ولاية نورث كارولينا

إن مقدّمات الالتماس مدركات تماماً لحساسية تقديم عريضة الالتماس هذه إليك. ومع ذلك فإنهن يعذرن أنفسهم بالمطالبة بوصف ذلك واجباً خاصاً بالجنس اللطيف ليكنَّ على طول الطريق في جانب الرحمة تجاه أقرانهم من الجنس البشري، وتجاه الإناث بصفة خاصة أكثر.

إن موضوع عريضة الالتماس هذه هو مخلوقة تعيسة من جنسنا، السيدة فرانسيس سيلفرز التي حُكِم عليها من قِبل محكمتنا بأن تُعدَم في الجمعة الأخيرة من حزيران/يونيو. ولكن بسبب تأجيلكم الكريم حتى الجمعة الثانية من تموز/يوليو. إننا لا نطلب لفت انتباهك إلى أي معلومات لستَ مطلع عليها بطريقة غير رسمية، إلا أن تكون المعاملة التي تلقتها المخلوقة التعيسة خلال حياة زوجها.

إننا لا نلفت انتباهك إلى هذا الأمر بغرض التبرير، وإنما نرغب في التأكيد على الأحداث المؤسفة التي وقعت في العالم نتيجة للإساءة إلى المرأة، والمعاملة غير اللائقة وغير المحتملة والتي كانت المخلوقة التي هي أمام سعادتكم الآن من أجل رحمة الرب، وخلافاً لقانون الرب والوطن، ومع ذلك تساوقاً مع طبيعتنا، هي المنتقمة لنفسها.

استمع إلى أخطائها .

لقد تم إعلامنا أن زوج المخلوقة التي هي أمامكم الآن ، أيها الحاكم ، أحد تلك الشخصيات من الجنس البشري المجرّد تماماً من المشاعر الضرورية ليكون الشخص زوجاً أو أباً جيداً . لقد كان الجيران مقتنعين بأن معاملته لها كانت ، في أغلب الأحيان ، غير لائقة وقاسية على حد سواء . وأحياناً بإفراط عندما قد تمنع ذلك عادة رقة الأنثى ، فإنه كان يعاملها بعنف شخصي .

لقد كان يُقال من قِبل جميع الجيران بأنه كان رجلاً لا فائدة منه قط في أي مجهود لمساعدة زوجته أو طفلته ، الأمر الذي ينتهي ، كما هو الحال غالباً ، بأن يتم إلقاء المهام التي كلّفت الطبيعة الزوج بتأديتها وأعدّتها له ، على عاتقها .

ويعترف أقرباؤه بأنه كان رجلاً كسولاً وعابثاً مع النساء . لقد تم الاعتراف من قِبلهم كذلك بأنها كانت امرأة مجدّة ، ولكن بسبب غياب الرحمة والدين والدماثة ، فقد ارتكبت فعلاً هي نفسها تحتاج الكثير لتتذكره .

إننا نلفت انتباهك إلى الطفلة الصغيرة التي تحتاج والدتها . نأمل أن تمنح الأنثى التعيسة كل ما بوسعك من المساعدة ، حتى ولو وصلت إلى العفو ، وأن تمحي وصمة العار من سمعة الأنثى في هذا المجتمع ، أعني إعدام امرأة تحت المشنقة .

المخلصة ،

ماري إي . إيروين

مع هذه الوثيقة المنمقة بعناية تم إرفاق تواقيع جميع النساء الكريمات ، تقريباً ، في هذه المقاطعة . وتتبعت إصبعي نحو أسفل القائمة : لقد تم تمثيل عائلات المحامين بشكل جيد . زوجة توماس ويلسون ، كاثرين كالدويل ويلسون ، وهي ابنة

أخت لعائلة إيروين، كما وقّعت والدة السيد ويلسون، يونيس ورث ويلسون، على عريضة الالتماس، أيضاً. وان اسم زوجتي العزيزة موجود، وكذلك كانت أسماء شقيقتيها ديلا إيروين، وكاثرين غيذر، أرملة شقيقي ألفرد. ووقّعت على الوثيقة والدة زوجتي ماتيلدا شارب إيروين، وشقيقتها سيسيليا شارب إيروين. وكانت هناك مارثا ماكينتاير والتون، ابنة صاحب الحانة وزوجة توماس والتون، وهو مالك أراضي وقاضٍ سابق في محكمة الاستئناف والجلسات الفصلية. ورأيت اسم جين تيت، وهي قريبة لعمدتنا السابق ويل بتلر، وغودوين بوزهيل من عائلة الكاهن الميثودي. ووقّعت إليزا غريس ماكدويل، حفيدة جنرال وكولونيل الثورة، على العريضة، كما فعلت ابنتا عمتها ماتيلدا وإلفيرا كارسون اللتان كانتا ماكدويل من جهة والدتهما، مثل ابنة عمتهن آني ماريا مككيسون التي كانت على القائمة أيضاً. كما قامت كاثرين كارسون، العروس الشابة لعضو كونغرسنا الأمريكي، سام كارسون، بإضافة اسمها ونفوذها إلى العريضة. تخيلت أنه كان بإمكاني الشعور بأن الورقة كانت تسخن في يدي، وتساءلت ما إذا كان الحاكم سيتأثر بطريقة مماثلة. صحيحاً أن النساء لا يصوتن، أو يشغلن منصباً بالانتخاب، ولكن إذا كان المثل القديم صحيح بأن "اليد التي تهز المهد هي اليد التي تحكم العالم،" عندئذ تكون هناك أيدٍ مستبدة إلى حد كافٍ ممثلة هنا لتقلب السماء رأساً على عقب. لقد كانت بنات وحفيدات الحكام، والجنرالات، وأعضاء الكونغرس، وأصحاب الأراضي الأثرياء، والمحامون، وموقعو الدستور، منظمات جميعهن في قوة جعلتني أفكر بملكة بريطانيا القديمة في عربتها الحربية وهي تقود الهجوم ضد الجيش الروماني. إن الالتماس المتسم بالاحترام من أجل خدمة سياسية لم يكن أقل من طلب، بالنسبة لكل صياغته الدقيقة. لم أحسد ديفيد لوري سوين على منصبه أو على واجباته في ذلك اليوم، أو على أي يوم منذ ذلك الحين.

حسناً، مارأيك؟" سألتني الآنسة ماري عندما وضعت الوثيقة جانباً.

"من الصعب أن أعرف،" قلت. "ألا توجد نساء عاديات يرغبن برؤية حكم الإعدام قد أرجئ بحق السجينة؟ ألا توجد زوجة طحان، أو ابنة خياط؟"

تكرَّمت الآنسة ماري بالاحمرار خجلاً. "بالتأكيد يوجد،" أجابت. "آمل لو ترغب كل امرأة في المقاطعة، وفي الواقع كل الولاية، أن ترى أنه تم إنقاذ المخلوقة المسكينة من مصيرها غير المُستحَق، وليس لدينا وقت نهدره لجمع تواقيع على نطاق بعيد وواسع. علاوة على ذلك، أعتقد بأن هذه الأسماء سيكون لها تأثير لدى الحاكم."

أومأت برأسي. "ستكون الأسماء مألوفة بالنسبة له، على أقل تقدير. إنها تبدو كفهرس لتاريخ نورث كارولينا."

لقد وعد السيد بيفنز بأن يكتب رسالة مرافقة للعريضة. ترين اسم زوجته هناك بين أسماء الأخريات. من المؤكد أن هذا سيؤكد للحاكم أن الجميع في المقاطعة يرغبون بمنح عفو لتلك المرأة المسكينة البائسة."

"هل طلبت منك السيدة سيلفر أن تقوم بكتابة مسودة لرسالة من هذا القبيل؟"

"لا كيف يمكنها أن تفكر بشيء كهذا؟ إنها لا تعرف شيئاً مهما يكن عن الأمر. في الواقع أن الكولونيل كارسون هو الذي اقترحها."

"ماذا؟ جون المُطارِد العجوز؟" لقد كان الكولونيل مالك أراضي بارزاً، ووالد عضونا في الكونغرس سام كارسون، وتساءلت كيف حدث أن انشغل في قضية جريمة قتل وقعت في منطقة ريفية. "ما شأنه في ذلك؟"

"المسكين سيد ستيوارت فقد صوابه بسبب القلق على مصير ابنته، ولجأ إلى الكولونيل كارسون من أجل مشورة من الناحية السياسية للأمر."

قطبت حاجبي. "أعتقد أنه كان يجب على السيد ستيوارت أن يدرس الجانب

السياسي للقضية قبل أن يقوم بتهريب ابنته من السجن." رفعت يدي لأمنع احتجاجتهن على براءته. "ولو أنه لم يفعل ذلك، فبالتأكيد تغاضى عنه، وبالتأكيد يعرف من قام بذلك."

"إنه رجل يائس، يا بيرجيس،" قالت إليزابث بنظرة قلق حقيقي، مع أنها في غير موضعها.

"إن هروبها غير القانوني من السجن يُبدي القليل من الاحترام للقانون، يا عزيزتي،" قلت بصرامة. "إنني متأكد من أن الحاكم سيميل إلى إبداء رحمة أقل مما لو لم تبد ازدراء لعدالة نورث كارولينا."

"لماذا لا ينبغي أن تبدي ازدراء لها؟" تساءلت الآنسة ماري. "لم تشهد منها ما يكفي. لقد تمت إدانتها في محاكمتها بدون فرصة لتروي القصة من وجهة نظرها. لقد درست المحكمة العليا للولاية القضية بدون حضور أي شخص للتحدث نيابة عنها. والآن تقول لي إن الحاكم سوين سيحاكمها بقسوة لأنها ترفض أن تجلس بخنوع في زنزانتها الصغيرة وتنتظرهم ليأتوا ويقتلوها؟"

لم يعد لدي رغبة في لعب دور محامي الشيطان معها، حيث أنها عبّرت عن مشاعري ـ هذا إذا كان يُسمَح لكاتب المحكمة أن يكون لديه أي مشاعر.

في الأسابيع التي مرت منذ هروب فرانكي سيلفر وعودتها، طوّقت مقاطعة بيرك الحاكم برسائل وعرائض استرحام تطالب بأن يتم إنقاذ حياة السجينة. وواصل الكولونيل نيولاند الضغط على قضيته، وكتب السيد ويلسون كما قال إنه سيفعل، مقدماً للسيد سوين تفاصيل اعتراف السجينة. مرت الحياة كالمعتاد في مورغانتون، مع حفلات الأعراس والتعميد، وحتى حفلات الملابس التنكرية في بيلفيو، ولكن عاد موضوع الأحاديث، بشكل لا مناص منه، إلى السجينة المقيدة بالسلاسل في الطابق الثاني من السجن. ما الذي يمكن فعله لإنقاذها؟

في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو، وصلت رسالة من رالي بواسطة

tele @ktabpdf

بريد بنكوم، تمنح السجينة تأجيلاً لتنفيذ الحكم لمدة أسبوعين. وقال الحاكم في أمره إنه *صوِّر لي أنه تم تضليل السجينة بآمال زائفة بالحصول على عفو. والآن وبسبب معرفة كل ذلك، إلى حد أن فترة إضافية ربما تسمح لها بالاستعداد لتغيُّر مرعب ينتظرها، وبموجب السلطة المخولة إلي من قبل دستور نورث كارولينا، فإنني بموجب هذه الوثيقة أمهل فرانسيس سيلفرز المذكورة حتى الجمعة الثاني من تموز/يوليو المقبل.*

أراني جون بون الرسالة، بحيث يمكنني، بوصفي موظفاً في المحكمة، أن أكتب ملاحظة بالتغيير الرسمي في جدول المواعيد.

"حسناً،" قلت، "لدينا أسبوعان آخران بعد لتوزيع المزيد من عرائض الاسترحام.

أومأ بون برأسه. "أتساءل ما إذا كان أمراً لطيفاً، على أي حال، أن نعطي الفتاة أمل.

كتب السيد بيفينز رسالته المرافقة لعريضة السيدات، وحتى نيكولاس وودفين حضر إلى مقاطعة بيرك ليفعل ما يقدر عليه. أخذ وودفين نسخة من نسخ الاعتراف التي كتبتها، وأمضى عدة أيام يتنقل على حصانه في المناطق النائية من المقاطعة ليجمع أسماء مواطنين آخرين على عرائض الاسترحام. لقد كنت أشعر بالامتنان لأن محامي السيدة سيلفر الشاب من شأنه أن يتكبد مثل هذه المتاعب نيابة عنها، بعد وقت طويل من انتهاء مهامه في قاعة المحكمة، ولكنني كنت أعتقد بأنه كان يستطيع الاستفادة من وقته ونفوذه بطرق أخرى بشكل أفضل.

"كان وودفين ينتقل على حصانه من مسكن إلى آخر فوق الجبل جاعلاً مزارعي المناطق الريفية يضعون إشارتهم × على العريضة من أجل إنقاذ فرانكي سيلفر. لا يمكنني فهم ذلك!" كنت أبدي رأيي لمالك الأراضي إيروين عندما كنا في

رحلة يوم الأحد على طول أراضي نهر جون السفلى التي شكلت واحداً من حدود بيلفيدير. وتمتد المزارع حتى تسعمائة فدان من الأراضي المحروثة، التي تنتشر فيها مواقع لمصانع تدخين اللحوم، والحظائر وأكواخ العبيد. ووراء ذلك كانت هناك عدة آلاف فدانات أخرى من الغابات والجبال تكمل المزارع، مؤكدة على أن ويليام ويلوبي إيروين هو بحق "سيد كل الأراضي التي يمسحها بنظره.

عندما قلت مرة ثانية إنني لم أكن أفهم تصرف وودفين في قضية سيلفر، شد مالك الأراضي لجام فرسه ليبطئ خطواته، ورمقني بنظرة تقديرية، وكأنني كنت طالب مدرسة يُعرِب لغة لاتينية. "ماذا كنت تريده أن يفعل؟"

"آه، كان يجب عليه أن يكتب إلى الحاكم، بالطبع! يبدو أن كل شخص في مورغانتون يمتلك ريشة إوزة قام بإرسال رسالة إلى رالي. لماذا لا يفعل وودفين الشيء ذاته؟ من المؤكد أنه يمتلك التأثير الأكبر على ديفيد سوين. لقد عمل ككاتب في عهده في آشفيل قبل ما يقل عن ثلاث سنوات مضت!"

"وأنت تعتقد بأن الحاكم يجب أن يمنح نيك وودفين أفضلية سياسية عظيمة لأن الرجل عمل كاتباً في عهده؟" ابتسم ويليام ويلوبي إيروين. "لماذا يجب عليه أن يفعل ذلك؟"

"لماذا، لأنهما زميلان. ولأن وودفين معروف لديه، وبالتالي فإن كلمته ربما تُمنَح قيمة أعلى من كلمة الأغراب ذوي النيّة الحسنة وغير المعروفين لدى الحاكم.

هز الرجل العجوز كتفيه استهجاناً. "إن السياسة هي نوع من التجارة، يا بيرجيس. لا تنسى ذلك أبداً. إنني أؤكد لك أن حاكمنا الشاب لا ينسى هذا للحظة. ما الذي سيستفيده ديفيد سوين من منح أفضلية لمحامٍ جرو صغير من آشفيل؟"

قلت محتجاً : "آه، سيكون ذلك لفتة لطيفة، مجاملة مثل تلك التي يبديها رجل نبيل لآخر.

"كثرة الإحسان تفلس التجارة. أعتقد بأن وودفين الشاب يعرف أنه لا يملك حق المطالبة على الحاكم بحسب القدر الذي تبلغه التفضيلات، فهو يعتقد بأنه بالحصول على أسماء بضع مئات من الناخبين على قطعة ورق، فإنه قد يمكّن معلمه من رؤية المنفعة في الوصول إلى قرار شعبي فيما يتعلق بقضية سيلفر. إن الناخبين الممتنين أكثر أهمية من محامين شبان سعداء."

"إذن فأنت تعتقد بأن عرائض الاسترحام ستنقذها؟"

"لا. لن يتم إنقاذها." أبعد ويليام ويلوبي إيروين حصانه عن النهر، وانطلق في طريقه المعتاد إلى الطرف الغربي من أراضيه، من حيث كان بإمكانه أن يرى شمس ما بعد الظهيرة تطلي الجبال الغربية بضوء خفيف برّاق. بعد بضع لحظات صمت متأمل، قال مالك الأراضي : "ما رأيك بثور جيمس الجديد؟ ألم تره بعد؟"

لم يكن ممكناً صرف انتباهي بهذا التغيير في الموضوع. إن تفاصيل الأمور الزراعية لا تحمل أية أهمية بالنسبة لي. عندما أبني منزلاً خاصاً بي، سيكون في المدينة، وسيتم علف الخيول القليلة التي سأمتلكها لجر العربة وللركوب في اصطبلات مقابل أجر. *ثور، حقاً*، فكرت في نفسي. "إذن تعتقد بأن جميع جهودنا تذهب سدى؟ السيدة سيلفر لن تحصل على إرجاء لتنفيذ الحكم؟"

هز مالك الأراضي كتفيه. "لم أكن لأمنحها إرجاء.

التفتُّ لأحدق فيه. في جميع الأشهر التي مرت منذ المحاكمة، كنت أعتقد بأنني سمعت كل شخص أعرفه يعبر عن غضبه بشأن الحكم على سيلفر، وكان يبدو أن نصف سكان المقاطعة ذهبوا بعيداً جداً لحماية الفتاة من أن تُعدَم. لم يكن يراودني شك أبداً في لامبالاة والد زوجتي بمصيرها. لقد فزعت جداً لدرجة أنني بالكاد تمكنت من الكلام.

tele @ktabpdf

"ولكن ـ ولكن ـ ألم أخبرك عن اعترافها؟ لقد قتلته دفاعاً عن النفس، ولتنقذ طفلتهما!"

"هذا ما تقوله الآن، يا بيرجيس. لقد كان لديها عدة شهور لتتعلم المراوغة القانونية من أمثال توماس ويلسون وابنتي ماري. وتبقى الحقيقة أن هذه المرأة الضعيفة والجاهلة قطعت جثة زوجها إلى عدة أجزاء وأخفتها. أضف إلى ذلك حقيقة أنها هربت من السجن ونجحت في التملص من معتقليها لمدة ثمانية أيام، وأنها لن تقول من ساعدها في هروبها. إنني لا أرى حمامة جبلية جريحة بحاجة إلى حماية الحكومة، يا بيرجيس. إنني أرى امرأة بلا مشاعر، وواسعة الحيلة تستغل أي شيء يصل إلى متناولها، سواء كان سيدات شابات ذوات نفوذ ولكن موضع ثقة، أو مفتاح زنزانتها في السجن." نظر إلي بتأمل. "مما لاشك فيه أن فرانسيس سيلفر جميلة جداً، ولكنني تجاوزت الاهتمام بهذا النوع من الأمور."

"ولكن أربعة أعضاء من هيئة المحلفين الأصلية وقّعوا على عريضة استرحامها."

"ثمانية محلفين لم يوقعوا،" أجاب مالك الأراضي. "والحاكم سيكون مع الأغلبية.

"ولكن فكر في جميع الأسماء الواردة على عرائض الاسترحام الموجهة إلى سوين! فكر في عريضة الاسترحام التي أعدتها السيدات: زوجتك، ووالدتها السيدة شارب، والآنسة ماري، وقرينة سام كارسون، وجميع السيدات النبيلات الأخريات في مورغانتون."

"لا يمكن للنساء أن يصوتن. فماذا يهم ما يفكرن به؟"

"ولكن الحاكم على معرفة بهن جميعاً اجتماعياً. كيف يمكنه أن يقول لهن لا بدون أن يبدو شخصاً وحشياً؟"

"هذا بالضبط ما كنت أسأل نفسي بشأنه، يا بيرجيس. إنه ما الذي يهمني

في هذا الشأن كله. سيتوجب عليه أن يكون ذكياً جداً إزاء ذلك، وأن يكون واثقاً."

قلت: "لم يتم أبداً إعدام امرأة من قبل في ولاية نورث كارولينا."

"أجرؤ على القول بأنها لو كانت امرأة من الرقيق لكان بإمكانك إنقاذها، بواسطة الدفاع بأن موتها قد يشكل خسارة ملكية قيّمة بالنسبة لمالكها، عندئذ ربما يتم تحريرها بجلد بالسياط. ولكن فرانكي سيلفر امرأة بيضاء بلا تعليم أو ثروة أو نفوذ. إنها ليست ذات نفع لأحد." أدار مالك الأراضي ظهره للجبال والشمس الغاربة. وقال: "حان الوقت للعودة إلى المنزل، على ما أعتقد. إلا إذا كنت مهتماً بإلقاء نظرة على ثور جيمس؟"

لقد تم إرسال الرسائل وعرائض الاسترحام إلى رالي في حينه، لذا، فإن جميع سكان مورغانتون انتظروا بقلق الرد الرسمي، بالرغم من أن القليل جداً منا تشككوا أن الحاكم قد يحقق طلباً مفضّلاً عموماً بين جمهور الأنصار، لا سيما وأن عدداً من الأشخاص البارزين دافعوا عن قضية السيدة سيلفر. ولكن الأيام طالت إلى أسابيع، وحان وقت إعداد الأعمال التحضيرية اللازمة لتنفيذ حكم الإعدام، ومع ذلك لم تكن هناك كلمة عن التأجيل من رالي.

قال الناس: "إن الحاكم ينتظر حتى اللحظة الأخيرة. إنه يريد أن يجعل من عمله الخيري تباهياً مثيراً." بعد ذلك بدأوا بالقلق من أن يخطئ في الحكم على سرعة تسليم بريد عربة الجياد، وأن الأخبار الجيدة قد تصل بعد فوات الآوان لإنقاذ السجينة.

مع ذلك، ففي نهاية الأمر، في يوم الخميس الحادي عشر من تموز/يوليو، استلم و. س. بيفينز الرسالة التي طال انتظارها. أحضرها إلي في مبنى المحكمة حيث كنت أقوم بمراجعة المادة المتعلقة بمهام كاتب المحكمة في حادثة تنفيذ حكم

الإعدام. لقد حصلت على نسخة من أمر الإعدام، وكنت أحاول أن أقرر ما إذا كانت هناك أية صيغة محددة ينبغي أن أبلغ بها حكومة الولاية أن حكم الإعدام قد تم تنفيذه. *كان لي شرف إبلاغكم* ... لم تكن تبدو ملائمة تماماً في ظل الظروف الحالية.

قدَّم لي بيفينز انحناءة تحية متيبسة، ووضع الرسالة على الطاولة فوق كتب القانون الخاصة بي بدون أن ينبس ببنت شفة.

الدائرة التنفيذية
رالي 9 تموز/يوليو، 1833

سيدي العزيز:

استلمت رسالتكم غير المؤرخة، ولكن مختومة بختم البريد في الثالث .Ins، بالإضافة إلى عريضة الاسترحام المرافقة من عدد من أكثر السيدات احتراماً في جواركم نيابة عن السيدة سيلفر التعيسة، والتي، قبل أن تصلك هذه الرسالة، سوف تكون بالرغم من جميع الإمكانيات البشرية قد اجتازت الحدود التي تفصلنا، على قدم المساواة، عن تأنيب الأعداء وعن تعاطف الأصدقاء. كل ما بمقدوري أن أفعله الآن هو الانضمام إلى الرغبة القلقة، التي بلا شك تعم جميع أنحاء المجتمع الذي تنتمي إليه، لعلها قد تجد في السماء الرحمة التي يبدو أنها حُرمَت منها على الأرض، عفو بدون قيود لجميع الجرائم في حياتها.

إنني أناشدكم أن تبلغوا الملتمسات اللطيفات، اللواتي لي الشرف أن أكون على معرفة شخصية بمعظمهن، حيث أن أرق الدوافع التي أثرت على مذكرتهن بالنيابة عن المُدانة التعيسة، هو موضع تقدير على نحو وافٍ، وأن لا أحد يمكنه المشاركة بعمق أكثر مني في تعاطفهن من أجل مصيرها السوداوي.

إنني، يا سيدي، بكل احترام
خادمكم المطيع
د. ل. سوين
إلى و. س. بيفينز، المحترم

وضعت الرسالة وبالكاد أثق في أنني أستطيع أن أتكلم. وقلت أخيراً: "يبدو أن الحاكم يظن أن السيدة سيلفر قد أعدمت بالفعل."

قال بيفينز: "هكذا كان يبدو الأمر.

"ولكن كيف يمكنه أن يفكر هكذا؟ لقد أمر ديفيد سويت بذاته بذلك التأجيل لتنفيذ حكم الإعدام قبل ثلاثة أسابيع. لقد أرجأ هو نفسه تاريخ إعدامها من الثامن والعشرين من حزيران/يونيو، حتى الثاني عشر من تموز/يوليو، متصرفاً بناء على طلب توماس ويلسون. لقد رأيت الرسالة بنفسي. كيف يمكنه أن يكتب الآن ويقول إن الحكم قد تم تنفيذه فعلياً؟"

"ربما لديه أمور أخرى في ذهنه،" اقترح بيفينز، ولكنني أعتقد بأنني لاحظت سخرية في كلامه.

قلت: "جيد جداً، دعنا نخبره بخطئه.

"سنذهب مباشرة إلى مكتب العربة ونقوم بكتابة مسودة رسالة بأن الكولونيل نيولاند يمكنه أن.

تذبذب صوتي، وأومأ بيفينز برأسه ملاحظاً أنني أدركت خطأي. "سيد غيذر، لقد نسيت الموعد.

حملقت فيه. وقلت: "إنه الحادي عشر من تموز/يوليو. من المؤكد أن الأوان قد فات للاعتماد على عربة البريد لترسل رداً، ولكن.

"لقد فات الأوان تماماً،" قال بيفينز بهدوء. "السيدة سيلفر ستشنق غداً، ولا توجد قوة على الأرض يمكنها أن توصل رسالة من مورغانتون إلى رالي، وتعيدها ثانية في أقل من يوم واحد. لقد كان الحاكم يعرف متى أرسل رده."

"إذن لماذا المراوغة بسوء الفهم المزعوم هذا بشأن التواريخ؟ لماذا لا يقول ببساطة، *أرفض منح السجينة عفواً*

"لقد قالها، يا سيد غيذر. بوضوح بقدر ذلك الذي تحدث به أي سياسي في حياته.

tele @ktabpdf

الفصل السابع

أخرج الطَرق على الباب العمدة من استغراقه في حلم يقظة. ذهب سبنسر إلى الباب وهو يعرج بدون إزعاج نفسه بالنظر من النافذة ليرى سيارة من كانت واقفة في الممر.

كان تشارلز ويث ستانتون يقف هناك، وهو يحمل نبتة موضوعة في أصيص مع عقدة من الستان الأصفر مغروسة في التراب بين أوراق النبات. لم يرَ سبنسر الرجل منذ عشرين عاماً، سوى كوجه في صور الأخبار، أو كصورة سريعة الزوال على شاشة التلفاز، ولكنه تعرّف عليه على الفور. بدا الكولونيل ستانتون جذاباً كما كان عليه وقت وفاة ابنته. أشيب أكثر قليلاً، ربما، وأنحف، بحيث كانت الخطوط على وجهه بارزة أكثر، ولكنه كان لا يزال وسيماً مثل ملصق تجنيد. ذلك النوع من الأشخاص الذي كان الناس معتادين على السؤال: "هل أنت شخص ذو شأن؟" على أساس احتمال ضئيل أنه ربما يكون أوليفر نورث، أو هاريسون فورد، أو أي شخص آخر مشهور جداً لا يتوقع المرء أن يراه شخصياً أبداً.

تراجع سبنسر إلى الوراء وأشار له بالدخول.

"مرحباً أيها العمدة،" قال وهو يقدِّم النبتة وكأنها عرض سلام. "إنني سعيد برؤيتك تمشي من جديد."

وضع سبنسر النبتة على أقرب سطح منبسط، وتبع ضيفه إلى غرفة المعيشة. كان الكولونيل ستانتون قد مشى إلى الأبواب الزجاجية المنزلقة في الطرف البعيد

من الغرفة، وكان ينظر بإعجاب إلى منظر الجبال الخضراء التي تعكس ظلال الغيوم في أشعة الشمس. قال: "إنه جو هادئ جداً هنا في الأعلى، كنت أرغب في دفن إيميلي في مقبرة بالقرب من سيتي جونسون، بحيث يمكن تطويقها بالجبال. لقد أحبت المكان هنا في الأعلى. رفضت آن ذلك بشدة، على أي حال. لقد أرادت أن تحضر ابنتنا إلى الموطن، لتكون قريبة منا. ربما كانت على صواب في فعل ذلك. لا أعلم."

لم يرَ سبنسر أن ذلك كان يستحق الاهتمام. "كيف حال السيدة ستانتون؟" سأل بأدب.

أشاح ستانتون بنظره بعيداً عن المنظر، ولم ينظر إليه ثانية. وقال: "لقد وقع طلاق بيننا منذ بضع سنوات مضت. لقد كانت إيميلي ابنتنا الوحيدة، وكان فقدانها قاسياً جداً علينا. أعتقد بأنه كان هناك أكثر من ذلك للانفصال، ولكنه كان بالتأكيد السبب الرئيسي. سجِّل موت آخر للافاييت هاركرايدر، زواج واحد."

"أنا آسف لسماع ذلك،" قال سبنسر.

هز الكولونيل كتفيه لامبالياً. "هذه الأمور تحدث." بدا أنه لاحظ للمرة الأولى أن مضيفه كان لا يزال واقفاً. "أرجوك إجلس،" قال وهو يشير باتجاه الكنبة. "إنني أعلم أنك ضعيف في الوقت الحاضر. لم أقصد أن أبقيك واقفاً على قدميك، سيد آرووود."

بدأ سبنسر كلامه: "كيف عرفت-"

ابتسم ستانتون. "كيف أجدك؟ أو أنك كنت مريضاً؟ سيدة شابة خدومة في مكتبك أجابت على هذين السؤالين. لقد أخبرتها أننا كنا صديقين قديمين."

"لقد مر وقت طويل،" قال سبنسر وهو يحتفظ بملاحظة في ذهنه بأن يعطي الموظفة الجديدة، جينالي، تعليمات إضافية فيما يتعلق بخصوصية أفراد شرطة الأمن. أراح نفسه على الكرسي المحشو بجانب الكنبة وأشار للكولونيل ليجلس.

"كيف حالك أيها العمدة؟"

"في تحسن. سأعود إلى العمل بحلول الأسبوع القادم، على ما أعتقد.

"إن جرح الطلق الناري تجربة حرجة، أليس كذلك؟ أصبت ذات مرة وأنا وراء البحار، ولن أنسى ذلك الشعور بالخدر، المتبوع باقتناع مطلق بأنني كنت ميتاً بالفعل. لن تنسى ذلك أبداً."

"لا أظن أنني سأنسى." لم يشأ سبنسر تبادل قصص الحرب.

"لقد سمعت، على أي حال، أن الشخص الذي أطلق عليك النار قُتِل أثناء عملية الاعتقال. ابتسم الكولونيل. "لا بد من الإطراء على مساعديك. لقد وفروا على الحكومة الكثير من الوقت والمتاعب.

ذكّر سبنسر نفسه بأن رجلاً فقد ابنته الوحيدة كان بالكاد المراقب الأكثر موضوعية لإجراءات قانونية جنائية. علاوة على ذلك، أنه نظراً لأن ستانتون لم يكن يعرف شيئاً عن القضية أو المشاركين فيها، فإنه لم يكن بإمكانه أن يدرك كم أسف العمدة بعمق لموت ذلك الهارب بعينه. وقرر سبنسر أن يدع الأمر يمر، وقال: "ما الذي أتى بك إلى تينيسي؟"

ابتسم تشارلز ستانتون. "العمل غير المنجَز ذاته الذي أتى بي أول مرة التقينا فيها، سيد آرووود. لافاييت هاركرايدر. إنني متجه إلى آشفيل بالسيارة لأشاهده وهو يموت.

"ستكون شاهداً؟"

"آه، نعم. لقد وعدت إيميلي في جنازتها قبل عشرين عاماً. لا يهم كم يستغرق الأمر. قلت لها، سأكون هناك عندما يحين وقته، وسأشاهده يموت.

لم يتمكن سبنسر من التفكير بشيء يقوله. لم يتمكن من المجادلة في حق الرجل بالعدالة، ولكن رضاه الواضح جعل العمدة منزعجاً.

"ستكون هناك أيضاً، أليس كذلك؟"

أومأ سبنسر برأسه. "عمدة المقاطعة المحلية."

"هذا ما اعتقدته. لقد كنت أدرس إجراءات تنفيذ حكم الإعدام على مدى الشهرين الأخيرين الماضيين. يمكن أن يكون هناك ستة عشر شاهداً فقط عند تنفيذ حكم الإعدام. وقام بعدِّهم على أصابعه. "السجّان أو شخص يتم تعيينه لتمثيله، والطبيب الجراح الخاص بالسجن، ومحامي السجين وأقاربه، وأي كاهن يريده أن يكون حاضراً. *وستة من المواطنين الجديرين بالاحترام.*"

أومأ سبنسر برأسه. "العمدة أو ممثله، وشاهد آخر يتم اختياره من قِبله. أعرف ذلك. لقد تنازلت عن الخيار الآخر. والأربعة الآخرون يتم اختيارهم من قِبل وكالات تنفيذ قانون أخرى، أليس كذلك؟"

"صحيح."

"ولكنك ستشهد تنفيذ حكم الإعدام؟"

لم يعتقد سبنسر بأن مكتب تحقيقات تينيسي كان سيعيّن الكولونيل ستانتون كواحد من شهودهم الرسميين. لقد كان الحماس في صوته سيمنعهم.

ابتسم ستانتون. "شاهد وسائل إعلام. لا تنسى أصدقاءنا في الصحافة. اتحاد صحافة الولاية، ووكالة الأسوشيتد برس، ومذيعي الأخبار في الإذاعة والتلفاز يأخذون ما مجموعه خمسة شهود، وخمسة بُدلاء في حال أن أحد الآخرين لم يتمكن من الحضور. لقد حصلت على زاوية في الأسوشيتد برس مقابل وعد بالكتابة عن الموضوع.

كبت سبنسر قشعريرة. "هل ستكتب المقالة؟"

"سأكتبها. إنني رجل يفي بما يقول. لقد قلت إنني سأشاهد موت ذلك الرجل، وإذا كانت كتابة مقال هي ثمن الحفاظ على ذلك الوعد، إذن، فليكن ذلك."

"أتمنى لو كان هذا الإعدام سيعيد ابنتك إليك، يا سيدي،" قال سبنسر منتقياً كلماته بعناية. "ولكن طالما أنه لن يعيدها، فلا يمكنني أن أقول إنني أرى فائدة كبيرة في ذلك."

ضيّق تشارلز ستانتون عينيه. "يتعين على الناس أن يسددوا ديونهم، سيد آرووود. قانونياً وأخلاقياً. يجب أن يتم تسديد الديون. حتى لو لم يكن هذا الإعدام رادعاً للآخرين، وحتى لو لم يقم هذا الرجل بالقتل مرة ثانية، و، نعم، حتى لو لم يعد ابنتي من القبر، على الأقل الدين سيُسدد، وهذا إنجاز هام. لقد عملت طويلاً وبجهد من أجل هذا اليوم. ربما أنه كلفني زواجي. لذا عندما يجلس فيت هاركرايدر على ذلك الكرسي الكهربائي، فإن ذلك سيعني أن عشرين سنة من حياتي لم تذهب سدى."

أومأ سبنسر برأسه، وقال بأنه كان يفكر أنه توجد عدة طرق للقيام بتنفيذ حكم الإعدام، وتساءل إن كان موت فيت هاركرايدر من شأنه أن يحرر تشارلز ستانتون.

"لقد أتيت لأرى ما إذا كنت تود أن ترافقني إلى ناشفيل،" قال ستانتون. "سأذهب قبل يوم أو ما يقارب لتقديم احتراماتي للحاكم ولشكره لشجاعته في ترك ذلك يحدث أثناء فترة مناوبته. عندما سمعت أنك تعرضت لإصابة، فكرت أن آخذك معي. إن الرجل المريض لا يجب أن يقوم برحلة تستغرق ست ساعات لوحده."

"هذا لطف كبير منك، أيها الكولونيل،" قال سبنسر، "ولكن لدي بعض الأمور التي يجب أن أهتم بها هنا قبل أن أتمكن من المغادرة. سأذهب في يوم تنفيذ الحكم الفعلي. إذا كان لا يزال مقرراً في موعده بحلول ذلك الوقت."

ابتسم ستانتون. "يمكنني أن أعدك بأنه سيبقى في موعده المقرر. هناك ثلاثة برامج شبكات إخبارية ستجري مقابلة معي من ناشفيل ما بين الفترة الواقعة من

الآن وحتى الوقت الذي يموت فيه فيت هاركرايدر. إنهم يسمون الأجزاء أموراً مثل 'عدالة في نهاية المطاف.' لن تجرؤ السلطات على إلغائه، لقد تدبرت ذلك الأمر."

أراد سبنسر أن يقول، *ولكن ماذا لو لم يكن مذنباً؟* ولكنه بقي صامتاً، لأن الذنب أو البراءة لم تعد ذات أهمية بعد الآن بالنسبة لهذا الرجل ذي الوجه الوسيم والعينين الجامدتين. لقد كره تشارلز ستانتون لافاييت هاركرايدر لفترة طويلة ليغيّر رأيه الآن؛ لن يكون هناك دليل سيقنعه أبداً بأن الرجل المُدان لم يكن مذنباً. هناك شخص سيموت من أجل إيميلي ستانتون، وتحقيقاً لهذه الغاية كان تشارلز ستانتون قاتلاً ماكراً أكثر بكثير مما كان أي هاركرايدر في أي وقت مضى.

نهض تشارلز ستانتون واقفاً، وهو يبتسم. "حسناً، علي أن لا أعطلك،" قال. "أعلم أنك لست على ما يرام، ولدي مؤتمر صحفي بعد ظهر هذا اليوم في جونسون سيتي. إنني أخطط أن أستفيد من جرائم الممر الجبلي لألفت الانتباه إلى قضيتنا. أتمنى أن يكون إعدام هاركرايدر قد أتى في الوقت المناسب لردع هذا القاتل الجديد."

نجح سبنسر في الإيماء برأسه. لقد كان قادراً على البقاء بدون تعابير على وجهه فقط لأن عمل الشرطة قدم له عشرين سنة من التدريب على إخفاء مشاعره، ولكنه شعر أن عضلاته أصيبت بشد، وأن معدته ترغي.

"هل اقتربت من تحقيق اعتقال ما، أيها العمدة؟" سأل ستانتون وهو يتجه نحو الباب.

"لا يمكنني أن أقول." *أي جرائم؟ في مقاطعتي؟*

"يا للأسف. لقد سمعت الناس يقولون أن القضيتين ربما تكونان مرتبطتين ببعضهما البعض. أريد أن أضع حداً لذلك الهراء على الفور. لا أريد أن يكون لدى الحاكم أي عذر لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام."

اتكأ سبنسر على الباب وهو يأخذ نفساً عميقاً إلى أن سمع صوت إطارات سيارة ستانتون وهي تسحق الحصى على الممر. نظر إلى الهاتف. لا. سيدخل. كان يمسك جنبه وكأنما الضغط كان من الممكن أن يمنع الألم، وتقدّم وهو يعرج باتجاه طاولة المطبخ، حيث كانت مفاتيح سيارته موضوعة في زبدية مع المفاتيح الاحتياط. لم يعطه الطبيب آلتون بانر الإذن بقيادة السيارة، ولكن قال سبنسر لنفسه إنه مر يومان منذ أن سأله، وهو الآن على ثقة من أنه غير خطر على أحد سوى نفسه خلف مقود السيارة. كان سينزل من الجبل، بطريقة أو بأخرى، فقد كان يريد بعض الإجابات.

رجع بسيارته إلى الوراء خارجاً من المرآب، حول دائرة الحصى تحت شجر البلوط والقارية، واتجه نحو أعلى الممر. كان على بعد ست دقائق من المدينة، ولكن الطريق كانت تمر خلال الحقل والغابة، بحيث كان يمكن أن يكون أي قرن على أي حال، لولا الشريط الأسود من الطريق الذي كان يفصل المروج. في الواقع أن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد كانت فرانكي سيلفر سترتبك بفقدان أشجار الكستناء، والنباتات البقلية المتسلقة الغريبة، وتغييرات أخرى في المشهد الطبيعي الحديث، ولكن سبنسر كان يرغب في أن يهدأ لعدم وجود لوحات إرشادية وخطوط كهرباء. لقد حاول تهدئة نفسه بتشويش أفكاره بدندنة بعيدة، وحجبها بجمال الجبال المحيطة، ونجح تقريباً لبضعة أميال، ولكن اللافتة التي تحدد حدود مدينة هيملين أعادته إلى العمل الذي بين يديه. لقد كانت دائرة العمدة على بعد عمارتين.

عندما رأى سيارة دورية المساعد لودون مركونة في الممر، شعر أن فكه ينطبق بقوة. لقد تمنى أن يجد مارثا، ولكن لودون سيفي بالغرض. خرج من السيارة وهو يعرج صافعاً الباب لدرجة جعلت النافذة تصدر صوت قعقعة. ونجح في صعود الدرجات الأمامية بدون كثير من التأني، وبوصوله إلى الباب الأمامي،

tele @ktabpdf

ملأ رئتيه بنفس عميق ليبعد أي تعابير تدل على الألم. كان لا بد أن يكون حريصاً على ألا يبدو مريضاً. وقد عزم على تولي التحقيق، وكان يريد أن لا يعطي مساعديه أية فرصة لاستغلال إصاباته كذريعة لاستبعاده من القضية. ولو أظهر أي ضعف، فإن لودون، بأحسن النوايا، كان من المرجح أن يستدعي مارثا، ومن ثم آلتون بانر، وسيصر كلاهما على مرافقة العمدة للعودة إلى المنزل لحين شفائه تماماً من جرحه. لم يكن هناك وقت لذلك.

"ما الذي تفعله في الخارج؟" لم يكن لودون ماهراً أبداً في اللباقة الاجتماعية. إن تصوير المساعد في مؤتمر صحفي، أو في اجتماع مجلس المراقبين، يجعل العمدة يفزع أكثر حتى من الألم الذي في أحشائه.

"أشعر أنني بخير،" قال له سبنسر. "اعتبر أنني عدت إلى أداء عملي. إبدأ بإخباري لماذا، بحق الجحيم، لم يتم إبلاغي عن جرائم القتل."

كان لودون يجلس إلى مكتبه المُعتاد، مع بيبسي، التي ربما كانت عبارة عن عشائه، إلى اليسار من جهاز الكمبيوتر. وكانت على الشاشة قائمة عناوين وأرقام هواتف. كان يقوم بإجراء مقابلات هاتفية متتبعاً الشهود. هو كذلك لم يكن يبدو في حالة جيدة، فكر سبنسر في نفسه. ساعات العمل الطويلة، وعدم وجود أيام إجازة كان قد بدأ ينهكه.

"إننا نفعل كل ما بوسعنا،" قال لودون. "مكتب تحقيقات تينيسي يتقصون الأمر، ونحن نقوم بإجراء المقابلات.

أومأ سبنسر برأسه. "لقد كان طلب مارثا، أليس كذلك؟*لا تزعجوا سبنسر المسكين. إنه مريض.*

هز المساعد كتفيه لامبالياً. "شيء من هذا القبيل. ربما أنها على صواب، كما تعلم.

إنهم يقصدون خيراً، قال سبنسر لنفسه مبتلعاً غضبه. وقال: "سنترك هذا الأمر في الوقت الحالي. أخبرني عن جرائم القتل."

بتنهيدة استسلام التقط لودون ملف القضية وسلمه للعمدة.، وقال: " إجلس على الأقل، إنك تبدو في حالة سيئة."

"أنا بخير." وجلس، بالرغم من ذلك. "قل لي ما الذي تم عمله."

خطوة بخطوة أخذه لودون خلال مراحل التحقيق، من مكالمة الإبلاغ عن اكتشاف جثث، إلى القوائم العديدة لشهود محتملين يُستجوبون بواسطة الهاتف، أو بالتحقيق بالانتقال من باب إلى باب. أومأ سبنسر برأسه حيث أن القضية بدأت تتبلور.

توقف لودون ليأخذ نفساً. وبعد لحظة قال: "هل يوجد أي شيء آخر كنت ستقوم به؟"

هز العمدة كتفيه لامبالياً. "لا أعلم. ينبغي عليّ أن أفكر بالأمر. لم أكن لأتجاهل الصلة الممكنة بين هذه الجريمة وقضية هاركرايدر، على أي حال."

"لم نتجاهل ذلك. لقد استجوبنا جميع أولئك الشهود الذين تمكنا من العثور عليهم ـ هارمون، ورجلي الإطفاء من ألاباما، وحتى أرملة ويليس بلين المسكينة. ولم نتوصل إلى شيء."

"ألا ترى ما الذي فعلتموه؟ هناك رجل يُهيّأ ليموت هذا الأسبوع، وقد فشلتم في تعقب دليل جديد يمكن أن ينقذه."

كان المساعد صامتاً للحظات. لقد كانت المواجهات جزءاً من العمل اليومي في مجال تنفيذ القانون، ولكن لودون كان يكره التشاجر مع رئيسه، الذي كان صديقه أيضاً. لقد كانا يعرفان بعضهما البعض منذ وقت طويل. لقد قضى لودون سنوات المراهقة من عمره في فيتنام مع سرية خط المشاة، وبعد اثنتي عشرة سنة

من ذلك تنقّل من عمل إلى آخر فاقداً إثارة القتال، ولم ينجح أبداً في تجاوز باقي الذكريات. كانت هذه المقاطعة الصغيرة على كتف جبل تينيسي أكثر مكان شعر فيه بأنه في موطنه طوال حياته. ومن الواضح أن سبنسر لم يكن بصحة جيدة ليعالج الوضع الحالي. وأخيراً قال: "إننا لا نرى صلة بين القضيتين. وكذلك مكتب تحقيقات تينيسي لا يرون صلة.

"لم تستبعدوها.

"إنها صدفة، هذا كل ما في الأمر."

"وماذا لو لم تكن كذلك؟"

"إصرف الأمر من ذهنك، يا سبنسر،" قالت مارثا من المدخل. دخلت وهي تبدو مرهقة أكثر منهما وجلست على طرف طاولة مكتب لودون. "لقد رأيت سيارتك هنا،" قالت للعمدة. "كنت أخشى أن تعرف بهذا الأمر، ولكنني بقيت أرجو أن نتوصل إلى حله أولاً. إنك لست بصحة جيدة لتقوم بإجراء تحقيق، وأنا أعرف أنك قد تحاول، بسبب هذه الصلة بالهاركرايدر."

"إذن هناك صلة!"

تنهدت مارثا "فقط في عقلك، يا سبنسر. أنظر، يتوجب عليك أن تثق بنا. لقد أنهيت دورة الأكاديمية للتو، أتذكر؟ لقد تغيرت الأمور في غضون العشرين عاماً منذ اعتقالك لفيت هاركرايدر. بالعودة إلى ذلك الوقت كان فيلم *الجابي (The Collector)* قصة خرافية مرعبة؛ والآن تُستخدَم كفيلم تدريبي، لأنه توجد سلالة جديدة تماماً من القتلة الذين يرتكبون سلسلة من جرائم القتل المتشابهة، هناك في الخارج. إننا نعرف عن الجريمة الآن أكثر مما كنا نعرف من قبل. وهناك شيء واحد نعرفه وهو أن الناس لا يرتكبون جرائم متشابهة على مدى عشرين سنة، كل على حدة، بدون حدوث شيء بينها.

"إنك تراهنين بحياة إنسان في هذا الأمر،" قال سبنسر.

"إننا نتبع دليلاً جيداً الآن، ولا توجد صلة بقضية هاركرايدر. هذه القضية ليست هي الإجابة التي تنشدها، أيها العمدة،" قالت مارثا. كانت نادراً جداً ما تناديه بلقبه مما جعله يرفع نظره نحوها باندهاش. "لماذا لا تدعني أوصلك بالسيارة إلى المنزل الآن؟"

"لا!" كان صارماً جداً. إن الإلحاح الذي أجهد نفسه لإخفائه كان واضحاً الآن، وأدرك أن مشاعره كانت قريبة جداً من السطح، وهذه إشارة على صحته الواهنة. "لن أحصل على أي نوع من الراحة إذا كنت سأقلق بشأن هذا الأمر. أعلم أنكم تحريتم عن قضية هاركرايدر، ولكن دعوني أتحقق مرة ثانية. من أجل راحة بالي. إذهبي أنت إلى المنزل. سأبقى هنا وأطلع على بعض الملفات."

"أنت لست بصحة جيدة للعمل،" قالت مارثا.

"لا يمكنني منع نفسي عن التفكير."

"إنه ذلك الحكم بالإعدام اللعين، أليس كذلك؟" قال لودون.

"نعم."

"إبق في المنزل إذن. فالحكومة تريد شاهداً عن المقاطعة، أخبرهم أنني سأذهب."

"يجب أن يكون أنا من سيذهب. إن فيت هاركرايدر في زنزانة المحكومين بالإعدام لأنني أنا وضعته هناك ـ وربما كنت مخطئاً."

"أشك في ذلك،" قال لودون بهدوء كما لو كانا يتحدثان عن رهان على مباراة بيسبول قديمة.

"لم يكن نيلسي ميلر سعيداً أبداً بهذا الاتهام، ولكنني كنت واثقاً جداً من

نفسي في ذلك الوقت. لقد كانت قضيتي الكبرى الأولى، وكنت أظن أن شكوكه بشأنها كانت فقط لعجزه عن الحصول على القضية لأنه لم يكن هنا لحلها."

"إذن لماذا لم يثبت أنك كنت على خطأ؟"

هز سبنسر كتفيه مستهجناً. "لقد قمت بجمع الأدلة، هذا كل شيء. لقد كان المدعي العام وهيئة المحلفين هم من قرروا أن فيت هاركرايدر كان مذنباً. وكانت جميع الأدلة ضده. فصيلة الدم، وعدم وجود شاهد إثبات. وحتى أنه كان بحوزته مجوهرات الفتاة عندما تم القبض عليه.

"لقد أقنعتني،" قال لودون. "هذا أفضل ما يمكن أن تتضح به القضايا، باستثناء تلك التي تظهر على التلفاز.

"أعلم. ولكن يبدو الأمر خاطئاً."

ابتسم المساعد. وقال: "حسناً، هذا لا بد أن يؤثر على المحكمة العليا.

"أعلم. أحتاج إلى شيء إلى جانب العشرين سنة من الخبرة، وحدس. أعتقد أن لجرائم قتل الممر الجبلي السمة المميزة لجرائم القتل المتسلسلة. وقد توقفت بعد أن قمت باعتقال المشتبه به، أليس كذلك؟ لو أنني قبضت على الرجل الصحيح لكانت جرائم القتل قد توقفت. ولكن الآن لدينا هذه القضية."

"مارثا أخبرتك. القتلة الذين يرتكبون جرائم قتل متسلسلة ومتشابهة لا يأخذون عشرين عاماً إجازة. على الأرجح عشرين يوماً. إن معظمهم تحت الأربعين من العمر، على أي حال.

"أعلم. لقد قلت إنه كان شعوراً. إنه أمر غير منطقي بعد، وليس لدي الكثير لأمضي قدماً. ولكن أريد أن أطلع على بعض السجلات الجنائية." وسلّم سبنسر قطعة من الورق من مسودة أرقام الهواتف الخاصة به إلى لودون. "هل يمكننا أن نتصل بمكتب تينيسي للتحقيقات، وأن نطلب منهم أن يقوموا باستعراض هذه الأسماء على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم؟"

"بالتأكيد ،" قال لودون . "ما الذي تبحث عنه؟"

"سأعرف عندما أراه . أحضر لي كل شيء لديهم ."

قام المساعد بإعطاء سبنسر الهاتف . "ربما يمكنك كذلك الخروج لتناول العشاء مع مارثا ، بعد ذلك، حيث أن هذا الأمر سيستغرق بعض الوقت . أعتقد بأنك تريد التحري عن ولايات أكثر من مجرد ولاية تينيسي؟"

"أريد كل شيء ."

أومأ لودون باتجاه مارثا ، وقال : "سيكون لديك وقت للإفطار كذلك."

قام الأشخاص المسؤولون بتكديس علب الورق المقوى على السرير في زنزانة فيت هاركرايدر . "ربما سنهتم بهذا كذلك الآن ، يا لافاييت،" قال ذلك، ولكن لهجته كانت لهجة اعتذار .

"سينقلونك وسجين آخر خلال ساعة أو نحو ذلك . إلى الزنزانة الهادئة . كنت أعتقد بأنك ربما ترغب ببعض المساعدة ."

أومأ فيت برأسه . "شكراً ." لقد لاحظ أن بيري قد قال : "إننا سننقلك إلى الزنزانة الهادئة،" بدلاً من "سنضعك تحت المراقبة قبل تنفيذ حكم الإعدام ." إنها نقطة صغيرة ، ربما ، طالما أنها تصل إلى الأمر ذاته ، ولكن وجود فيت على قيد الحياة كان معتمداً لفترة طويلة على مُتع بسيطة ، ومصادر إزعاج تافهة في الفراغ الكبير للمدة التي قضاها في السجن . القليل من الأمور كانت تهم .

لم يكن بيري سيئاً جداً كحارس . لقد كان يقوم بواجبه فحسب . ربما فهم الأمور بشكل أفضل مما فهمها المحامون . لم يكن يتوجب عليك شرح الفقر لشخص عمل كحارس سجن .

نظر فيت حوله وهو ينظم أشياءه الشخصية ، تراكمات حياته في سن الرشد بكاملها . ستكون مناسبة للوضع بسهولة في أربعة صناديق من الكرتون المقوى .

وعليه الآن أن يقرر ماذا يجب أن يفعل بها. لقد بدأ برفع الأشياء عن الرف. أربع زجاجات شامبو بريل، وعلبة سجائر، وكومة من الأوراق القانونية الصفراء غير المُستعملَة.... لقد فكر كيف أن الناس في الخارج قد يهزون رؤوسهم على هذا التغاضي المثير للشفقة عن الثروة. "أعط تلك الأشياء لميلتون،" قال وهو يدفع السجائر ومواد الاستحمام داخل أصغر صندوق. "يعلم الرب أنه يحتاجها. على الأخص الشامبو.

لقد كانت مزحة سخيفة، ولكن بيري ابتسم على أي حال.

"ماذا يحدث الآن؟"

هز بيري كتفيه لامبالياً. "ستحصل على بعض السلام والهدوء،" قال. "ولكن الغرف متناثرة إلى حد ما."

"مقارنة بماذا؟"

"إن للزنزانة الهادئة قضباناً، مثل السجن. وفيها سرير، ومغسلة، ومرحاض، وطاولة للكتابة. هذا هو كل شيء. وسيتم السماح لك بالخروج خمس عشرة دقيقة في اليوم للاستحمام؛ وفيما عدا ذلك، فذلك هو المكان الذي ستبقى فيه."

"بلا تمرين؟"

"ليس بعد الآن. سيكون لديك شخص تتحدث إليه، على أي حال. سيكون هناك حارسان موجودان خارج الزنزانة في جميع الأوقات. ويمكن أن تستقبل زواراً."

"جيد. أريد أن يأتي ميلتون ويلعب الورق معي."

"آسف. لا اتصال مع نزلاء آخرين. يمكنك رؤية محاميك، أو قسيسك، أو مستشاراً قانونياً، أو أفراد من عائلتك. يمكن لأفراد العائلة الذهاب إلى صالة الزوار المُعتادة. زيارات بدون احتكاك."

"هل طلب أحد أن يراني؟"

التفت بيري مبتعداً، وبدأ بنزع الملصقات والصور عن الجدار. "ليس على حد علمي،" قال. "ذلك الأمر يمرر من خلال المكتب الرئيسي. ربما أنهم لم يخبروني بعد. "بالتأكيد.

"سمعت أن جماعة من الصحفيين يريدون أن يجروا معك مقابلة، على أي حال. وحتى أشخاص مهمين من التلفاز الوطني."

"سأموت." وضع آخر أشيائه الخاصة في صندوق من الكرتون المقوى.

"حسناً. انتهى كل شيء. هل ننقل هذا إلى زنزانة جديدة؟"

هز بيري رأسه. وقال: "معظم الأشياء، لا ننقلها. يمكنك أن تأخذ بضعة أوراق قانونية معك. والكتاب المقدس، إذا كان لديك واحد.

"ماذا أفعل بباقي الأشياء؟" أشار فيت إلى مجموعة من الرسائل، والوثائق المتعلقة بقضيته، وكتابين، والصورة الموقّعة من قِبل أحد نجوم الأفلام الذي كان متعاطفاً مع قضيته.

هز الحارس كتفيه لامبالياً. "توزعها، على ما أظن. عائلتك؟ محاميك، ربما؟ لو كنت مكانك، أعتقد بأنني كنت سأعطي أشيائي الخاصة إلى شخص قد يرغب بتذكار ليتذكرني به."

أومأ فيت برأسه. "هذا معقول." وبدأ بوضع الأشياء في الصناديق المتبقية.

"حسناً؟ ماذا سنفعل بهذه الأشياء؟"

"تخلص منها."

بيرجيس غيذر

الإعـدام

لقد حان موعدي أخيراً . من بين جميع الأيام التي عشتها على وجه هذه الأرض ـ أقل من سبعة آلاف يوم، تقول الآنسة ماري، حيث أنني طلبت منها ذات مرة أن تجمعها لي ـ من بين جميع تلك الأيام كان هناك ثلاثة فقط ملكي تماماً . إنني لا أحسب اليوم الذي ولدت فيه، لأن ذلك كان زمن والدتي أساساً ، وعلى أي حال، فأنا لا أتذكر منه شيئاً ، لذا لا يمكنني قول ما إذا كنت أدلل، أو أعطى أهمية أكثر من اللازم، أم لا . ربما كانوا يتمنون صبياً آخر، وأصيبوا بخيبة أمل عندما جئت بدلاً منه .

اليوم الأول الذي يمكنني أن أحسبه ملكي الخاص كان يوم تزوجت تشارلي سيلفر . أظن أنه ينبغي أن أقول إن نصف ذلك اليوم كان ملكه، حيث قال الواعظ إنه لكوننا زوجاً وزوجة كان ينبغي علينا بأن نتقاسم حياتنا وكل ما نملك من أشياء شخصية دنيوية، ولكن لا أعتقد أن تشارلي كان يريد أن يفعل الكثير بذلك اليوم. لقد احمر خجلاً وتلعثم، وحاول أن يتظاهر أنه لم يكن مهتماً نهائياً بشأن كل سخافة الاحتفال . يكون الرجل دائماً خجولاً في يوم زفافه، كثعلب واقع في فخ فيه طعم، وقد وقع فيه لأن طمعه غلب على رجاحة حكمه . ضحك الرجال

على تشارلي في ذلك اليوم الربيعي، وقالوا إنه وقع الآن في الشرك بالتأكيد. وكعروس، تلقيت إطراء وأثرت ضجة بشأني، وكأنني ربحت جائزة، أو فعلت شيئاً مدهشاً لم يفعله أحد من قبل أبداً، ولم أستطع منع نفسي من الشعور بالسعادة وبأنني أتمتع بذكاء حيث نجحت في تحويل نفسي من فتاة عادية إلى عروس متألقة. والآن أعتقد بأنها كذبة قذرة. إن الرجل هو الذي يفوز في اللعبة في ذلك اليوم، بالرغم من أنهم يدّعون أنهم لا يفوزون، والفتاة العروس المسكينة تُقاد إلى فخ من العمل الشاق والكلام القاسي، والتمزق من الولادة، والضرب بقبضات زوجها. إنها نهاية شبابها، ولكن لا أحد يخبرها ذلك. وبدلاً من ذلك يغيرون مظهرها، ويخبرونها كم هي سعيدة. إنني أتساءل هل يرتدي العبيد ملابس مبهرجة في اليوم الذي يُباعون فيه.

اليوم الثاني الذي كان ملكاً خاصاً لي كان عندما أتت طفلتي نانسي إلى الدنيا، بالرغم من أن هذا كان يوماً زعم تشارلي أنه يومه بصوت مرتفع، وكأنه لم يكن لي علاقة به، وأنا مستلقية هناك ملطخة بالدم ومنهوكة القوى على فرشة القش، في حين كان هو يمشي بزهو ويزعق معلناً كيف أنه أصبح أباً الآن. كانت الطريقة التي رأيت بها الأمر هي أن الطفلة كانت له لخمس دقائق، وتسعة أشهر لي، ولكنني بقيت صامتة بشأن ذلك، لأنني في غمرة فرحي لم أهتم نهائياً في ذلك اليوم بمن سيحصل على الثناء والفضل. لقد كان لدي نانسي، وكانت جميلة، وكلها مُلكي، لأنني كنت أعرف أنه بعد أن تباهى تشارلي بمولودته البكر، فإنها لم تكن ستراه بما يكفي. كنت أضجر منها في بعض الأحيان بعد ذلك، عندما كانت لا تتوقف عن البكاء، أو عندما كانت تبصق على ثوب قمت بتنظيفه بالفرك على حجارة الجدول حتى سال الدم من أصابعي، ولكن مع كل هذه المتاعب الصغيرة التي كانت تسببها لي، كنت أتوق لأن أضمها لمرة أخيرة، وأعتبر اليوم الذي أتت به إلى الدنيا كأعظم هدية بالنسبة لي وموضع اعتزازي.

واليوم الثالث من أيامي هو الآن.

هذا اليوم، الثاني عشر من تموز/يوليو من سنة مسيحنا 1833، هو مُلكي حقاً وتماماً، ولا أتشارك به مع أحد. إنه آخر أيامي. وسيكون في بعض النواحي شبيهاً بيوم زفافي، حيث أنني سأرتدي ثوباً أبيض، وسأضع زهوراً في شعري. وسيقوم رجل وقور بمرافقتي وأنا أمر بين الغرباء المحدِّقين، وسيقرأ الواعظ كلمات من الكتاب المقدس. لقد أخبرتني سارة بريسنل كل هذا عن الطريقة التي سيتم بها الأمر. وما كانت لتتحدث عن ما سيأتي بعد ذلك، وكان الأمر يجعلها تبكي عندما كنت أضغط عليها لأعرف المزيد، لذا لن أعود لسؤالها عن ذلك بعد الآن. ولكنني أفكر بالأمر. إنني أتساءل ما هو الأسوأ ـ الموت، وعدم معرفة ما يأتي بعد ذلك، أم الزفاف عندما تعتقدين بأنك تعرفين عن الأمر، ولكنك مخطئة في ذلك. ربما أن الموت يشبه الولادة: ألم رهيب وتمزق، وبعد ذلك سعادة عارمة تجعلك تنسين كل ما حدث قبلها.

إنه يوم الجمعة، وهو يوم ملائم لإعدام علني لقتل الأبرياء، كما علّقت الآنسة ماري أكثر من مرة. وحتى الآن لم يوبخها أحد على كفرها عندما قارنت موت مسيحنا بالإعدام المشروع قانونياً لقاتلة مُدانة. أعتقد بأننا جميعنا نشعر بشيء من الخجل بشأن ما سيحدث، وذلك لأننا نعتقد بأن الحكم غير عادل، ونعتقد بأن الآنسة ماري تتكلم بتهور لأنها تشعر بالعجز لوقف هذا الأمر. ستقال الكثير من الكلمات القاسية عما نفعله هنا قبل أن ينتهي.

أجد من المثير للسخرية أنه من بين جميع العربات المكتظة بالناس الذين حضروا إلى البلدة من المناطق النائية، ومن الأراضي الجبلية، ومن تيبل روك، وجوناس ريدج، ليشهدوا العرض، والذين سيتدافعون ويتزاحمون من أجل المكان الأفضل لرؤية المشنقة، كنت أنا فقط ـ الشخص الوحيد الذي لا يريد أن يرى ذلك يحدث ـ الشخص المطلوب حضوره ليتأكد من تنفيذ حكم الإعدام. إنني

أمثل عيني حكومة نورث كارولينا، ويتعين علي أن أخبر الحاكم أن ما أراد أن يتم تنفيذه قد تم تنفيذه بسرعة وبجدية، وأن المسؤولين في المقاطعة قد منحوا الضحية لطافة ورحمة الطقس الديني المهيب.

لم يكن هناك بناء لمشنقة لإعدام فرانكي سيلفر. لم تكن لمقاطعة بيرك مشنقة دائمة، حيث أنه بالرغم من أننا كنا نحكم على أشخاص بالإعدام من حين لآخر، فإن مثل هذا الحدث كان نادراً بما يكفي لأن لا تكون هناك حاجة لتذكير دائم به. وكانت تلة دامون هي الموقع التقليدي الذي تم اختياره لتنفيذ أحكام الإعدام. كانت الآنسة ماري تسميها غولغوثا، تدنيس للمقدسات مرة أخرى. أتساءل لماذا يتم تنفيذ أحكام الإعدام في أماكن مرتفعة ـ جبل الجلجلة، وتاور هيل في إنجلترا، وتلة المشنقة في مدينة سالم (القدس حالياً).... هل هي ذكرى قائمة للعادة القديمة لتقديم أضاحي بشرية للآلهات، أم هل هي مجرد رغبة الحكومة في وجوب أن تكون أحكام الإعدام المشرعة من قِبل الحكومة واضحة قدر الإمكان، بحيث يمكن أن يرى الآخرون معاناة المجرم، ويرتدعوا هم أنفسهم عن ارتكاب جرائم؟ وأياً كانت دوافعنا اللاواعية بالنسبة للخيار، فإن تلة دامون هي الموقع الذي يتم فيه تنفيذ حكم الإعدام بالأشخاص في مقاطعة بيرك.

إن التلة مرتفعة بما يكفي لأن تُرى من مسافة أميال حولها، وتقع على بعد مسافة قصيرة من السجن ومبنى المحكمة. وعلى قمتها يقع مكان الإعدام: أرض واسعة ومنبسطة، وكبيرة بما يكفي لاحتواء الحشد الكبير من الأشخاص المحدِّقين، والكلاب، والخيول، والعربات التي ستقوم بنقلهم يوم تنفيذ عملية الشنق. والأرض على تلة دامون متوجة بشجرة بلوط باسقة ذات جذع عريض جداً بحيث أن عشرة رجال يمسكون بأيدي بعضهم البعض لا يمكنهم الإحاطة بجذعها. إنها جميلة بأغصانها الممتدة وأوراقها الوافرة النماء. ربما أن البلوط كان ينمو أصلاً على تلة دامون وذلك أول ما وطأت أقدام مستعمري بعثة وولتر رالي أرض نورث

كارولينا ، قبل ثلاثة قرون . تبدو الأشجار وكأنها تعيش للأبد . وبالمقارنة فإن الأعوام التسعة عشر من حياة فرانكي سيلفر القصيرة لا تبدو أكثر من ومضة في الزمن . لقد عمَّرت هذه الشجرة بعد العديد من البشر على مدى حياتها الطويلة ، وكانت أداة الموت ، ربما لعدد لا حصر له من البشر الآخرين . إن شجرة البلوط تلك هي شجرة الشنق .

يحتاج الأمر للقليل لقتل مجرم مُدان . شجرة وحبل . كان جون بون قد حصل على الحبل قبل عدة أيام ـ قبل حتى أن يتمكن من جعل نفسه يصدق أنه قد يستخدمه ، على ما أعتقد ، ولكنه رجل حكيم ويعرف أنه يجب عليه أن يكون مستعداً للحوادث الطارئة . لقد قام بتليين حبل المشنقة بدهن خاروف ، وتأكد من أنه كان خالياً من الالتواءات ، التي يمكن أن تجعل الحبل يدور عند تعليق ثقل به . والآن يتدلى حبل القنب ، الذي يبلغ طوله ثلاثين قدماً ، من عارضة خشبية في مخزن للحبوب خلف سجن المقاطعة . أحد طرفيه معقود بإحكام حول العارضة الخشبية ، وفي الطرف الآخر تم تعليق كيس ثقيل من الذرة على ارتفاع ثلاثة أقدام فوق تراب أرض مخزن الحبوب . تمتط الحبال عند تعليق ثقل يسحبها نحو الأسفل . وإذا لم يتم مطها مسبقاً ، فقد يحدث هذا عند تنفيذ عملية الشنق ، ويُذكر أن النتيجة تكون مرعبة للمشاهدة .

"لم يشنق بون سجيناً من قبل ،" قال لي مالك الأراضي إيروين عندما عاد من البلدة في أحد أيام مطلع تموز/يوليو . "يجب علي أن أذهب وأخبره أمراً أو اثنين عن الإجراء ، بحيث تجري الأمور بسلاسة عندما يحين الموعد . وحتى عندما تجري الأمور بشكل جيد ، فإن الشنق هو منظر وحشي للمشاهدة ، يا بيرجيس ، ولكن عندما يختل أمر ما ، فيمكن أن يكون قاسياً بشكل يفوق التصور . لقد كنت كاتباً في المحكمة لمدة أربعة وأربعين عاماً ، كما تعلم ، وبالتالي فقد رأيت حصتي من عمليات الشنق ، جيدة وسيئة .

tele @ktabpdf

"إنني أعرف القليل جداً عن الأمر،" قلت برعشة داخلية. ولم أكن أريد أن أعرف. "أعتقد بأنني سمعت أن هناك مهارة ما مطلوبة في قياس طول الحبل وحجم الضحية."

أومأ ويليام إيروين برأسه، وقال: "هكذا هو الأمر بالضبط. إن النسبة هي كل شي، وليساعدك الرب إذا حسبتها خطأ. لقد كان لدينا تنفيذ لحكم إعدام ذات مرة حيث استطال الحبل ولم يكن وزن الضحية كافياً لطول الحبل. وهبط المسكين على أرض صلبة، وكان ينبغي رفعه من جديد، وهو يصيح بشكل مثير للشفقة، في حين كان المشاهدون يولولون ويبكون لرؤية معاناته."

قلت: "ينبغي أن لا يحدث ذلك هذه المرة. بالطبع، على الرغم من أنني آمل أننا ربما نلغي القضية بكاملها في اللحظة الأخيرة من مدة التأجيل."

"لقد تبادلت حديثاً قصيراً مع جون بون. أعتقد بأنه يعرف ما الذي ينبغي عمله إذا طُلِب منه القيام بذلك. إنه لا يرغب في ذلك، المسكين البائس، ولكنه يعرف واجبه."

ارتعدت مرة ثانية متنبهاً لالتزامي بأن أكون شاهداً لصالح الحكومة. "هل سيستغرق الأمر طويلاً؟"

تنهد الرجل العجوز. "إنني متأكد أنه سيبدو لك كذلك، بيرجيس. قد يبدو الأمر كأنه يستغرق ساعات إذا ثبَّت نظرك على المُدان وراقبت سكرات الموت، ولكنك لست مضطراً لأن تقوم بذلك. كثير من الرجال الأصلب منك حملقوا في الأرض إلى أن توقفت المقاومة."

"ولكن كم من الوقت؟"

"ربع ساعة، ربما."

"لهذا الحد! آه، بالتأكيد لا، يا سيدي! إن الحبل حول الرقبة يقطع إمداد الهواء عن الضحية، ولا يمكن لأي شخص أن يعيش طويلاً بدون تنفس."

تنهد. "إن الحبل وسيلة غير مثالية، يا بني. إنه يمنع معظم الهواء من الوصول إلى الرئتين ـ ولكن ليس كله. وما يتبع هو نوع من النقص التنفسي ـ اختناق بطيء للجسم الذي يقاوم من أجل ذرة من الهواء، حتى لو كانت المقاومة تطيل المعاناة. علينا أن نأمل أن يتبع فقدان الوعي على الفور بعد السقوط.

"هل يتبعه، إذن؟"

أشاح مالك الأراضي بنظره بعيداً. "غالباً، لا."

لم تكن نساء العائلة حاضرات، بالطبع، عندما تحدثنا عن عملية الشنق. ولم يكن لدى أي منا النية في مناقشة موضوع غير مناسب كهذا في حضورهن، بالرغم من أنه بالتأكيد تم الضغط علي لسرد تفاصيل عن الموضوع من قِبل زوجتي، وعدد من شقيقاتها. إن سيدة كارولينا ليست مخلوقاً حساساً إلى الدرجة التي يجعلنا المجتمع نعتقد بها.

"إنه أمر وحشي!" أكدت زوجتي لجماعة نساء العائلة في الصالة، في مساء أحد الأيام. "أتعتزم نورث كارولينا فعلياً شنق امرأة. لا يمكنني أن أصدق هذا!"

لم يكن يروق لوالدها الحديث الجريء من السيدات. "ماذا كنت تريدينهم أن يفعلوا، يا إليزابث؟" قال بقسوة. "هل ينبغي علينا أن نمنحها ميدالية لذبح زوجها؟ لقد قامت ولاية ماساتشوستس ذات مرة بحرق امرأة بعد شد وثاقها على وتد مدبب لارتكابها جريمة قتل. هل كنت تفضلين ذلك؟"

التفت إليزابث نحو والدها بعينين مذعورتين. "حرقوا امرأة؟ لا أصدق ذلك."

تنحنحت وقلت برقة، "لقد كانت امرأة من العبيد، يا عزيزتي. في عهد الاستعمار."

"آه. حسناً. ولكنه أمر رهيب بالرغم من ذلك،" قالت وهي تغرز الإبرة في قطعة التطريز حتى خشيت على أصابعها تحت قطعة القماش. "وأنا متأكدة أن الشنق ليس أقل قساوة."

"سيكون بالفعل أمراً رهيباً للمشاهدة،" قالت شقيقتها كاثرين.

"لن نذهب،" قالت الآنسة ماري إيروين، قبل أن يتمكن والدها من النطق بالكلمات ذاتها.

التفتنا جميعنا إليها بانشداه صاعق. لقد كانت الآنسة ماري إيروين المُدافعة عن السيدة سيلفر منذ البداية. ولم أتمكن من تصديق أنه من شأنها أن تتخلى عن قضيتها طوعياً في النهاية، بالرغم من أنني كنت على يقين من أن مالك الأراضي كان سيمنعها من الذهاب على أي حال. "لن نذهب،" قالت مرة ثانية، وكان صوتها هادئاً، ولكنه لم يكن يحتمل جدالاً

"لم لا؟" سألت إليزابث.

"لن ترغب السيدة سيلفر بأن نراها تموت ـ ستشعر بالخجل أمام حشد يطلق عبارات استهزاء. سيكون الشنق آخر انتهاك لها، وبعد ذلك ستكون في سلام. يجب أن نتذكرها كما كانت وهي على قيد الحياة. إنها الهدية الأخيرة التي يمكن أن نقدمها لها."

أومأت جميع السيدات بالموافقة، وامتنع مالك الأراضي بحكمة كبيرة عن إضافة أنه لم يكن ليسمح لهن بالحضور على أي حال. وكان يبدو أنني الوحيد من العائلة الذي سيكون حاضراً في موت فرانكي سيلفر.

عادت الآنسة ماري لخياطتها. كنت أراقبها هناك، محاطة بهالة في ضوء الشموع، وهي تطرز الغرز المتناهية الصغر والمنتظمة على قطعة قماش صوفية مزدانة بالرسوم، وتساءلت بماذا كانت تفكر وراء هذا الوجه الهادئ. وبدون أن

ترفع نظرها نحوي، قالت: "سيد غيذر، هناك شيء أريدك أن تأخذه إلى السجن غداً.

كان الحاكم قد حدد موعد الشنق بعد ظهر يوم الجمعة، في الثاني عشر من تموز/يوليو، بين الساعة الواحدة والساعة الرابعة. اعتقدت بأن الموعد الفعلي للشنق سيكون قريباً إلى الساعة الرابعة؛ الساعة المتأخرة ستمنح عائلة السجينة وقتاً للسفر إذا أرادوا ذلك، وستمكّن معظم المتفرجين من السفر إلى البلدة من أبعد أراضي المقاطعة لمشاهدة العرض. وصلت إلى السجن قبل الظهر لأجد شوارع البلدة تعج بالناس والخيول، يتحركون باهتياج مخلفين كميات كبيرة من التراب الأحمر وراءهم.

كان هناك حارس يحمل بندقية ويقف على شرفة المبنى ذي الإطار الأبيض، ولكن الرجل عرفني بمجرد رؤيتي، وأومأ بتحية، بدون أن يبدي أي اعتراض عندما مررت بجانبه. كنت أريد أن أتأكد من أن جميع الإعدادات التحضيرية لتنفيذ حكم الإعدام قد تم إنجازها، وأنه لم يتم إغفال أي جزء من التفاصيل. أظن أنني كنت آمل إلى حد بعيد أن يصل ساعي بريد خاص من رالي يمنح تأجيلاً لحكم الإعدام في اللحظة الأخيرة.

من المؤكد أن ساعي بريد قد فعل ذلك في أحلامي طوال الليالي القليلة الماضية، ولكن عندما دخلت إلى رواق السجن، كان بإمكاني أن أرى أنه لم يتبق أي أمل.

كان جون بون يبدو كبيراً وعليلاً كما لم أره من قبل أبداً. لم يتمكن من النوم طوال الأيام القليلة الماضية، حيث كانت عيناه قاتمتين من الإرهاق، وكان جلده شاحباً كلحم أفعى. سألته: "هل كل شيء على أهبة الاستعداد؟"

أومأ برأسه. "لقد تم إعداد التجهيزات. الحبل والعربة جاهزان، وسيكون جميع أفراد الشرطة حاضرين في حال حاول أي شخص التدخل في تنفيذ حكم الإعدام."

"يتدخل؟" إن فكرة الهجوم لم ترد على بالي قبل الآن. "هل تقصد عائلة ستيوارت؟"

"ربما. إنها لن تخبر عن من ساعدها في الهرب. إن المشاعر تتصعَّد بشأن الإعدام. لا يمكننا الوثوق بأحد.

لاحظت أنه كان ينظر إلى الصرّة البيضاء التي كانت تحت ذراعي، وسارعت بطمأنته أنه ليس هناك أي شيء يخشاه. "الآنسة ماري أرسلت هذه للسجينة،" قلت له. "إنها مجرد قطعة قماش. ستحتاج إلى فتحها وفحصها بدقة، بالطبع، ولكنني أعتقد بأنه يمكنني أن أضمن أخت زوجتي.

لم يبتسم العمدة جون بون. "لا يمكنني أن أترك أي شخص يتسلل إلى سجنها،" قال بصوت كئيب منخفض وهو يفتح الصرّة، ويتحسس محتوياتها بأصابعه. "يبدو الأمر صحيحاً. تقول من الآنسة ماري إيروين؟ هل تريد أن تقدم هذا لها بنفسك؟"

أومأت برأسي. "أعتقد بأنه يتوجب علي ذلك. لقد طلبت مني السيدات أن أقول لها وداعاً نيابة عنهن. لن أطيل البقاء، لو تسمح لي بالصعود الآن ورؤيتها

حسناً، أعتقد بأنها هادئة بما يكفي، بالرغم من أنها لن تتناول طعاماً. لقد كانت سارة بريسنل معها معظم الصباح، ولكنها تركتها قبل مدة قصيرة. أعتقد بأنها تقوم بإعداد الوجبة الأخيرة للسيدة سيلفر. أحسب أنها ستكون سعيدة ببعض الصحبة، لإبعاد تفكيرها عن محنتها. لقد حضر الواعظ، ولكنها لم تكن لتراه."

"ماذا عن عائلتها؟"

والدها وشقيقها هنا في البلدة، ولكن لا يمكنني السماح لهما بدخول السجن بسبب حادثة الهروب. وهي لم تطلبهما."

صعد الدرج متوقفاً على الدرجة الأخيرة لالتقاط أنفاسه. "أكره أن أرى ذلك يحدث، سيد غيذر. إنها ليست أكبر من أولادي، الفتاة المسكينة."

ربت على ذراعه. "أعلم. يجب أن نحاول تخفيف معاناتها قدر استطاعتنا."

تنحيت إلى الخلف في حين كان جون بون يفتح الباب إلى زنزانة السجينة. "زائر لك، يا فرانكي!" صاح، ثم قال لي: "سأكون في الطابق السفلي،" وعندما مر بجانبي رأيت عينيه في الضوء الخافت تغرورقان بالدموع.

ضممت الصرّة إلى صدري، وخطوت داخل الغرفة الصغيرة. "السيدة سيلفر؟ هذا بيرجيس غيذر هنا.

كان تجلس على سريرها، وعيناها متورمتان من البكاء، ولكنها كانت هادئة الآن. عندما رأتني، تراجعت نحو الحائط، وقالت بهمس: "هل آن الآوان؟"

"لا. لا يزال الوقت مبكراً بعد. سيأتي العمدة من أجلك في غضون بضع ساعات، وليس أنا. أنا أردت فقط أن أحضر لك هدية من سيدات عائلة إيروين. إنهن يرسلن إليك تحياتهن، وطلبن مني أن أخبرك أنهن سيذكرنك في صلواتهن."

"لن يحضرن لرؤيتي، إذن، يا سيدي؟"

"إنهن يعتقدن بأنه من الأفضل أن لا يحضرن، لئلا تضايقك دموعهن. إنهن يشعرن بالحزن. وقد أرسلن إليك هذه." مرة ثانية قدَّمت الصرّة، وهذه المرة أخذتها وهي تمشي بطول سلاسل قيدها، وتمد يديها لتصل إلي كما يخطو طفل صغير. أشرق وجهها عندما قبلت العرض، وفكرت في نفسي كم نحن البشر مخلوقات تعيسة لنفرح بهدايا حتى ونحن نموت. وقفت أراقب وهي تضع الصرّة على السرير وتفك الخيط الذي يربطها بعناية. وقامت بفرد قطعة القماش، ورفعتها لتنظر إليها في ضوء الشمس الداخل من نافذة زنزانتها.

"آه. سيدي،" قالت بهمس وهي تضم القماش الكتاني الأبيض إلى جسدها.

لقد أرسلت الآنسة ماري للسجينة الثوب ذا الشريط التزييني الأبيض والخيوط الكتانية البيضاء الذي ارتدته في الصيف الماضي عندما قامت الأختان إيروين بزيارتها لأول مرة في السجن. "خذ هذا إليها،" قالت لي أخت زوجتي، وهي تدفع بالصرّة بين يدي وتبتعد مع أول دموع رأيتها في حياتي تسيل على وجهها. "إنه أقل ما يمكن أن نفعله من أجلها."

تذكرت أن السيدة سيلفر الصغيرة الحجم قد أعجبَت بالثوب، وهي تلمسه بوقار كما لو كان ثوب ملكة بدلاً من كونه ثوباً عادياً للصباح لسيدة ريفية. وقد آلَمَني التفكير بأن أملها الوحيد لارتداء مثل هذا الثوب كان للحضور إلى المدينة بموجب حكم بالإعدام.

"إنه ثوب جميل،" قالت السيدة سيلفر وهي تتلمس القماش الناعم بأصابعها. "أفضل مما حصلت عليه في حياتي. هل تعني أن آخذه لي؟"

أومأت برأسي. لقد أمضت الآنسة ماري ساعة الخياطة المسائية وهي تعدّل الثوب ليناسب جسد فرانكي سيلفر الضئيل.

"لقد قمن بزيارتي، وقرأن لي قصصاً لتمضية الوقت. إنني أشكرهن على ذلك.

أومأت برأسي. "جميعنا نتمنى لو كان بوسعنا فعل المزيد.

وجهت نظرتها المحملقة إلى النافذة، وأعتقد بأنها كانت على وشك البكاء مرة ثانية، ولكنها قالت بعد برهة: "أتمنى لو يروين لي قصة الآن. الوقت يمر ثقيلاً علي، حيث ليس لدي ما أفعله، وأنا خائفة.

لم أكن أريد شيئاً أكثر من الفرار من الزنزانة الضيقة واللجوء إلى أشعة شمس تموز/يوليو في حديقة عائلة بريسنل، ولكن لم يكن بإمكاني ترك تلك المخلوقة المسكينة التائهة تفكر في موتها لوحدها. "هل حضر الواعظ لرؤيتك؟"

أومأت برأسها. "ما كنت سأراه. عندما حضر في المرة الأخيرة أردت منه أن يخبرني عن الجنة، ولكنه لم يفعل. وبقي يقول إنه ما لم أذكر جميع خطاياي، فإنني سأُحرَق للأبد. وسألني من أطلق سراحي في تلك الليلة. ما كنت سأخبره، على أي حال. هل تعتقد بأنني سأذهب إلى الجحيم بسبب ذلك، يا سيدي؟"

"لا. لا يمكنني أن أعتقد ذلك.

تنهدت. "لقد تعبت من الصلاة. اعتقد أن الرب وأنا سوف نناقش الأمر وجهاً لوجه قريباً جداً. لقد طلبت من الواعظ أن يروي لي قصة ذات مرة، وأخبرني عن اللص الطيب الذي صُلِب مع يسوع المسيح، ولكنه ذهب معه إلى الجنة.

لقد وعدت السيدات بأنني سأفعل ما بوسعي لمواساة السيدة سيلفر، وكان يبدو أنه لم تكن هناك طريقة يمكنني أن أساعدها بها. قلت: "إنني غير بارع كراوي قصص، ولكن إذا كان ذلك يريحك، فإنني سأبذل قصارى جهدي."

بحثت في ذاكرتي عن رواية ما يمكن أن تصرف الفتاة التائهة عن التفكير بموتها، وربما أن اسم عائلتها قبل الزواج ستيوارت، وبالقدر ذاته ظروفها الحالية هي التي اقترحت القصة الوحيدة التي خطرت لي. "إنها ليست قصة سعيدة،" قلت محذراً إياها، "ولكنها عن ملكة، وهي واقعية."

أومأت برأسها. "القصص السعيدة ليست واقعية غالباً." وضمت الثوب إلى جسدها، وجلست على السرير لتستمع.

"منذ زمن طويل في سكوتلندا، كانت تعيش ملكة جميلة شابة، وكان اسمها ستوارت....

"مثل اسمي.

"نعم، كان يُطلق عليها اسم ماري، ملكة سكوتلندا، وكان والدها هو الملك،

ولكنه توفي وترك العرش لها. كان يُقال إنها كانت جميلة جداً، ولكنها كانت تعيش حياة تعيسة. تزوجت من شاب وسيم يُدعى دارنلي، ولكنه تحول إلى أشلاء في انفجار وقع في مكان يُسمى كيريك أو' فيلد، وقال الناس فيما بعد إن ماري هي التي قتلته."

ماذا حدث لها؟ هل شنقوها؟"

"حسناً، لقد وضعوها في السجن في بداية الأمر." توقفت للحظة لأجمع أفكاري، وبعد ذلك رويت لها، ببساطة قدر استطاعتي، القصة الطويلة عن المكيدة بين ماري، ملكة سكوتلندا، وابنة عمها إليزابث ملكة إنجلترا.

جلست فرانكي سيلفر تستمع إلي، وهي تدلك التقرح على كاحلها حيث كانت سلسلة القيد تحك به، ولكن عينيها كانتا مفتوحتين على وسعهما، وبدا أنها انتشت بمحاولتي الحمقاء في رواية قصة عن ملكتين عظيمتين. ربما أنها للحظة أو اثنتين نسيت حتى ظروفها التعيسة، ولكن عندما اقتربت من نهاية القصة تذكرت كل شيء بوضوح.

وصلت إلى وصف قيام الملكة إليزابث بالتوقيع على أمر إعدام ابنة عمها الجميلة بعد اقتناعها بأن ماري كانت تتآمر للاستيلاء على عرش إنجلترا. "وهكذا، ولأنها اتُهمَت بالخيانة عن طريق التخطيط للإطاحة بالملكة الشرعية لإنجلترا، فقد حُكِم عليها بالإعدام."

أومأت فرانكي سيلفر برأسها.

"حُكِم عليها بقطع رأسها." وبدأت أتمنى لو أنني لم أبدأ بهذه القصة بالذات لتسلية السجينة، ولكن حيث لم يكن هناك رجوع إلى البداية، فقد اعتقدت بأنه ربما تُلهم ماري ستوارت مثيلتها السجينة للإقدام بشجاعة على المشنقة. "يقولون إنها ذهبت إلى حتفها بشجاعة. لقد أمضت الليل في الصلاة مع صديقاتها، وفي ساعات الصباح الباكر قبل الفجر، ذهبت إلى المقصلة بشجاعة الشهداء."

"ألم تصرخ أو تبكي عندما رأت السكين؟"

"الفأس. لا. لن يفيد البكاء في وقت كهذا. إنه سيسعد أعداؤك. اعتقدت ماري أنها ستكون قريبة في الجنة."

"هل كانت ترتدي ملابس بيضاء؟"

تذكرت المؤلفات التاريخية التي قرأتها، وتذكرت رؤية صورة في كتاب، ذات مرة، تُظهِر ملكة اسكوتلندا وهي ذاهبة إلى المقصلة وترتدي غطاء رأس وثوب أسود داكن على طراز عائلة تيودور. "نعم،" قلت لها، "أعتقد بأنها كانت ترتدي ملابس بيضاء.

فكرت بالأمر لبضع لحظات. "ماتت بعد ذلك؟"

"نعم."

"هل تعتقد بأنها قتلت زوجها؟"

أخذت نفساً عميقاً. "إذا كانت قد قتلته، فإنني متأكد أنها كانت آسفة جداً، وأعتقد بأنها تصالحت مع الرب قبل النهاية. لقد ماتت بشجاعة."

"لماذا لم تكن خائفة؟ أنا خائفة. لقد صليت وصليت، ولكنني ما زلت خائفة. خائفة جداً."

قبل ثلاث سنوات شاهدت شقيقي آلفرد يموت،" قلت. "لقد كان شاباً يافعاً ـ ليس شاباً في سنك، ولكن كان لا يزال في ريعان شبابه. أصيب بمرض، وعندما عرف الطبيب أن جميع الأمال فُقِدَت، اجتمعت العائلة بجانب سريره. لقد كان آلفرد يعاني من ألم شديد، على ما أعتقد، بسبب مرضه، حيث كان يتقلب في فراشه ويهذي، وبلل الشراشف بعرق الحمى التي أصابته، ولكن في النهاية ... في

اللحظة الأخيرة قبل أن تخرج روحه، أصبح هادئاً وساكناً، واستقر سلام عظيم على وجهه، تقريباً كما لو أن شخصاً ما قد سلط ضوءاً على وجهه، وابتسم لنا جميعاً ـ أو، بالأحرى، وراءنا ـ بعد ذلك رحل. لم أره أبداً أكثر سعادة."

أومأت برأسها. "ولكن ذلك سيؤلم.

"لفترة قصيرة فقط. ومن ثم ينتهي الأمر، وتخرجين إلى الجانب الآخر. أنت حرة.

أومأت برأسها. "سأرتدي الثوب، يا سيدي. أخبر السيدات بذلك. سأرتدي اللون الأبيض من أجل الذهاب إلى الجنة.

تركتها بعد ذلك، وأمضيت الساعات المبكرة من بعد الظهيرة أذرع حديقة مبنى المحكمة جيئة وذهاباً، وبعد ذلك في التدقيق في الأوراق على طاولتي، وكأنما كان عقلي قادراً على التوجّه إلى أية مسألة أخرى سوى الإعدام. بقيت قريباً من مبنى المحكمة طوال فترة ما بعد الظهيرة، حيث أردت أن يكون من السهل العثور علي. وفكرت في نفسي، *من المؤكد أن تأجيل تنفيذ الحكم بالإعدام سيصل إلي. لا بد أن يكونوا قادرين على العثور علي عندما يصل الساعي.* لقد قرأت الأمر النهائي القاطع في رسالة الحاكم، ولكن موت فتاة شابة لطيفة كان يبدو غير محتمل، حيث لم أتمكن من الامتناع عن إقناع نفسي بأنه قد يتم إنقاذها.

أخيراً تقدم عقربا ساعتي الجيب نحو الساعة الثالثة، وعرفت أنه حان الوقت لبدء المراسم. وبتردد كبير التقطت نسخة الأمر بالإعدام من بين أوراقي، حيث ينبغي أن تُقرأ على السجينة قبل اصطحابها إلى تلة دامون.

عدت إلى السجن لأجد أنه تم جر عربة صغيرة مفتوحة إلى المدخل، وكان الحارس الآن منشغلاً في إبقاء حشد ضخم من المتفرجين الصاخبين بعيداً، والذين كانوا يهتفون ويصيحون من أجل أن يبدأ تنفيذ الإعدام. بحثت عن أشعيا وابنه الكبير، ولكنني لم أتمكن من العثور عليهما في ذلك البحر من الوجوه.

عندما دخلت، وجدت أن العمدة بون كان قد أحضر السجينة فعلاً إلى الطابق السفلي استعداداً للرحيل. كانت فرانكي سيلفر واقفة هناك، ضئيلة وصامتة، ومحاطة بمساعدي عمدة مقاطعة بيرك. وكانت سارة بريسنل تحوم في الجوار، وتذرف دموعاً صامتة وهي تراقب الإعدادات.

كانت السيدة سيلفر ترتدي الثوب الأبيض الذي أرسلته إليها الآنسة ماري، وتذكرت مرة أخرى العروس، كما كنت قبل أشهر عندما دخلت السجينة قاعة المحكمة ورأسها مرفوع عالياً، وتقدمت في الممر بانتصار تقريباً. وكانت الإشارة الوحيدة على الحزن في ملابسها الحالية، هي قبعة من الساتان الأسود مربوطة بشرائط تحت ذقنها. وكانت مزينة بوردة حمراء واحدة. كنت أعلم أنه كان ينبغي خلع القبعة عندما نصل إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام، ولكن لم أجد ضرراً في تركها ترتدي ملابسها المزينة حتى ذلك الحين. كان كاحلا السيدة سيلفر لا يزالان مقيدين بالسلسلة الحديدية الضخمة، ولكن يديها كانتا غير مقيدتين ـ فضل آخر من العمدة بون، وهذا أمر استحسنته، إذ أنه لو فزعت الفتاة المسكينة وأخذت تصرخ طوال الطريق إلى شجرة الشنق، فذلك لن يؤدي سوى إلى تفاقم المشكلة بالنسبة لنا جميعاً. وقلت في نفسي، *أرجوك يا رب أبقها هادئة*.

عندئذ انتبه جون بون إلي، وقال لي: "إننا مستعدون، تقريباً."

سحبت أمر الإعدام من جيبي. "يجب علي أن أقرأ عليها الحكم،" قلت مذكراً إياه.

أومأ برأسه بنفاد صبر. "كن سريعاً في هذا إذن، يا سيدي. لننتهي من هذا الأمر، إذا كان لا بد من القيام به."

التفت إلى السجينة. "مطلوب مني بموجب القانون أن أقرأ عليك أمر القاضي بالنسبة لتنفيذ حكم الإعدام فيك. هل تفهمين؟"

أومأت برأسها. "تابع."

شعرت أن الورقة كانت تهتز عندما بدأت بالقراءة منها، وعندئذ أدركت أنني كنت ضعيفاً بقدر ما كان الباقون. ومع عدة توقفات لأخذ نفس وللسيطرة على هدوئي، نجحت في إنهاء قراءة الجمل القليلة التي أمرت بالموت شنقاً لفرانكي ستيوارت سيلفر يوم الجمعة، الثاني عشر من تموز/يوليو من سنة مسيحنا 1833.

عندما انتهيت نظرت إلى السجينة، ولكنها لم تبد أية إشارة على أنها سمعتني. واعتقدت بأن الضغط عليها أكثرمن شأنه فقط أن يزيد معاناتها، لذا فقد استأذنت منهم بالانصراف، واستدرت لأغادر.

"سيد غيذر؟" ناداني صوت فرانكي سيلفر لأعود. "هل أبدو بمظهر لائق؟"

نظرت إليها، فتاة ضئيلة نحيلة في ثوب من الكتان لم تعد صاحبته بحاجة إليه، وقبعة ذات حاشية ناتئة في المقدمة فوق شعرها الذهبي الباهت. قلت: "إنك تبدين كملكة."

بعد ذلك، أخذوها إلى الخارج، ووضعوها في مؤخرة عربة يجرها حصان واحد. علقت الأغلال التي حول كاحلها بجانب العربة، فقام أحد رجال العمدة برفعها ووضعها بلطافة بجانبها. وتحركت لتغطي ساقها المقيدة بالحديد بتنورتها، كما لو كان قطعة ملابس داخلية ناعمة. تجمّع الناس حول المكان من أجل نظرة أقرب إلى السجينة المحكومة بالإعدام، وصاح بعضهم بعبارات تشجيع، ولكنها تجاهلتهم. ووضعت يدها على فمها عندما وُضِع الحبل بجانبها، ولكن بعد لحظة هلع، عادت هادئة من جديد. وبمجرد أن قذف الشرطي اللجام، وبدأت العربة بالتحرك، هرعت سارة بريسنل على درجات السجن وهي تحمل نصف فطيرة فاكهة على صحن خشبي. لم أتمكن من فهم الكلمات التي صاحت بها فوق هدير الحشد، ولكنني رأيت أن الفطيرة كانت فطيرة توت العليق، وتذكرت أن فرانكي سيلفر كانت قد تحدثت عن عشقها لهذه الفطيرة. ومالت خارج الجزء الخلفي من العربة وأخذت الصحن بابتسامة شكر صغيرة لصديقتها الأخيرة. ذهبت إلى

حصاني المربوط، وتهيأت لأسبقهم، وأنتظر الموكب عند تلة دامون. وعندما انطلقت مبتعداً، رأيت فرانكي سيلفر تقضم الفطيرة ذات اللون الخمري الغامق، في حين وقفت سارة بريسنل عند مدخل السجن، وقد وضعت مريلتها على وجهها، وبكت.

كنت أنتظر على قمة تلة دامون عندما وصل الموكب الحزين بعد نحو عشرين دقيقة. لقد اعتقدت بأنه كان من الأفضل الوصول قبل السجينة في حال كانت هناك أي مشاكل تنتظرهم في مكان تنفيذ حكم الإعدام. لم أكن قد ترجلت بعد، حيث أن الجلوس على السرج من شأنه أن يمنحني نقطة مشاهدة جيدة لمسح الحشد بحثاً عن مثيري شغب، بالرغم من أنني لم أرَ أحداً منهم. وكان هناك حشد أكبر كذلك ينتظر وصول السجينة، وكان الجو في ذلك المرج الصيفي كجو يوم معتدل الحرارة. كان الأطفال والكلاب يركضون، ويضحكون، ويطاردون بعضهم البعض إلى الداخل والخارج بين جموع المتفرجين، وكان يوجد هنا وهناك بضع بقرات ترعى، غير متأثرة بجموع الناس التي تغزو حقلها. كنت آسفاً لرؤية عدد لا بأس به من النساء في الحشد، ولكنهن كن ذلك النوع من الإناث الكئيبات والعاديات جداً، ولم أرَ أي سيدات محترمات حاضرات. إن مناظر من هذا القبيل غير ملائمة لعيني سيدة راقية.

من بين المتفرجين رأيت رجالاً مسنين يبيعون فطائر باللحم، وكؤوس عصير التفاح بالكحول من إبريق حجري. لقد جاءت الكلمة غالا (احتفال) من كلمة غالوس (مشنقة)، والآن فهمت حقيقة تلك الكلمة التي تُستخدَم لوصف المهرجانات الاحتفالية، فمعظم أولئك الحاضرين لا يعرفون السجينة أو الضحية، ربما لا يعرفون حتى تفاصيل القضية، ولكنهم كانوا سعيدين لكسر رتابة حياتهم المملة بعرض ما، مهما كانت نتيجته مأساوية.

سقطت أشعة شمس الصيف عليّ، وأخذ الذباب يطن حول ذيل فرسي، وأدركت أنني كنت عطشاناً. ربت على جبهتي بمنديل كتاني، وأقسمت بصمت أن لساني سيصبح أسود وينفجر قبل أن آخذ عصير التفاح من هؤلاء الجراد المبتهجين مع كؤوسهم القصديرية.

وتدفق مزيد من الناس إلى المرج، وعرفت أنه لا بد أن موكب العمدة قد أصبح قريباً. رأيت جيمس إيروين يفلت من الآخرين وهو على حصانه الذي كان يخب نحوي فوق العشب، ثم قاد حصانه الكستنائي الكبير إلى جانب حصاني. "على الأقل لدينا يوم صافٍ من أجل هذا،" قال وهو يلوح بقبعته المصنوعة من القش على الذباب المتجمع. "كنت أعتقد بأن السموات بذاتها ستُفتَح أمام هذه المهزلة.

"هذا ما ينبغي أن تفعله،" قلت. "هذه المرأة لا تستحق الإعدام."

ارتفع هدير قوي من الحشد عندما صعدت العربة الخشبية على الطريق المتسخ، وتحركت بتثاقل عبر الحقل. ونقلنا حصانينا بالقرب من شجرة البلوط، لنكون على استعداد لتقديم مساعدة إذا كانت هناك حاجة لذلك. ومن قمة تلة دامون يمكن للمرء أن يرى مورغانتون بكاملها ممتدة مثل لعبة طفل بشكل قرية، وأشحت بنظري عن المشهد في المرج لأنظر إلى الشوارع المقفرة في الأسفل.

كان جيمس إيروين يراقبني، وقال: "لن يكون هناك أي راكب على حصان.

لقد كان على حق. لم يكن هناك أي منهم. لقد كانت الشوارع الترابية فارغة وساكنة كما لو كان قد حل منتصف الليل. وضاع أملي الأخير.

تم وضع العربة تحت شجرة البلوط الآن، وقام أحد المساعدين بقذف أحد طرفي الحبل فوق أثخن غصن، لقد كان زند غصن ضخم، ويرتفع حوالي اثني عشر

قدماً فوق الأرض. وقد احتاج منه الأمر محاولتين ليجعل الحبل يمر إلى الجانب الآخر من الغصن، وتحمَّل سخرية الحشد لعدم براعته، بالرغم من أنني كنت أشك في أن هؤلاء الذين سخروا منه كان يمكن أن يقوموا بذلك أفضل منه.

عندئذ وكزني جيمس إيروين، وأومأ تجاه الحشد المتجمع أقرب إلى العربة. لقد شق أشعيا ستيوارت وابنه جاكسون طريقهما إلى موقع قريب من السجينة، ولكن قام شرطي بالمرابطة بجانبهما، ولم أرَ أية علامة على وجود أسلحة. لقد رأتهما فرانكي سيلفر، ولكنها لم تقم بأية حركة لتعانق والدها أو أخاها، ولم تلن تعابير وجهها. لقد كانت غير متأثرة بالعواطف، وكذلك كانا هما.

أخذ العمدة أحد طرفي الحبل وكان يصنع الأنشوطة: سبع عُقَد وعقدة منزلقة فوقهم. كان الحبل الذي تم تليينه لا يزال مشحماً بدهن الخروف، وبقي الذباب يحط على طوله. وكان جون بون يضرب الذباب ليبعده عن الحبل، والدموع تنهمر على وجنتيه، وأعتقد بأنه أصيب بصدمة بسبب الإهانة التي تتعرض لها هذه المخلوقة المسكينة في دقائقها الأخيرة على وجه الأرض. لقد كنت سعيداً أنه هناك من بكى من أجلها.

أخيراً، كان كل شيء على أهبة الاستعداد. واندفع الناس أقرب إلى العربة من أجل رؤية أفضل، وقام رجال القانون بتفريقهم وإبعادهم مرة ثانية كذباب الربيع. سوف يريدون قطعة من الحبل كتذكار.

أمسك غابي بريسنل برسن الحصان ليثبت العربة، حيث أن الحصان كان قد جفل من تجمهر الناس من حوله.

قام كاهن، كان قد اقترب من العربة، بوضع يده على كتف السيدة سيلفر، وتحدث إليها بصوت خفيض لجوج. أعلم أنه كان يرجوها أن تعترف بخطاياها حيث أنه ربما يُغفَر لها، وتُنقَذ من نار الجحيم في الحياة الآخرة. لم تجبه، على أي

حال، وبعد لحظة بدأ بالصلاة جهراً بصوت جهوري. "أنزل رحمتك علي، أيها الرب، انسجاماً مع لطفك الناشئ عن الحب...."

"الأنشودة الواحدة والخمسين،" تمتم إيروين. "تُسمى ترنيمة تايبيرن، وذلك لأنهم كانوا يقولونها دائماً على المحكوم بالإعدام عند المشنقة في لندن.

... خلصني من ذنب القتل، أيها الرب...."

كانت فرانكي سيلفر شاحبة، وكان نفسها يأتي بغصات كبيرة، ولكنها كانت تبدو غير متأثرة بالخطبة. ونظرت إلى السماء. ربما كانت أفكارها في مكان آخر، وكانت تنغيمات الكاهن كطنين ذبابة وسط هدير الحشد.

... لأن رغبتك ليست التضحية؛ وإلا لكنت قدمتها؛ سعادتك ليست في قربان محروق على مذبح الكنيسة. قرابين الرب هي روح كئيبة؛ روح كئيبة وقلب نادم.

صاح أحدهم: "أكملوها!" وبدأ الآخرون في الحشد بالغناء.

بعد بضع لحظات ابتعد الكاهن من جانب السجينة، وصعد العمدة بون إلى العربة، وأشار إلى السيدة سيلفر لتقف. ترنحت للحظة عندما وقفت على قدميها، فأخذ أحد المساعدين قطعة من الحبل وربط يديها إلى جنبيها. وقام العمدة، الذي كان وجهه المتجعد لا يزال مخططاً بالدموع، بفك القبعة السوداء، وخلعها عن رأسها. شهق الحشد لرؤية أن شعر السجينة الأشقر قد تم قصه قصيراً كشعر الصبي، حيث لا يمكن تركه ينضفر مع الحبل، مما قد يسبب لها مزيداً من الألم، ولكن بالرغم من ذلك كان هذا إهانة أخيرة، وقد تألمت لرؤيتها تشعر بالخزي هكذا.

قام العمدة بإدخال الأنشوطة من فوق رأسها وشدَّها بإحكام، واضعاً العقدة على الجانب الأيسر من رقبتها.

"فرانسيس ستيوارت سيلفر،" قال بنغم، "من واجبي كعمدة مقاطعة بيرك،

نورث كارولينا، أن أقوم بتنفيذ حكم الإعدام الذي أصدره القاضي هنري سيوول من المحكمة العليا، وأن يتم أخذك إلى موقع تنفيذ حكم الإعدام، وفي ذلك المكان يتم الشنق من الرقبة حتى الموت. وـ" ارتجف صوته للحظة، وأخذ نفساً عميقاً، وتمكن من قول: "ولينزل الرب الرحمة على روحك. هل لديك كلمات أخيرة؟"

لم تكن قادرة على الكلام في المحكمة. وحافظت على صمتها لأشهر طويلة بعد المحاكمة. حتى أولئك القلة منّا الذين استمعوا إلى اعترافها، لم يسمعوه كله، حيث لم ترغب في الحديث عن تقطيع جثة تشارلي سيلفر، ولم ترغب في الحديث عن هروبها من سجن المقاطعة والذي باء بالفشل. لقد كانت هذه فرصتها الأخيرة. وفرصتها الأخيرة، أيضاً، لتتصالح مع الرب العظيم لعلها تُقبَل في الجنة. لقد اعترف الكثير من قطاع الطرق بذنوبهم على المشنقة خوفاً من العذاب في الآخرة. وبالتأكيد أن هذه المخلوقة المسكينة لن تفعل أقل من ذلك. أومأت برأسها، وابتعدت خطوة عن جون بون، نحو الحشد الصاخب الذي صمت فجأة حيث أنها بدأت تتكلم. "أيها الناس الطيبون... أنا...

"موتي محتفظة به داخلك، يا فرانكي!"

دوّى صوت أشعيا ستيوارت عبر المرج. لقد كانت الكلمات أمراً قاسياً، وللحظة تعلّقت هناك في الهواء، تُرجع الصدى في ذلك الصمت المُطبق، وبعد ذلك عاد هدير المتفرجين أعلى من أي وقت مضى.

ترددت فرانكي سيلفر للحظة، ومرت نظرة بينها وبين والدها. حملق فيها بوجه متجهم، وذراعين متصالبتين، بترقب. تراجعت إلى الخلف وأومأت لجون بون بأنها كانت مستعدة. كان يبكي علناً الآن، ولكنها كانت هادئة، وأود أن أفكر أن أفكارها كانت حول ملكة اسكوتلندا التي أخبرتها قصتها ذلك النهار، وكيف أن المرأة ستوارت ماتت بشجاعة وبوقار الملكة.

tele @ktabpdf

"لقد أسكتها الأب،" قال جيمس إيروين، بعد صمت مرعب. "أين كان عندما قُتل الفتى سيلفر؟"

"على بعد أميال،" أجبته. "في كنتاكي، في رحلة صيد طويلة."

"لذا لا يمكن أن يكون مذنباً. *إذن ما الذي لم يكن يريدها أن تقوله؟*"

قمت بهز رأسي. فرانكي سيلفر ستأخذ سرها إلى القبر. لقد كان صغيراً بما يكفي ليسمح لها بالاحتفاظ به.

لقد وقفت هناك ترتجف بثوبها الكتاني الأبيض، ويداها مربوطتان بالحبل إلى جانبيها. وقاموا بإسدال قلنسوة قماشية بيضاء فوق رأسها، وذلك لكي لا يتمكن المتفرجون المتلهفون من إثارة صخب أثناء نزاعها عند الموت. وقام رجل بالإمساك بطرف الحبل الذي كان متدلياً من الغصن المنخفض، مثبتاً إياه بإحكام بجذع شجرة البلوط. "لا يمكنني أن أشاهد هذا،" قال جيمس إيروين. وقبل أن أتمكن من الرد، كان قد أدار حصانه وابتعد. مر خلف الحشد، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى حدود المرج، كان الحصان الكستنائي يعدو بأقصى سرعة، وبعد لحظة اختفى عن الأنظار.

لذا بقيت وحيداً: شاهد الولاية الرسمي، هناك لرؤية أن إرادة شعب نورث كارولينا قد تم تحقيقها كما أرادها الحاكم أن تتحقق. جعلوها تقف إلى أن أصبح الحبل مشدوداً، وبعد ذلك أمسك أحدهم بلجام الحصان وقاده بعيداً، بحيث لم تعد العربة تحت السجينة. للحظة تأرجحت قدميها الصغيرتين على حافة العربة، وبعد ذلك تعلقتا في الهواء فوق عشب تلة دامون. أطلق الحشد صيحة عظيمة عندما رأوها تقاوم عند نهاية الحبل، وتتأرجح بهدوء وسط حلقة من ذباب الربيع.

وكان ينبغي علي أن أراقب.

إنني خائفة الآن. إنني أحصي أنفاسي، وأنا أعرف كم هو قليل ما تبقى لي. ولكن عميقاً تحت الرعب الثقيل كان هناك إنكار في أنه من المحتم علي أن أموت. لا يمكنني أن أرى الطريق لمغادرة هذا العالم، ولا يمكنني أن أتخيل العالم التالي. إذا كنت سأذهب إلى الجحيم، إذن أين تشارلي سيلفر؟ وإذا كنا سنجتمع في الجنة، فهل سيكون هناك صفح بيننا؟ ليقع ذلك على رأسك، يا تشارلي، لأنك أنت الذي جعل كل ذلك يحدث. أحسب أنك دفعت مقابل ذلك ثمناً باهظاً جداً، على أي حال، وإذا كان الرب قد غفر لك، فأنا سأفعل ذلك.

إنني أتساءل ما إذا كان يوجد جبال في السماء. إن الواعظ يتحدث عن مدينة الرب، ولكن حتى لو كانت مأهولة بملائكة، فإنني لا أريد أن أذهب إلى هناك. لقد سئمت الجدران. سأخيم في برية الرب حيث يكون هناك صيف دائماً. بعد ذلك سأكون حقاً في الوطن. أتمنى أنهم عندما يجعلوني أقف والحبل حول رقبتي، أن يتركوني أستدير نحو الجبال. أود أن أراها مرة واحدة أخيرة. إن طفلتي نانسي هناك فوق الجبال. لا بأس أن تنساني إذا كانت سعيدة في الأيام المقبلة. دعوها تكون سعيدة.

لا يمكنني أن أفكر بطفلتي نانسي بعد ذلك. إنني أعتزم أن أموت كجندي.

لقد كانوا قد قرروا أن يكونوا لطفاء هذا الصباح. لقد قبَّل جون بون جبهتي وقال إنه سيراني في الجنة، وأحضرت لي سارة بريسنل العزيزة فطيرة عندما كنت مغادرة في العربة. "لقد صنعت القلنسوة التي ستغطي رأسك،" همست لي وهي تضع الفطيرة في يدي. "لقد نقعتها بماء الخزامى، بحيث أنك عندما لا تعودين قادرة على رؤية أي شيء، فإنه سيبقى لديك رائحة الأزهار لتحافظي على شجاعتك. خذي نفساً عميقاً."

نعم، نفس عميق أخير. ولكن على الأقل ستكون رائحة زهور. لقد حاول

tele @ktabpdf

المحامي الشاب الجاد كذلك أن يريحني. لقد روى لي قصصاً عن ملكة كان اسمها مثل اسمي، ولكن ماذا أعرف عن الملكات وعن القلاع النائية؟ ما الذي يخبرني به هذا عن كيف سيبدو الأمر بشأن أن أموت هنا، بعيداً في مقاطعة بيرك؟ من المرعب أن لا تعرف ما هو القادم. لقد أخبرني الثوب الأبيض. ربما أن الآنسة ماري قصدت أن يكون إشارة لي، وإذا كان الأمر كذلك فقد فهمت، وبالتالي لم أعد خائفة بعد ذلك. ارتديت الثوب الأبيض النظيف، وأخيراً عرفت إلى أين كنت ذاهبة.

تذكرت ماذا كان سيحدث.

ترتدين ثوباً أبيض، وتذهبين مع أقاربك إلى مكان التجمع على ضفة النهر. يأتي الواعظ ويقف إلى جانبك. ويقول كلمات لك. ... لقد فعلت هذا من قبل... وهناك حشد كبير من الناس ليشهدوا التغيُّر فيك. ... يضع الكاهن يده على رأسك، ويغمرك في نهر الموت، وتطفين هناك بما يبدو أنه للأبد ورئتاك تنفجران من أجل غبّة هواء. في النهاية ينتهي الأمر، وعندما تصعدين إلى الأعلى من جديد، ستكونين سعيدة وحرة، ومطهَّرة. وبعد ذلك ستعيشين بسلام مع الرب. وبعد ذلك ستعيشين بسلام مع الرب.

أخيراً ـ بعد تأخر طويل ـ انتهى الأمر، لقد قتلوها. سقط رأسها الصغير فوق صدرها، وقاموا بتمديدها على الأرض في حين قام الطبيب تيت بجس نبضها للتأكد من وجود أي علامات تدل على الحياة. ولم يكن هناك أي علامات تدل على ذلك. لقد رأينا الحياة تخرج منها، بالرغم من أنها ذهبت ببطء، وكان المشهد مؤلماً جداً لدرجة أنه جعل الحشد الكبير الفظ يبكي. أتمنى لو شعروا بالأسف لمجيئهم.

لقد تم إعطاء جثة فرانكي سيلفر لوالدها وأخيها، مع القلنسوة التي كانت،

من الرحمة، لا تزال تغطي وجهها وعينيها المحملقتين ولسانها الخارج من فمها. كانت لا تزال جامدة الملامح وصامتة، قام الأب والإبن ستيوارت بلف الفتاة الضئيلة بملاءة، وقاما بتمديدها في مؤخرة عربتهما. قالا إنهما كانا يتجهان إلى الجبل لدفنها مع أهلها في أرض عائلة ستيوارت. ولكن كان شهر تموز/يوليو، والحرارة الشديدة تجعل الذباب لا يهدأ. إن أربعين ميلاً نحو أعلى الجبل هي رحلة طويلة مع جسد بلا حياة في معمعان الصيف. أعتقد بأنه لا بد أنهما قد دفناها سراً في تلك الليلة في مكان ما بجانب طريق الجبل الأصفر، ويحزنني التفكير بأنها تستلقي وحدها بعيداً جداً عن أحبائها. ولكنها في سلام الآن بثوبها الأبيض، وبعيدة تماماً عن تشارلي سيلفر، لذا، لعلها سعيدة بالرغم من ذلك. ذهبت في تلك الليلة إلى منزل جيمس إيروين وجلست بصمت بالقرب من موقده، أحتسي من البراندي الخاص به، ولم أذهب إلى المنزل حتى كنت متأكداً من أن بيلفيدير ستكون غارقة في الظلام، وأن جميع السيدات قد غططن في نوم عميق.

tele @ktabpdf

بيرجيس غيذر

فيما بعد

بعد موت فرانكي سيلفر، استمريت في وظيفتي ككاتب في المحكمة العليا لمدة أربع سنوات أخرى، انخرطت بعدها في القطاع الخاص. وازدهر عملي، وأحب أن أفكر بأن كفاءتي كان لها علاقة بنجاحي بقدر ما كان لعلاقاتي العائلية. ربما أنني لم أشعر في الواقع أبداً بأنني مرتاح في مجتمع مورغانتون، ولكنني تعلمت جيداً كيف أمثل الدور، وقد كانت هناك أوقات ابتعدت بها كثيراً بحيث نسيت أنني كنت غريباً في الطبقات الارستقراطية. لقد كانت عائلتي فاضلة بقدر ما كانت عائلتهم، ولكن الثروة لم تكن متوفرة. بعد جيلين، يستبعد شح الثروة المرء من المجتمع الراقٍ، لذا حرصت على أن أكسب ثروة حيث لدي أبنائي لأفكر بهم.

كنت أمثل مقاطعة بيرك في مجلس شيوخ الولاية في العامين 1840 ـ41، وفي نهاية تلك الفترة قام الرئيس تيلر بتكريمي وذلك بتعييني مديراً لدار صك العملات الأمريكية في تشارلوت. بعد سنتين عدتُ إلى مجلس شيوخ الولاية، وفي هذه السنة، 1851، ترشحت لانتخابات الكونغرس الأمريكي. وقد خسرت، على أي حال، لتوماس كلينغمان، لذا ربما سأعود إلى الهيئة التشريعية للولاية في السنة المقبلة، إذا كان رأي الناس الطيبين في بيرك أنه من المناسب إعادتي.

tele @ktabpdf

على الرغم من الوقت الذي قضيته في دار صك العملات في تشارلوت، وفي المجلس التشريعي للولاية في رالي، تبقى مورغانتون موطني. قبل اثنتي عشرة سنة قمت ببناء منزل صغير على شارع نورث آندرسون. إنه منزل مكون من طابق واحد وعلى الطراز اليوناني، وتم تصميمه من قِبل السيد مارش من تشارلوت، وليس كبيراً بقدر ما هو بيلفيدير، بالطبع، ولكن كان له مدخل مسقوف مزخرف رائع، ومدعوم بأعمدة محززة على الطراز اليوناني القديم، وهو ملائم جداً لمحام من سكان المدينة متواضع الإمكانيات، وليس لديه طموحات للوصول إلى الارستقراطية. سأكون سعيداً بقضاء بقية أيامي في ذلك المنزل، عندما يتم التوقف عن استدعائي لخدمة المواطنين بتقديم واجبات في أماكن أخرى.

توفي مالك الأراضي العجوز في 1837، قبل سنتين من ولادة حفيدته ديليا ابنتنا، إليزابث وأنا. والآن لدينا ابنان، ويليام وآلفرد، ليحملا اسمي راحلينا الحبيبين، ومحبوبتنا ديليا والتي هي سيدة صغيرة بكل معنى الكلمة، مثل والدتها.

كنت أرى نيكولاس وودفين من حين لآخر بعد محاكمة فرانكي سيلفر، بالطبع، حيث أننا كنا محاميين زميلين في المنطقة ذاتها، وكان لا بد أن تتقاطع طرقنا مهنياً واجتماعياً، حيث كان هو كذلك أحد أعضاء حزب الأحرار سياسياً. وقد نجح خلال السنوات منذ عرفته لأول مرة. وهو الآن قريب جديد، حيث أنه تزوج الآنسة غريس ماكدويل من كويكر ميدوز، ابنة خالة زوجتي، وبالرغم من أنهما أخذا منزلهما في آشفيل، فإننا نراهما من حين لآخر.

خدم وودفين في مجلس شيوخ الولاية في السنة التي تلت تلك التي غادرته فيها أنا، ولكن شهرته الحقيقية كانت في كونه محامياً فصيحاً. ومن خلال اتفاق ضمني لم نتكلم عن قضيته الكبرى الأولى لعدة سنوات منذ ذلك الحين. أعتقد بأنه كان يشعر بالخجل من فشله في الحصول على عفو لموكلته، وأعتقد بأنه كان حزيناً بصدق، وكان يلوم نفسه لمأساتها. ومنذ ذلك الحين، سمعت العديد من

زملائنا المحامين يعلقون على الحقيقة الغريبة لرفض نيكولاس وودفين تمثيل موكلين يمكن أن يُحكَم عليهم بالإعدام. كنت أعتقد بأنني عرفت السبب.

كان قد مر ما يقرب من عشرين عاماً على قضية فرانكي سيلفر عندما التقينا مرة أخرى في ظل ظروف أعادت إلى الذاكرة الأحداث التي أحاطت بلقائنا الأول.

في تشرين الثاني/نوفمبر، 1851، اتُهِم ويليام ويتستل آفري، محام زميل بارز، وابن أخت زوجتي، بجريمة قتل.

كان ويتستل طالباً في الجامعة وقت محاكمة فرانكي سيلفر، مما يعني أنه يصغرني بتسع سنوات، وكنت دائماً أعتبر نفسي قريباً أكبر أكثر من كوني زميلاً. لقد كان ابن أخت زوجتي الكبرى هاريت، التي تزوجت من اسحاق توماس آفري من سوان بوندز. لقد كان ويتستل الشاب، الذي سُمي على اسم جده والد أبيه، أول نائب عام لنورث كارولينا، شخصاً ذكياً ومجتهداً، تخرَّج بتفوق على صفه في جامعة الولاية في تشابل هيل. وتابع دراسة القانون مع القاضي ويليام غاستون، مما أهَّله لممارسة المحاماة في عام 1839، السنة التي تم فيها انتخابي لتمثيل مقاطعة بيرك في مجلس شيوخ ولاية نورث كارولينا. في عام 1851، في وقت محاكمته، كان ويتستل قد استكمل فترة ولاية ثانية ممثلاً مقاطعة بيرك في مجلَس العموم لنورث كارولينا، وكان يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر.

بدأت المأساة التي أدت إلى اتهامه بجريمة قتل قبل ثمانية عشر يوماً، وذلك عندما كان ويتستل آفري يجادل في قضية مدنية في المحكمة العليا لمقاطعة مكدويل. كان يمثل مقاطعة مكدويل رجل اسمه إفريم غرينلي، وهو موكل سابق للمحامي ساموبل فليمنغ من ماريون. كان غرينلي يتهم فليمنغ بالاحتيال فيما يتعلق ببعض الممتلكات المُتنازَع عليها، وخلال سياق مجادلة القضية، ألقى ويتستل آفري اللوم على سام فليمنغ في اختفاء وصية كانت تشكل دليلاً ذا علاقة بالأمر. لم أكن متأكداً ما إذا كان يجادل بأن فليمنغ كان مهملاً، أم غير

كفؤ، أم أنه تعمَّد إخفاء الوثائق المتعلقة بالموضوع من أجل كسبه الخاص، ولكن قلما يكون تفسيراً ما أفضل من الآخر عندما تكون سمعة محام ما في خطر.

اعترض فليمنغ على هذا الطعن في مهاراته كمحامٍ، حيث أنه أنكر، بالطبع، أية مسؤولية في هذا الشأن. كان فليمنغ شخصاً طويل القامة، أحمر الوجه، وله شعر كستنائي مجعد كالقش، ومزاج ناري يُصعب مجاراته. ولوح مهدداً فوق الشاب ويتستل آفري، وهو يرتجف بسخط، ويصيح أنه سيحصل على ترضية عن هذه الإهانة لكرامته.

واعتبر آفري هذا على أنه تبجح قانوني مُعتاد يسمعه المرء حيث يتم التجادل بحدة بشأنه في محاكم القانون، ولكنه هذه المرة أخطأ في الحكم على خصمه، مع نتائج قاتلة.

عندما تم تأجيل المحكمة، جمع آفري أوراقه وترك مبنى المحكمة، ولكنه عندما وصل إلى الخارج، رأى أن ساموبل فليمنغ كان ينتظره في الشارع، وهو يصيح بإهانات، ويلوح بسوط من الجلد الخام بطريقة تنطوي على تهديد، في حين لف الهواء الشمالي رداءه الخارجي من حوله، مما جعله يبدو كشيطان منتقم. هناك أولئك الذين يقولون إن هذا هو ما كان بالضبط. لم يكن سام فليمنغ غنياً بالصداقات.

لقد كان ابن أخت زوجتي آفري رجلاً ضئيل الحجم، وربما كان عنده فخر وكرامة أكثر بسبب ذلك، ولكنه لم يكن بأي حال من الأحوال جباناً، ولم يكن كذلك مواطناً عادياً من حدود كارولينا. ولم يكن لديه سبب يدعوه للخوف من زميل محام، لأنني على الرغم من أنني قلت إنه كان مواطناً من "حدود كارولينا،" فإن الأمور قد تغيرت بقدر كبير في العقدين اللذين مرا منذ محاكمة فرانكي سيلفر. صحيح أنه لم يعد يوجد سكك حديدية في الجبال، ولكن الطرق أصبحت أفضل الآن. واستمر السكان بالازدياد، ولم تعد المدن قرى ريفية صغيرة متناثرة

tele @ktabpdf

في الغابة غير المحدودة. وتم نقل الهنود عبر المسيسيبي، وكان الاقتصاد يزدهر، وكانت المنطقة الغربية لنورث كارولينا أكثر مكان ساحر وهادئ يمكن أن يجده المرء على أرض الله الخضراء. لقد كنا سادة متحضرين نخدم القانون، وجميعنا زملاء بالاحترام المتبادل الذي تمنحنا إياه مهنتنا.

لم يهتم ساموبل فليمنغ نهائياً لحرمة الأخوة القانونية، ولا للسلام في مقاطعة مكدويل. لقد كان يسعى للقتل.

لم أكن حاضراً عندما جرت المشادة الكلامية، ولكنني سمعت العديد من الروايات عنها، واتفق الجميع على أن ساموبل فليمنغ كان بذيئاً ومتهوراً في تصرفه. وعندما حاول ويتستل آفري أن يبتعد تدريجياً متجاوزاً معذبه، فقام السيد فليمنغ الساخط بإسقاط الرجل الأصغر حجماً على الأرض وقذف نفسه فوقه، ضارباً إياه ضربات متتالية عنيفة على الرأس والكتفين بحجر إلى أن أصيب بصدمة أدخلته في حالة من الذهول. وفي حين جلس ويتستل هناك في الشارع الموحل، محاولاً أن يحدد موضعه ويستعيد ثباته، فهاجمه ساموبل فليمنغ بالسوط، مؤكداً كل جلدة بلعنة.

وفي حالة ذهوله وضعفه، لم يتمكن آفري المسكين من الدفاع عن نفسه. لقد كان بالفعل أصغر حجماً بكثير، وأقل قوة من خصمه، بحيث كان من المشكوك فيه ما إذا كان قد تمكن من إعطاء تقدير لنفسه حتى لو كان لائقاً جسدياً تماماً. كان ملقى هناك في الوحل، ويداه متشابكتان أمامه ليحمي وجهه ورقبته من الضربات، في حين كان الدم من ضربات السوط على خده يقطر على معطفه الجوخ، ورصّع الوحل الذي تحته ببقع حمراء.

كنت أود أن أفكر لو أن شخصاً ما في هذا الحشد الكبير من المتفرجين قد هب لمساعدته، في حين قام مواطنون آخرون ذوو تفكير سليم بسحب ساموبل فليمنغ بعيداً، وحاولوا التحدث معه بالعقل. لم أسمع عن أي شخص يتدخل، على

أي حال، وأنا مضطر لاستنتاج أن ذلك الحشد شاهد هذا الأداء المخزي، وربما حتى قاموا بتشجيعه، بدون أي تفكير يتجه نحو إنقاذ الضحية التعيس.

في نهاية المطاف ـ بلا شك عندما نضب سيل اللعنات عنده، وتعبت يده ـ أوقف فليمنغ هجومه على ابن أخت زوجتي التعيس، ومشى بزهو، متبجحاً بالجلد الذي انهال به على الشاب المغرور الذي قد يشكك في أهليته كمحام. وتمت مساعدة ويتستل للوصول إلى منزل قريب، في حين قامت خادمة بأخذ خرقة رطبة وبذلت ما بوسعها لإزالة خطوط الطين عن معطفه وبنطاله. لم يكن قد تضرر بشكل خطير، ولكن العار والظلم في ذلك الجلد العلني تركا جرحاً عميقاً داخل ويتستل آفري أسوأ مما تتلف الغرغرينا طَرَفاً مجروحاً. في مورغانتون استهان بالجروح والكدمات، واحتفظ برأيه الخاص بشأن مشاعره تجاه المعتدي عليه، ولكن وصلنا كلام في مقاطعة بيرك عن تفاخر فليمنغ المتواصل، وجميعنا عرفنا أن الحادثة لم تنتهِ.

بعد أسبوعين من المواجهة في ماريون، كان لا يزال للسيد فليمنغ مناسبة أخرى للظهور في المحكمة، ولكن هذه المرة كان يمثل موكلين أمام القاضي كيمب باتل في مبنى المحكمة الجديد في مورغانتون. إنني أسمّي هذا البناء مبنى المحكمة الجديد بالرغم من أن عمره عشرون عاماً، ولكنني الآن في الخمسين من عمري تقريباً، والوقت لا يمر ببطء بالنسبة لي كما كان ذات مرة. لقد كان مبنى المحكمة هذا تحت الإنشاء في الوقت الذي كانت فيه فرانكي سيلفر في السجن تنتظر تنفيذ حكم إعدامها، وأذكر أنني كنت أشعر بالسعادة عندئذ بعد الأحداث المأساوية لقضية سيلفر، سنضع الماضي وراءنا ونبدأ من جديد السعي من أجل العدالة. في مبنى جديد. لقد تعلمت منذ ذلك الحين أنه ليس من السهل جداً البدء بصفحة جديدة ونسيان الماضي؛ فهناك ما يكفي من المآسي والظلم في العالم ليملأ أي عدد من المحاكم والمباني القضائية.

لقد كنت هناك عندما حدث ذلك، ولكنني أعترف أنني لم أشعر بتلميح عن المأساة التي كانت قادمة.

اقترب سام فليمينغ من الطاولة حيث كان ويتستل آفري يركّز على مسألة تتعلق بإجراء قانوني في القضية المعروضة. لا أعتقد بأن ويتستل كان قد رأى فليمنغ يقترب، فقد كان منكباً جداً على المرافعة أمام القاضي، ولكن الحادثة التي وقعت قبل أسبوعين في ماريون كانت لا تزال تعتمل في صدره، ولا بد أنه اعتقد بأن فليمنغ كان ينوي إيقاع المزيد من التعذيب به. وعندما أصبح فليمنغ على بعد ذراع، رفع ويتستل مسدساً ووجهه نحو عدوه، وقبل أن يتمكن أي شخص من الصياح في قاعة المحكمة، أو أن يحاول إيقافه، أطلق النار من السلاح من مكان قريب في قلب ساموبل فليمنغ.

مات قبل أن يتمكن أي منا من الوصول إليه، ولم يأتِ ويتستل بأية حركة ليشعر بنتائج فعلته. لقد وقف هناك بهدوء، وسلّم المسدس لمأمور العمدة، وقال بأن قد تم إرضاء كرامته الآن، وإنه كان على استعداد لأن يُحاكم على أفعاله، لأن سام فليمنغ كان ينبغي أن يُقتَل. وعندما تم طرح الحقائق في حضور هيئة محلفين، اعتقد ويتستل بأن العدالة ستأخذ مجراها. اقتادوه إلى الخارج، وأخذوه إلى السجن كإجراء شكلي، ولكنه خرج منه بكفالة قبل حلول المساء. انضممت إلى مجلس العائلة في بيلفيدير لوضع خطة لاستراتيجية الدفاع عن ابن أخت زوجتي.

تم عقد المحاكمة في تشرين الثاني/نوفمبر، 1851، بعد أسابيع قليلة فقط من الحادثة. لم يكن ويتستل ليرزح في السجن لأشهر بانتظار الحكم، كما فعلت فرانكي سيلفر المسكينة. لم يكن فقيراً ولا بلا أصدقاء. وعندما حل اليوم الذي سيمثل فيه ويليام ويتستل آفري أمام المحكمة في مورغانتون ليدفع ثمن موت ساموبل فليمنغ، تم تمثيله من قِبل أربعة أعضاء من المحامين، جميعهم سادة يمكنه

اعتبارهم أصدقاء، وجميعهم محامون مميزون، إن جاز لي أن أقول ذلك بدون تفاخر، حيث أنني كنت واحداً منهم.

وكذلك كان نيكولاس وودفين. لقد عرفته الآن أفضل مما عرفته طوال تلك السنوات الماضية، عندما دافع عن فرانكي سيلفر، كمحام حديث العهد. والآن كان يُعتبَر واحداً منّا، ونسيباً من نوع ما، حيث أنه تزوج من إليزا غريس منذ اثني عشر عاماً الآن.

العضوان الآخران من المحامين كانا حتى رجلين أكثر شهرة في الحكومة، وربما أنه تم اختيارهما بسبب رفعة مكانتهما أكثر من مهارتهما. كان السيد تود ر. كالدويل، والجنرال جون غري بينوم من رذرفوردتون كليهما محاميين، ولكن كلاهما اكتسبا تميزاً في المجال السياسي أكثر من قاعة المحكمة.

كان تود كالدويل اسكتلندياً نُفي جده من الوطن في تمرد عام 1798. وكان والده صاحب متجر في مورغانتون، وعمل تود الشاب، الذي كان أصغر بسنة أو اثنتين من ابن أخت زوجتي ويتستل آفري، كاتباً في مؤسسة والده قبل أن تقوده موهبته و طموحه إلى الخارج للدراسة في جامعة نورث كارولينا. ودرس في الوقت ذاته القانون على يد ديفيد لوري سوين، وأصبح أول شخص على الإطلاق يتخرج من الجامعة ويحصل على إجازة لممارسة القانون في وقت واحد. بعد ذلك انخرط في ممارسة القانون في مورغانتون، داخلاً المجال السياسي قبل حوالي عشر سنوات، وذلك عندما انتخبته المقاطعة ليخدم في مجلس عموم نورث كارولينا مع ممثلينا الآخرين في المقاطعة، السيد أو. جيه. نيل، ووليام ويتستل آفري. وقد كان الشابان صديقي، وخصمين طوال حياتهما، حيث أن مدينة مثل مورغانتون كانت بالكاد كبيرة بما يكفي لتحوي أسدين مثلهما كما لو كانا في قفص. وكثيراً ما اعتقدت بأنه سينتهي الأمر بأحدهما بأن يكون حاكماً. ولم أفكر بأن الآخر سينتهي به الأمر على المشنقة.

"هل يجب أن يكون له أربعة محامين؟" قلت لوودفين عندما اجتمعنا كلنا قبل بضعة أيام من المحاكمة.

ابتسم نيكولاس وودفين. "لا يوجد أحد حذر ـ أو خائف قانونياً ـ مثل محام يجب أن يواجه محاكمة من قِبل هيئة محلفين.

قلت: "أظن أن ذلك من أجل الاستعراض بشكل أساسي. ليثبت لهيئة المحلفين أن أكثر المواطنين شهرة في غربي نورث كارولينا يقفون وراء ويتستل في ساعة محنته.

"على الأغلب ذلك هو الأمر،" قال وودفين موافقاً. "أعتقد بأنني سأقوم بمعظم عمل إلقاء الخطابات حيث أنني أتمتع بالخبرة الأكبر في المحاكمات."

"لقد صنعت لنفسك اسماً حقاً في قاعة المحكمة منذ أول مرة تقابلنا فيها،" قلت له. "إننا جميعاً سعداء أنك تقدم استثناء لقرارك بشأن عدم الظهور في قضايا عقوبتها الموت.

أومأ وودفين برأسه. "ويتستل من العائلة، كما أنه صديق وزميل،" قال يذكرني بذلك. "إضافة إلى ذلك، أنا، في الواقع، لا أعتبر هذه قضية عقوبتها الموت."

"لقد أطلق ويتستل النار على الرجل علناً في المحكمة. لقد رأيت ذلك. لم تكن مبارزة. لا أعتقد بأن فليمنغ رأى السلاح حتى. ولكن، بالطبع، كأحد محامي ويتستل، لا يمكنني أن أدلي بشهادتي.

ابتسم نيكولاس وودفين. "كذلك لا يمكن لويتستل أن يفعل، حيث أنه المتهم، ولكن، مما سمعت، كان هناك شهود كثر على حادثة الجلد بالسوط في ماريون. أعتقد بأنه يمكننا أن نبرهن لهيئة المحلفين أن سام فليمنغ كان يستحق القتل."

"ولكن لماذا لم يتحدّ الرجل في مبارزة؟" سألت. "الرب يعلم أنه هناك سابقة من هذا النوع في العائلة. فقد دخل جد ويتستل، والمسمّى على اسمه، في شجار مثل ذلك تماماً مع محام زميل في تينيسي. واتفقا على المبارزة، وعندما حان الوقت لمعركة الشرف، أطلق كل رجل النار بحذر فوق رأس الآخر. وتركا الميدان وهما من أفضل الأصدقاء ـ أو هكذا تقول العائلة."

بدا وودفين مستغرقاً في التفكير. "من كان المحامي الآخر؟"

"آندرو جاكسون.

"هذا ما اعتقدته." ابتسم وودفين. "حسناً، لقد كان ذلك منذ زمن بعيد، يا صديقي، وكان هناك عمالقة في تلك الأيام، ولكن هنا في عام 1851، لقد تم إعطاؤنا مهمة الدفاع عن رجل كان خصمه أقل نبلاً واحتراماً من آندرو جاكسون. جلد زميل في شارع عام! أيعقل ذلك!"

"وأنت تعتقد أنه يمكنك إطلاق سراحه، بالرغم من مرور أسبوعين بين الحادثة والانتقام؟ وبالرغم من عشرات الشهود؟"

"بالطبع يمكنني ذلك،" قال وودفين، "لا ينبغي إعدام أحد عندما تكون جريمته قد ارتكِبَت دفاعاً عن شخصه أو عن كرامته.

"أتمنى لو أنك تمكنت من إقناع هيئة المحلفين بذلك قبل عشرين عاماً،" قلت بتنهيدة. لقد كانت ملاحظة وقحة، على ما أظن، ولكنني كنت منزعجاً لطرح قتل ساموبل فليمنغ على أنه عمل مبرَر. وكذلك، كانت ذكرى فرانكي سيلفر قد خطرت بشكل كبير على بالي في تلك الأيام القليلة الماضية، وخرجت كلماتي قبل أن أتمكن من إرجاعها.

رمقني وودفين بنظرة فاترة. "قبل عشرين عاماً؟"

"في قاعة المحكمة هذه ذاتها. خسرت قضية الحكم بالإعدام تلك، واحسرتاه.

"يا إلهي، نعم. السيدة سيلفر الصغيرة،" تنهد وودفين. "لم أنسها. أتمنى حتى هذا اليوم لو تمكنت من إنقاذها. لقد كنت في تلك المحاكمة، كذلك، أليس كذلك، يا غيذر؟"

أومأت برأسي. "كنت كاتب المحكمة العليا في تلك الأيام."

"وتوم ويلسون العجوز كان المحامي المساعد لي. لقد تخيلته دائماً كهجين تعيس بين غراب وفزاعة. ماذا حل به، على أي حال؟ لقد اعتقدت بأنني لا بد أن أراه هنا."

ترددت. "إنه لم يعد يعيش في مقاطعة بيرك،" قلت أخيراً. "لقد أخذ عائلته إلى تكساس."

"حقاً؟ كم مضى على ذلك؟"

"بضعة أشهر فقط."

"توماس ويلسون ذهب إلى تكساس؟ في هذا العمر؟ كم كان عمره، سبعون؟"

"ستون فقط، على ما أعتقد،" قلت، كما لو أن ذلك جعل الأمر أقل غرابة بالنسبة لمحام كبير بالسن أن يذهب إلى منطقة نائية.

"ولكنني اعتقدت بأنه كان سيمارس المحاماة هنا في مورغانتون لفترة طويلة جداً،" قال وودفين معترضاً.

"عشرون عاماً أو نحوها. نعم."

"وبالتأكيد أنني على صواب في تذكر أن زوجته ترتبط بعلاقة ما مع عائلة إيروين أصحاب بيلفيدير؟"

"إنها ابنة أخ ماتيلدا إيروين." وتجنبت النظر إلى وودفين وأنا أجيب، ولا بد أنه أدرك أنني كنت أقل استعداداً للحديث عن موضوع مغادرة توماس ويلسون المفاجئة. وقد كان يراقبني بانتباه.

قال: "إذن، توماس ويلسون تخلى عن عشرين عاماً من ممارسة القانون، وعن مزرعة خصبة بالقرب من أقاربه ذوي النفوذ. وفي عمره المتقدم هجر حكومة كارولينا ليذهب ويبحث عن ثروته في تكساس. هل يعتقد بأنه سيحظى بمستقبل سياسي هناك في الحكومة الجديدة في أوستن، الآن وقد أصبح الإقليم ولاية؟"

"لم يذهب إلى أوستن،" تمتمت. "في الواقع لا أعرف شيئاً عن الأمر."

لقد كان نيكولاس وودفين محامياً ممتازاً. من المؤكد أنه كان ماهراً جداً في استجواب شاهد الخصم ليدع هذا التعليق يمر، بصرف النظر عن كم حاولت أن أقولها بشكل غير متعمد. "عائلة ويلسون *لم* يذهبوا إلى أوستن؟"

"لا "

"إلى أين إذن؟"

"أعتقد بأن زوجتي استلمت رسالة من السيدة ويلسون قبل بضعة أسابيع. يبدو أن العائلة استقرت في مكان صغير يُدعى سيغوين."

"أين يوجد ذلك المكان بحق الرب؟"

"يقولون إنه بالقرب من سان أنطونيو حيث جرت معركة آلامو."

"سيغوين،" كرر وودفين، وهو يبحث في ذهنه عن حلقة مألوفة لهذه الكلمة. ولم يجد واحدة. "هل هو منتجع صحي من نوع ما؟ مقو ومجدد للصحة؟"

"لا. لا يحتوي على ينابيع معدنية. ويقال إنه مكان جاف."

تأمل في هذا. "بلد مناجم ذهب؟"

"لا أعتقد."

"قطع أراضٍ تمنحها الحكومة للمستوطنين من السادة؟"

"ليس على حد علمي. لا."

"هل يمارس المحاماة، إذن؟"

"أعتقد بأنه يفعل ذلك. بالتأكيد. لم أسمع خلاف ذلك." بحثت عن موضوع آخر لأصرف انتباه زميلي عن استجوابه. حتى الحديث عن ورطة آفري بدأ يبدو مفضلاً أكثر لنقاشنا الحالي.

"أعتقد بأنه من الصعب ممارسة المحاماة في تكساس،" قال وودفين. "ينبغي على المرء أن لا يعرف فقط قانون الولايات المتحدة، حيث أصبح الإقليم الآن ولاية. إذ ينبغي على المرء أن يناقش الأعمال القديمة من القضاء الفرنسي، وكذلك القانون المكسيكي القائم على أساس النظام الاسباني. وينبغي أن يشكل تحدياً كبيراً بالنسبة لشخص متقدم في العمر لم يمارس المحاماة أبداً خارج حدود نورث كارولينا.

لم يكن لدي جواب على هذا.

مال وودفين إلى الخلف ليراقبني حيث أنه أطال فترة الصمت، بحيث يكون لدي متسع من الوقت لأتأمل في سخافة عباراتي. لماذا يجب بالفعل أن يترك رجل في حوالي الستين من عمره مزرعته وممارسته للمحاماة لمدة عشرين عاماً، ليذهب إلى قرية نائية في تكساس، مبعداً ولده الوحيد عن فرصة التعلم في الجامعة؟ لو كنت مواطناً عادياً على منصة الشهود، فإنني كنت سأنفجر بالشرح، وذلك ببساطة لمجرد إنهاء الإحراج في اللقاء. ولكنني أنا، أيضاً، محام. ربما أنني لست محامي المحاكمات المحنك مثلما هو وودفين، ولكنني أتمنى أن أتمكن من الاحتفاظ برباطة جأشي في النقاش مع نظرائي.

"حسناً، لقد رحل سعياً وراء حياة جديدة،" قلت بحماس قدر استطاعتي.

"هناك مثل سمعته في السنوات الأخيرة،" قال وودفين بتأمل. "بعض الرجال يصلون إلى مرحلة من حياتهم يذهبون فيها إما إلى الجحيم أو إلى تكساس.

نجحت في إظهار ابتسامة ضعيفة. "إنني متأكد أننا جميعنا نتمنى للسيد ويلسون توفيقاً في مسعاه الجريء الجديد."

أومأ نيكولاس بتأمل، حيث أنه أدرك الآن أنني كسيد محترم لم يكن بإمكاني أن أكشف أسباب توماس ويلسون لمغادرة مورغانتون.

"نتمنى له حظاً طيباً، فعلاً،" ردد وودفين. "وكذلك ينبغي عليك أن تتمنى له، يا سيد غيذر، حيث أنه سيكون بحاجة إليه كله، وأكثر، على ما أعتقد."

بحثت عن موضوع آخر لصرف انتباه زميلي عن مزيد من التساؤلات عن عائلة ويلسون. "هل تتذكر جاكسون ستيوارت، الأخ الأكبر للسيدة سيلفر؟"

"أتذكره،" قال وودفين. "لقد حملق فيّ من مسافة عشرة أقدام طوال المحاكمة. لقد كان في كنتاكي مع والده عندما وقعت الجريمة، أليس كذلك؟ ماذا حل به؟ لم يُعدَم، أيضاً؟"

ابتسمت. "يسرني أن أقول على العكس تماماً من ذلك. إنك تذكر أنه كانت هناك مقاطعة جديدة تم اقتطاعها من الجزء الغربي من بيرك. وتُسمى مقاطعة يانسي. قام جاكسون ستيوارت بترشيح نفسه لمنصب العمدة هناك."

"لم أتوقع أن أسمع ذلك.

"ويقولون إنه يحظى بفرصة جيدة للفوز، أيضاً. إنه مشهور ومحبوب جداً في المقاطعة. من الغريب أن تذكر الشنق، على أي حال، يا وودفين، حيث أنني سمعت أن الشقيق ستيوارت الآخر ـ الأصغر سناً الذي تم اعتقاله مع والدته وشقيقته ـ قد أعدم شنقاً كلص خيول في كنتاكي. ربما يكون ذلك ثرثرة، بالطبع، ولكن يقسم أحد شرطة يانسي أن جميع أفراد عائلة ستيوارت كانوا ملعونين."

ابتسم وودفين على هذه المغالاة بالخرافات. "ملعونين؟ كيف ذلك؟"

"لقد ماتوا جميعهم موتات عنيفة، على ما يبدو. الأب ـ أشعيا ستيوارت ـ

قُتِل أثناء قيامه بقطع شجرة. تهشّم. وبعد بضع سنوات من ذلك، كانت باربرا ستيوارت، أرملته، في الخارج تلتقط العليق، فلدغتها أفعى ذات أجراس. وقد قيل لي أنها ماتت موتة رهيبة."

"إن التسمم بلدغة أفعى يكون بطيئاً ومؤلماً. لست متأكداً من أنني لن أفضل حبل الجلاد،" قال وودفين. "أظن أن الناس على التلال يعتقدون بأن اليد الإلهية قد قضت على عائلة ستيوارت بسبب دورهم في القتل؟"

"أعتقد بأن بعضهم يعتقدون ذلك،" قلت، "ولكن لم أكن لأتفق معهم. إن الحياة صعبة على الحدود. هناك عدة طرق لتدرك موتك قبل أن تستسلم للشيخوخة."

"ألم يكن للسيدة سيلفر طفلة؟ هل شعرت هي كذلك بغضب الانتقام الإلهي؟"

"لا أعتقد ذلك. لا بد أن الفتاة الصغيرة في الواحدة والعشرين اليوم، أو ما يقارب ذلك، على ما أذكر. أعلم أنها عاشت لتكبر. بعد أربع سنوات من إعدام والدتها ظهرت عائلة ستيوارت في المحكمة هنا في مورغانتون، مقدمين التماساً من أجل حق حضانة الطفلة."

تذكرت المشهد الحزين في قاعة المحكمة. لقد كانت الطفلة الصغيرة صورة مصغَّرة عن والدتها، بثوب قطني منقط، وشعر ذهبي باهت ينسدل من تحت قبعة صغيرة. عيناها الواسعتان المضطربتان اللتان كانتا تحدقان في الأغراب بدون خوف أو استحسان. كانت تتشبث بيد واحدة من أخوات تشارلي، ولكنها جلست ساكنة وهادئة طوال جلسة الاستماع القصيرة، بالرغم من أنني متأكد أنها لم تفهم أي شيء منها. ربما لو أنها فهمت لما كانت استمعت بهدوء للمرافعات بشأن مصيرها. لقد قامت عائلة سيلفر بتربية الطفلة منذ الوقت الذي تم فيه أخذ والدتها إلى السجن، ولا بد أنه كان من الصعب عليها أن تؤخذ من

المنزل الوحيد الذي عرفته. أتمنى لو أنها قامت بزيارات جيئة وذهاباً بين العائلتين لبقية فترة طفولتها، حيث أنني أعلم أن العائلتين كانتا تعيشان قريباً من بعضهما البعض.

"هل تمت الموافقة على التماس حق الحضانة؟" سأل وودفين.

"آه، نعم. مع الشروط المعتادة. يجب أن يتم تعليم الطفلة القراءة، وفي عيد ميلادها الثامن عشر كان لا بد أن تحصل على سلع مادية معينة، وما إلى ذلك. وقد سنحت لي فرصة للتحدث إلى جاكسون ستيوارت ذات مرة في اجتماع سياسي، وذكر أن ابنة أخته قد تزوجت."

"من رجل شجاع، بلا شك،" قال وودفين بضحكة خافتة. ثم تنهد. "لقد كان ذلك جوراً مني. لا أحد يعرف أفضل مني أن والدة الطفلة أعدمت ظلماً. أتمنى خيراً للإبنة."

"ربما نتمنى أن تكون قد اختارت زوجاً بشكل أفضل مما فعلت والدتها.

"ذلك هو الأمر، بالتأكيد،" وافق وودفين. "أتعلم، على أي حال، أن تلك القضية لا زالت تلازمني. لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أنه لو كانت السيدة سيلفر قد عرفت المزيد عن حقوقها بموجب القانون، أو لو كانت قادرة على القراءة، حتى، فربما كان قد تم إنقاذها."

"دع الأمر،" قلت له. "لقد بذلت ما بوسعك في ذلك الوقت."

ابتسم. "إنني أكفّر عن ذنبي بطرق بسيطة. لقد دفعت نقوداً من أجل تعليم فتيات وصبيان معوزين، وجزء لا بأس به من رواتب أكاديمية آشفيل للإناث

tele @ktabpdf

مدفوعة من قِبلي. لا أريد أبداً أن تموت امرأة شابة أخرى لأنها كانت أميّة. إنني أنظر إلى بناتي الآن، وأفكر في تلك المخلوقة الصغيرة المسكينة التائهة.

كنت مسروراً لسماع أن وودفين يقوم بأعمال خيرية ليخفف من ندمه على القضية الأولى الخاسرة له، ولكنني تساءلت سراً ما إذا كان التعليم الجيد قد أنقذ امرأة من رجل متوحش في أي وقت. هناك نساء محترمات من أقاربي نصيبهن في الحياة أفضل بقليل من نصيب فرانكي سيلفر، بالرغم من كل الحرير وشرائط الزينة التي لديهن.

جرت محاكمة ويتستل آفري في يوم جمعة قاس في أواخر الخريف، أمام القاضي كيمب باتل في المحكمة في مورغانتون. لم يرزح في السجن، وقد تم استدعاؤه للمحكمة يوم الأربعاء، وتمت إعادة قرار هيئة المحلفين الكبرى يوم الخميس، وذهبنا إلى المحاكمة يوم الجمعة.

تكلم نيكولاس وودفين كمحامي دفاع. وجادل أولاً أنه على الرغم من أنه مر ثمانية عشر يوماً بين المواجهة الأصلية والقتل، فإن انتهاك حرمة القانون بالاعتداء الذي ارتكبه فليمنغ كان فادحاً، وكانت معاناة وإذلال آفري كبيرين، حيث أن انفعالاته لم تبرد، وبالتالي فإن إطلاقه للنار على الضحية لم يكن أكثر من قتل غير عمد.

"حسناً، سوف أرفض ذلك،" أعلن كيمب باتل، ورمق وودفين بنظرة تقول: *اللعنة على وقاحتك*. "تؤمر هيئة المحلفين باعتبار الجريمة على أنها جريمة قتل، وليس قتلاً غير عمد، إذا تبين أن المتهم كان سليماً عقلياً وقت وقوع الحادثة."

عند سماع تلك الكلمات، غيّر نيك وودفين موقفه بسلاسة مثل سفينة يانكي شراعية سريعة. "ولكن بالطبع لم يكن السيد آفري سليماً عقلياً حينئذ،" قال

معترضاً. "كيف كان يمكن أن يكون سليماً عقلياً؟ لقد تعرض لإيذاء جسدي وروحي باعتداء جبان على شخصه من قِبل السيد فليمنغ في شارع عام في ماريون.

لقد جن جنونه من الخزي والغيظ. لقد كانت كرامته ذاتها في مهب الريح." لقد كان هناك الكثير من هذا خلال الصباح. وتم استدعاؤنا جميعنا، السيد كالدويل، والسيد بينوم، وأنا، لنضيف أقوالنا إلى أقوال وودفين، ووقفنا جميعنا وقلنا نفس الكلام إلى حد كبير؛ ويتستل هو من ألطف الرجال؛ وبالتأكيد أنه جن من الظلم الذي لحق بكرامته وشخصه؛ إنه آسف جداً لذلك الآن. أعتقد أنه القاضي باتل ربما رأى حججنا المعقولة على أنها تمويه لوصمة جُرم صديقنا. لقد استمع إلينا بصمت بوجه متجهم، ولكنه محتقن بالدم. وبالرغم من ذلك، لم يكن الأمر يعود إليه ليقرر مصير ويتستل آفري، فهناك اثنا عشر محلفاً، جميعهم رجال من مقاطعة بيرك معروفون لويتستل، بمجرد الرؤية على الأقل، للحكم في قضية القتل.

أخذ وودفين يلوح ويصيح، معظّماً من الإهانة في الجلد العلني، وبعد ذلك جاعلاً طبقة صوته منخفضة وثابتة كالهدير عندما تحدث عن الغضب الملتهب الذي تلا ذلك، وعن الخزي الذي شعر به ويتستل آفري عندما أخبره أصدقاؤه أن فليمنغ كان يتفاخر بفعلته القذرة. أي خيار كان أمامه سوى غسل اسمه بدم معذبه؟

كان خطاباً مثيراً. لقد فقد المسرح عملاقاً عندما اختار نيك وودفين القانون بدلاً من المسرح كمهنة له. كان بإمكاني رؤية المحلفين وهم يراقبون بأعين مفتوحة على اتساعها عندما ارتفعت درجة الأداء، ولم يكن لدي أدنى شك في أنه لو كان من عائلة بلانتاجينيت الملكية، بدلاً من محام ريفي، فإن وودفين كان سيجعلهم يغزون فرنسا بقوة كلماته. لقد اكتسب الكثير من المهارة والأسلوب منذ تلك الأيام التي عرفته فيها للمرة الأولى.

أخيراً، ارتأى أن المحلفين قد سمعوا بما فيه الكفاية. ونهض محامي الادعاء مرة ثانية وحاجج أن إطلاق النار على رجل بدم بارد في حرمة قاعة المحكمة، أمام عشرات الشهود، كان جريمة قتل، بحق الرب، وماذا يمكن أن تسميه غير ذلك؟ وقد أقر محامي الحكومة أن ويتستل كان ثرياً، وله صلات جيدة، ويتمتع بفصاحة أصدقائه الذين وقفوا هنا الآن للدفاع عنه، ولكن، أياً كان الأمر، فإن آفري قد عيّن نفسه ـ بغطرسة الأثرياء ـ قاضياً وجلاداً على زميله المحامي. هل سيسمح له مواطنو مقاطعة بيرك الشرفاء بأن يفلت من العقاب؟

انسحبت هيئة المحلفين، في وقت مبكر من بعد الظهر، للمداولة بشأن المسألة. وشاهدت الرجال الاثني عشر يمشون في رتل خارج قاعة المحكمة. "أعتقد بأنه ينبغي علينا أن ننتظر في الحانة،" قلت بتفاؤل لزملائي المحامين، حيث أنني شعرت بحاجة ماسة لتغيير الجو.

ابتسم السيد بينوم. "لماذا لا ننتظر نصف ساعة بحيث يمكن لويتستل الانضمام للحفلة؟"

"ولكن بالتأكيد ـ"

أومأ وودفين برأسه موافقاً. "ما لم أفقد حدسي، فإنه ليس لدينا وقت لمغادرة المبنى. لا بد أن يعود أعضاء هيئة المحلفين خلال ساعة."

عادوا خلال عشر دقائق. وأثناء دخول المحلفين، تبادل زملائي نظرات ارتياح، وكأنما سرعة الحكم كانت إشادة بمهاراتهم في الخطابة، ولكنني كنت لا أزال غير مقتنع بأن الحكم سيكون حكماً إيجابياً، حيث أنني رأيت بنفسي إطلاق النار يقع، ولم يكن بإمكاني أن أدعو قتل رجل أعزل "دفاعاً عن النفس،" بصرف النظر عن الاستفزاز الذي حدث قبل عدة أسابيع.

tele @ktabpdf

"هل توصلت هيئة المحلفين إلى حكم؟" سأل القاضي باتل بلهجة أظهرت مفاجأة برؤيتهم من جديد سريعاً.

"توصلنا، يا حضرة القاضي." وقام رئيس الهيئة بتسليم قصاصة ورقية لحاجب المحكمة الذي حملها إلى باتل.

"ليقف السجين."مكتبة الرمحي أحمد

نهض ويتستل على قدميه، ووقف هناك بهدوء بالغ، ولكنني لاحظت أنه كان يمسك حافة الطاولة بيديه الاثنتين. حتى أكثر الرجال ثقة ينبغي أن يدركوا أن هيئة المحلفين هي مخلوق نزوي. ولا أحد يعرف هذا أفضل من المحامي.

تأمل القاضي كيمب باتل في الكلمات لدقيقة تعذيب قبل أن يرفع نظره ليعلن: "تجد هيئة المحلفين المتهم غير مذنب." وتوقف هنا كأنما كان يريد أن يقول المزيد، ولكل بدلاً من ذلك هز رأسه وتنهد. "سيد آفري أنت حر في المغادرة. تشكر هيئة المحلفين على وقتهم.

عاد اللون إلى وجه ويتستل، وحرر قبضته التي كانت ممسكة بالطاولة. وضرب تود كالدويل خصمه القديم على ظهره وهو يصيح: "لقد نجحنا!" عندما أحاط حشد من المهنئين بطاولة الدفاع. وتُركَت كلماتي بالتهنئة غير معبَّر عنها، وأعتقد بأن هذا الإغفال مر بدون ملاحظة من قِبل ابن أخت زوجتي ومؤيديه.

جمعت أوراق ملاحظاتي من المحاكمة، وذهبت عكس تيار حشد المتفرجين، طلباً للهواء الطلق. لقد كان ذلك اليوم قارساً وباهتاً، مع زخات خفيفة من المطر، وهبات من رياح باردة قادمة من الجبال، كما لو كانت تهب لتزيل آخر أوراق الخريف في أعقابها. وبالرغم من البرد والرطوبة، فقد تحديت الظروف الجوية بجانب حديقة مبنى المحكمة، بعيداً عن أنظار الناس عند المدخل الرئيسي، الذي

سيخرج منه المتفرجون والمحتفلون. كنت أفكر في جون بون، مات منذ خمسة عشر عاماً. وفي جميع المحاكمات التي جاءت وذهبت منذ وصولي إلى مورغانتون.

وللتو سمعت صوت وقع خطوات تقترب من خلفي، والتفت لأرى نيكولاس وودفين بردائه الأسود الواسع يتجه نحوي. "لقد انتصرنا،" قال مبتسماً.

"نعم،" قلت.

"إننا ذاهبون إلى الحانة الآن، كما اقترحتَ، للاحتفال بحكم هيئة المحلفين الصائب، وسأراهن على أن صديقنا القديم سينفق هناك أكثر مما كلفه الدفاع عنه. تعال معي."

قمت بهز رأسي. في مزاجي الحالي، كان قش الحديقة البني بجوار مبنى المحكمة ملائماً لي أكثر من منظر العربدة في الحانة. وقلت: "سأنضم إليكم لاحقاً."

"لست مسروراً؟ لويتستل مستقبل سياسي كبير. وقد أنقذناه."

"لقد فعلنا ذلك،" قلت، والتفتُ مبتعداً، وتركته يحملق ورائي. كانت الأوراق الجافة تخشخش تحت قدمي، وخدَّرت الريح الشمالية وجهي حتى لم أعد أشعر بشيء على الإطلاق.

وهكذا أطلق سراح ويليام ويتستل آفري. لقد أنقذناه ـ لاثني عشر عاماً أخرى، على أي حال ـ وقد استغلها جيداً. فقد خدم فترتين في مجلس شيوخ الولاية، وأصبح أباً لثلاثة أطفال مع زوجته ماري كورينا، التي كانت ابنة حاكم. ولكن الكتاب المقدس يقول إن من يسفك الدم، يُسفك دمه من قِبل الآخرين.

وفي حالة ويتستل آفري، كان الرد على مقتل ساموبل فليمنغ في حزيران/يونيو، 1864 بوابل من الرصاص، في مكان يُطلق عليه اسم الأدراج اللولبية، حيث ترتفع الجبال على بعد أقل من عشرين ميلاً غرب مورغانتون. هناك تم مباغتة جيوش النظام الكونفدرالي الأول لنورث كارولينا من قِبل مغيري كيرك، والفدراليين من تينيسي، وأصيب ويتستل آفري بجروح في المصادمات. وتوفي متأثراً بتلك الجروح في 3 تموز/يوليو، 1864، وكنت آمل أن أحزن بصدق لموت جندي شجاع، كأي شخص في ذلك اليوم في باحة كنيستنا المشيخية.

أثناء وقوفي هناك في أشعة الشمس المتلونة في المقبرة القديمة، وأنا أقدم آخر أمنياتي، اعتقدت بأنني كنت أقف في دائرة ضوء دائمة التقلص. لقد ماتت عزيزتي إليزابث، وفي العام الماضي قمنا بدفن شقيقتها الشجاعة الآنسة ماري في الأرض في بيلفيدير. كثير من الناس الشجعان غادروا هذا العالم، وكنت أشيخ وحيداً.

عندما أنزلوا تابوت ويتستل داخل الأرض، سمعت طنين الذباب حول رأسي، ولم أتمكن من منع نفسي من التفكير "بجندية صغيرة شجاعة" أخرى ماتت في تموز/يوليو، منذ سنوات عديدة مضت، ودفنت في أرض غير مقدسة في مكان ما فوق الجبل، غير محزون عليها، ومنسية. أتمنى لو كان بإمكاني أخذ وردة واحدة فقط من أكوام الورود على تابوت ويليام ويتستل آفري، وأن أضعها على قبر فرانكي سيلفر.

tele @ktabpdf

الفصل الثامن

أريد أن أريك قبراً،" قال العمدة.

ثلاثة حجارة وقفت وحيدة في مقبرة الجبل الصغيرة: بقايا صغيرة من حجر الغرانيت، تبعد عن بعضها بمسافات متساوية تصل إلى حوالي أربعة أقدام. ولم يكن منقوش أي شيء على شواهد القبور، وقد تآكلت من التعرض للعوامل الجوية لأكثر من قرن، وكانت أبعد ما يمكن عن الكنيسة البيضاء ذات البرج في الأرض الواقعة على قمة الجبل.

لقد قال العمدة سبنسر آروود، ونورا بونستيل القليل جداً لبعضهما البعض أثناء رحلتهما عبر الجبل إلى مقاطعة ميتشل في نورث كارولينا. وقد ظهر سبنسر مبكراً هذا الصباح عند باب المنزل ذي الإطار الأبيض على قمة التلة فوق جبل آش.

"أريد أن أعرف عن فرانكي سيلفر،" قال لها.

كانت أمامه رحلة أطول يوم غد، ولكن كان ينبغي أن يذهب أولاً إلى كونا. عند بزوغ أول ضوء في ذلك اليوم، اتصل به لودون، وهو يعرف أنه لم ينم أكثر مما ناموا هم. "لقد قمنا بعملية اعتقال،" قال له المساعد. "شخص يضع قرطاً. لقد لاحظه أحد المتنزهين الآخرين. ووجدنا سلاح الجريمة بحوزته. إنه في الثامنة عشرة من عمره.

هكذا عاد العمدة من حيث بدأ، بدون دليل جديد، فقط بشعور بأنه كان

هناك شيء لم يفهمه بشأن قضية هاركرايدر. وطلب من لودون أن يواصل التحري عن الأسماء التي أعطاها له، ولكن لم يعد بإمكان سبنسر الجلوس ساكناً والانتظار أكثر من ذلك. لقد نفد الوقت تقريباً بالنسبة لهم. وقد قطع عهداً على نفسه بأن يذهب ليرى المكان الذي وقعت فيه جريمة سيلفر، بدلاً من الجلوس بجانب الهاتف، وإذا كان هناك أي شيء يمكن اكتشافه من ذلك اللغز القديم، فإنه سيبذل ما بوسعه ليعرفه.

طلب سبنسر من نورا بونستيل أن تذهب معه، وبدون طرح سؤال واحد، ذهبت معه. كان قد تذكر لاحقاً أنه عندما ردت على الباب، كانت ترتدي حذاء المشي الخاص بها، والقبعة الصغيرة ذات الزهور الزرقاء، والتي كانت ترتديها في بعض الأحيان عند ذهابها إلى الكنيسة. وكان الناس يقولون عن نورا بونستيل، *إنها تعرف عندما تكون قادماً*، ولكن العمدة لم يصدق ذلك. كان يؤمن بالصدفة.

إنه أمر غير رسمي، قال لنفسه. *إن عمر القضية مائة عام. إن الأمر ليس كما لو كنت أستعين بوسيط روحي للاستشارة بشأن تحقيق للشرطة. إن هذا أمر خاص*. لم يكن يقود سيارة الدورية. لقد كان لا يزال رسمياً في إجازة مرضية، وذكّره الألم في جنبه، من حين لآخر، بأن الأمر ينبغي أن يكون كذلك.

اصطحب سبنسر المرأة العجوز إلى مقعد الراكب في سيارته البيضاء، وانتظرها حتى تثبت حزام الأمان قبل أن ينطلق نحو الطريق المتعرج أسفل جبل آش، وانعطف إلى اليمين باتجاه الشرق حيث الطريق المؤدية نحو نورث كارولينا.

لم تقل نورا بونستيل شيئاً.

كانت تعلم أنه لن يسأل نفسه كيف، أو ما إذا شكّل اعتقاده في تلك العبارة أي نوع من الإيمان، ولكن كان ينبغي عليه أن يعرف عن فرانكي سيلفر، ولم يكن هناك أي شخص آخر كان يمكن أن يحضره إلى هنا، ومن شأنه أن يكون قادراً على فهم الأمر.

"كنت أدرس قضية فرانكي سيلفر،" قال لها بعد قطع عدة أميال في صمت. "ربما أنك تعرفين القصة، ولكنني أود أن أرويها إذا كنت لا تمانعين في الاستماع. إن ذلك سيوضح الأمور في ذهني."

أومأت نورا بونستيل برأسها، وبدأ العمدة باستذكار حقائق جريمة قتل تشارلي سيلفر ـ بتردد في البداية، ولكن بعد ذلك بثقة أكبر، إلى أن نسي في النهاية أنها كانت هناك، وكان ببساطة يفكر بصوت مرتفع ليرتب أفكاره. لقد دارت قضية هاركرايدر في رأسه، بالتوازي مع القصة التي كان يرويها، وبالرغم من أنها كانت تومض من خلال وعيه من حين لآخر، فإنه لم يتمكن بعد من فهم الصلة.

انطلقا في الطرق الخلفية المتعرجة لمقاطعة ميتشل في نورث كارولينا، مارين بمستوطنات ذات أسماء ممتعة، مثل باندانا، ولوفر غلوري. لقد كانت كما تذكرها سبنسر تماماً قبل عقدين من الزمن، عندما قام بالرحلة مع نيلسي ميللر. وإذا كان التقدم قد ظهر في السنوات الفاصلة، فقد كان يخطو برفق.

عندما وصلا إلى الكنيسة ذات الإطار الأبيض في مجتمع كونا، على طريق الولاية 80، كان الهواء ساكناً، والظلال طويلة حادة الرأس، تعد بيوم شديد الحرارة. أوقف سبنسر سيارته في ممر من باحة الكنيسة مفروش بالحصى. خرج رجل نحيل أشقر من مبنى الكنيسة ولوّح لهما. "سأعود حالاً،" قال سبنسر وهو يخرج من السيارة ويتجه نحو الكنيسة القديمة.

كان الرجل الأشقر هو السيد سيلفر حافظ تاريخ العائلة. يمكن أن يكون بأي

عمر، وقد ولد هنا في المقاطعة، ولكن لهجته استُهلِكت كصخرة النهر، وضعفت بفعل السنوات التي أمضاها في شيكاغو، ولوس أنجلوس. والآن عاد إلى الوطن ليستقر، وليهتم بالأساطير. لقد كان ينعم بالسكينة الآن التي لا يجدها المرء غالباً في المدن الكبيرة التي أمضى شبابه فيها. لقد جاء الناس ـ لا سيما الأقارب من بعيد، ولكن في بعض الأحيان علماء وكتّاب ـ آلاف الأميال لطرح أسئلتهم، ولإلقاء نظرة على الحجارة الصغيرة، ولمقارنة قائمة الأسماء على خرائط الأنساب مع قدر كبير من المعلومات في المجموعة التي عند كونا. لقد أرادوا أن يعرفوا من كانوا، وبدا أنهم يعتقدون بأن السيد سيلفر كان بإمكانه أن يخبرهم. وعاجلاً أم آجلاً كان معظم الزوار يحضرون للسؤال عن فرانكي سيلفر. كان السيد سيلفر يعرف جميع الأسئلة، ومعظم الإجابات. لقد أصبح معتاداً عليها الآن.

أخبره سبنسر من كانوا، وماذا كانوا يريدون. وتحدث السيد سيلفر معه لمدة عشر دقائق موضحاً بعض المعالم، وهو يخبر سبنسر آروود ماذا كان يريد أن يعرف. وعندما انتهى، تصافح الرجلان، وعاد السيد سيلفر عبر الطريق إلى الكنيسة الأحدث ليهتم بمجموعة تاريخ العائلة المخزونة في قبوها. وقال إنه كان بإمكانهم، في وقت لاحق، أن يأتوا لإلقاء نظرة على الخرائط والصور. شكره سبنسر مرة ثانية وعاد إلى السيارة.

"إننا في المكان الصحيح،" قال لنورا بونستيل وهو يفتح الباب ويساعدها في الخروج من السيارة. أومأت برأسها بدون اندهاش، وتبعته خلال مقبرة الجبل الصغيرة.

مشى سبنسر نحو الحجارة الثلاثة غير المنقوشة عند حافة المقبرة، وقال: "هذا تشارلي سيلفر.

أومأت نورا بونستيل برأسها مرة ثانية. "نعم.

"لم يجدوه كله مرة واحدة."

كانت المرأة العجوز تنظر إلى العمدة، وليس على القبر، وكانت تعرف أنه كان قلقاً بحالات موت أكثر من هذه الحالة. وقالت: "لقد انتهى الأمر الآن.

جثا سبنسر على ركبتيه، ومرر يده على طول الجزء العلوي من حجر متآكل بفعل العوامل الجوية. "تشارلي سيلفر. لقد كان في التاسعة عشرة لمدة مائة وخمسة وستين عاماً الآن. لقد اعتدت أن أتساءل أي نوع من الرجال كان. وما إذا كان يستحق ما حصل له. هل تعرفين؟"

فكرت نورا بونستيل بالسؤال ملياً. "لقد جاء التقطيع فيما بعد،" قالت أخيراً. "لقد رحل بسرعة. وهي لم ترحل بسرعة."

"نعم، ولكن هل استحق الموت؟"

"لن أقول إن أي شخص يستحق الموت. أحياناً يكون من الضروري أن يحدث، هذا كل ما في الأمر."

فكر سبنسر بذلك ملياً. "نعم، ربما يكون ذلك ضرورياً. لقد قالت فرانكي إن ما حدث في الكوخ كان دفاعاً عن النفس. أعتقد بأن أحداً ما كان مقدَّر له أن يموت في تلك الليلة. والخيار الوحيد كان من يجب أن يكون."

"أو كم عددهم،" قالت نورا بونستيل.

تذكر سبنسر الطفلة. *ماذا كان اسمها؟* نانسي. ذاك كان اسمها. نانسي سيلفر. سُميت على اسم زوجة والد تشارلي. على الأقل تم إنقاذها. لقد أراد أن يرى أين حدث كل ذلك. "إن موقع الكوخ هناك في الغابة على بعد بضعة مئات من الياردات،" قال. "لا يمكننا الوصول إليه بسهولة جداً من هنا في باحة الكنيسة، على أي حال. وأشارت نورا بونستيل إلى كوخ من الخشب عند أسفل التلة على الجانب الآخر من الطريق المعبَّد. "ذلك كان كوخ عائلة سيلفر، أليس كذلك؟"

"تقصدين والدي تشارلي؟ نعم. بعض أفراد العائلة لا يزالون يعيشون هنا. هل ترين ذلك الصدع البني اللون في جانب التل عبر الطريق، والمؤدي إلى الكوخ؟ لقد قال السيد سيلفر إنه كان طريقاً سلكته فرانكي سيلفر عندما ذهبت لتخبر عائلة زوجها أن تشارلي لم يأتِ إلى المنزل. إنه لا يزال هناك بعد مائة وخمسة وستين عاماً."

لم تلتفت نورا بونستيل لتنظر إلى الطريق التالفة في منحدر التلة. "قد يكون،" قالت نورا.

"تمنيت أن نتمكن من الذهاب إلى موقع الكوخ. قال السيد سيلفر أن نمشي بجانب الكنيسة القديمة، وحول المنعطف على الطريق المعبَّد، وأن نأخذ أول طريق لقطع الأشجار إلى اليمين." نظر سبنسر بشك إلى المرأة العجوز. "إنها مسافة ليست قصيرة سيراً على الأقدام، على أي حال."

"إنني معتادة على المشي."

سلكا طريقهما بجانب شواهد قبور حديثة لعائلة سيلفر المعاصرة، وأقاربهم، ومشيا مائة ياردة على طول الطريق 80 إلى الممر الترابي الذي كان يؤدي إلى داخل الغابة. "قال السيد سيلفر إننا يجب أن نتبع طريق قطع الأشجار ذلك نحو الغابة لحوالي ميل، ولكن من هناك تكون الطريق إلى موقع الكوخ بدون علامات. "

تنهدت نورا بونستيل. "سأعرف متى يجب أن نترك الطريق،" قالت للعمدة.

نظر سبنسر إلى أجمة الأشجار المصطفة على طريق قطع الأشجار القديم. لقد كان الدغل النامي تحت أشجار الزان والبلوط كثيفاً جداً بحيث كانت الأرض مغطاة تماماً. وقد يكون المشي خلال تشابك من الشجيرات كهذا بطيئاً. لقد كان يفكر بباربرا ستيوارت التي ماتت بسبب لدغة أفعى أثناء قيامها بقطف توت العليق في هذه الغابة، أو بالقرب منها، وذكّر نفسه بأن يبقى قريباً من نورا

بونستيل، وأن يراقب الأرض. ولم يحضر معه سلاحه، ولكنه اعتقد إن الضجة الصادرة من مشيهم ستبقي الأفاعي بعيداً عن طريقهما.

"من الغريب التفكير أنه كانت هنا مزرعة بمبانيها ذات يوم،" قال. "لن تتخيلي أن هذه كانت في أي وقت أرضاً خالية. أظن أن الكثير جداً يمكن أن يتغير في مائة وستين عاماً."

"بعض الأشياء لا تتغير."

مشيا لمدة عشر دقائق أخرى، أو أكثر، ولم يكن هناك سوى صوت أقدامهم تضرب الصخور على الطريق لكسر الصمت. لقد كانت هناك برودة تحت غطاء الأوراق، وكانت في الهواء رطوبة ورائحة طين الغابة بعد عاصفة مطرية. لقد كان الرمل ناعماً بفعل الأمطار الأخيرة، وكان يجب عليهما أن يشقا طريقهما حول برك الماء، وأن يقفا بين الحين والآخر لكشط الطين عن حذاءيهما. في النهاية توقفت نورا بونستيل. أغلقت عينيها للحظة، وأخذت نفساً عميقاً، وأومأت برأسها. "هنا،" قالت للعمدة، وهي تشير إلى الأسفل نحو منحدر صغير حاد.

لم يتمكن سبنسر من رؤية أي شيء ليميز هذا المكان عن غيره من الأماكن الأخرى على طول الطريق خلال الغابة. لم يتمكن من رؤية ممر للمشاة يؤدي إليه، ولا كسر في أوراق النباتات، ولا بقايا مباني مهجورة. يبدو أنه كان خياراً عشوائياً. "هل أنت متأكدة؟"

"آه، أيها الرب،" همست المرأة العجوز. "ألا يمكنك الشعور به؟" كانت تقف ثابتة كدعامة خشبية على طريق الطين الأحمر، محملقة بالأشجار الصغيرة النامية تحت الأشجار الكبيرة، وضغطت على فمها بقبضة ذات عروق زرقاء كما لو كانت تمنع خروج صرخة.

توقف سبنسر وأصغى. لقد سمع غناء عصفور بعيد على غصون أشجار

بعيدة، ولكن فيما عدا ذلك لم يكن لديه إحساس بكونه في أي مكان سوى في غابة رطبة وباردة في صباح أحد أيام الصيف. "هل يمكننا الوصول إليه؟" سأل رفيقته. "إذا ساعدتك في النزول، هل تكونين على استعداد لتأخذيني إلى هناك؟"

"إذا كنت ملزماً ومصمماً على الذهاب،" قالت نورا بونستيل وهي تتنهد. "لقد وصلنا إلى هذا المكان البعيد. ربما يجب أن نكمل المشوار."

شق طريقه بيسر إلى الأسفل نحو سد طريق قطع الأشجار، لمنحدر يصل إلى ثلاثة أقدام من الطين والأعشاب، وقد شد قدمه إلى شجيرة من الأسفل، ثم مد نفسه ليمسك المرأة العجوز من يدها، ويساعدها بهدوء لتنزل على الضفة الموحلة. "هل ستكونين قادرة على إيجاده بين جميع هذه الأشجار الصغيرة؟" سألها وهو ينظر إلى تشابك الأخشاب غير المكسورة. لم تكن هناك بقايا لمزرعة وتوابعها.

أومأت برأسها. "سيكون بالقرب من جدول الماء. سأعرف ذلك."

تنحى جانباً ليسمح لها بالمرور، وبعد ذلك مشى خلفها وهي تشق طريقها خلال الغابة كما لو كانت تتبع مساراً. وانحرفت عن خط مستقيم فقط لتشق طريقها حول شجيرة، أو لتبتعد عن جذع واقع على الأرض. وقام سبنسر بتفحص الأرض حولهما بحثاً عن أفاعٍ، وتساءل ما إذا كانا سيجدان الموقع بأي حال من الأحوال. كان بإمكانه أن يطلب من السيد سيلفر أن يأتي معهما، ولكنه لم يكن يريد أن يتشارك بالتجربة مع غريب. إما أنه قد يشعر بأنه أحمق لشروعه بهذه الرحلة مع نورا بونستيل، أو قد يدرك ما أتى ليكتشفه بطريقة لا تحتمل الشرح. في كلتا الحالتين كان يعلم أنه لن يتحدث عن هذه الرحلة لأي شخص آخر.

لقد كانا بعيدين عن رؤية الطريق داخل أجمة من شجر الزان المرصع بأعشاب طويلة ذات أزهار صفراء اللون عندما التفتت نورا إليه ووضعت يدها على ذراعه. وقالت: "هنا."

tele @ktabpdf

لقد كان الغطاء المكون من أوراق الشجر كثيفاً بحيث بدا على أنه الشفق حيث كانا يقفان، ولكن عينا سبنسر كانتا معتادتان على الضوء الخافت الآن، وبدأ يخطو ببطء خلال الأعشاب، باحثاً عن علامة ما تدل على أن نورا بونستيل كانت على صواب. ولم يتقدم بأكثر من بضع ياردات بعيداً عنها عندما وجد الحجارة. "إنها هنا!" صاح مشيراً لها لتأتي.

كان هناك حجر عريض مسطح نصف مدفون في الأرض السوداء، ومغطى تقريباً بأغصان شجيرة تنمو بجانبه. "لا بد أن يكون هذا بلاط الموقد،" قال سبنسر وركع ليتفحصه. "ليس هناك حطب أو آثار لخشب يمكنني أن آراها. لقد سمعت أن الكوخ احترق."

أومأت نورا بونستيل برأسها. وقالت: "ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا كذلك؟ لقد تم امتصاص الدم داخل الحطب، داخل الأرض. لا يمكن لأحد أن يكون قد عاش هناك."

لقد كان مسرح جريمة، قال سبنسر لنفسه. لقد رأى المئات منه خلال عشرين عاماً. كنت تقارب كل موقع جريمة بالطريقة ذاتها. تقوم بتصوير الموقع في الليلة التي تقع فيها الجريمة، وتحاول اكتشاف ماذا حدث. "21 كانون الأول/ديسمبر، 1831،" تمتم وهو يفكر بصوت مرتفع. "لقد كان الثلج يصل إلى ارتفاع الركبة. وكان النهر متجمداً. ووفقاً لفرانكي سيلفر، فإن زوجها تشارلي كان قد ذهب إلى حانة جورج يونغ للحصول على خمره لعيد الميلاد. ولكنه عاد إلى المنزل. نعم. إننا نعرف أنه عاد إلى المنزل."

توقف سبنسر لبرهة متوقعاً أن تقول نورا بونستيل شيئاً ما، ولكنها لم تقل شيئاً، لذا، عاد إلى تأملاته. "خمر عيد الميلاد... الجميع قالوا إن تشارلي كان يحب اللهو. وكان يحب الموسيقى، وكان يحب أن يرقص... إنه في التاسعة عشرة فقط. لقد تناول الكثير من خمر جورج يونغ قبل أن يأتي إلى المنزل. بالطبع فعل

ذلك. إنه يعود إلى المنزل ثملاً تماماً، وكانت فرانكي توبخه بقسوة بسبب ذلك. لم يكن يقوم بمهامه اليومية، وكان يخرج للاستمتاع ويتركها وحدها في المنزل مع الطفلة. ويدخلان في مباراة صياح."

"لقد كانا طفلين هما نفسهما،" تمتمت نورا.

بالكاد سمعها سبنسر. لقد كان يعيد تمثيل الجريمة الآن، كما تعلم أن يفعل على مر السنين في قضاياه. "لماذا لم يخرج تشارلي عندما بدأ الشجار؟ لأنها كانت ليلة شتاء ذات برد قارس. ثلوج عميقة. نهر متجمد. لا يوجد مكان للذهاب إليه. لقد كانا محجوزين في الكوخ الصغير البارد. مراهقان غاضبان يصيحان. وربما كانت الطفلة تبكي. ربما كانت مريضة، أو عندها مغص، أو مجرد أنها ببساطة جائعة، ولن تسكت." بدأ الشكل المظلم للكوخ يظهر في ذهنه، ولكنه عرف أنه لم يكن يراه بالإحساس الذي رأته به نورا بونستيل. لقد كانت المرأة العجوز تتمتع ببصيرة، ولكن الصورة في ذهن العمدة نشأت من سبب بارد المشاعر، فالشرطة تقوم بهذا في كل موقع جريمة. ويقوم المختبرون الطبيون بذلك عندما يواجَهون بخارطة الإصابات على جسد الضحية. إجعل عقلك ينكب على احتمالية ما الذي يمكن أن يكون قد حدث، وابحث بواسطة غريزتك الجيدة إلى أن تتمكن من تحديد ما الذي لا بد أن يكون قد حدث.

وغرق في السرد. "إنهما مراهقان. وليس لديهما الكثير من ضبط النفس. محجوزان. بائسان. *إذا لم تخرسي هذه الطفلة سأفعل أنا*. لقد رآها من قبل. غالباً. ربما كان هذا كذلك عربة تهوي في أرض جرداء غير مأهولة بالسكان. شاب وسيم ثمل، وزوجة شابة غاضبة، وطفلة تصرخ. في الوقت الحاضر يرفعون سماعة الهاتف ويطلبون 911، وبعد ذلك يذهب هو أو لودون أو مارثا، ويحاولون التحدث معهما بكلام معقول. أحياناً، لوضع حد للخطر، وقد يأخذون الزوج الغاضب مقيد اليدين في المقعد الخلفي لسيارة الدورية. ولكن في الليلة التي

تشاجرت فيها عائلة سيلفر ـ 22 كانون الأول/ديسمبر 1831 ـ لم يكن هناك أحد للاتصال به. لم يكن هناك وقت. لم يكن هناك وقت.

إذا لم تخرسي هذه الطفلة سأفعل أنا، فرانكي!

"يلتقط المسدس." كان سبنسر يحدق في الأرض الآن، على البلاطة المهجورة لشاهد مفقود في دغل من الأعشاب. "إنه لا يعني ذلك، حقاً. إنه ثمل ويشعر بالبرد، وأخرجه الصراخ عن صوابه. ولكن كان يمكن أن يقتلها. لقد رأيت عشرات على شاكلة تشارلي سيلفر. ربما مئات. قد يبكي طوال الطريق إلى المدينة في سيارة الدورية. ربما كان سيجد الرب في زنزانة السجن قبل المحاكمة. ولكن من المؤكد كما أنا متأكد أنني أقف هنا، كان سيقتلهما معاً. لديه مسدس. وينتهي الأمر بلحظة. لا يمكنك إرجاع الأمر.

ذرع الأرض السوداء جيئة وذهاباً بين الحجر وشجر الزان. "لذا فإنها تقتله. إنها مضطرة لذلك. لقد كان يصوب المسدس نحوها؟ نحو الطفلة؟ لديها لحظة للتصرف، وقد تصرفت. إنها تلتقط أول شيء في المتناول، وتقتله." نظر إلى نورا بونستيل، متشككاً للمرة الأولى. "فأس؟"

تومئ برأسها. "أعتقد بأنه لا بد كان كذلك. إنه من المعدن وثقيل."

"إذن سقط أرضاً، كعجل مذبوح بفأس. لقد أصابته فوق الأذن تماماً. هذا موجود في التهمة. إنه ملقى هناك على الأرض، بلا حراك. لقد كان الأمر كله مفاجأة. حتى الطفلة توقفت عن العويل. وتنظر فرانكي إلى جثة زوجها، وتشعر ـ ماذا؟" نظر سبنسر إلى نورا بونستيل، غير متيقن من موقفه حيث أصبح للعواطف دور الآن.

هزت المرأة العجوز رأسها. "سأخمن،" قالت له. "أعتقد بأنها ستشعر بصدمة في البداية. وبعد ذلك رعب قاتل. لقد قتلت رجلاً. ولكنني لا أشعر بأي شيء منها في هذا المكان. إنها ليست هنا.

tele @ktabpdf

نظر سبنسر إليها، كان مهتماً، ومؤجلاً الشك. لقد مرت عليه عشرات الحالات التي تم فيها تمثيل ما حدث في موقع الجريمة، ولكنه أحس أن ما كانت تتحدث عنه نورا بونستيل كان نوعاً آخر من المشاهدة. كل عائلة من الجبل لديها شخص ما يتمتع ببصيرة، ولكن إذا كان عملك هو تنفيذ القانون المعاصر، فإنك تفضل التغاضي عن الطرق القديمة. إنك تتعامل مع حقائق ودليل ومنطق جاف: أمور قانونية في المحكمة. ومع ذلك، ماذا يمكن أن يضر سؤالها عن عائلة سيلفر ـ لقد تم إغلاق القضية لأكثر من قرن. لقد كان ببساطة يريد أن يعرف. "بماذا تشعرين؟"

أغمضت نورا بونستيل عينيها للحظة وأومأت، كما لو كانت تؤكد انطباعاً سابقاً. "حزن،" قالت. "حزن عميق صامت. شعور بخسارة كبيرة، ولكن غير منطوق بها.

رمش سبنسر بعينيه. حزن. شخص ما يحزن؟ "ليس فرانكي؟"

"لا "

"تشارلي، إذن.

"لا أعتقد ذلك." أغمضت نورا بونستيل عينيها، مانعة الحاضر لتبلغ بقايا شعور سابق. "إنها تشعر، ولكن ليس لديها كلمات،" قالت. "أعتقد بأنها طفلة."

أبعد سبنسر الفكرة. "آه، الطفلة. نانسي. لا يمكن أن تكون هي. لقد عاشت لتكبر."

"نعم، ولكن في تلك الليلة كانت نانسي سيلفر الصغيرة طفلة في أول مشيها بدون أي كلمات لتصف ما رأته. هذا هو ما تبقى هنا، محترق في الهواء. لا يهم ما حل بها فيما بعد. إن ما أحصل عليه هو شعور أحست به في الليلة التي مات فيها والدها. حزن عميق صامت. لقد انتهى غضب تلك الليلة. لا أشعر بخوف من أي شخص. فقط ذلك الحزن العظيم الثقيل."

"لقد رأت الطفلة ذلك يحدث،" تمتم سبنسر، وهو يمسك بالخيط من جديد. "بالطبع، رأته. كانت مضطرة لذلك. لقد كان كوخاً خشبياً بغرفة واحدة، ووالداها يصيحان بصوت مرتفع بما يكفي ليوقظها." أومأ لنفسه، مستحوذاً على شعور كونه هناك. "الطفلة تراقب، ماما وبابا يتجادلان، وبعد ذلك يسقط بابا فجأة ولا ينهض. إنه نائم. ماذا يحدث بعد ذلك؟ ماذا تفعل فرانكي؟"

قالت نورا بونستيل برقة: "فرانكي تبلغ الثامنة عشرة فقط. وكان الناس يقولون، امرأة جذابة *ضئيلة الحجم*، لا يزيد طولها عن خمسة أقدام. ولا تزن أكثر من تسعين باونداً."

"صحيح." أومأ سبنسر برأسه، وهو يتخيل الفتاة في ذهنه. "لا يمكنها أن تتدبر ذلك لوحدها. إنه فوق قدرتها. ستحتاج لوالدها."

"والدي في كنتاكي في رحلة صيد طويلة."

"والدتها، إذن. شخص ما سيصدقها؛ شخص ما سيقف بجانبها. تذهب إلى المنزل عند والدتها. *لقد قتلت تشارلي، ولكنه كان مجرد حادث، يا ماما*." نظر سبنسر حوله إلى الغابة المتشابكة الأشجار. "لقد عاشت عائلة سيلفر على الجانب الآخر من النهر. أين النهر؟"

"عبر الطريق المعبَّد،" قالت نورا بونستيل. "هل رأيت الطريق الترابية في الجانب الآخر من ممر قطع الأشجار؟ على الأرجح أن ذلك يوصلك إلى النهر. قد يكون على بعد ميل أو أكثر من المكان الذي نقف فيه.

"لقد عاشت عائلة ستيوارت على الجانب الآخر من النهر. إن الأرض على هذا الجانب كانت تخص عائلة سيلفر. لا يوجد جسر، وكان عز الشتاء.

"كان بإمكانها أن تسير هذه المسافة. النهر متجمد. والثلوج تصل إلى مستوى الركبة.

أوماً سبنسر. لقد شعر بالبرد في أشعة الشمس الباهتة التي تسرّبت خلال غابة عائلة سيلفر. "إنه الليل. برد قارس وظلام. يجب على فرانكي أن تمشي في الثلج العميق، وعبر النهر المتجمد لتصل إلى كوخ والدتها. ستستغرق أكثر من ساعة، ولكن يجب عليها أن تذهب. إنها مرعوبة. ولكن ... ولكن..."

"لا يمكنها أن تأخذ الطفلة،" انتهت نورا بونستيل بهدوء.

"لا. الليلة باردة جداً، والثلج عميق. يجب أن تسرع. لا يمكنها أن تأخذ الطفلة معها. قد تعوّقها. لذا، إنها تتركها في الكوخ في الغابة. لن يسمعها أحد تبكي عندما تكون أمها قد ذهبت. الطفلة وحيدة وخائفة."

"لأن بابا لن يستيقظ." ارتعشت المرأة العجوز. "حتى الآن يمكنني أن أشعر بارتباك الطفلة وحزنها."

كان يبدو ذلك صحيحاً. لقد تمكن سبنسر من رؤية الأشياء تسقط في مكانها. لا بد أن الأمر حصل بهذه الطريقة، فكر في نفسه. بالطبع كانت فرانكي ستذهب لطلب مساعدة. لقد كانت في الثامنة عشرة. *لقد قتلت تشارلي، ولكنه كان مجرد حادث. ماذا يجب أن أفعل؟* لقد بدأ يذرع المكان مرة أخرى. "وماذا قالت أمها؟ أصيبت بصدمة في البداية، ولكنها غاضبة، أيضاً، أن يأتي تشارلي ثملاً ويحاول قتل فرانكي والطفلة. ولم تهدر باربرا ستيوارت أي دموع عليه. لو أن زوجها كان في المنزل فقط. ياله من وقت يكون فيه ذاهباً! ولكن كنتاكي على بعد أيام وأيام. لن تكون هناك مساعدة منه. يجب أن يتدبروا الأمر بأنفسهم."

"لو أن السيد ستيوارت كان في المنزل، لم نكن لنتواجد هنا الآن،" قالت نورا بونستيل.

"صحيح. لم نكن لنتواجد هنا في الخارج، لأنه لن تكون هناك أسطورة فرانكي سيلفر لتجذبنا. كانت ستفلت بجريمتها! كانت ستقول إن تشارلي لم يعد إلى المنزل من حانة يونغ، ولن يتم العثور أبداً على أي أثر له. كان والدها سيُعنى

بذلك. رجل قوي كبير ـ صائد حيوانات وحطاب ـ كان سيكون قادراً على رفع جثة تشارلي سيلفر مثل كيس طحين، وينقله بعيداً. ربما في الغابة العميقة. أو ربما تمكن من كسر الأرض المتجمدة ودفن الجثة كلها. ولكن أشعيا ستيوارت لم يكن هناك في تلك الليلة. كما لم يكن هناك الإبن الأكبر جاك. كل من كان يجب على فرانكي أن تعتمد عليه هما والدتها وأخوها بلاكستون، الذي لا يمكنه أن يكون قد بلغ أكثر من الثالثة عشرة من عمره.

"ولكن كان يتوجب عليهم أن يفعلوا شيئاً ما." فهمت نورا بونستيل ماذا كان العمدة يفعل الآن. لقد فهمت أنه كان ينبغي عليها فقط أن تحفز أفكاره، وقد يصل هو إلى النتيجة بنفسه. لقد كان كل شيء موجوداً هناك. عليك فقط أن تتخيل المشهد وأصبح كل شيء واضحاً، سواء كنت تتمتع بنفاذ بصيرة أم لا

أومأ برأسه. "كان يجب عليهم أن يفعلوا شيئاً ما. إنهم لا يعرفون أن الدفاع عن النفس لا يُعتبَر جريمة قتل. يعتقدون بأنه يجب عليهم أن يخفوا الدليل على أن هناك موتاً قد حدث بأي حال من الأحوال. امرأتان وصبي صغير لا يستطيعون حمل الجثة. على الأقل، ليس بسهولة." قالت نوار بونستيل، "لقد كان الثلج عميقاً يصل إلى مستوى الركبة، وكان النهر متجمداً."

"يا إلهي، نعم. لو حاولوا أخذ الجثة خارج ذلك الكوخ، فإنهم سيتركون آثاراً على الثلوج يمكن لشخص أعمى أن يتبعها. إضافة إلى ذلك، ليست هناك طريقة للتخلص من الجثة بمجرد إيصالها إلى الخارج. النهر عبارة عن جليد صلب. وليس لديهم مجارف ـ ربما معول، ولكن من الصعب أن تحفر أرضاً متجمدة بمعول. سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً. حتى الحيوانات الضارية، والحيوانات التي تقتات على الجيف لا يمكن الاعتماد عليها لالتهام البقايا في أقسى أوقات فصل الشتاء. لذا فإن ما كان يمكن لأفراد عائلة ستيوارت فعله بجثة تشارلي سيلفر كان مقتصراً على داخل الكوخ. وقام سبنسر بعدّ الاحتمالات على أصابعه. "لا

يمكنهم جرّه بعيداً إلى الغابة بدون ترك آثار. لا يمكنهم دفنه. لا يمكنهم رميه في النهر المتجمّد سطحه. *يحرقونه!*"

"كان من المؤكد أن يخطر لهم ذلك،" قالت نورا بونستيل. "لقد كانوا يائسين.

تنهد سبنسر. "إنني أتساءل ما إذا كانوا يعرفون كم كانت محاولة حرقه عديمة النفع. ربما لم يكونوا يعرفون ذلك. يعتقد الناس بأن النار تحرق الأشياء بالكامل. لم يكونوا ليعرفوا أن الجثة في معظمها ماء."

"أعتقد بأن الوقود قد نفد من عندهم." قالت نورا بونستيل.

"أعتقد ذلك. نعم. إحدى الروايات تقول إنه بعد اختفاء تشارلي بفترة قصيرة، طلبت فرانكي من أخي زوجها آلفرد أن يقطع لها بعض الحطب، وأجاب آلفرد أنه رأى حطباً مربوطاً بحبل ومكدساً بجوار كوخها قبل يوم أو أكثر. لقد استنفدت عائلة ستيوارت حزمة الحطب وهم يحاولون حرق الجثة، ولكن الحطب نفد من عندهم قبل.

"قبل أن ينفد تشارلي من عندهم." سمحت نورا بونستيل لنفسها بابتسامة قاتمة.

"وهذا هو سبب تقطيع الجثة. لن يكون الموقد مناسباً ليتسع لها كقطعة واحدة." ابتعد سبنسر عن بلاطة الموقد وأغمض عينيه للحظة. *هناك*. لقد قطعوه *هناك*. *وألقوه في النار قطعة قطعة*. من فعل ذلك؟ نظر إلى مرافقته. "تعلمين، لم تكن هناك قضية ـ ليست قضية يمكنني أن أعثر عليها ـ *في أي مكان* ـ عن امرأة دون الثلاثين، تعمل لوحدها، وتقطّع جثة بشرية بعد الوفاة. ولا أية قضية."

"بما فيها هذه القضية،" قالت نورا، "ألا تحسب ذلك؟"

"حسناً، لا يمكنني أن أتخيل فرانكي تقطع جثة زوجها. إنها في الثامنة عشرة فقط. وهو زوجها، بحق الرب! والطفلة موجودة هناك."

"شخص آخر، إذن؟"

"باربرا ستيوارت!" همس سبنسر. "والدة فرانكي!" حاول تخيل امرأة ضئيلة، شقراء شاحبة، وتبلغ الأربعين من عمرها، تحدِّق في الجسد الذي فارق الحياة للرجل الذي ضرب ابنتها. "إنها بلا شفقة. الأحياء هم المهمون الآن. *إذهبي لتعطيل عائلة سيلفر. سنهتم شقيقك وأنا بهذا الأمر.* نعم. كان لا بد أن تقول ذلك. فرانكي لا يمكنها القيام بذلك. لقد أصيبت بصدمة تقريباً، إضافة إلى ذلك، كانت هناك الطفلة لتقوم برعايتها. وكانت الأم والشقيق يعلمان أنهما إذا تركا فرانكي تقطع الجثة، فإنها ستصاب بهستيريا، وبعد ذلك يضيع كل شيء. لذا عند شروق الشمس، قاما بإرسالها إلى كوخ عائلة سيلفر للزيارة. وقالا لها *تظاهري وكأن ليس هناك أي شيء خطأ. قولي إن تشارلي ذهب إلى حانة يونغ ولم يعد بعد. أعطنا وقتاً كافياً للاهتمام بهذا الأمر.*

تلك الفتاة المسكينة، مضطرة للجلوس هناك، واختلاق حديث قصير مع أقارب زوجها، وهي تعلم ما الذي خلفته وراءها هناك في الكوخ." تنهدت نورا بونستيل. "لا عجب في أنهم اعتقدوا بأنها كانت وحشاً، فيما بعد، عندما اكتشفوا الأمر. ولكنها الآن قامت بتوريط والدتها وشقيقها في هذا الأمر، أيضاً، لذا فليس لديها خيار. لقد كانت تكافح من أجل حياتهم جميعاً."

"قطعت باربرا الجثة. لا بد أنها ذبحت غزالاً من قبل، فزوجها كان صياداً، وكان لديها فأس وسكين صيد، على الأقل. لقد كان لديها وقت، على ما أظن. لقد استمر البحث عن تشارلي لمدة تسعة أيام."

"نعم، ولكن كان ينبغي عليها أن تنهي الأمر أسرع بكثير من ذلك،" قالت نورا بونستيل. "لا بد أن يكون من الممكن أن يمر أحدهم على الكوخ قبل ذلك

الحين. كان يتعين عليهم أن يفترضوا أن شخصاً ما قد يأتي لزيارة قصيرة بمجرد أن تعود فرانكي للمنزل من الزيارة. ربما لم يأت أحد ليراها، ولكن لم يأت أحد ليزورها، إلا أنه لم يكن بإمكان عائلة ستيوارت المخاطرة بذلك. كان يتعين عليهم أن يكونوا مستعدين لصحبة ما بعد ظهر اليوم الأول. لقد تخلصوا من الجثة في الليلة الأولى تلك، بأفضل ما كان بوسعهم، وأخفوا الدم عن أرض الكوخ." هزت كتفيها استهجاناً.

"على أي حال، كنت سأفعل ذلك."

"أنت على حق،" قال سبنسر. "بالطبع ستفعلين. عائلة مترابطة ـ لقد كان هناك العشرات من عائلة سيلفر، بزيادة أو بنقصان طفل ـ يعيشون على بعد أقل من نصف ميل. ومن الممكن أن يفاجئهم شخص ما بزيارة في أي وقت. إضافة إلى ذلك، فإن باربرا وبلاكستون ستيوارت لم يتمكنا من المخاطرة بالابتعاد عن كوخهما لوقت طويل، كذلك. لو أنهما افتقدا، فإن المرء قد يتساءل فيما بعد عما كانا بصدد فعله."

"الناس يتساءلون،" قالت نورا بونستيل. "ألم تخبرني بأنه تم القبض عليهما في الوقت ذاته الذي تم فيه القبض على فرانكي؟"

"نعم، ولكن لم تتم محاكمتهما أبداً. لم يكن هناك دليل ضدهما. لقد تدبرت فرانكي ذلك. لم تورطهما على الإطلاق. ولكن تقطيع الجثة هو ما أوصلها إلى المشنقة. ذلك هو ما صعق الناس جداً. إنني أتساءل عما إذا كان بإمكانها إنقاذ نفسها بقول ما حدث في الحقيقة."

"من المرجح أكثر أنها كانت ستوصل ثلاثتهم إلى المشنقة،" قالت نورا بونستيل. "لقد كان القانون في يد سكان المدينة، كما تعلم، ولكن عائلة ستيوارت كانوا من سكان الحدود. لا بد أنهم افترضوا أنه لم يكن من الممكن توقع ما قد يفعله سكان المدينة."

"لا يزال هناك بعض من ذلك،" قال سبنسر. وتوقف وأصغى. لقد كانت الغابة ساكنة تماماً. لم يغرد أي عصفور. ولم تطر أسراب من البعوض فوق الأرض الرطبة. "لقد كانت شجاعة، أليس كذلك؟" قال أخيراً. "لم تقل فرانكي أبداً من قام بتقطيع الجثة، ولم تقل أبداً من ساعدها على الهرب. لقد ماتت لتحمي عائلتها.

"لا بد أنه كان من القسوة أن تموت هكذا، متسائلة ما إذا كانت الحقيقة يمكن أن تنقذك.

"لقد حاولت أن تتكلم وهي على المشنقة. لقد سألوها ما إذا كان لديها أي كلمات أخيرة، ووفقاً لشهود عيان ـ كان هناك محام اسمه بيرجيس غيذر روى القصة بعد سنوات ـ سألوا فرانكي سيلفر ما إذا كانت لديها أي كلمات أخيرة، وتقدَّمت إلى الأمام، وبدأت تتكلم. ولكن والدها كان بين الحشد، وصاح: *موتي وهو بداخلك، يا فرانكي!* فتراجعت إلى الوراء، وشُنقَت بدون أن تقول كلمة واحدة."

"ما كان ذلك لينقذها حينئذ. لقد كان يعرف ذلك."

"ذلك ما كان والدها يقوله لها حينئذ،" قال سبنسر. لقد تخيل الرجل العجوز الأشيب، محاطاً بأغراب يصيحون، وهو يحدق بابنته فوق والحبل حول رقبتها، وهو خجل من أن حزنه ممزوج بخوف مما كان يمكن أن تقوله. *موتي وهو بداخلك.* كان السيد ستيوارت يقول: "لا يمكننا أن ننقذك، يا فرانكي. لقد بذلنا ما بوسعنا. لقد حاولنا أن نجنبك القبض عليك، ولكن الدم كان من شأنه أن يكشف الأمر. بعد ذلك وكلّنا لك محامياً، ودفعنا من أجل الاستئناف، ولكننا خسرنا القضية. حتى أننا قمنا بتهريبك من السجن. لا يمكننا إنقاذك. *لا تدمري باقي العائلة معك.*"

"نعم."

موتي وهو بداخلك. ارتجف سبنسر في أشعة الشمس الباهتة. "لدي مكان يجب أن أذهب إليه غداً،" قال بهدوء.

"نعم.

"يجب أن أذهب إلى ناشفيل وأشاهد رجلاً يموت في الكرسي الكهربائي. أنا من وضعه هناك.

أومأت المرأة العجوز برأسها. لم يبدِ وجهها أي أثر للدهشة أو الفزع. لقد بدأت بتتبع خطواتهما في العودة إلى طريق قطع الأشجار. حان وقت العودة.

تبعها سبنسر خلال الأعشاب الطويلة ذات الأزهار الصفراء. وقال: "أعتقد بأنني أفهم الآن ما الذي كان يزعج نيلسي ميلر بشأن القضية. وأعرف لماذا كانت فرانكي في ذهني.

"نعم.

"هل سأكون قادراً على إنقاذه."

التفتت نورا بونستيل لتنظر إلى العمدة. "أن تعرف هو شيء،" قالت. "أن تغيّر هو شيء آخر.

كانت الساعة الثالثة تقريباً عندما وصل سبنسر إلى مكتب العمدة. "لقد انتهينا من استجواب المتهم،" قال له لودون. أعتقد بأن هناك شيئاً من التخلف العقلي، لذا، ربما سينتهي به الأمر في مصحة للعلاج."

"هل سألته عن قضية هاركرايدر؟" سأل سبنسر.

"نعم. لقد حدثت قبل ولادته. لم يسمع أبداً عنها. هناك مؤتمر صحفي في الساعة الرابعة. هل تشعر أنك قادر على إدارته؟"

كان سبنسر يعلم أنه من المفترض أن يفعل ذلك. إذ يتعين على الموظفين

المنتخَبين أن يبقوا ظاهرين ليعرف ناخبوهم أنهم يعملون باستمرار. هز رأسه. "لقد كانت قضيتكما،" قال. "تدبرا الأمر أنت ومارثا. لقد عدت فقط للحصول على المعلومات التي تحريت لي عنها بشأن قضيتي."

قام لودون بتسليمه ملفاً. وقال له: "ليس لديك الكثير من الوقت."

"لا. ولكنني على الأقل أعرف من أسأل."

بدا مكتبه القديم غريباً بالنسبة له الآن، بعد أسابيع بعيداً عن أداء الواجب. لقد رأى أن المزروعات التي على نافذته تبدو أفضل، منذ توقف عن التواجد هناك ليسكب القهوة الباردة فيها، وكان هناك ترتيب على سطح مكتبه جعله غير مرتاح. أخذ يقرأ خلال الصفحات المطبوعة بالليزر في الملف، وهو يدون ملاحظات أثناء تقدمه فيها. بدأت الأمور تترابط مع بعضها الآن. كل شيء بدأ يصبح معقولاً، ولكن لا يزال لا يملك دليلاً. رفع سماعة الهاتف، واتصل برقم في كنتاكي. كان يتمنى لو كان لديه وقت للذهاب شخصياً، ولكن لم يكن متبق سوى ساعات. "توم هاركرايد، لو سمحت،" قال عندما توقف الرنين. "سيد هاركرايدر هذا العمدة آروود من مقاطعة ويك، تينيسي. أود أن أتحدث إليك بشأن أخيك."

كان هناك سحب للنفس على الطرف الآخر من الهاتف. "لا يمكنني أن أساعدك بالنسبة لإيول،" تشدق الصوت. "إن إخراجه بكفالة هو مضيعة للمال. دعه ينسى الأمر وينام."

"لقد كنت أقصد شقيقك الآخر، يا توم. لافاييت. هل تذكره؟"

بعد وقفة أخرى، قال توم هاركرايدر: "لا يمكنني أن أساعده، أيضاً."

"أعتقد بأنه كان بإمكانك،" قال العمدة. "أعتقد بأنه بإمكانك إنقاذ حياته ـ لو قلت ماذا حدث حقاً على الجبل في تلك الليلة منذ عشرين عاماً مضت."

"لقد قال فيت إنه كان بريئاً . وهيئة المحلفين الملعونة لم تصدقه."

"إنني أصدقه ــ الآن . من المقرر له أن يُعدم ليلة الغد . إذا قابلتني في ناشفيل، يمكنني أن أتدبر أن نرى الحاكم، ويمكننا أن نوقف الإعدام."

"بأن نقول لهم ماذا؟"

"نقول لهم من قتل مايك وإيميلي . إنها فرصة شقيقك الوحيدة." امتد الصمت لفترة طويلة بحيث أن سبنسر قال في النهاية: "سيد هاركرايدر ـ توم ــ هل أنت على الخط؟"

همس الصوت: "لا أعتقد بأنه يمكنني أن أساعدك،" وانقطع الخط .

tele @ktabpdf

الفصل التاسع

إذن نحن عرفنا الآن.

تساءل سبنسر آروود ما إذا كان الشرطي تشارلي بيكر قد عرف الحقيقة في عام 1832، وما إذا حاول بأي حال استخدام تلك المعرفة لإنقاذ فرانكي سيلفر.

ربما أن الشرطي كان يعرف القضية الخاسرة عندما يرى واحدة.

لم تبدُ الساعات الست في قيادة السيارة إلى ناشفيل أطول من هذه المرة أبداً، ولكن العمدة كان، على الأقل، يعرف إلى أين كان ذاهباً. لقد أرسل له شخص من ريفربند فاكساً بتعليماته الأخيرة لحضور تنفيذ حكم الإعدام ("بدون كاميرات، وبدون أجهزة تسجيل...") . لم يقم العمدة بتشغيل المذياع خشية أن تبدو كل أغنية ريفية كتعويذة. وبدلاً من ذلك، حاول التركيز على الطريق 40 - I، أكثر من التركيز على صخب الإمكانيات التي ازدحمت في ذهنه. لقد حصل أخيراً على المعلومات التي طلب من لودون إيجادها له، وأمضى جزءاً كبيراً من الليلة الماضية وهو يجري مكالمات هاتفية، ويجمع الأوراق الخاصة بالقضية. لقد كان واهناً أصلاً بسبب إصابته، ولكنه قال لنفسه إنه لن يتمكن من النوم على أي حال.

كانت السابعة صباحاً. وعند وصوله إلى آشفيل، سيكون لدى سبنسر آروود تسع ساعات لإنقاذ حياة شخص.

ومن طريق I-40W، أخذ مخرج طريق روبرتسون، منعطفاً إلى اليمن، إلى

شارع بريلي، ومن ثم إلى شارع سنتينيال بوليفارد. وضعه المخرج من سنتينيال على مرأى من "الجدران،" سجن تينيسي القديم ذو الطراز القوطي، كابوس ذو قرميد أحمر اللون، أغلق أبوابه أمام سجناء حقيقيين في عام 1989، عندما تم الانتهاء من بناء سجن جديد. والآن يمشي فقط نجوم السينما، بزي السجن البشع، في أروقته، بينما تعمل الكاميرات. لقد أجَّرت الحكومة المرفق القديم لمنتجي الأفلام على أساس منتظم، حيث قضى المبنى القديم سنواته الأخيرة في محاكاة ساخرة غريبة لوجوده السابق. والآن يتظاهر الناس فقط بأنهم يموتون هناك.

إن سجن ولاية تينيسي ذا الأمن الأقصى الحقيقي لم يكن يبدو مثل فكرة هوليوود عن السجن. إن السجن الجديد، رفربند، لن يكون أبداً مناسباً لهذا الغرض.

أوصل شارع سنتينيال إلى طريق كوكريل بند الصناعي، بالقرب من مركز إعادة تصنيف وسط تينيسي (MTRC)، حيث يتم فيه تقويم السجناء وتوزيعهم على مرافق الولاية المختلفة ـ وأخيراً، عند منعطف واسع في نهر كمبرلاند، يقع ريفربند ذاته، والمسمى على اسمه. كان من الممكن لمؤسسة ريفربند ذات الأمن الأقصى أن تكون كلية مجتمع، أو مدرسة ابتدائية حديثة فخمة، لولا أسوار السلاسل العالية، وحلقات الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمجمع الداخلي. وبمجرد المرور بكلمات شيفرة الأمن الصارم المتكررة المطبوعة على يد الشخص، وبسلسلة من الأبواب المقفلة على مسافات فاصلة قصيرة، ويتمتع المكان بمظهر هادئ ريفي، وكأنما تهديد الأيام الماضية قد استعيض عنه بكفاءة نزيهة نشطة. لقد تم ربط المباني ذات الطابق الواحد المصنوعة من الطوب بممرات إسمنتية مقامة في المرج الأخضر، وكان المشهد، الذي يمكن لمحه من بين المباني، هو المنعطف في النهر والتلة المشجرة المرتفعة على الجانب الآخر.

أوقف سبنسر سيارته في الساحة خارج المدخل الرئيسي وجلس لبضع

لحظات في سيارته يجمع أفكاره، ويتمنى لو توقف لشرب القهوة في مكان ما على الطريق. لقد كانت الساعة بعد الواحدة، ولم يكن قد أكل أي شيء بعد. لم يتمكن من توفير الوقت لذلك، فكر في نفسه. لقد تم تحديد موعد تنفيذ حكم الإعدام في الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة. وقد تساءل كم ينبغي أن يكون مُقنعاً ليجعلهم يسمحون له بالدخول في وقت أبكر. ينبغي أن تقوم الشارة بذلك، على أي حال؛ لقد فتحت الشارات الكثير من الأبواب.

في غرفة الاستقبال ذات الغطاء الزجاجي، كان ينبغي عليه أن يذكر اسمه، وأن يريهم الأوراق الخاصة بكونه تم استدعاؤه كشاهد على تنفيذ حكم الإعدام، ولكن يبدو أن أحداً لم يجد غرابة في أنه كان يريد مقابلة آمر السجن. لقد أخبرهم أنه كان غير مسلح، وأعطوه شارة حمراء تثبت بمشبك، وطلبوا منه أن ينتظر. بعد بضع دقائق فقط، تم أخذه إلى المدخل الأيسر، وتم إرشاده إلى مكتب آمر السجن، ماراً بغرفة خارجية تحتوي على صورة جوية بحجم الحائط لريفربند والمناطق المحيطة به.

"أود أن أتحدث إلى السجين،" قال بمجرد أن انتهى الترحيب التمهيدي.

رفع آمر السجن حاجبيه. "أنت أحد الشهود، أليس كذلك، أيها العمدة؟"

أومأ سبنسر آروود برأسه. "ويك هي المقاطعة الأم للسيد هاركرايدر. في الواقع أنني كنت الشرطي الذي اعتقله."

"لقد كان ذلك منذ زمن طويل، أليس كذلك؟"

"عشرون سنة."

"وتريد أن تراه اليوم؟"

أومأ العمدة برأسه. "اليوم." كلاهما يعرف أنه لن يكون هناك غداً لفيت هاركرايدر.

وخلال الصمت الطويل الذي أعقب ذلك، درس سبنسر جدران مكتب آمر السجن. كان يمكن للغرفة أن تخص رئيس كلية، أو موظف بنك مدينة صغيرة، لولا الرسمين الموجودين داخل إطارين على الحائط، ويمثلان تصويرات بسيطة للسجن، وحراساً على شكل عصي مزودين بأسلحة كبيرة مسحوبة بحذر من سطح المبنى. وكانت الرسومات موقعة باسم "جيمس إيرل راي".

"حسناً، تريد أن تتحدث إلى السيد هاركرايدر الآن." كان آمر السجن يراقبه بانتباه، منتظراً التفسير لإرباكه، ولكن سبنسر لم يقل شيئاً. لقد كان الاستجواب لعبة قديمة بالنسبة له، أسهل من الشطرنج.

"إن فيت هاركرايدر سيموت الليلة، أيها العمدة،" قال آمر السجن أخيراً. "وأريده أن يرحل بسلام. لقد كان سجيناً جيداً هنا. بدون مشاكل. منعزل. إنني أدين له بشرف الموت بكرامة. لذا، إذا كان لديك دين قديم تريد تصفيته..."

"لا. أود فقط التحدث إليه.

"حسناً، الأمر متروك له. إنه يومه الأخير على وجه الأرض، ويجب أن يكون للرجل رأيه في من يرى أو لا يرى في وقت كهذا. لقد ألقيت القبض عليه. وأتيت لتراه يموت. لو كنت مكانه، لا أعتقد بأنني سأستسيغ رؤيتك، أيها العمدة. ولكنني سأقول لك ما يلي: سأرسل أحد الحراس ليسأل السيد هاركرايدر ما إذا كان يريد أن يراك أم لا، وسنلتزم كلانا بقراره، اتفقنا؟

أومأ سبنسر برأسه. "هل يمكنني إرسال رسالة مع الحارس؟"

"حسناً،" قال آمر السجن. "رسالة شفوية. واجعلها قصيرة. ماذا تريدنا أن نقول للسيد هاركرايدر؟"

"قل له إنني كنت أتحدث إلى فرانكي سيلفر."

لقد كانت الأربعين فداناً من ريفربند ملتفة في منحنى نهر كيمبرلاند، أربعة

عشر مبنى مُطوقة بطريق، ومحاطة بسياجين ارتفاع كل منهما اثنا عشر قدماً حيث تعمل أنظمتهما الإلكترونية المنفصلة للكشف عن أية حركة أو اهتزاز على حماية المنطقة. لقد تم فصل السياجين بأرض مشاع من الحصى والأسلاك الشائكة. ولم تكن هناك أبراج حراسة في المرفق، ولكن كانت هناك وحدة متنقلة أربعاً وعشرين ساعة تقوم بدورية في محيط المنطقة. وكان المبنى سبعة، مبنى الإدارة، هو الوحيد الذي يقع خارج السياجين، ولكن بوابة الدخول الخاصة به لصد الهجمات، وهي المدخل الرئيسي الوحيد إلى السجن بحد ذاته، كانت محور حماية أمنية مكثفة.

قام حارس بالتأكد من شارة اسم سبنسر، وطبع على يده بالفلوريسنت كلمة السر لذلك اليوم. لم يكن مسموحاً لأي شخص بالدخول إلى منطقة السجن أو الخروج منها بدون كلمة السر على ظاهر يده، والتي تُضاء بمسدس استشعار موجه على البقعة من قِبل حارس آخر.

لقد كانت كلمات السر قصيرة، وتتغير كل يوم. وكلمة السر لليوم كانت *بومة*. مناسبة جداً. فكر سبنسر في نفسه، وهو يتأمل الأحرف الأربعة المتوهجة على يده. كان نعيق البومة يُعتبَر علامة الموت من قِبل الأشخاص المسنين في وطنه. لا بد أن ينعق البوم هذه الليلة. كان هناك موت منتشراً في الجو.

قام رجل وسيم، والذي كان يمكن أن يكون وكيل مدير مدرسة ابتدائية لعدم وجود خطر منه، بمرافقة العمدة من خلال أجهزة الكشف عن المعادن أو المتفجرات، مروراً بنقطة التفتيش، ومن خلال البوابتين الكهربائيتين اللتين فتحتا بالتعاقب، وإلى داخل المجمع.

كان فيت هاركرايدر قد أرسل كلمة بأنه سيرى العمدة آرووود من مقاطعة ويك. وتساءل سبنسر إذا كان الاسم يعني له أي شيء بعد كل هذه السنوات.

"كم عدد السجناء هنا؟" سأل سبنسر، الذي ملَّ من الصمت.

"ستمائة وثمانية وستون،" أجاب دليله. "تسعة وتسعون منهم محكوم عليهم بالإعدام. وهناك ست وحدات سكنية للسجناء. وذلك المبنى الصغير الذي كان إلى أقصى يسارك أثناء مرورنا خلال البوابتين، هو المبنى الصناعي، اثنان ـ أ. هناك يقضي السجناء المؤهلون للعمل ساعاتهم في أعمال محددة لهم."

"مثل ماذا؟"

"الطباعة. إدخال بيانات. نقل الرسوم من ورق خاص إلى الزجاج أوالخشب. إذا اشتريت سيارة في ولاية تينيسي، يتم إرسال وثيقة التسجيل إليك من قِبل سجين محكوم بالإعدام. إلى يمينك يوجد المبنى تسعة: خدمات الطعام والغسيل. وصلا إلى المبنى الطوبي المكون من طابق واحد، خلف البوابة الكهربائية الثانية. "المبنى ثمانية،" قال الدليل. "سنقوم بتسجيل الدخول هنا مرة ثانية.

"ما هو المبنى ثمانية؟"

"أمن وزيارة. إنه يبدو مثل غرفة انتظار في مطار."

أومأ سبنسر برأسه. "سأراه هنا؟"

"لا. إن غرف تنفيذ حكم الإعدام تقع خلف جدار غرفة الزيارة."

رفع سبنسر يده إلى جهاز الاستشعار الإلكتروني، فومضت كلمة *بوم* باللون الأخضر في الضوء، ثم اختفت. *بوم*، فكر سبنسر في نفسه. ذات مرة، عندما كان في التاسعة من عمره، أقنع سبنسر وشقيقه الأكبر كال، رجلاً عجوزاً من رجال الجبال، اسمه راتلر، أن يأخذهما ليشاهدا طيور البوم، لأنهما كانا لا يزالان صغيرين جداً لممارسة الصيد. مشى راتلر بالصبيين آرووود عبر كل سلسلة تلال فوق الصياح، حيث كان يعلمهما البحث عن ريش الأجنحة فوق العشب الطويل في حقل ما، وأن يصغيا إلى صوت البوم اليقظ المستعد لتتبع فريسته بأقل

صوت حفيف، أو ظل حركة. لقد علمهما كيف ينعقان كالبومة، وأصبحا جيدين في ذلك بحيث أنه لم يكن بإمكانهما قول ما إذا كانت البومة تنعق لهما من الغابة، أم كانت تنادي واحدة من جنسها. *انتبها*، قال لهما راتلر، *عندما تنعق البومة باسميكما، فهذا يعني الموت*.

فيما بعد أصبحنا من طيور البوم، فكر سبنسر في نفسه. ذهب كال إلى فيتنام ومات في غابة طيور زاعقة، وكبر سبنسر ليصبح محامياً، يصطاد فريسة خاصة به بأقل صوت، أو بحركة واحدة كاذبة. وقد سمعه الكثير من الناس ينادى أسماءهم.

حملق في الأرض المبلّطة، والجدران المصنوعة من الطوب الإسمنتي، وصندوق العرض لنماذج منحوتة لسفن تم صنعها من قِبل سجناء حرفيين. "كنت أعتقد بأن السيد هاركرايدر سيكون في زنزانة المحكومين بالإعدام.

"لقد تم إيواؤه في الوحدة اثنان. إنها مباشرة خلف هذا المبنى. ولكن في الأيام التي تسبق إعدام السجين، يتم نقله إلى زنزانة انتظار في مؤخرة المبنى ثمانية. لم نقم بتنفيذ حكم إعدام أبداً من قبل في ريفربند، ولكن تم توضيح جميع الإجراءات بحيث نكون جاهزين.

سارا من خلال الباب إلى قاعة الزيارات الخالية، مروراً بسلسلة من الأرائك العملية، والكراسي المصنوعة من البلاستيك والفولاذ، مرتبة بمجموعات تحاورية، بحيث يمكن لعشرين أو ثلاثين مجموعة من الزوار أن تحصل على بضعة أقدام من الخصوصية مع السجين الذين حضروا لرؤيته. وتوقفا عند باب معدني آخر عند الجدار الخلفي. "هناك طريق آخر إلى الداخل،" قال. "ولكنني فكرت أن نسلك هذا الطريق، حيث أن السيد هاركرايدر موجود الآن في زنزانته. هذا هو المكان الذي ستكون فيه الليلة."

غرفة الشهود. صفوف من كراسي غرفة المؤتمرات تواجه نافذة من زجاج

سميك مغطاة بستائر. وكان هناك باب آخر أمامهم مباشرة. وقام الرجل الوسيم بدفعه فاتحاً إياه. "يمكنك كذلك أن تراها الآن، أيها العمدة. تقدَّم فوق عتبة الباب وتنحى جانباً بحيث يمكن لسبنسر أن ينظر داخل الغرفة المنيرة الفارغة.

فارغة تقريباً.

فقد كان هناك كرسي خشبي عادي استقر في منتصف الغرفة.

أشار الدليل له إلى الباب على الجدار الأيسر. "هذا يؤدي إلى الرواق،" قال. "أتعلم: الميل الأخير. الطريق الآخر هو غرفة التحكم، حيث توجد الآلات، وتوجد كذلك غرفة لتجهيزات نظام شبكة هاتف السجن. هل تريد رؤيتها؟"

لقد قام الدليل بجولته مرات عديدة من قبل، ولم يتم تنفيذ حكم إعدام بعد، ولكن ربما أن الجو الخيالي لهذا المكان لا يزال يجعله متوانياً. ورفض سبنسر الدعوة لرؤية الغرف الأخرى. لقد كان هناك القليل جداً من الوقت.

ظهرا في الممر المبلّط الذي ذكّر سبنسر بمبنى مدرسة يوم الأحد في الكنيسة الجديدة. وأظهر الباب الأيسر المفتوح مطبخاً صغيراً. من الممكن أن تجعله غرفة استقبال لحفل زفاف، أو لاجتماع كشافة في الغرفة المنيرة الفارغة في الخلف ـ لولا الكرسي الخشبي الذي في الوسط.

بعد بضع خطوات بجانب مدخل المطبخ، رأى سبنسر الزنزانات الثلاث الوحيدة ذات القضبان في ريفربند. كان لغرف السجناء العادية أبواب حديدية زرقاء يمكنهم قفلها بمفاتيحهم الخاصة. وللمبنى أربعة، حيث يتم حجز مثيري الشغب، أبواب زنزانة صلبة مع فتحة ذات جزء متحرك لإيصال الطعام إلى السجين، وقضبان تحيط بالمناطق المختلفة من ذلك المبنى كاحتياطات أمنية، ولكن لا توجد زنزانات كهذه. لقد كانت تلك زنزانات سجن، مألوفة جداً لعمدة المقاطعة أكثر مما كانت لحارس سجن معاصر.

داخل الزنزانة الأخيرة ذات القضبان، جلس رجل يرتدي بنطال جينز، وقميص عمل قطنياً أزرق، على سرير معدني، يكتب على مجموعة أوراق قانونية صفراء اللون. وجلس حارس مسلح على كرسي من النوع الذي يطوى، في الردهة، يراقب الزنزانة بجو من الملل القلق.

تقدَّم سبنسر نحو القضبان. وقال: "شكراً لرؤيتك لي.

رفع فيت هاركرايدر نظره. كان شعره رمادياً الآن، وكانت هناك خطوط في وجهه، ولكن عينيه لم تتغيران. وضع مجموعة الأوراق القانونية جانباً، ومشى إلى القضبان.

لمس الحارس ذراع سبنسر. "سأكون عند نهاية القاعة،" قال. "لا تتأخر."

نجح الحارس الجالس على الكرسي المعدني القابل للطي في أن يبدو كما لو كان غافلاً عن المشهد الذي أمامه.

"كنت مضطراً للتحدث معك،" قال سبنسر.

أومأ السجين برأسه. "فرانكي سيلفر،" قال. "لم أفكر بها منذ سنوات. لقد تزوجت شقيقة والدي من رجل من هناك، في مقاطعة ميتشل. عمي ستيف. لقد اعتاد أن يغني تلك الأغنية القديمة في بعض الأحيان عندما لم يكن ثملاً جداً بحيث يتذكر الكلمات. *هذا النهار المروع والمظلم والكئيب/ جرف أمجادي بعيداً*. ..." ابتسم فيت هاركرايدر بمرارة. "من المؤكد أنها تلائم مزاج اليوم، أليس كذلك؟"

"أعتقد ذلك،" قال العمدة.

"بعد ذلك يمكنهم أن يعزفوا 'عشب الوطن الأخضر الأخضر.' إن ذلك يستدر الدموع حقاً.

"لم أحضر إلى هنا، في الواقع، للتحدث عن الموسيقى.

tele @ktabpdf

"نعم، أعرف. لقد جئت من أجل العرض، أليس كذلك؟ تريد أن تتأكد من أنهم قتلوني. أنت الشخص الذي وضعني هنا. أتعتقد بأنني لا أذكر ذلك؟ لا ينسى المرء الكثير في عشرين عاماً إذا لم يكن هناك شيء ينظر إليه سوى طوب إسمنتي.

جئت لأنني فهمت أخيراً قضية هاركرايدر،" قال سبنسر. "الفضل لفرانكي سيلفر. لمدة مائة وأربع وستين سنة تساءل الناس ماذا قصد والد فرانكي عندما أوقف كلامها على المشنقة بقوله: *موتي وهو بداخلك، يا فرانكي*. عندما فهمت ذلك، عرفت ما الذي كان يزعجني بشأن وضعك."

"هل من المفترض أن أهتم بما تفكر فيه؟"

حسناً، أعتقد بأنك يجب أن تحصل على تخفيف الحكم."

هز فيت هاركرايدر كتفيه استهجاناً. "توقيع عريضة استرحام، إذن. هناك العشرات منها. لقد أرسل البابا رسالة لطيفة إلى الحاكم نيابة عني، وسمعت أن الناس المناهضين لعقوبة الإعدام يعدّون صلاة هذا المساء. شموع وكل شيء. وأرسل اثنان من نجوم السينما فاكسات إلي يعدان بتقديم دعمهما، إلا أنهما غير متأكدين تماماً ما هو الذي يفترض أنني قد فعلته. لقد بدا فجأة وكأن لا أحد يريدني أن أموت. إنني أتساءل ما إذا كان ذلك لأنهم جميعهم متأكدون إلى حد ما أن ذلك سيحدث."

"ليس من الضروري أن يحدث،" قال سبنسر. "ليس إذا قلت لهم ماذا حدث حقيقة في تلك الليلة على الجبل.

"أعتقدت بأنك كنت تعرف ذلك، سيد آروود. لقد كنت تبدو واثقاً من نفسك جداً في المحاكمة.

"كنت واثقاً، ولكنني كنت صبياً حينئذ. وكذلك كنت أنت.

"والآن تعرف شيئاً مختلفاً؟"

"الآن أعرف."

"إذن أتيت متحمساً إلى هنا لتنقذ حياتي، أليس كذلك؟"

"إنني مستعد للمحاولة. قل الحقيقة بشأن جرائم الممر الجبلي. يمكنك أن توقف هذا."

ابتسم فيت هاركرايدر. "إننا نحاول فعلاً أن نوقفه، أيها العمدة. من أجل هذا وجد المحامون. إن ألان موجود في مكتب الحاكم الآن، يحاول أن يدخل ليراه من أجل مناشدة بالتأجيل. لقد نسيت الأسباب. لايهم. مهما يرد إلى ذهنه، على ما أظن. والآخر، قد يكون جوستين، أعتقد ـ يا للجحيم كلاهما لا يزال صبياً ـ بأن جوستين صعد على متن طائرة وسافر إلى واشنطن للتحدث مع المحكمة العليا. إنني مشهور، يا سيد آروود. الجميع سمع بي."

"صحيح. ولكن لم يسمع أحد بتوم أو إيول، أليس كذلك؟"

حملق فيت هاركرايدر به للحظة جمود. ثم هز كتفيه لامبالياً، وابتعد. "أظن أنهم لم يسمعوا بهما،" قال بشكل عَرَضي. "الخروف الأسود، في العائلة هو الذي يحظى بكل الاهتمام."

"ليس هذه المرة. لقد كنت أقوم ببعض التحريات. لقد كنتَ وقت وقوع جرائم الممر الجبلي قاصراً. وكان شقيقاك الاثنان فوق الثامنة عشرة. وأنت ليس لك سجل جنائي، وهما لهما سجل جنائي. لذا ـ ماذا قالا لك عندما ألقي القبض عليك بتهمة القتل؟ *تحمَّل العقوبة، يا لافاييت. فأنت دون السن القانونية، وستقضي سنتين على الأكثر. فقط لا تورط شقيقيك. يمكنك أن تنقذنا. فقط لا تقل شيئاً أبداً*. ألم يكن شيئاً من هذا القبيل؟"

هز فيت هاركرايدر كتفيه لا مبالياً. "إنها روايتك أنت، أيها السيد."

أومأ سبنسر برأسه. "*موتي وهو بداخلك، يا فرانكي*. إنها القصة القديمة ذاتها. العائلات الجبلية تُخلص لبعضها البعض، مهما كان الأمر. لقد كنت على استعداد لأن تموت لتتجنب خيانتهما."

لم يقل فيت هاركرايدر شيئاً.

"ولهذا السبب كان الدم في مسرح الجريمة مطابقاً لدمك. العائلة ذاتها. واليوم، بواسطة الحمض النووي كان بإمكاننا الحصول على مطابقة أدق، ولكن في ذلك الوقت كانت النتائج أقل دقة. لقد كنا قريبين، ولكن ليس بما يكفي.

صمت.

"توم وإيفول ارتكبا الجريمة، ولكنهما أعطياك المجوهرات لتبيعها. وجميع الأدلة التي ربطتك بمسرح الجريمة كانت تربطهما كذلك. أشقاء. فصيلة الدم ذاتها. جميع الإفرازات. هناك فقط أمران لا أفهمهما: لماذا قتل شقيقاك هذين الشابين بذلك العنف، ولماذا لم تقل الحقيقة أبداً بشأن ما حدث ـ لا سيما بعد صدور الحكم عليك بالإعدام؟"

كان فيت هاركرايدر يحملق في الجدار الفارغ، حيث كان يجب أن تكون هناك نافذة، ولكن لم يكن هناك شيء. في مكان ما وراء حائط الطوب الإسمنتي كان يوجد النهر، والتلة المغطاة بشجر الدردار. ويُفترَض أن تكون التلة الآن بلون أخضر غامق، وغطاء من الشجر يقودك من سلسلة تلال إلى أخرى، كما لو أن موجة الغابة الخضراء ستحملك إلى الوطن. تنهد. "من كان سيصدقني، أيها العمدة؟"

"أنا كنت سأصدقك. لقد أجريت تحرياً في السجلات بشأن شقيقيك. أردت أن أعرف ماذا حل بهما في السنوات العشرين الأخيرة."

"إننا لا نبقى على اتصال."

شعر سبنسر بالعرَق ينخزه على رقبته. *إنني متوتر أكثر منه*، فكر في نفسه. *ربما لأنه كان يكافح هذا لعشرين عاماً، وأنا بدأت للتو.*

قال: "أجريت التحري عن السجلات من خلال مكتب تحقيقات تينيسي. في وقت وقوع جرائم قتل الممر الجبلي، كان شقيقاك مدانين بجريمتين لكل منهما. واحدة سرقة سلع من متجر أثناء التظاهر بالشراء، وواحدة سرقة متجر صغير.

"سرقة سلع؟" لقد كانت ابتسامة السجين ساخرة.

" كانت سرقة صغيرة تعتبَر في تينيسي جريمة في ذلك الوقت. كان لدينا كذلك قانون آخر بسيط ومضحك حينئذ. هل تذكر ذلك؟ ثلاث إدانات بجرائم، وتصبح غير جدير بالحصول على إطلاق سراح مشروط. للأبد. لقد تم إلغاء القانون بعد بضع سنوات، ولكن في زمن جرائم القتل تلك، كان شقيقاك يعرفان أنه إذا تمت إدانتهما بتلك الجريمة، فإنهما كانا سيحصلان إما على عقوبة الإعدام، أو المؤبد في السجن بلا أمل في الإفراج عنهما.

تنهد فيت هاركرايدر وأشاح بنظره بعيداً. وتساءل سبنسر ما إذا كان يتذكر بندم محادثة جرت منذ زمن طويل مع شقيقيه، أم ما إذا كان قد سئم فقط من الحديث عن الأمر. إن عشرين سنة سجن مترافقة مع عشرين سنة من المعارك القانونية من شأنها أن تجعل المرء يسأم الحياة.

"لا بد أنه بدا طلباً معقولاً في ذلك الحين،" قال العمدة. "لا يمكن لشقيقيك تحمُّل إدانة. أنت ليس لديك سجل جنائي، وفي السابعة عشرة من عمرك. عندما تم إلقاء القبض عليك وبحوزتك المجوهرات، يقولان لك لا تقل شيئاً عن حقيقة ما حدث. تحمَّل العقوبة إذا اضطررت لذلك. إنك ولد. وستكون بضع سنين فقط. يمكنك القيام بذلك. ولكنك، أمام ذهول الجميع، حصلت على عقوبة الإعدام. وبعد ذلك تورّطت، أليس كذلك؟"

"لقد قلت إنني كنت غير مذنب."

"جميع السجناء يقولون إنهم غير مذنبين. لقد ألقينا القبض عليك وبحوزتك

الممتلكات الشخصية للضحية. لا بد أنك كنت تعرف أنه إذا لم تفسر ذلك، فسوف تتم إدانتك. وجد سبنسر نفسه يفكر بفرانكي سيلفر. *لقد ألقينا القبض عليك بسبب كذبة. لماذا لم تخبرنا بحقيقة ما حدث؟* فيت هاركرايدر لم يقل الحقيقة للسبب ذاته الذي أبقى فرانكي سيلفر صامتة. *لأننا سلتيون (من سكان بريطانيا القدامى)، وسكان الجبل*، فكر في نفسه. *إننا لا نثق بشخصيات السلطة، ولم نثق بهم منذ وصول الرومان إلى بريطانيا، وبدئهم إصدار الأوامر. إننا لا نعتقد أبداً بأن القانون سيكون إلى جانبنا، ونحن تسع وتسعون مرة من أصل مائة، على حق. من أكون أنا لأغير هذا اليوم؟"*

"إذن فقد حملت اللوم عن جريمة شقيقيك، وأمضيت حياتك في سن الرشد كلها في السجن،" قال. "يا لها من خسارة."

"نعم، حسناً، لقد كنت أبلغ السابعة عشرة، ماذا بحق الجحيم كنت أعرف؟"

"كنت تتعلم بسرعة، على أي حال، أليس كذلك؟ أراهن أنك في أول مرة تم فيها اغتصابك في زنزانتك، كنت نادماً حقاً أنك كنت نبيلاً جداً."

هز الرجل المُدان كتفيه لامبالياً. "إنك تعتاد على كل شيء. لقد بقيت على قيد الحياة."

"لم يكونا جديرين بذلك، أنت تعرف هذا. هذان الشقيقان. لقد أجريت التحريات في السجلات عنهما قبل أن أحضر إلى هنا. ربما لا تريد أن تعرف ماذا حل بهما، ولكنني كنت أريد ذلك.

"اكتشفت الأمر، أليس كذلك؟ لا بد أن ذلك كان مشوّقاً."

"لا أدري ما الذي كنت آمله: ما إذا كنت أريد أن يتضح أنهما قاتلان من القتلة ذوي السمعة السيئة الذين يرتكبون سلسلة من الجرائم بالأسلوب ذاته، أم مبشرين تم إرسالهما إلى الصين. أظن أنني أردت أن يكونا أفضل منك تماماً أو

أسوأ منك بشكل مطلق. ولم يكونا لا هذا ولا ذاك، بالطبع. أطلق سراح توم قبل انتهاء مدة العقوبة في كنتاكي، حيث كان متهماً بالاختطاف، والسطو المسلح، مما جعلني أتساءل ماذا فعل غير ذلك ولم يتم القبض عليه بسببه. ولم يكن إيول موجوداً على الحاسوب، ولكننا وجدناه من خلال قسم تسجيل السيارات، فشقيقك إيول سكير يعتاش على المعونة الاجتماعية وأعمال متنوعة متقطعة في نوكسفيل. وأشك في أن يدوم كبده لفترة أطول من ذلك.

"توم وإيول،" قال فيت هاركرايدر بتأمل. "لم أفكر بهما كثيراً حقاً منذ سنوات. في عقلي لا يزالان في العشرين أو أكثر قليلاً. الرسائل التي تصلني من الأهل لا تذكرهما.

"ألا يهمك ما حل بهما؟ لقد تنازلت عن حياتك من أجلهما."

"كنت مهتماً في بداية الأمر، ولكن ... يا للجحيم: إن السجن بلد آخر. إنه يبدو وكأن حياتي السابقة كانت تجسيداً آخر ـ أي أنني كنت أنا في تلك الأيام، ومع ذلك لست أنا، لذا فليس هناك أي من الناس أو الأماكن من السابق حقيقياً إلى حد ما. توم وإيول لم يعودا حقيقيين بالنسبة لي الآن أكثر من الناس الذين كنت أراهم في أفلام السينما عندما كنت صبياً صغيراً. ربما أنهما أقل حقيقة. إنني لا أزال أرى جون وين بين الحين والآخر.

"لست مضطراً للاستمرار بالكذب،" قال سبنسر. "دعنا فقط ندعو إلى مؤتمر صحفي وتروي حقيقة ما حدث."

للحظة واحدة ومض شيء ما في عيني السجين. وأخذ نفساً عميقاً. "هل لديك أي دليل جديد؟ الحمض النووي (دي إن إيه)؟"

"لا. لقد اختفت جميع الأدلة المادية. كل ما لدينا هو صور مسرح الجريمة، ومقابلات مع الشهود، ولكنها لم تتغير منذ المحاكمة."

"وماذا عن توم وإيول؟ هل سيقومان بمساندتك؟"

أشاح سبنسر بنظره بعيداً. "لا. لقد اتصلت بهما الليلة الماضية. إيول يقسم أنه بريء، وتوم أغلق الهاتف في وجهي. إنك لوحدك."

"إذن، ستكون أقوالي وإحساسك الباطني فقط أمام إدانة بجريمة قتل عمرها عشرون عاماً صمدت لعقود من الاستئنافات؟"

"نعم."

هز فيت هاركرايدر رأسه بشك فيه متعة. "إذن تدعو لعقد مؤتمرك الصحفي، وتعلن كل هذا، وماذا بعد ذلك، يا سيد آرووود؟ نخرج أنت وأنا لشرب بعض البيرة؟ لن ينفع الأمر هكذا. لن يعيرنا أحد أي اهتمام. إن موتي هو الخبر، وليس مرافعاتي القانونية. سيسكتنا ستانتون. وسيفترض الصحفيون أنه نوع من لفت الانتباه. وسيعتقد الناس بأنني جبان، وسوف يتساءلون بالتأكيد ما هي مشكلتك."

اختفت الومضة من عينيه. وأشاح بنظره بعيداً من جديد، وكان بالكاد مهتم بالمحادثة بعد ذلك، وبالكاد يصغي."

"ولكن عليك أن تحاول،" قال العمدة. "لا يمكنك ترك نفسك تُعدَم من أجل جريمة لمجرد حماية شقيقيك."

"لم يعد الأمر يخصهما بعد الآن، ألا تفهم ذلك؟ لا يهم لماذا أتيت إلى هنا، أو ما إذا كنت أستحق ذلك؟ لقد مضى عشرون عاماً. ومضى من أكون. كل ما تبقى هو رجل عجوز متعب لا يريد البقاء هنا يوماً آخر."

"ولكن يمكننا أن نوكل لك محامياً جيداً، ونطلب لك عفواً."

"لن أحصل على عفو. إنني شخص مسكين أحمق من منطقة الجبال، أيها العمدة. لماذا يزعج أي شخص نفسه ليبقيني حياً؟ قد يغيرون الحكم إلى المؤبد ويتركوني أبقى هنا وأتعفن. لقد كانت المجوهرات بحوزتي، هل تذكر؟ إنني لست مجرد متفرج بريء. تشارلز ستانتون لن يدع أحداً ينسى ذلك."

"على الأقل لن تموت."

"لم تفهم الأمر، أليس كذلك؟ لقد مت منذ عشرين عاماً. أريد فقط أن أخرج من هنا وأنتهي من الأمر. الليلة."

"في صندوق من خشب الصنوبر؟"

"أياً كان."

"حسناً، إذا كنت لن تحاول، فعلى الأقل يمكنني أن أحاول أنا. لا أريد أن يؤنبني ضميري بسببك. لدي سبع ساعات. يمكنني الذهاب ورؤية الحاكم."

هز فيت هاركرايدر رأسه. "أريد الأمر أن ينتهي، أيها العمدة. لقد فات الأوان. لقد سئمت هذه الحياة. دع الأمر يحدث، هل تسمح؟ إعتبر هذه الرغبة الأخيرة لرجل يحتضر. دع الأمر يحدث."

"ولكن."

ضرب فيت هاركرايدر ضرباً خفيفاً على القضبان. "الزائر يريد المغادرة!" قال للحارس بصوت مرتفع. وقال بصوت مرتفع ومرح، وهو يقصد أن يُسمَع: "شكراً لحضورك، أيها العمدة. تمنى لي التوفيق هذه الليلة، حسناً؟"

استدار سبنسر آروود لكي يذهب.

"سيد آروود! هناك شيء يمكنك أن تفعله من أجلي." أبرز فيت هاركرايدر ابتسامته الساخرة، ولكن عينيه لمعتا. "ليس عندي شخص آخر أطلب منه ذلك. ولكنها رغبتي الأخيرة، وأتمنى أن تمنّ بها علي."

"ما هي."

"عندما ينتهي كل شيء، أريد منك أن تأخذني إلى موطني."

الفصل العاشر

غادر سبنسر آروود السجن بعد الثالثة بقليل من بعد ظهر ذلك اليوم. لقد تحدث إلى آمر السجن عن الترتيبات النهائية في حال لم تتم الموافقة على تأجيل لتنفيذ حكم الإعدام. كانت هناك أوراق ينبغي التوقيع عليها، ولكن الأمر لم يستغرق طويلاً. والآن لديه ست ساعات ليضيعها ـ لقد كان بعد ظهر يوم عديم النفع بالنسبة له، ولكن بالنسبة لفيت هاركرايدر كان يعني كل الوقت الذي في العالم. كان لا يزال بإمكانه الاتصال بالصحيفة، أو بالمحطة التلفزيونية المحلية لكشف نظريته بشأن الجرائم، ولكن كان يعلم أنه لن يحقق شيئاً بهذا التمثيل سوى وصم نفسه بأنه معتوه يمتنع عن رؤية رجل يُعدَم. وإذا قدَّم أي مزاعم بشأن جرائم قتل الممر الجبلي، فإنه سيطلب من تشارلز ستانتون أن يعلّق عليها، بالطبع، وليس لدى سبنسر شك في أن الكولونيل سيدمره ببضع كلمات ندم مختارة بعناية. لن يتم الاحتيال على ستانتون بشأن الإعدام الذي طال انتظاره.

كان بإمكانه أن يسمع الآن صوت الكولونيل التهكمي. *قبل بضعة أيام، كان العمدة على استعداد لأن يصدق أنه تم ارتكاب جريمة قتل حديثة من قِبل هذا القاتل الفامض. والآن يريد أن يطلق سراح رجل أدين قانونياً على أساس هذا الدليل الملفق. إنني أهتم كل الاهتمام بالعمدة الذي أصيب أثناء تأدية الواجب، ولكنني أعتقد بأن سكان مقاطعة ويك سيسألون أنفسهم إذا كان لا يزال مناسباً للقيام بمهام منصبه.*

لا ، لا يمكنه محاربة ستانتون ، سيد المؤتمر الصحفي . لو أراده فيت هاركرايدر أن يعارض تنفيذ حكم الإعدام ، فإنه قد يحاول ، ولكن لا يمكنه محاربة الطرفين في آن واحد .

كان سبنسر يعرف أنه لن يكون بإمكانه توقع تأييد من السجين نفسه . لقد جعل فيت هاركرايدر الأمر واضحاً في أنه لن يقول شيئاً بالإصالة عن نفسه ، وقد كان على صواب : إن تصريحاً من قاتل مُدان لن يشكل أي فرق بالنسبة للسلطات ، حتى لو تم وضع عقوبة الإعدام جانباً ، فلن يتم إطلاق سراح هاركرايدر . قد لا يكون قاتلاً ، ولكنه لم يكن بريئاً . في أحسن الأحوال كان شريكاً بعد وقوع جريمة القتل ، وسيُعنى ستانتون بأمر عدم مغادرته رفربند أبداً . لو كان إحضار القاتلين الحقيقيين أمام القضاء سيجعله ينال حريته ، فربما أنه كان سيفعل ذلك ، ولكنه لن ينال حريته ـ لذا ، فما الفائدة؟

عندما وصل سبنسر إلى ساحة مرآب السجن ، كانت وحدات تلفزيونية متنقلة قد نصبت معداتها تحضيراً لتغطية تنفيذ حكم الإعدام . ربما كان خطاب الحاكم قد كُتِب فعلاً ، وأعدّت منه نسخ مطبوعة بالليزر بشكل متقن لتوزيعها على جميع موظفي الإعلام . كان يمكن لسبنسر أن يشعر بالتوتر في السجن ، والإثارة المكبوحة بين الفنيين المتدافعين في ساحة المرآب . *سوف يحدث* ، فكر في نفسه . *لقد كان يجمع زخماً لوقت طويل ، ولا يمكن أن يوقفه شيء الآن . ولا حتى الحقيقة . ستكون الحقيقة هي ما يبثونه من ساحة المرآب هذه ، وليس ما حدث على الجبل قبل عشرين عاماً .*

أن تعرف هو شيء ؛ وأن تغيّر هو شيء آخر . لقد كانت نورا بونستيل على صواب بشأن ذلك .

قاد السيارة خارجاً من كوكريل بند ، مواصلاً إلى سنتينيال ، ومباشرة إلى شارع بريللي ، نحو طريق I-40 وعلى طول طريق الجسر الأبيض . أبطأ السرعة

عند ناشفيل تيك، معتقداً للحظة ارتباك بأنه وصل إلى سجن آخر، ولكنه أدرك بعد ذلك أنها كانت كلية. لقد كانت السجون هي كل ما يشغل ذهنه.

رأى لوحة إعلانات لأوبريلاند. كانت الكلمات امتطي الجلاد مزركشة على صورة لسكة حديدية أفعوانية في مدينة الملاهي. نظر سبنسر بعيداً. الجلاد. لقد تربص الموت حتى بلوحات الإعلانات.

لقد كان سبنسر ينوي أن يقود السيارة حول آشفيل لفترة من الوقت، ولكن هواء الأرض المنبسطة الرطب النتن أغمّه، وعندما رأى المدخل إلى سوق رأس الأسد التجاري على طريق الجسر الأبيض، انعطف نحو ساحة المرآب، حيث عثر على موقف فارغ بجانب المسرح. لقد كانت الأفلام أفضل مكان ممكن لتمضية باقي اليوم. لم يكن هناك ما يريد أن يشاهده، ولكن، على الأقل، كان المبنى مكيفاً، ولن يتوقع أحد منه أن يجري حديثاً. في ظلام المسرح البارد، حملق العمدة في الشاشة، مسجلاً الألوان والأصوات، ولكن بعدئذ لم يكن بإمكانه أن يقول ماذا كان الفيلم الذي شاهده. أحد أنواع الكوميديا، فكر في نفسه، أو فيلم حركة ـ مغامرات يستهدف الأولاد المراهقين. لم تكن الشاشة قادرة على مزاحمة أفكاره. واستمر في تمرير الاحتمالات خلال ذهنه كما لو كانت حركات متناوبة في لعبة شطرنج. *لو فعلت هذا، عندئذ قد يقول الحاكم أن*... لم يتمكن من ابتكار سيناريو من شأنه أن يمنحه الكثير لتجميد الحركة كما يحدث في وضع إحراج الشاه في لعبة الشطرنج. كل فرضية كانت تنتهي بموت هاركرايدر. لقد بدأ سبنسر بالتساؤل لماذا كان يهتم إلى حد كبير، مع عدم الاكتراث حتى بنوايا الرجل المُدان. هل كان الرجل المُدان هو الذي يهمه، أم هل كان يرضي رغبته في أن يكون بريئاً؟

لقد تذكر ما قاله له نيلسي ميلر منذ زمن طويل. *كان بإمكانك النظر داخل مهد فيت هاركرايدر، وأن تقول إن الأمر كان سينتهي به في السجن. إن لم يكن لأمر ما، فقد يكون لأمر آخر.*

tele @ktabpdf

بقي حتى نهاية ذلك الفيلم، وفيلمين آخرين قبل أن يحين وقت العودة إلى السجن. بحلول ذلك الوقت كانت الشمس قد غابت، ولكن كان لا يزال تموز/يوليو في وسط تينيسي، حرارة متوهجة ساكنة، خلافاً للأمسيات الباردة على الجبال هناك في الموطن. وعندما انعطف على كوكريل بند، تمكن من رؤية أضواء السجن، وقد تضخمت الآن مع توهج أضواء البث التلفزيوني في ساحة المرآب. عندما خرج سبنسر من السيارة، أخرج تصريح مرور الزائر من جيبه، ولكنه لم يضعه. لم يكن يريد أن يعرف الصحفيون من كان. وكانت مجموعة من المحتجين مع لافتات على أعمدة، وشموع تقف عند الزاوية البعيدة عن ساحة المرآب، ولكنهم لم يصرخوا عليه وهو يشق طريقه باتجاه المبنى. واقترب أحد المراسلين الصحفيين منهم مع مصور يتبعه، وكان انتباههم مركزاً على دقائق شهرتهم القليلة. وعند واحدة من الوحدات التلفزيونية المتنقلة، كان تشارلز ويث ستانتون يقف في بقعة ضوء، يتحدث إلى ميكروفون المذيع الذي يجري المقابلة. وكان يقول: "هذا ليس بشأن الانتقام، إنه بشأن الختام. يجري الفصل الأخير من جرائم قتل الممر الجبلي الليلة. إن أفكاري مع ابنتي."

كانت الساعة العاشرة وبضع دقائق. وكان موعد تنفيذ حكم الإعدام مقرراً في الساعة 11 مساء، وذلك لثني المتظاهرين أكثر من كونه لتقديم كل دقيقة ممكنة للسجين من آخر يوم له على وجه الأرض. وفي مبنى الإدارة، مر سبنسر خلال إجراءات الدخول ذاتها كما حدث من قبل، وعندما أضيئت كلمة بومة على يده، تم إرشاده خلال بوابة الدخول لصد الهجمات في أعقاب آخرين يحضرون تنفيذ حكم الإعدام.

مشى الشهود خلال قاعة الزوار الفارغة، إلى الباب مقابل الجدار الخلفي. لقد كانوا صامتين، ومشوا لوحدهم، باستثناء شابين كان يبدو أنهما يعرفان بعضهما البعض، وكانا يتحدثان معاً بصوت منخفض. لقد عرف سبنسر أنه لا بد أن

يكونا مراسلين صحفيين تم إرسالهما لتغطية تنفيذ حكم الإعدام. وكان الكولونيل ستانتون قد أنهى للتو المقابلة معه، آخر من دخل. لقد جاء لوحده.

لم يتم تبادل مجاملات من قِبل الشهود. لقد وقفوا بقلق كأغراب في المصعد، غير راغبين بالاعتراف بحضور بعضهم البعض. بعد بضع لحظات تردد، أخذوا مواقعهم في كراسيهم المعدنية المواجهة للنافذة ذات الزجاج السميك، والتي كانت الستائر عليها مغلقة الآن.

ودخل وراءهم حارس يرتدي الزي الرسمي، ووقف بجانب الباب، ومن الواضح أنه كان في موقع مناسب لإلقاء خطاب. "مساء الخير أيها السادة،" قال. "من المقرر لنا أن نبدأ خلال حوالي خمس عشرة دقيقة، لذا دعونا نستعرض بعض الأمور معكم. أولاً وقبل كل شيء، أود أن أكرر: لا كاميرات، ولا أجهزة تسجيل. أي أسئلة؟"

لم تكن هناك أي أسئلة. حملق الشهود بالحارس بقلق، ولكن عيونهم بقيت تشرد نحو الستائر المغلقة التي غطت النافذة ذات الزجاج السميك.

"إن الإعدام بالصدمة الكهربائية هو الشكل الوحيد من أشكال الإعدام المُستخدَم في ولاية تينيسي. ولم يُستخدَم هذا الكرسي في تنفيذ أي إعدام، ولكن كان يتم فحصه بشكل شامل. هذا، وينبغي أن تعرفوا ماذا سيحدث عندما يحين الوقت. في الإعدام بالصدمة الكهربائية يتم إعطاء السجين صدمة أولية بقوة ألفي فولت، وصدمات أخرى فيما بعد مخفّضة إلى حوالي ستمائة فولت، ويتم الحفاظ على التيار ثابتاً على ذلك المعدل لمدة سبع وخمسين ثانية. وتُعاد العملية مرة ثانية، وتتبع بشحنة ثالثة وأخيرة بقوة ألفي فولت، وبعد ذلك يتم قطع التيار. يقوم الطبيب بالفحص للتحقق من أي علامات للحياة، وإذا وجد أن الحياة فارقت الجسد، سوف تُترك الجثة مكانها لمدة ثلاثين دقيقة، وتُفحص مرة ثانية، وتُنقَل

بعد ذلك إلى نقالة ذات عجلات لإخراجها من المبنى من أجل التشريح اللاحق للجثة، ولدفنها. أو، ينبغي أن أقول، للتخلص من رفات الجثة. أعتقد بأن السيد هاركرايدر قد طلب حرق الجثة."

"أين هاركرايدر؟" سأل أحدهم.

"السجين لم يغادر الزنزانة الهادئة بعد،" أجاب الحارس. وأضاف، كأنما كان يتوقع أفكارهم: "على أي حال، لقد تم حلاقة شعر رأسه في وقت مبكر من هذا المساء، وتناول وجبة طعامه الأخيرة."

صاح أحد المراسلين الصحفيين: "ماذا كانت وجبته الأخيرة؟"

راجع الحارس دفتر ملاحظاته. "شطيرتان من البرغر بالجبن، وميلك شيك، وقطعة من فطيرة توت العليق."

"هل تناولها؟"

"أعتقد ذلك؟"

ضيّق تشارلز ستانتون عينيه. "لقد تناولت ابنتي وجبتها الأخيرة قبل عشرين عاماً وعشرة أشهر. هيا لننهي الأمر."

بدا الحارس مفزوعاً من هذا الثوران. لقد كان أول تنفيذ لحكم إعدام بالنسبة له، بالطبع، ولم يكن مستعداً لانفعالات عاطفية من الشهود. وقرر تجاهل التعليق، ثم تنحنح وتابع خطابه. "بعد عشر دقائق من الآن، سيقوم 'فريق تقييد السجين' ـ مجموعة من الشرطة يرتدون خوذات ودروعاً سوداء ـ بدخول زنزانة السيد هاركرايدر، وسيكبلون رجليه، وسيضعون الأغلال على معصميه أمام جسمه، وسيقومون بوصل سلسلة حول البطن بحلقات الأغلال. في ذلك الوقت، سيتم جعل السجين يسير الخطوات الأربعين، أو ما يقارب ذلك، من الزنزانة الهادئة إلى الغرفة التي تقع خلف ذلك الجدار، حيث سيتم إجلاسه في الكرسي الكهربائي.

عند ذلك الحين سأقوم بفتح الستائر التي على نافذة المشاهدة. هل تتابعون معي حتى الآن؟ إذا كان أحدكم يريد الخروج، فالآن هو الوقت المناسب للمغادرة."

لم يتحرك أحد. كان الشابان اللذان يرتديان قمصاناً وأحذية رياضة، يدونان ملاحظات على دفاتر ذات أوراق مسطرة.

كان سبنسر يجلس عند الممر الأيسر من الصف الثاني في موقع جيد يظهر فيه بوضوح الباب المؤدي إلى القاعة حيث كانت الزنزانة الهادئة موجودة. وتساءل ما إذا كانت المنطقة عازلة للصوت. لم يتمكن من سماع تمتمات أصوات، ولا أصوات أبواب تغلق، أو وقع خطوات. لو كانت هناك صرخات، هل سيكون قادراً على سماعها؟

نظر إلى ساعته. مرت دقيقتان منذ آخر مرة نظر إليها. نظر حوله إلى الشهود الآخرين، متسائلاً ما إذا كان أي منهم قد يكون غير قادر على التعامل مع التوتر الناجم عن مشاهدة رجل يموت في كرسي كهربائي. وهل سيقوم الطبيب الموجود في حالة تأهب بالعناية بالشهود المصابين بالإغماء، بالإضافة إلى التأكد من أن الرجل المُدان كان ميتاً؟

كان يمكن لسبنسر أن يشعر بقلبه ينبض، وكانت أنفاسه تأتي على دفعات. وتساءل ما إذا كان قد أفرط في إرهاق نفسه مبكراً أكثر مما ينبغي بعد العملية الجراحية، أم ما إذا كان يشعر بالقلق الذي شعر به جون بون عندما حان وقت شنق فرانكي سيلفر. لقد اعتقد بأنه لا بد أن معاناة بون النفسية كانت أسوأ: في عام 1833 قام عمدة مقاطعة بيرك بتنفيذ حكم إعدام بفتاة في التاسعة عشرة من عمرها كان يعرف أنها كانت بريئة من جريمة قتل من الدرجة الأولى. في تلك الأيام، كان من الممكن أن يذهب الأشخاص الأبرياء إلى المشنقة، وقد ذهبوا فعلاً، ولكن في الوقت الحاضر، فإن أبشع الجرائم فقط هي التي يُحكم عليها بعقوبة الإعدام: ومن النادر على مجرم للمرة الأولى، أو قاتل لضحية واحدة، ونادراً على

tele @ktabpdf

مواطن شريف تم دفعه فوق طاقة التحمل العاطفي. وفيما عدا استثناءات قليلة، فإن المحكوم عليه بالإعدام اليوم هو شخص يعاني من حالة من السادية والاضطراب العقلي، والقاتل المأجور، والحثالة من عالم المخدرات. واليوم، لم تكن فتاة صغيرة بريئة تدافع عن طفلتها لتصل أبداً إلى زنزانة المحكومين بالإعدام. لقد كان من الأصعب الشعور بالتساهل تجاه هؤلاء الرجال أكثر من الشعور بالحزن لمحنة فرانكي سيلفر. إن التماساتهم للرحمة لم تكن مرافعات براقة عن البراءة، ولكن مطالب خادعة للتقنيات، والمنافذ، والمناورات السياسية. كان يمكن أن يتمنى الرحمة لبعضهم، ولكن لم يكن بإمكانه الإشفاق عليهم، حتى وهو يتألم من أجل فتاة ماتت قبل قرن من ولادته. لم تكن واحدة منهم.

سمع سبنسر الصحفيين الاثنين الجالسين في الصف الأول وهما يهمسان لبعضهما البعض. "هذا أرخص بكثير، يا رجل،" كان أحدهما يقول. "تزعم نورث كارولينا أن قتل سجين بحقنة قاتلة يكلف 346.51 دولاراً. ولكن الكرسي لا يستهلك أكثر مما قيمته اثنان وثلاثون سنتاً من الكهرباء."

"إنه أكثر إيلاماً، على أي حال،" قال الصحفي الآخر.

"لا. ألفا فولت. وتصبح فاقداً للوعي في ثانيتين. ولا تعرف أبداً ما الذي يضربك."

"أنت متأكد من ذلك؟"

"أظن أننا سنكتشف الليلة. أنظر إذا كان يصرخ أو أي شيء."

كان يبدو لسبنسر أنه قد مر وقت طويل قبل أن يُفتَح باب القاعة. دخل فيت هاركرايدر يجر قدميه إلى داخل الغرفة، محاطاً بحرس يرتدون دروعاً سوداء مبطنة. وتبع الموكب رجل يحمل الكتاب المقدس، وهو يقرأ بصوت مرتفع بنغمة رتيبة ثابتة. ولم يكن أحد يعيره أي اهتمام.

كان الرجل المُدان يرتدي شبشباً يغطي قدميه العاريتين. وقد تم شق أرجل بنطاله حتى الركبة، وكان شعره مقصوصاً قصيراً جداً بشكل يجعل المرء في محيط آخر يفكر بمعسكر تدريب للجنود. كان شاحباً، وعلى جبهته قطرات من العرق، وبقيت عيناه تنطلقان بحركات مفاجئة حول الغرفة، وهي تبحث عن وجه مألوف، أو ربما عن مخرج.

وبسهولة خبير، قام فريق تقييد السجين بسند ظهر السجين في الكرسي الخشبي، وربطوا أشرطة حزام التثبيت على معصميه، ورجليه، وصدره.

"لقد كان ذلك سريعاً!" تمتم الصحفي الجالس في الصف الأول. "إنني أتساءل على من تدربوا."

"هل لا يزالون يسمون الكرسي أولد سباركي؟" رد رفيقه هامساً.

نظر سبنسر إلى ساعته. انقضى أقل من دقيقتين منذ دخل فيت هاركرايدر إلى غرفة الموت. لقد جعلوه ينتظر عشرين عاماً في زنزانة المحكومين بالإعدام، ولكن من الرحمة أنه على الأقل ستكون النهاية، عندما أتت أخيراً، سريعة.

اقترب آمر السجن، الذي كان يقف بجانب المدخل الأيمن، من الكرسي وقال بضع كلمات للرجل المُدان. لم يتمكن الشهود من سماع ما قيل، ولكن كان بإمكانهم أن يروا وجه فيت هاركرايدر، وبدا أنه لم يرد. كان يحملق في النافذة الزجاجية التي أمامه، ويغمض عينيه قليلاً، كما لو كان يحاول أن يتبين وجوهاً فردية. وجعل الحارس الأضواء في غرفة الشهود خافتة.

استدار آمر السجن ليخرج، وقام أحد أعضاء فريق تقييد السجين بوضع قلنسوة قاتمة من الجلد على رأس السجين. كان أعلى القلنسوة يحتوي على القطعة المعدنية التي ينبغي وصل السلك بها. سيدخل التيار في الجسد من خلال غطاء الرأس. وقد تم تزويد غطاء الرأس بقطعة متحركة تغطي *النصف* العلوي من وجه السجين. وهو الآن مجرد شكل بشري مكبل في الكرسي الخشبي.

وعندما أخذ آمر السجن مكانه القديم بجانب مدخل غرفة التحكم، وكسر الصمت صوت رنين هاتف. وتكلم أحد الصحفيين بصوت يشبه النباح وأمسك بذراع رفيقه. كان تشارلز ستانتون يحمل صورة لابنته. أمسك سبنسر بطرفي كرسيه بإحكام، وكان يحبس أنفاسه.

قال صوت من الغرفة الأخرى بوضوح: "لا. هذا بيت الموت." بعد ذلك خيم الصمت.

"الرقم خطأ،" تمتم شاهد آخر بقهقهة كانت بين الإحراج والذعر.

بدأ تنفيذ حكم الإعدام بدون أن يكون سبنسر على علم به أولاً. كان يعلم أن أضواء الغرفة لن تعتم، كما يفعلون في أفلام العصابات القديمة بالأبيض والأسود، ولكنه توقع ضجة أزيز مرتفعة، أو أية إشارة أخرى إلى أنه تم تشغيل ضغط كهربائي عالٍ. لقد ترك عينيه تجولان للحظة نحو الوجه المفزوع للواعظ، وبعد ذلك كانت هناك شهقة من ورائه جعلته ينظر مرة ثانية إلى الرجل الذي في الكرسي. لقد تيبس فيت هاركرايدر، وبدا كأنه يضغط على القيود، أو ربما أن قوة التيار قذفته إلى الأمام عليها. ولحوالي دقيقة، بالرغم من أنها بدت أكثر من ذلك، تدفق التيار خلال جسم السجين محافظاً عليه متخشباً على القيود، وبعد ذلك سقط الجسد إلى الخلف.

ولم يتحرك أحد.

ضم فيت شقيقه إيول في الظلام وهو يرتجف في ليلة باردة من ليالي تموز/يوليو، وكان يراقب السماء ويتنفس رائحة العشب. لقد كان في الرابعة من عمره - ربما في الخامسة - ليس الطفل الأصغر في الميدان، ولكن بالتأكيد الوحيد الذي في الخارج لوحده مع شقيقيه الأكبر بدلاً من أن يكون في المهد فوق بطانية بين أبوين شغوفين به. لقد كان الوقت متأخراً. كان والدي يطاردهما ليذهبا إلى

السرير قبل الآن، لذا فقد تعلما أن ينصرفا قبل أن يبدأ شربه المفرط للخمر، وهو يعلم أنه طالما أن الولدين كانا بعيدين عن النظر، فإن الرجل العجوز لم يكن يهتم بما إذا كانا في السرير أم لا. لقد كان من الأفضل أن لا يكونا في المنزل قبل أن تتملكه ثورة الغضب. لقد كانا يعانيان من ندوب تذكرهما بأنهما يجب أن يجدا مكاناً آخر ليكونا فيه.

لم يكن بإمكان فيت أن يتذكر وجود ماما في الجوار؛ ربما كانت قد بدأت تنتقل من مكان إلى آخر في ذلك الحين. لقد ماتت عندما كان في الثامنة، ولكن عندما يتعلق الأمر بفيت، فإنها قد رحلت منذ وقت أطول من ذلك بكثير.

كان توم يعطيه سكراً بنياً على خبز لفطوره، وكان إيول يصنع له شاحنات من قطع خشبية، وأغطية زجاجات. وكانا يأخذانه معهما أينما ذهبا كجرو صغير لطيف، ولكنه عديم المنفعة. لقد ارتبى شقيقاه على حب التجول في الليل بحرية مثل حيوانات الراكون والأبوسوم، وغالباً كانا مخربين بقدر ما كانت تلك الحيوانات. فيما بعد، في سن المراهقة، سلكا طريق بابا ـ شرب الخمر إلى تلك الحالة التي تسبق فقدان الوعي، عندما كانا يصبحان غريبين، حتى لنفسيهما. كان يشعر بالخوف من الذهاب معهما. فيما بعد، لم يعودا يتذكران الأشياء التي كانا يفعلانها أبداً. ولكنه لم ينسَ أبداً.

ليس الليلة، على أي حال.

الليلة قام توم وإيول بإحضار فيت الصغير من الجبل إلى ملعب كرة قدم مدرسة مقاطعة ويك الثانوية، حيث لم يلحظهما أحد بين الحشد الضاحك في الظلام. وقاما بشراء علبة من بسكويت الجبن، وعصير عنب بالنقود التي سرقاها من جرة نقود الرجل العجوز، وسرقا بيرته من المخبأ من أجل الطريق. لقد كانت ليلة احتفال.

تمنى فيت أن يبقى ساكناً، ولكنه في الداخل كان يتلوى بنفاد صبر ليرى العجائب التي وعده بها شقيقاه. حبس أنفاسه، معتقداً أن السحر لا يمكن بأن يحدث إلا إذا بقيت هادئاً جداً من أجله، وتمنيت حتى تؤلمك أسنانك. "هل حان الوقت؟" همس لتوم. رأى بقعة لامعة تومض بين النجوم بعيداً فوق رأسه.

"هل هذا هو؟"

ضحك توم، ونفش شعره بدفعة غير لطيفة. "الآن،" قال بسخرية. "ستعرف."

"ولكن ما الذي ستكون."

هدير، وقصف رعد.

فجأة انفجرت السماء بتدفق من الخطوط الحمراء والنجوم البيضاء، مثل الهندباء المتوهجة التي تشتتها رياح الليل، وفي تلك اللحظة كان الحقل مشعاً مثل ضوء النهار. أصيب بذهول شديد بحيث تأرجح مبتعداً عن إيول، وكافح ليثبت على قدميه، ولكن بعد ذلك سمع ضحك شقيقيه، وسحبته يد قوية إلى الأسفل نحو العشب من جديد، وحضن أيول ليشعر بدفء كنزته المعطرة بالمسك، وشاهد النجوم تنطفئ، والخطوط الحمراء تتلاشى إلى اللون الأسود.

بعد لحظة بدأت الشحنة الكهربائية الثانية.

نظر سبنسر بعيداً، ورأى أن نظرة آمر السجن المحدقة كانت مثبتة على الساعة الموضوعة في الأعلى على حائط الطوب الإسمنتي في الجزء الخلفي من الغرفة. لقد كان يراقب العقرب الثاني مع انتباه حذر لرجل لا يريد أن يرى ماذا يحدث غير ذلك من حوله. سمع سبنسر أحد الشهود يئن، ولكنه لم يلتفت لينظر إلى الرجل. كان يعلم أنه لم يكن تشالز ستانتون. لقد بدأ للتو بالتفكير ملياً بعدم واقعية المشهد الذي أمامه، مشهد مألوف جداً من أفلام بحيث كان يبدو

مجرد وهم يتم تقديمه، ولكنه قبل أن يفكر ملياً أكثر بمعنى لامبالاته، بدأ الأشخاص الذين في غرفة الموت بالتحرك من جديد، وأدرك أن الأمر قد انتهى.

وقف الناس في غرفة المشاهدة، متجنبين أعين بعضهم البعض.

فحص الطبيب الجثة، وأومأ برأسه للحرس معلناً أن كل شيء قد انتهى فعلاً. لقد كان هناك خيط رفيع من الدخان مكان التقاء القلنسوة الجلدية باللحم، ولكن لم يكن هناك ألسنة لهب على قناع الوجه، ولا رائحة لحم محترق كان يمكن أن يشمها، ولم تكن هناك خلل في الأجهزة. وفكر سبنسر في نفسه، لقد مر أول تنفيذ لحكم إعدام في تينيسي منذ ثلاثة عقود بدون مفاجآت. ما لم نأخذ بالاعتبار حقيقة أن السجين كان بريئاً.

"أيها السادة يمكنكم الذهاب عندما تكونون مستعدين." كان الحارس يفتح الباب الخلفي لغرفة المشاهدة، متيحاً للشهود المرور خلال قاعة الزوار، وبعد ذلك يعودون عبر بوابة صد الهجمات إلى مبنى الإدارة. إلى الحرية. ومشوا على شكل رتل بصمت كما أتوا، ومازالوا حريصين على عدم حدوث اتصال بالأعين مع بعضهم البعض. وحتى الصحفيين الشابين كانا صامتين. كان سبنسر يمشي وراء الكولونيل ستانتون تماماً الذي كان لا يزال ممسكاً بصورة ابنته، ولكن لم يكن قادراً على التفكير بشيء يقوله للرجل سوى: "هل كان الأمر يستحق ذلك؟" لم يكن من الممكن وجود إجابة، وترك السؤال غير معبَّر عنه.

خرج الشهود الآخرون على شكل رتل من المبنى إلى ساحة المرآب المليئة بالأضواء والكاميرات. وتم إبلاغ سبنسر بأن ينتظر.

بعد بضع دقائق، خرج مساعد آمر السجن وصافحه، وقال: "إنني سعيد أن الأمر انتهى."

"نعم."

"لقد وافقت أن تعيد رفات السيد هاركرايدر إلى الجبال؟"

أومأ سبنسر برأسه. "لقد طلب مني أن أفعل ذلك. قال إنه ليس عنده شخص آخر."

أشاح مساعد آمر السجن بنظره بعيداً. "لقد تم الاتصال بالعائلة. لقد أعربوا عن رغبة في عدم إشراكهم بالأمر." تنهد. "إنها حياة حزينة، سيد آروود. ضياع." بعد لحظة صمت، تابع: "لقد تم أخذ الجثة إلى التشريح الآن. شكليات غريبة، هكذا كنت أعتقد دائماً." وهز كتفيه لامبالياً.

لم يجب سبنسر.

"على أي حال، عندئذ قمنا باتخاذ الترتيبات من أجل حرق الجثة لاستلام الجثة وحرقها على الفور. هل يمكنك العودة إلى هنا غداً صباحاً ... في حوالي العاشرة؟"

بدا العمدة قلقاً. "هل أنت متأكد من أنه يمكنني القيام بذلك؟ ربما عائلته"

هز مساعد آمر السجن رأسه.

"أو أحد محاميه."

"حسناً، لقد سألناهما. لم يمضيا في القضية فترة طويلة جداً، كما تعلم. أحدهما باشر العمل في واشنطن، والآخر ينبغي أن يكون في المحكمة غداً. لقد قالا إنه طالما أن ذلك ليس خارج طريقك ..."

أومأ سبنسر برأسه. "غداً. الساعة العاشرة."

خرج في ظلام المدينة الخالي من النجوم، ماراً بالصحفيين الذين كانوا ينتظرون، بدون النظر إليهم، وجلس في ساحة المرآب لدقائق طويلة، كان رأسه يستريح على المقود. كان الليل قد انتصف. لقد قام بالحجز في فندق في ناشفيل بحيث يمكنه أخذ قسط من الراحة قبل البدء برحلة العودة الطويلة إلى شرقي

تينيسي، ولكنه الآن كان يتمنى لو لن يكن مضطراً لقضاء ساعة أخرى في حرارة صيف ناشفيل الشديدة. لو قاد طوال الليل، فقد كان بإمكانه أن يكون قد عاد إلى الجبال مع شروق الشمس. ولكنه وعد أن يعود غداً، وسيفعل. سيأخذ فيت هاركرايدر إلى موطنه. كان يمكن أن يتمنى صحبة أخرى في رحلتة عودته الطويلة إلى الجبال.

كان سديم الصيف يترامى عبر الجبال البعيدة مثل غطاء من الدخان الأبيض، ولكن التلال الأقرب كانت خصلاً من الخضرة المتشابكة ـ كانت أشجار البلوط ونبات القيقب صامدة. واستسلم شجر الخروب للون البني الصدئ للخريف، اللون الخفيف الأول للموت على الرياح. وسرعان ما ستبرد الليالي، وسيكون الصيف قد ولى.

في تشرين الأول/أكتوبر البارد على التلة، المواجهة للشرق، كان بإمكان سبنسر أن يرى جبل سيلو، وأسفل منها سلاسل تلال ووديان نورث كارولينا. ولكن ليس اليوم. لقد حجب هواء الصيف الرطب القمم البعيدة الآن، لذا فقد كانت الاستدارة باتجاهها هو فعل إيمان أكثر منه أمر يسر النظر.

قتامة من خلال زجاج...

لقد تساءل ما إذا كان يجب عليه أن يقول كلمات قبل أن يبدأ مهمته.

لقد ذكّره الألم في أحشائه أنه ما كان ينبغي أن يتسلق التلال لوحده بعد. وما كان ينبغي أن يأتي لوحده، ولكنه أراد أن يتحرر من وعده، بحيث لا يلح عليه في فترة نقاهته. نظر إلى الأسفل على الصندوق الخشبي الذي لم يكن ثقيلاً بقدر ما كان ينبغي أن يكون لو احتوى على جثمان الرجل، ولكن فيت هاركرايدر حُرق مرتين، فكر في نفسه، مرة حياً تنفيذاً للقانون، ومرة بنيران

حرق جثة مجرد من المشاعر. والقليل الذي تبقى لم يثر فيه لا غضباً ولا شفقة، مجرد ندم مبهم على أنه تم هدر الحياة على غاية تافهة جداً، وأنه لم يكن هناك أحد يهتم بالبكاء على رحيله. تساءل سبنسر ما إذا كان هناك شيء آخر بالإضافة إلى الواجب سيجلب الناس إلى جانب قبره يوماً ما. أبعد الفكرة عن ذهنه.

كان سيقوم بما طُلِب منه، وليس أكثر من ذلك. لا ترنيمة، ولا صلاة، ولا حتى كلمة توديع للميت. لقد كان يرجو، على أي حال، أن تكون هذه نهاية، وأن يتمكن جميع ضحايا ليلة العنف تلك التي وقعت منذ زمن بعيد ــ تشارلز ستانتون، ومايك وإيميلي، وفيت هاركرايدر نفسه ــ أن يرقدوا بسلام. لم تكن العدالة، وربما لم تكن حتى الرحمة، ولكن على الأقل فقد انتهى الأمر.

وضع الصندوق على الأرض وفتحه. ثم حمله برفق على طرف التلة، وأفرغ محتوياته في الرياح.

ملاحظات الكاتبة

قصة فرانكي سيلفر هي قصة حقيقية، ووصفها الوارد في هذه الرواية هو وصف صحيح بقدر ما كان بوسعي أن أقدمه بعد فترة زمنية تصل إلى 164 سنة من الأحداث بحد ذاتها. بيرجيس غيذر كاتب المحكمة الشاب، وجميع الأشخاص الآخرين المذكورين في الرواية كانوا أشخاصاً حقيقيين. وتم استخدام أسمائهم الفعلية، وتسجيل ظروف حياتهم، وأقاربهم بأمانة.

إن بحثي عن فرانكي سيلفر بدأ حقيقة عندما كنت طفلة. في عام 1790 استوطن أجدادي في ما يُعرَف اليوم بمقاطعة ميتشل، موطن عائلة سيلفر وعائلة ستيوارت. تزوجت ابنة عم جدتي الكبرى، سارة هونيكت، سوينفيلد هاول الذي كان شقيق زوجة جاكسون ستيوارت، الأخ الأكبر لفرانكي سيلفر. أقول إن فرانكي وأنا "متصلتان"؛ واعتبارنا قريبين من شأنه أن يكون مبالغة بالأمر.

أصبحت مهتمة بالقضية كموضوع لرواية في 1992، عندما ذهبت إلى مقاطعة ميتشل لإجراء بحث عن رواية *تسير قاطعة هذه التلال*. وقد قام جاك بايل وتيلور ريس، وهما زميلان كاتبان يعيشان بالقرب من بيكرزفيل، باصطحابي في جولة في جميع أنحاء المقاطعة. ذهبنا إلى كونا ورأينا القبور الثلاثة لتشارلي سيلفر، وقمت بتصويرها. لقد أشرت إلى قضية فرانكي سيلفر في تلك الرواية (في الصفحة 438 من نسخة الغلاف الورقي [دوتون، 1995] من رواية *تسير قاطعة هذه التلال*، تقول نورا بونستيل لجيريمي: "في المرة القادمة التي تأتي بها

إلى الممر الجبلي، تريد أن تذهب إلى كونا ...") . وقد تم فهم هذه الإشارة إلى كونا في رواية *تسير قاطعة هذه التلال* من جانب عدد من قراء نورث كارولينا الذين كانوا على معرفة بالقصة. وقد كتبت لي كارولين ساكوسكي، رئيسة مطبعة بلير ومواطنة من مورغانتون، مقتبسة السطر عن كونا، وقالت: "إذن ستقومين بتأليف فرانكي سيلفر، أليس كذلك؟" إنني مدينة بالكثير من الشكر لكارولين التي كانت صاحبة عون كبير في البحث في القضية. لقد رافقتني إلى مورغانتون، وقمنا معاً بزيارة التلة حيث تم تنفيذ عملية الإعدام؛ وأجرينا مقابلات مع واحد من سلالة العمدة بون الذي أعدم فراكي؛ ووجدنا قبر فرانكي بجانب موقع حانة بكهورن (اختفت منذ زمن بعيد). وأشعر بعميق الامتنان للمحامي بيرد من مورغانتون لجعل الملفات عن القضية متاحة لي، ولتبصره في الجانب الخاص بمورغانتون من القصة.

لقد قمت بعدة زيارات إلى مقاطعة ميتشل، وتحدثت إلى وين سيلفر، وصي عائلة سيلفر، وقمت بزيارة موقع الكوخ، وناقشت القضية في اجتماع لعائلة سيلفر، ومع مجموعة متنوعة من الأقارب/أبناء العم في المنطقة. وكان ابن خالي البروفسور لويد بيلي من جامعة ديوك يجادلني جيئة وذهاباً بشأن الجوانب القانونية للقضية بواسطة رسائل لسنوات. (ولم يغيّر أي منا معتقداته بمنطق الآخر.)

قادني بحثي في وثائق القضية إلى سجلات إحصاء قديمة، وإلى نسخ ميكروفيلم لصحف قديمة، وإلى مجموعة من الأوراق الخاصة لرجال دولة في ولاية تينيسي، وإلى أوصاف للقضية مكتوبة من قبل أشخاص مثل مانلي ويد ويلمان، وميوريل إيرلي شيبارد، وبيري دين يونغ. وقد قام السيد يونغ بإنجاز معظم البحث في وثائق القضية، وأرسل إلي نسخة من الجهود التي قام بها مؤخراً لتأمين عفو بعد وفاة فرانكي سيلفر. وقد أنهى المخرج السينمائي توم ديفنبورت،

والبروفيسور دانييل باترسون من جامعة نورث كارولينا، مؤخراً فلماً وثائقياً عن أسطورة فرانكي سيلفر، وتكرما بإرسال نسخة منه إلي.

وقد كان دين ويليام، أمين مكتبة مجموعة دراسات عن الآبالاتشي في جامعة أبلاتشيا الرسمية في بون، صاحب مساعدة كبيرة في العثور على سجلات إحصائية، ومعلومات خاصة بالسيرة الذاتية عن محامين وحكام معنيين بالقضية. وكان روب نيوفيلد، من مكتبة باك في آشفيل، مصدري لكثير من المعلومات عن نيكولاس وودفين. واستعارت تونيا موكسلي، من مكتبة جامعة فيرجينيا تيك (نيومان)، وثائق على ميكروفيلم من أرشيف ولاية نورث كارولينا في رالي، ومن مكتبة القانون في جامعة ألاباما، ومن مستودعات الوثائق من ست ولايات أخرى. وقام الدكتور فرانك ستيلي، وهو بروفيسور في القانون في جامعة كنتاكي الشمالية، بالبحث بجد في سجلات المحكمة العليا لكنتاكي في محاولة للتحقق من إعدام بلاكستون ستيوارت. لم نتمكن من إثبات إعدامه، ولكن نظراً لطبيعة سجلات محكمة كنتاكي في القرن التاسع عشر غير المكتملة، فإننا لسنا على استعداد لقول إن القصة كاذبة. ويستمر البحث.

لفهم تعقيدات قانون نورث كارولينا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر (استنادا إلى القانون الإنجليزي العام)، فقد قمت باستشارة الكثير من المحامين، جميعهم كانوا صبورين بشكل استثنائي، ومساعدين في محاولة فهم نظام قانون لم يعد مستخدماً في هذا البلد. وقام جيه براندون، وهو زميل كاتب ومدع عام سابق في سان أنطونيو، بدراسة القضية كما لو كان يقدِّم دعوى في القضية، ومر بي خلال كل شيء من اختيار هيئة المحلفين الكبرى، وحتى عملية الاستئناف. كما رافقني حتى إلى سيغوين، في تكساس، حيث قمنا باستطلاع وثائق الضريبة، وسجلات الإحصاء، والصحف القديمة، محاولين اكتشاف لماذا تخلى توماس ويلسون عن عشرين سنة من ممارسة القانون ليرحل إلى مدينة صغيرة على بعد

آلاف الأميال عن موطنه. (ووصلنا إلى نتيجة أنه أياً كان السبب الذي قام لأجله ويلسون بذلك، فقد كانت النتيجة كارثة بالنسبة له.)

ومكنني روبرت إف. جونسون، وهو مدع عام في بيرلينغتون في نورث كارولينا، من رؤية محامي مورغانتون من عام 1832 في قضية سيلفر كأشخاص حقيقيين، وهم يعملون معاً وراء الكواليس لحل معضلة علاقات عامة بدون إضرار بسمعتهم. وقام السيد جونسون بحل مسألة رئيسة بين الباحثين في قضية فرانكي سيلفر، مما بعث الارتياح في نفسي: من قام بتمثيلها في المحاكمة؟ وقال السيناتور سام إيرفين من مورغانتون، الذي كان والده صديقاً لبيرجيس غيذر، إن نيكولاس وودفين دافع عن فرانكي سيلفر، ولكن بواسطة رسائل إلى الحاكم يطلب فيها تخفيفاً للحكم، ويقول توماس ويلسون بوضوح: "لقد دافعت عن فرانكي سيلفر." ولم يذكر سجل محاكمتها اسم محاميها. وتفسير روب جونسون، المستند إلى قانون نورث كارولينا الحالي في قضايا الحكم بالإعدام، هو التفسير الذي استخدمته في الرواية.

المحامية البريطانية سارة كوكبيرن (المعروفة كذلك بالكاتبة سارة كودويل)، ومحامي فيرجينيا إتش. غريغوري كامبل، وجيمس جي. ماك آدمز III من مكتب وزير العدل الأمريكي، جميعهم قاموا بدراسة نواحٍ متنوعة من الجانب القانوني للقضية، وأنا أشكرهم على كل ما قدموه من مساعدة.

تعيش بيكي كاونسيل من بون في كوخ خشبي من نفس عصر كوخ فرانكي سيلفر، لقد تم بناؤه على بعد عشرة أميال فقط من كونا. وسمحت لي بتصويره، وإطفاء الكهرباء، والمشي على الأرض، والنظر داخل الموقد. وهذا كان مساعداً للغاية في جعلي أتخيل مسرح الجريمة. وتعلمت أنه حتى في أكثر الأيام إشراقاً، يكون داخل الكوخ الخشبي معتماً للغاية: قد يكون من الصعب اكتشاف بقع الدم.

بالنسبة للاستنتاجات النفسية المختلفة في القضية، فإنني مدينة لتشارلوت روس، والرقيب العسكري جيه. إيه. نيهاوس، ولورا ويلسون فورد، وبيكي هدلستون، لاستماعهم إلي وتشاركهم معي بما لديهم من معرفة وحكمة؛ وللباحث الأبالاتشي لويال جونز لتزويدي بنسخة من تسجيل باسكوم لامار لنزفورد لـ "قصيدة فرانكي سيلفر."

إن العنصر الحديث في هذه الرواية مركز على ريفربند، السجن ذي الحماية الأمنية المشددة القصوى في ناشفيل. إنني ممتنة لزميلي الكاتب ستيف ووماك لترتيب جولة لي في السجن، وللذهاب معي. وآمر السجن ريكي جيه. بيل، ومساعد آمر السجن توماس إيه. جوبلن، وبيل سميث، الذين رافقونا في جولتنا في ريفربند، كانوا جميعهم كرماء جداً بوقتهم ومعلوماتهم. وساعدني ويليام غروسكلوز، الذي كان سجيناً محكوماً بالإعدام في ريفربند، في وصف فيت هاركرايدر، وتكرَّم بتزويدي بمعلومات عن روتين السجن والتفاصيل الأخرى المتعلقة بريفربند والمناطق المحيطة به. وكان محامي تينيسي، مايكل ماكمان، دليلي إلى قانون تينيسي المعاصر والمتعلق بنظام المحكمة، وعقوبة الإعدام، وزودني بمادة رائعة تتعلق بقانون تينيسي. وأطلعني الكاتب ديفيد هنتر، وهو مساعد عمدة سابق لمقاطعة نوكس، على إجراءات الشرطة، مستمعاً بصبر، ومقدماً مقترحات طوال عدة أشهر من التخطيط بينما كنت ألتمس طريقي خلال قضية فيت هاركرايدر.

عندما بدأت البحث في حياة وموت فرانكي سيلفر، كنت أعتقد بأنني كنت أحقق في أحجية رائعة تتعلق بجريمة قتل وقعت منذ زمن بعيد على الحدود، حادثة مأساوية ولكن مجرد رغبة ثانوية في الاطلاع على تاريخ نورث كارولينا الرائد. وعندما تعمقت أكثر في القصة، بدأت أعتقد بأن القضية كانت حقاً عن أشخاص فقراء كمتهمين، وأشخاص أغنياء كموظفين في المحكمة، وعن قيم سلتية مقابل قيم

إنجليزية في تطوير أمريكا، وعن سكان الجبال مقابل "سكان المناطق المنبسطة" في أية ثقافة. لهذا السبب كنت حريصة على تضمين جميع الأسماء في قصة مورغانتون ـ لأبين روابط الدم والمصالح المشتركة التي تربط جميع أهل البلدة وأبناء المزارع من الطبقة العليا ـ عالم ليس لفرانكي سيلفر ومجتمعها الحدودي أي صلات به على الإطلاق. وقد خلصت إلى أنه كان لدى فرانكي سيلفر الكثير لتقوله لنا عن العدالة على أساس المساواة في ظل القانون، وأنه لم يتغير الكثير منذ رحلت إلى حتفها بعد ظهر يوم مشرق من تموز/يوليو قبل 164 سنة مضت.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مسـرد المراجـع

لدي عدة مئات من صفحات مادة المصادر عن القضية، وعن الشخصيات المعنية، وعن قانون القرن التاسع عشر.

فيما يلي قائمة بالكتب الأكثر فائدة، وبعض الكتب المتاح للقارئ الوصول إليها أكثر.

Abbott, Geoffrey. Lords of the Scaffold: A History of Execution. *London: Headline, 1992.*

Avery, Clifton K. Official Court Record of the Trial, Conviction and Execution of Francis Silvers, First Woman Hanged in North Carolina. *Booklet reprinted from articles appearing in the Morganton* News Herald, *1944.*

Cotton, J. Randall, Suzanne Pickens Wylie, and Millie M. Barbee. Historic Burke: An Architectural Sites Inventory of Burke County. *Morganton, N.C.: Historic Burke Foundation, 1987.*

Dictionary of North Carolina Biography.

Drimmer, Frederick. Until You Are Dead: The Book of Executions in America. *New York: Pinnacle, 1992.*

Ervin, Senator Sam J., Jr. Burke County Courthouses and Related Matters. *Morganton, N.C.: Historic Burke Foundation, 1985.*

The Heritage of Burke County. *Edited by H. Russell Triebert, Jean Conyers Ervin, and Marjorie Miller Triebert. Morganton, N.C.: Burke County Historical Society, 1981.*

Holland, Eliza Wood fin. "A Grand-Daughter's Tribute to Her Grandfather." Article published in the Asheville Citizen, *May 3, 1921.*

Sakowski, Carolyn. "The Life and Death of Frankie Silver." Article, privately printed. May 1973.

Sheppard, Muriel Early. Cabins in the Laurel. *Chapel Hill N.C.: University of North Carolina Press, 1935.*

Silver, Wayne. Frankie's Song: A Collection from the Komi Baptist Church Library. *Privately printed, n.d.*

Stockton, Dennis. "Diary of a Death Row Inmate." Series of articles published in the Roanoke Times & World News, *July 26-September 28, 1995.*

Toe River Valley Heritage. *Edited by Lloyd Richard Bailey, Sr. Marceline, Mo.: Walsworth Publishing, 1994.*

Wellman, Manly Wade. Dead and Gone. *Chapel Hill, N.C.: University of North Carolina Press, 1955.*

"بعض القصص تنتظر أكثر من مئة عام ليأتي الراوي المناسب..."

قصيدة فرانكي سيلفر

في عام 1833 أصبحت فرانكي سيلفر أول امرأة تُشنق في كارولينا الشمالية لارتكابها جريمة قتل. ولكن ما حدث منذ زمن طويل جداً يصبح هاجساً للعمدة سبنسر آروود، حيث تصبح أوجه الشبه بين جريمتي قتل يفصل بينهما أكثر من مئة عام، واضحة – ومروعة – بقدر ما تجمع الحقيقة الوحيدة الشخصيتين المُدانتين ...

"تنتقل مككروم بسلاسة ذهاباً وجيئة في الزمن، تمزج السرد الشرطي الإجرائي مع السرد التاريخي ذي الطراز القديم الجدير بديكنز أو جين أوستن."

- آشفيل سيتيزن- نيوز

"كاتبة ذات موهبة نادرة ... وهي رواية ذات توقيت رائع يمكن الاستمتاع بها كلغز، وكقصة بوليسية، ورواية معاصرة بارزة للجريمة والعقاب والحقيقة."

- دالاس مورنينغ نيوز

"من قصاصات الحياة الريفية، وقطع من الذكريات، وأجزاء من التراجيديا، قامت (مككروم) بربط ميراث أمريكي مفعم بالحيوية مع بعضه البعض".

- نيوزديه

ISBN 978-6589-07-977-3

9 786589 079774

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشوراتنا في العام ٢٠٠٩ م
• الغلاف : علي الحسيني

الأهلية للنشر والتوزيع